

جامعة اليرموك

كلية الشريعة والدراسات الإسلامية

قسم أصول الدين

رسالة دكتوراة في الحديث النبوي الشريف

بعنوان

"العقل المسلم المعاصر، أزمته وبناؤه :دراسة حديثية تأصيلية "

An Original Study of The Crisis and Formation of the Contemporary Muslim Intellect in the Sayings of the Prophets

إشراف

الأستاذ الدكتور محمد علي العمري

إعداد الطالب

أسامة سعود كريشان

٢٠٠٥٢٦٠٠٠٢

قدمت هذه الأطروحة استكمالاً لمتطلبات درجة دكتوراة فلسفة في تخصص الحديث الشريف وعلومه في جامعة اليرموك

٢٠١٢

"العقل المسلم المعاصر، أزمته وبناؤه :دراسة حديثية تأصيلية "

إعداد الطالب

أسامة سعود كريشان

٢٠٠٥٢٦٠٠٠٢

قدمت هذه الأطروحة استكمالاً لمتطلبات درجة دكتوراه فلسفة في تخصص الحديث الشريف وعلومه في جامعة اليرموك

الأستاذ الدكتور محمد علي العمري.............................. مشرفاً رئيساً

أستاذ في الحديث الشريف وعلومه / جامعة اليرموك

الأستاذ الدكتور حسين بني خالد .... .عضواً

أستاذ في العقيدة الإسلامية / جامعة اليرموك

الأستاذ الدكتور عبد الله مرحول السوالمة..............................عضواً

أستاذ في الحديث الشريف وعلومه / جامعة اليرموك

الأستاذ الدكتور أمين محمد القضاة ....عضواً

أستاذ في الحديث الشريف وعلومه / جامعة اليرموك

الدكتور محمد عبد الرحمن الطوالبة..................................عضواً

أستاذ مشارك في الحديث الشريف وعلومه / جامعة اليرموك

نوقشت بتاريخ ٢٠١٢/١١/١١

الإهداء

إلى روح والدي - عليهما رَحمةُ الله -

وإلى كل من يُؤمن بالله واليوم الآخر،

وإلى كل مسلم يعيش همَّ أمَّته ،

وإلى كل من يبتغي التغيير نحو الأفضل ،

وإلى كل من يسعى نحو الإصلاح ،

وإلى إخوتي وأحبَّتي، وإلى من له حق عليَّ

أهدي عملي هذا .

راجياً المولى - جلَّ شأنه - أن ينفع به، لعلَّه يكون صرخة توقظ من الغفلة والنوم، أو شمعة تُنير الدَّربَ لمن يُريد السير على طريق الإسلام .

شكر وتقدير

" من لا يشكر الناس لا يشكر الله "[1]

إنّه لَمِن دواعي سروري أنْ أتقدم بالشكر الجزيل لفضيلة الأستاذ الدكتور محمد العمري، الذي شرَّفني بقبول الإشراف على هذه الرسالة، ثمّ ما كان له من دَوْرٍ كبير في التوجيه والإرشاد طيلة فترتي الدراسة وإعداد الرسالة، وعلى ما أبداه من ملاحظات سديدة، وقيِّمة استفدت منها كثيراً، وذلك بالرغم من كثرة مشاغله وواجباته، إلا أنّه لم يبخل عليَّ بوقته وتوجيهه، في تذليل كثير من المصاعب التي واجهتها أثناء دراستي في هذه الكلية، وقد سبق ذلك كلَّه الأدب الجم، والعلم الغزير، والخُلُق الرفيع في تعامله وسلوكه مع تلامذته.

كما وأتقدم بالشكر الجزيل للأساتذة الكرام الأفاضل، الذين تفضّلوا بقبول مناقشة هذه الرسالة وتقويمها، وهم:

الأستاذ الدكتور حسين بني خالد، والأستاذ الدكتور عبد الله السوالمة، والأستاذ الدكتور أمين القضاة، والدكتور محمد الطوالبة، سائلاً المولى ـ عزَّ وجلَّ ـ أن ينفعني بعلمهم وآرائهم وملحوظاتهم حول هذه الرسالة، بما يُعين على إخراجها في الصورة الفضلى.

ولا أنسى أن أتوجَّه بالشكر الموصول إلى كل من كان له فضل عليَّ من الأساتذة الكرام في هذه الكليَّة، ممَّن تتلمذتُ على أيديهم، أو نَهِلتُ من علمهم .

وإلى الإخوة والأحبة، ولِمن له حق عليَّ، أتوجَّه بخالص الدعاء، بأنْ يحفظهم الله، ويُسدِّد على طرق الحق خطاهم .

---

[1] ابن حنبل، أحمد بن محمد(٢٤١هـ)، المسند، حديث رقم(١٠٣٢٦)، وقال المحقق: إسناده صحيح ،٤٦١/٩. تحقيق أحمد شاكر وأحمد الزين، دار الحديث، القاهرة، ط١، ١٤١٦هـ ١٩٩٥م.

الملخص

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله ، وبعد

فإن هذه الدراسة التي تحمل عنوان " **العقل المسلم المعاصر، أزمته وبناؤه: دراسة حديثية تأصيلية**"، تهدف إلى تأصيل هذا الموضوع من الناحية الحديثية، وذلك بالاعتماد على الأحاديث النبوية الواردة في هذا المجال. لقد كتب كثيرٌ من المفكرين كتابات ومُصنَّفاتٍ حول هذا الموضوع، الذي يتعلَّق بِواقع الأمة الإسلامية، وطريقة تعاملها مع مستجدات الحياة، وتعاملها مع الآخرين، وتعامل المسلمين فيما بينهم.

إنَّ هذه الدراسة تُعَدُّ إضافةً جديدة في هذا الجانب، وذلك لأنَّ كلَّ مفرداتها مُستقاة من الأحاديث النبوية، حيث تَمَّ بيان ما تضمَّنته كثير من الأحاديث النبوية، في مجال أزمة العقل المسلم المعاصر وبنائه، حيث حدَّدت كثير من الأحاديث النبوية جوانب هذه الأزمة: أسبابها، ومظاهرها، وآثارها، وكذلك فقد بيَّنت الأحاديث النبوية من جانب آخر الطريق للخروج من هذه الأزمة، من خلال بناء العقل المسلم، في نواحٍ ثلاثة مجتمعة، لا يتحقَّق الحلُ إلاَّ بها معاً: الأسس، والأهداف، والمنهج.

وقد جاءت هذه الدراسة في فصلين دراسيين، حيث اشتمل الفصل الأول على مباحث ثلاثة، تتحدث عن أسباب الأزمة ومظاهرها وآثارها. وأمَّا الفصل الثاني فقد اشتمل أيضاً على مباحث ثلاثة، تتحدَّث بناء العقل المسلم: أسسه وأهدافه ومنهجه. وقد بيَّنتُ في الخاتمة أهم النتائج التي توصَّلْتُ إليها .

المحتويات

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، حمداً طيباً مُبارَكاً فيه، كما ينبغي لِجلالِ وجهِهِ وعظيمِ سلطانِه، والصلاة والسلام على خاتم النبيين، وإمام المرسلين، وعلى آله الطَّيِّبين المُطَهَّرِين، وعلى صحابته الأخيار، وتابعيهم بإحسانٍ إلى يوم الدين .

أما بعد ؛

فإنَّ الله تعالى أرسلَ الرسلَ - عليهم الصلاة والسلام - وأنزلَ عليهم الكتب السماوية، لِبناء الإنسانِ وتكوينِه، وإعادةِ تأسيسِه بالصورة التي تتحقَّقُ بها كرامتُه، وحُرِّيتُه، وإنسانيَّتُه؛ بالإقرار بالعبوديَّة لله رب العالمين.

إنَّ هذه العبوديةَ هي عنوانُ سعادةِ الإنسان، وصلاحِ حالِه في الدنيا وفي الآخرة، وكلَّما انحرفتِ البشريةُ عن مَنْهج الحق، أرْسَلَ اللهُ تعالى رُسُلَه، لإعادتها إلى الصراط المستقيم.

أمَا وقدْ خُتِمتِ النُّبُوَّاتُ والرسالاتُ بِمَبْعثِ خاتم الأنبياء والمرسلين، ولم يَبْقَ ما يُمكنُ أنْ يحفظَ الإنسانَ - من الانحراف عن طريق الحقِّ إلى طريق الضلال والكفر، والعودة إلى الجاهلية من جديد - إلاَّ القرآنُ الكريم والسُّنَّةُ النَّبويَّةُ؛ لذلك فَقَدْ كانت وصيةُ الرَّسولِ ﷺ إلى المسلمين كافة التمسُّك بكتاب الله تعالى وسنَّةُ النبيِّ ﷺ حين قال:" تركتُ فيكم ما إنْ تمسَّكتم به لنْ تضِلُّوا بعدي ، كتاب الله وسُنَّتي " [1]

وقد جاء في القرآن نفسِه، الحثُ على التمسُّك بالكتاب والسُّنَّة، فلمَّا خَالَفَ المسلمون توجيهاتِ القرآن، وَوَصيَّةَ رسولِهم ﷺ في هذا الشأن، تفرَّقت بهم السُّبُل، ووقع الاختلاف والخلاف بينهم، فصاروا فِرَقاً ومذاهبَ شتَّى، فكانت هذه بداية الأزمة التي تعاني منها الأمة الإسلامية .

فلمَّا وقع الاختلاف بينهم في فَهْمِ كتابِ الله وسُنَّة رسولِه، نشأ عن ذلك خللٌ كبيرٌ في التفكير، عند كثيرٍ من المسلمين - لا يتحمَّل الإسلام وِزره - بحيث استحكمت الأزمة. وأساء هؤلاءِ -

[1] سيأتي تخريجه لاحقاً ص ٢٣.

بِقَصْدٍ أو بِغَيرِ قَصْد ـ التعاملَ مع القرآن، ولم تكن السنة النبوية بعيدةً عن ذلك، فَفَقَدوا بتعامُلِهم هذا مع القرآنِ الكريمِ والسُّنَّةِ النَّبويَّةِ، مَصدَرَ قُوَّتِهِم وعِزَّتِهِم، حتى تَغَيَّرَ حالُهم، وتَردَّى واقِعُهم إلى أزمة لا يزال المسلمون يعانون منها في هذا العصر .

وقد تحدَّث عن هذه الأزمة، وكتب عنها، عَدَدٌ من المفكرين المسلمين في هذا العصر، مِمَّن أهمَّهم وأقلَقَهم حالُ هذه الأمة، حيث استعرضوا أسبابَ الأزمة التي تعاني منها هذه الأمة في العصر الحالي، مُلتمِسين الحلولَ لتلك الأزمة، والإجابةَ على كثير من التساؤلات والإشكالات التي أفرزتها هذه الأزمة، في كتاباتٍ يغلُبُ عليها طابعها الفكري .

وقد وجدتُ من خلال مطالعَتي لكثير مما كتبه هؤلاء المفكرون، ومن خلال دِراستي لِلسُّنَّة النَّبوية، أنَّ عدداً لا بأس به من الأحاديث النبوية، الواردة عن الرسول ﷺ ، له صِلَةٌ قويَّةٌ بكثيرٍ مما ذكره هؤلاء المفكرون في كتبهم في هذا الموضوع، وإنَّ بعضهم قد ذكر عدداً من الأحاديث النبوية، دون أنْ يُبيِّن وجه الدلالة أو يُبيِّن وجه الارتباط بين ما ذكره من الأحاديث، وبين الفكرة التي تحدَّث عنها .

مِمَّا لا ريب فيه، إنَّ جميعَ ما تكلَّم به الرسول ﷺ أمام أصحابه، توجيهاً وإرشاداً وتحذيراً، خلال مدة دعوته، كانتْ غايتَه إعادةُ تكوينٍ وتأسيسٍ لذلك الجيل الفريد الذي تربَّى على يديه، لِيَكونَ هو الجيلُ المُؤَهَّلُ لِحمْلِ رسالةِ الإسلام إلى العالمين، وفي كل العصور.

وقدْ تحقَّقت بِهذه التوجيهات والأحكام سعادةُ الإنسان وهدايتُه، وهو ما تحقَّق في العرب ـ بدايةً ـ على وجه الخصوص بمبعث الرسول الكريم ﷺ حيثُ تغيَّر حالُهم، واستقام أمرُهم، لمّا اتَّبعوا أمْرَ ربِّهم وسُنَّةَ نَبيِّهم، فَتَحقَّقَ فيهم، وفِيمَن دخل في هذا الدين من الأمم الأخرى ، شرطُ القيادة والريادة لباقي الأمم.

ولَمَّا دار الزمانُ دَوْرَتَه، ومَضَتِ الأيام، واختلفتِ الأحوال، تغيَّر حال المسلمين إلى ما يُشاهد ويُعاين في هذه الأيام، نتيجةً للإعراض عن الهَدْي الإلهي، حيث إنَّ حالةَ التَّردِّي والتَّقهقُر والسُّقوط، زادتْ مِنْ شِدَّة مُعاناةِ العقل المسلم في العصر الحالي، وهُوَ ما يبدو وكأنَّه في حالة التَّخبُّط، والتردي، والإحباط، التي يعيشها المسلمون في مختلف المجالات والميادين .

إنَّ من يُدَقِّق النظر، ويتعمَّقُ في التفكير، في نصوص الأحاديث النبوية، يَجِدْ أنَّها ما تركت شأناً من شؤون الحياة، مِمَّا يَتعلَّقُ بِالفردِ، أو الجماعةِ، أو الأمة، في الدنيا أو في الآخرة؛ إلاَّ وتحدَّثتْ

عنه، بحيث إنَّ الأمة لو التزمت بما جاء في كتاب الله وسنَّة رسوله، لمَا أصابها الذي أصابها، ولَمَا كان هذا حالها.

وقدْ رَأيتُ أنَّ مِن الواجبِ عليَّ أنْ أُسْهِمَ ولو بِجُزْءٍ يسيرٍ للكتابة في هذا الجانب، من خلال تأصيلِ ما يتعلَّقُ بهذا الموضوع من الناحيةِ الحديثية، بإيراد ما يمكن إيراده من الأحاديث النبوية، المتعلِّقة بهذا الجانب، وبيانِها وتوضيحِها، حيث كان عددُها بغير المكرر (١٤٥)حديثاً، وبالمكرر (١٧٥) حديثا .

لذلك جاء اختيار موضوع " أزمة العقل المسلم" ليكون مدخلاً لدراسة حديثية تأصيلية في هذا الباب، ومحاولةً هادفةً، من خِلال عَرْضِ وتوجيهِ ما ورد في هذا الشأن من أحاديثَ تناولت ما قد استجدَّ من أحوالِ هذه الأمَّة، وردِّ كلِّ ذلك إلى الأصول النبويَّة .

فالغاية من هذه الدِّراسةُ أنْ تكونَ مِنْ مَنظور السُّنَّةِ النَّبوية، وذلك بِبَيان أسباب أزمة العقل المسلم المعاصر، ومظاهِرها، وآثارها، وتوضيحها، وكيفية الخروج منها من خلالِ إعادة بناء العقل المسلم المعاصر، بِحيث يَتِمُّ بيانُ كلِّ من الأسس، والأهداف، والمنهج، وهي الجوانب التي يقوم عليها بِناء العقل المسلم؛ في دِرَاسةٍ حديثيةٍ تأصيلية، تحت عنوان :" **العقل المسلم المعاصر، أزمتُه وبناؤه : دراسةٌ حديثية تأصيلية** " .

وقد جاءت هذه الدراسة من ناحية أخرى لتؤكِّد أهمية السنة النبوية في حياة الأمة المسلمة، وذلك من خلال الاستشهاد بالأحاديث النبوية، في مجال تأصيل الدراسات المعاصرة، التي لها ارتباط وثيق بواقع الأمة المعاصر، لِتكونَ السُّنَّةُ النَّبويَّةُ دليلاً ومنهاجاً، ينبغي للمسلمين أنْ يتَّبعوه، لإنقاذهم من التِّيه والضياع الذي يعيشون فيه.

ومِنْ خلال هذه الدراسات التأصيلية تكُون الأحاديثُ النبويةُ المقياسَ والميزانَ المعتمدَ؛ لِبيان مدى دقة كثير من الأفكار المطروحة في هذا المجال وصحَّتِها، وذلك بالاستفادة من التوجيهات النبوية التي وردت في أحاديث كثيرة؛ لأجل إعادة بناء العقل المسلم المعاصر، ولِيُصبحَ الإنسانُ المسلم أهلاً للقيادة والريادة، في سعيِه نحو تحقيق الرسالة التي كلِّف بها الإنسان .

ويُمْكنُ من خلال الأحاديث النبوية، رسمُ طريقٍ بَيّنٍ لِلخروج من الأزمة التي يعاني منها العقل المسلم المعاصر، فهذه الأحاديث النبويةُ تَتَضمَّنُ بَيانَ ما قام به النبي ﷺ خلال مسيرة دعوته، حيث أخرج للدنيا جِيلاً من أصحابه، غيّروا وجه التاريخ ومسيرتَه، أقام بهم دولة الإسلام، وحضارتَه .

إن هذا الأمر يتطلّبُ - بدايةً - المعرفةَ والإدراكَ الكاملَ للأزمة التي يعانيها العقل المسلم في العصر الحاضر، وذلك مِنْ خلال النظر في مظاهر هذه الأزمة، ثُمَّ البحث عن أسبابها، حتى يمكن تلمُّس الحلول الملائمة لهذه الأزمة. وقدْ يُسعِفُ كثيرٌ من الأحاديث النبوية الباحثَ لتوضيح ذلك بشكل جلي واضح ، في إطار الدراسة الحديثية التأصلية .

إنَّ الخَلَلَ الكبيرَ الذي تُعانيه الأمّةُ الإسلاميةُ اليومَ، هُوَ نَتاجُ أمراضٍ - أصابت الحياة الفكرية والدينية، والاجتماعية، في المجتمع المسلم المعاصر- زادتْ مِن معاناة العقل المسلم المعاصر على وجه الخصوص، ممَّا أوجد أزمة مستعصيةً؛ كان من الصعوبة بِمَكانٍ تمييزُ أسبابِها عن آثارها عند كثير من المسلمين، مِمَّا جَعلَهم يَنْشغِلون بِمعالجة الآثار الناشئة، ويُهْمِلونَ البحثَ عن الأسباب، فكانتِ النَّتيجةُ المُضاعفةُ لذلك تَكَرُّرُ المشاكلِ، والأزمات، وتفاقُمُها، وَلَمْ يَستفِدِ المسلمون من التجارب، ولم يَتَّعظوا بها .

وَمَنْ يتفكّر مليّاً في هذا الواقع سَيَجِدُ أنَّ سببَ ذلك راجعٌ لِسَيطرةِ الأهواءِ وحُبِّ الدنيا، حيث أصبح الوَهْنُ عاماً، كما بيّن ذلك النبي ﷺ ، وقدْ ظهر جلياً وجود فجوة كبيرة بين كثير من المسلمين، وبين ما نزل به الوحيُ على الرسول ﷺ؛ الأمرُ الذي يَتطلّبُ إعادةَ بناءِ العقل الواعي للمسلم المعاصر، وذلك بعد إزالة المعوقات والسلبيات كلها، التي تمنع المسلم المعاصر من القيام بدوره في الحياة .

إن عملية تحرير العقل وإطلاقه من العراقيل والمعوقات؛ تتطلّبُ معرفة نماذج هذا العقل، فبعضهم يريد أن يكيّف الدينَ وأحكامَه بحسب الواقع الذي يَعيش فيه، بينما يميل فريقٌ آخر إلى التشدّد والتطّرف والمغالاة، أمّا الفريق الثالث فيتردّد بين الأمرين. كذلك لا بد من معرفة الأمراض والأزمات الناتجة عن هذا الواقع التي يعاني منها العقل المسلم المعاصر، ثم معرفة الأسباب التي أدّت إلى هذا الحال .

لعلَّ مِنْ أبرز القيودِ المفروضةِ على العقل حصْرُ دَوره في حِفْظ المُتُون؛ بعيداً عن عملية الفقه والإدراك للنصوص بالتزامن مع إغفال الواقع؛ مما أوجد أشخاصاً يمثّلون حاجزاً وسَداً - في أحيان كثيرة - يَحُولُ دون تنزيل النصوص على الواقع، ويمنع تحقيق الاستفادة منها في الحياة العملية، فكان هؤلاء بِمثابةِ قُوى شدٍّ عكسيٍّ؛ بالحنين إلى الماضي وتعلُّقهم به، وبمحاولة إحياء الصور والوقائع التي كانت موجودة عند أسلافنا، دون إدراك لطبيعة الاختلاف بين واقعهم وواقعنا .

إنَّ السببَ الرئيس في وجود مثل هذه العقول، هو الانفصالُ والافتراقُ بين أهل الحكم وأهل العلم بداية، حيث كانت مثلُ هذه العقول ثمرةً من الثمار السيئة لهذا الافتراق، ثم اشتدّتْ أزمةُ العقل المسلم في العصر الحالي، من خلال مَنْعِ العقل المسلم من وظيفته، بدعوى المحافظة على الأصالة، وبدعوى التخويف من الوقوع في شَرَك الفِكْر الغربي؛ فكانت نتيجةُ ذلك، الوقوعَ في الجُمُود الفِكريّ من ناحية، وفي المذموم من التقليد المذهبي من ناحية أخرى .

ومِن أسباب مُعاناةِ العقلِ المسلمِ المعاصرِ كذلك، وقوعُه أسيراً للتقليد والهوى، وهو ما أوجدَ أناساً وأشخاصاً، يَضيقون ذرْعاً بِمَن خالَفهم، حتى اتسع مجالُ التَّقليدِ إلى تقليدِ الغربي، وهو أشدُّ سُوْءاً وضرراً، لأنّه يُورِث انسلاخاً عن القيم والمبادئ والأخلاق التي جاء بها الإسلام، فَبقِيَ العقل مأسوراً بالتقليد والمحاكاة .

أمّا داء الغرور الذي أصِيبتْ به كثيرٌ من العقول، فقد كان سبباً آخر لِحالةِ التردي والانتكاس والضياع، وكان أحد القيود التي فرضها العقل على نفسه، فأصبح العقل أسيراً للإعجاب بالرأي؛ الناشيء عن الغرور، ثم الاحتقار لآراء الآخرين وعلومهم .

أهمية الدراسة :

تظهر أهمية هذه الدراسة من خلال ما يأتي :

١. تصحيح كثير من المفاهيم السائدة الناشئة عن الفهم الخاطئ لما ورد في الأحاديث النبوية، والمتعلقة بالتفكير والتطبيق في الحياة المعاصرة في مختلف نواحيها، الدينية، والفكرية، والإجتماعية .
٢. السعي نحو تطبيق الأحاديث النبوية وربطها بالواقع، بناء على الفهم الصحيح للواقع الذي تتنزّلُ عليه تلك الأحاديث النبوية، بحيث يتحقق من خلال ذلك، البناء الصحيح للعقل المسلم المعاصر .
٣. محاولة استعادة العقل المسلم دَوْرَه في التعامل المباشر مع الأحاديث النبوية بحيث لا يقتصر على حفظ المتون، بل يتجاوز ذلك إلى محاولة التفكّر والتأمّل والاستشراف لما يهدف إليه الحديث النبوي في مجاله، مع النظر فيما ورد عن السابقين أو المعاصرين من اجتهادات أيضا، نتيجة تعاملهم مع الأحاديث النبوية، مع إمكانية الاستفادة من كل ما يتلاءم مع الواقع المعاصر، ويفيد في عملية إعادة بناء العقل المسلم المعاصر .

٤. بيان المنهج الملائم لإعادة بناء المجتمع المسلم في ضوء السنة النبوية، مع الاستفادة من مراحل الدعوة الإسلامية في العهد النبوي، في منطلقاتها وأهدافها ، وربطها بالواقع المعاصر .

٥. أنها تُعدُّ خطوة لتأصيل كثير من الدراسات والعلوم المعاصرة، من خلال تأصيل الدراسات الواردة في أزمة العقل المسلم، ليكون منطلقها ومنهجها وهدفها متفقا مع الأهداف التي جاء الإسلام لتحقيقها في واقع الحياة .

مشكلة الدراسة وأسئلتها أو فرضياتها:

السؤالُ الرئيسُ الذي تطرَحُه الدراسةُ ويتفرّعُ عنه أسئلةٌ : ما النتائجُ التي يُمكنُ الوصول إليها من خلال دراسة موضوع "**العقل المسلم المعاصر، أزمته وبناؤه: دراسة حديثية تأصيلية** " ؟

١) ما أسبابُ هذه الأزمة التي يعانيها العقل المسلم ؟
٢) ما مظاهرُ الأزمة التي يعاني منها العقل المسلم في الوقت الحاضر ؟
٣) ما الآثارُ السلبيةُ الناشئة عن أزمة العقلِ المسلم في ميادينِ الحياة المختلفة ؟
٤) ما الأسُسُ التي ينبغي بناءُ العقل المسلم عليها؟
٥) ما الأهدافُ التي يجب على العقل المسلم تحقيقُها حتى يكون له دَورٌ فعّالٌ وبنّاء في هذه الحياة ؟
٦) ما المنهجُ الصحيح الذي يُمْكنُ من خلالِه إنقاذُ العقل المسلم من أزمته؟

مجالات الدراسة/ حدود الدراسة :

إنَّ هذه الدراسةَ لا تهدفُ إلى حصْرٍ أو إحصاءِ الأحاديثِ النبويَّةِ الواردةِ في مجال بناء العقل المسلم، لأنَّ ذلك مِمَّا لا يتَّسِعُ له المجال، بلْ هدفُها الاقتصارُ على فئة محددة، تتَحدَّثُ عن أزمة العقل المسلم وأسبابِها، وبناءِ العقل المسلم . لذلك سيَكُونُ مجالُ البحث فيها مقتصراً ومُحدَّداً بما يأتي :

١) الاقتصارُ على الأحاديث النبوية التي ورد فيها ما يبين الجانب العقدي والجانب الفكري (التصوري) والجانب المنهجي للفرد المسلم، وهي الجوانب التي من خلالها تتحقق رسالة الإسلام في الحياة.

٢) الاقتصارُ على ما تيسُر من الأحاديث النبوية التي تتضمَّنُ المبادئَ والمُسلَّماتِ والمنهجَ التي تُحدِّدُ دَوْرَ العقل المسلم، وهي التي يتميز بها العقل المسلم عن غيره، بحيث تُبْنى عليها الدراسة الحديثية التأصيلية .

٣) الاقتصارُ على الأحاديث النبوية التي تحدَّثتْ عن التَّغيُّراتِ في مجال الحياة العامة التي حدَثتْ في مسيرة الأمة الإسلامية، كما أخبر بها الرسول ﷺ، ومِثالُ ذلك: ما ذكره الرسول ﷺ في التحوّل في مجال الخلافة، ويتمثَّل هذا التحوُّل بالانحراف عن منهاج النبوة والخلافة الراشدة في مجال الحياة العامة، مِمَّا تَرَكَ أثراً خطيراً على واقع الأمة الإسلامية ومستقبلها. ففي هذه الأحاديث النبوية بيانٌ لبعض أسباب أزمة العقل المسلم .

٤) الاعتماد على ما كان مقبولاً من الأحاديث النبوية، وبخاصة في الفصل الثاني من الدراسة، أمَّا الأحاديث النبوية الضعيفة، التي لا يمكن أن تَرْقى لدرجة القبول، ولم يُوجَد غيرها، وكان لها ما يُؤكِّد معناها من القرآن أو من الوقائع التاريخية؛ فرُبَّما تم الاستئناس بها في الفصل الأول من الدراسة ، لأنَّ هذا الفصل أشبه بالتوثيق التاريخي .

وبهذا فإنَّه يَخرجُ من هذه الدراسة؛ الأحاديثُ النبوية التي تحدثت عن العقل عموماً؛ مما لا يتعلَّق بموضوع الدراسة، نحو الأحاديث التي بيَّنت خَلْقَ العقلِ وفضلِه، حيث إنَّها خارجة عن مجال الدراسة .

أهداف الدراسة :

١) بيانُ أسبابِ الأزمة التي يعانيها العقل المسلم المعاصر، لأنَّ ذلك هو الطريقُ الملائم للخروج من الأزمة، وبِغيْرِ علاج تلك الأسباب تبقى مشكلة العقل المسلم المعاصر كما هي، حيث بيّن الرسولُ ﷺ في بعض الأحاديث الواردة عنه، بعضَ هذه الأسبابِ من خلال ذكر بعض السنن الإلهية، وما يترتَّبُ على مخالفة هذه السنن، مِثالُ ذلك[٢]: حديث : " الخلافة على منهاج النبوة ..." ، وحديث : " من كتم علما "، وحديث : " أفضل الجهاد

---

[٢] الأحاديث التي أذكرها هنا في هذا الموضع سيأتي تخريجها لاحقاً ، كلٌ في موضعه .

كلمة حق عند سلطان جائر "، حيث تمَّ تخصيص المبحث الأول من الفصل الأول لبيان هذه الأسباب .

٢) بيانُ مظاهرِ الأزمة التي يُعاني منها العقلُ المسلمُ في الوقت الحاضر، بحيث يَتمُّ التشخيصُ الدقيقُ للأزمة التي يعانيها العقل المسلم المعاصر، وذلك كما بيّنته السنة النبوية، وهذا ما تمَّ بيانه في المبحث الثاني من الفصل الأول .

٣) بيانُ الآثارِ السلبيَّةِ الناشئةِ عن الأزمة التي يعانيها العقل المسلم، حيث إنَّ هناك ارتباطاً وثيقاً بين هذه الآثار، وبين الأسباب التي أدت إليها، وهذا الربط بين الأسباب من ناحية وبين النتائج والآثار من ناحية أخرى، له دَوْرٌ كبير في توجيه العقل المسلم، للقيام بالعمل المطلوب منه في هذه الحياة للخروج من المتاهة التي يعيش فيها، وقد جاء ذلك كلُّه في المبحث الثالث من الفصل الأول .

٤) بيانُ الأهدافِ التي يجب على العقل المسلم تحقيقُها في واقع الحياة، لإعادة إحياء المجتمع، بحيث تتوافقُ فيه الحياةُ مع المُقوّماتِ والأهداف التي جاءت الشريعة الإسلامية لتحقيقها، تكويناً للحياة اللائقة بالإنسان في مختلف مجالاتها. فَمِن خلالِ هذه الأهداف يستطيع العقل المسلم القيام بالدور المطلوب منه، انطلاقا من المسؤولية والواجب الملقى عليه . وقد جاء بيانُ هذه الأهداف في الأحاديث النبوية حيث بيَّنتْ وجوبَ السعي لأمر الدنيا والآخرة، والحرصَ على الخير والسعادة لبني الإنسان، ومثال ذلك حديث " لئن يهدي الله بك رجلا واحدا خير لك من حمر النعم " ، وذلك ما تمَّ بحثه في المبحث الثاني من الفصل الثاني .

٥) تحديدُ معالمِ الطريقِ التي يمكن من خلالِها إنقاذ العقل المسلم من أزمته، هذه الطريق التي ينبغي على العقل المسلم الالتزام بها للخروج من الواقع السيئ الذي أصاب المجتمعات الإسلامية؛ من حالة الجمود والتخلف والتبعية . وقد تمَّ تحديد معالم هذه الطريق من خلال التوجيهات النبوية التي بيّنت أسباب أزمة العقل المسلم، وكيفية الخروج منها، وقد تمَّ بحثُ ذلك في الجانب المنهجي من هذه الدراسة، في المبحث الثالث من الفصل الثاني . ومثال ذلك: ما جاء في بعض الأحاديث النبوية ، نحو حديث : " لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به "، وحديث : " قل آمنت بالله ثم استقم ..."

٦) بيانُ المجالاتِ التي يُمكنُ من خلالها إعادةُ بناء العقل المسلم المعاصر، بالاعتماد على الحديث النبوي، باعتباره مصدراً أساسياً من المصادر، التي تزوّدنا بالحلول والإجابات للمشكلات والمسائل المعاصرة، بحيث يمكن الاستفادة منها في إعادة بناء العقل المسلم

المعاصر، وهو ما يرسّخ من أهمية ومنزلة السنة النبوية في حياتنا بشكل عملي، بحيث تدخل حيّز التطبيق والعمل في جوانب مختلفة من حياتنا قد غفلنا عنها .

٧) بناء تصور عقدي وفكري صحيح ، يتم من خلاله إعادة بناء العقل المسلم المعاصر، بحيث يكون هذا التصوّر العقدي و الفكري المستمد من السنة النبوية ، الميزان والمقياس الذي من خلاله يستطيع العقل المسلم المعاصر، تغيير هذا الواقع بما يتلاءم والغاية التي جاء الإسلام لتحقيقها واقعاً حياً في حياة الأمة المسلمة، وبما يؤكد التوافق التام في حياة المسلم بين الدنيا والأخرة، وبين الإنسان والكون الذي يعيش فيه، ومثال ذلك: ما جاء في بعض الأحاديث النبوية المتعلقة بالقضاء والقدر، والتوكُّل والأخذ بالأسباب، مثال ذلك حديث الأعرابي : " أعقلها وأتوكل ؟ أم أطلقها وأتوكل ؟..." ، وقد تمَّ بيان ذلك في المبحث الأول من الفصل الثاني.

٨) بيان المعنى الصحيح لكثير من المفاهيم الواردة في الأحاديث المختلفة، وكذلك تصحيح كثير من المفاهيم الخاطئة، التي غُرِسَتْ في عقول كثيرٍ من المسلمين، وذلك من خلال بيان ما جاءت به الأحاديث النبوية في هذا الجانب. حيث يتضح من الدراسة بُعْد ما أُلصِق بهذه المفاهيم من تفسيرات وتأويلات غير صحيحةٍ، وبعيدةٍ عن الحق؛ نتيجة تأثر الإنسان المسلم المعاصر، بكثير مما يدخل في باب المسلّمات العقلية المتأثرة بما ورثه عن السابقين، مع كون تلك المسَلّمات تناقض ما نصّت عليه أحاديث نبوية متعددة، ومثال ذلك: حديث " أنصر أخاك ظالما أو مظلوما ..."، وحديث:" اعملوا فكلٌ مُيسَّرٌ لِما خُلِق..."، وبعض الأحاديث المتعلقة بطاعة ولي الأمر .

مصطلحات الدراسة :

* بناء العقل : المقصود بالبناء هو تحديد القيم والمبادئ الفكرية والدينية التي ينطلق منها العقل لكي يقوم بالدور المكلف به في جميع مجالات الحياة ، لِتُعبِّرَ عن التصوُّر الإسلامي الصحيح، الذي نزّلَ به القرآن وبيّنه الرسول ﷺ .

*العقل المسلم :المقصود به : الإنسان المسلم بما يحمل من قيم وأفكار ينتسب بها إلى الإسلام حقيقة وواقعا؛ كما يفهمُها ويتصوَّرُها الإنسان المسلم، المتأثر بالأفكار والقيم السائدة في المجتمع الإسلامي الملتزم . أو بمعنى آخر : يعني العلوم والمعارف التي أنتجها العقل بمنهج تفكير إسلامي، ووفق مسلّمات إسلامية .

* أزمة العقل المسلم : ويقصد بها الحالة التي يَعيشها الإنسانُ المسلم، والتي يفتقد فيها القدرة على العمل البنَّاء الهادف، والتي تتصف بالعشوائية والعبثية، والعجز عن الالتزام بشريعة الإسلام في مجالات حياته المختلفة، وعدم القدرة على تحقيق الأهداف التي يسعى الإسلام إليها في الحياة .

الدراسات السابقة :

لقد كتب عدد من الكتاب والمفكرين المعاصرين مقالاتٍ وأبحاثاً وكتباً تتحدثُ عن العقل المسلم، تحت عناوين مختلفةٍ يجمعُها هذا الموضوع، ولكن الغالب عليها، أنها تناولت هذا الموضوع من الناحية الفكرية؛ تحليلاً لأزمة العقل المسلم، وأسبابها، وكيفية الخروج من هذه الأزمة، وقد جاء في بعضها، في مواطنَ متفرقةٍ، بعضُ الأحاديث النبوية، ومن أشهر المصنفات في هذا المجال :

- " أزمة العقل المسلم " أ . د. عبد الحميد أبو سليمان :

يُبيّن المؤلف في هذا الكتاب، أنَّ التغيير لا بد أن يعتمد على فِكْرٍ صحيحٍ، حيث إنَّ الإسلامَ يُشكّلُ للأمّةِ الفكرَ الصحيح، الذي يمكن من خلاله إحداثُ التغيير المطلوب والناجح. ومن وجهة نظَرِ المؤلّف فإنَّ المحاولاتِ الفاشلةَ التي حصلت سابقاً، كان سبب فَشَلِها وإخفاقِها الاعتمادُ على فِكْرٍ دخيلٍ بعيد عن الإسلام .

وقد بيّن المؤلّفُ في كتابه قناعتَه بأنَّ" الإسلامية" هي قضيةُ الأمّةِ ومصيرُها وقدرُها وغايتُها ووسيلتُها إلى الخروج من أزمتها، وسبيلُها إلى بناء حضارتها، وإقامةُ نهضتها. وقد ذكر جُملةً من الأحاديث النبوية في مواضعَ متعددةٍ من كتابه، بالرَّغم من أنَّ الكتاب يتناول أزمةَ العقل المسلم من منطلق فكري، حيث يرى المؤلّفُ أنَّ الأزمةَ أزمةُ فِكْرٍ لا أزمةُ نصوص .

وقد أوردَ المؤلفُ اثنين وخمسين حديثاً في كتابه،في الصفحات (٦٥ـ٧٠) حيث اكتفى بإيراد نصها فقط من مصادرَ حديثيةٍ متعددة، تحت عناوينَ مختلفة، الجامع بينها عنوان رئيس وهو: "أزمة فكر لا أزمة عقيدة " ، دون أن يبيّن وجه الاستشهاد أو الدلالة منها.

فهو كتابٌ فِكْريٌ في محتواه، أمّا الدراسة المقترحة؛ فتهدِفُ إلى تأصيل ما ذُكِرَ في هذا المجال اعتماداً على الأحاديث النبوية، حيث جاء في العنوان المقترح بأنّها :" دراسة حديثية تأصيلية " .

- " حول إعادة تشكيل العقل المسلم " د. عماد الدين خليل :

هذا الكتابُ يتناولُ فيه مؤلِّفُه - كما يظهر من عِنوانِه - إعادةَ تشكيلِ العقل المسلم، للخروج من المشكلات والآفات التي وقع فيها المجتمع المسلم، بأفراده وجماعاته، وذلك من خلال البحث عن الأسباب، وإيجاد الحلول، مُستشهداً بالإنجاز الحضاري الذي حقّقته الأمةُ فيما مضى، مُعتمداً على التحليل التاريخي لواقِع الأمة؛ لِتكُونَ إعادةُ تشكيل العقل المسلم مُنطلَقا لِنهضتِها المأمولة في المستقبل. والمُعالَجةُ التي يطرحها الكاتبُ مُعالَجةٌ فِكريةٌ وتاريخية، وقد ذكر بضعة أحاديث لِيُبيِّن من خلالها إضاءات على طريق إعادة تشكيل العقل المسلم .

تتميّز الدراسةُ المقترحة عن هذا الكتاب، بأنّها تهدف إلى التأصيل لهذا الموضوع، اعتماداً على الأحاديث النبوية، فهي دراسة حديثية تأصيلية، وهذا مِمّا لا يوجد في هذا الكتاب، ولا في غيره، مما تم الاطلاع عليه .

- "إعادة ترتيب العقل المسلم " عمر عبيد حسنة :

هذا الكتاب يتناول فيه المؤلِّفُ جوانبَ تتعلَّقُ بالعقل المسلم من حيث :التفكيرُ، والتعاملُ مع الواقع، وكيفيةُ مواجهة المشكلات والأزمات، من خلال الترتيب للأولويات، وهذا الجانب يتفق مع موضوع الدراسة المقترحة، إلاَّ أنَّ الدراسةَ المقترحةَ تتميز عنه بأنّها تهدفُ إلى التأصيل اعتماداً على الأحاديث النبوية، مع ما في ذلك التأصيل من إضافةٍ، وجِدّةٍ، وشُمولٍ، فمجالها أوسع مما جاء في هذا الكتاب. إنَّ المؤلِّفَ أبدى اهتماماً جزئياً ببعض نواحي حياة المسلم المعاصر، بالرغم من ذكر بعض الأحاديث النبوية والاستشهاد بها وقد بلغت ستة أحاديث .

- "مباحث في العقل " أ. د محمد نعيم ياسين :

هذا الكتاب صدر حديثاً، وهو في الإجمال لا علاقةَ له بموضوع الدراسة المقترَحة، حيث بيّن فيه مؤلِّفُه ماهيةَ العقل، وعقْلَ التكليف، وما ورد عن العلماء في تعريف العقل وحدوده، ثم بيّن علاقة العقل بالنص الشرعي من حيث المناسبة بينهما، وما يُؤثِّرُ في تلك العلاقة سلباً وإيجاباً .
وقد بيّن أثَرَ الأمراض العقلية والنفسية على المسؤولية الجنائية، مما يجعل الكتاب أقرب إلى بيان لبعض المسائل المعاصرة المرتبطة بالعقل من الناحية القانونية والفقهية .

بينما هذه الدراسة التي سأقوم بها، تختلف عن بعض ما ذكر سابقاً، وتتميز عن بعضها الآخر، بأنها تنطلق في بحثها في موضوع **"العقل المسلم المعاصر، أزمته وبناؤه :دراسة حديثية تأصيلية "** ، في كل مباحثه من السنة النبوية ، بحيث تعتمدُ اعتماداً كُلّيّاً على الأحاديث الواردة في هذا المجال، وهذا ما تنفرد به هذه الدراسة عن كل ما صُنّف في هذا المجال .

والذي يؤكد انفراد هذه الدراسة بما ذكرت، أنّي لم أجدْ ـ بحسب علمي ـ خلال البحث في فهارس مكتبات الجامعات الأردنية، وغيرِها أيَّ كتابٍ، أو أيّةَ رسالةٍ بهذا المسمى المقترح**"العقل المسلم المعاصر، أزمته وبناؤه :دراسة حديثية تأصيلية "**[٣] ، فكان هذا الأمر حافزاً لي لاختيار الكتابة في هذا الموضوع .

أما فيما يتعلق بالرسائل الجامعية؛ فلم أجد خلال البحث ـ بحسب علمي ـ أيّةَ رسالةٍ موسومةٍ بهذا العنوان، أو لها صلةٌ به، سواء من خلال البحث في فهارس المكتبات، أو الموسوعات، أو دليل الرسائل الجامعية[٤].

ويمكنُ القولُ إنَّ هذه الدراسة تمتاز بالآتي:

١) تُعدُّ هذه الدراسةُ من الدراساتِ الحديثيةِ الموضوعيةِ في بابها، التي لم يُعرف أن هناك محاولة مماثلة لها في عنوانها وموضوعها .
٢) إنّها تنطلق فيما تقرّره، وتبحثُ فيه، من التعامل المباشر مع نصوص الأحاديث النبوية، التي تطرّقت إلى أزمة العقل المسلم، وبيان أسبابِها، وكيفيةِ الخروج منها؛ لِتُعبّرَ عن فهمٍ وإدراكٍ للأحاديث النبوية مُرتبِطٍ بالواقع المعاصر.

منهج الدراسة :

سأتبع في دراستي المناهج الآتية :

أولا : المنهج الاستقرائي : من خلال جمع الأحاديث النبوية، التي تقع ضمن دائرة موضوع بناء العقل، بحيث يقتصر النظر على الأحاديث التي تُبيّنُ أسباب أزمة العقل المسلم، وكذلك ما يتعلق منها ببناء هذا العقل . حيث يُمكنُ من خلال هذا المنهج، بيان أسباب الأزمة التي يعانيها

---

[٣] تم البحث في فهارس مكتبات الجامعات الأردنية من خلال الموقع الالكتروني WWW.JOPULS.ORG.JO

[٤] تم البحث أيضا في موسوعة مؤسسة الملك فيصل الخيرية / قاعدة معلومات الرسائل الجامعية
ـ كشاف الرسائل الجامعية في جامعة الأزهر .
ـ دليل المؤلفات في الحديث النبوي المطبوعة القديمة والحديثة ، محي الدين عطية وآخرون ، بيروت ، دار ابن حزم ، ١٤١٦هـ ، ط١

العقل المسلم كما بينتها الأحاديث النبوية، ثم جمع النصوص والآراء الواردة عن العلماء والنقاد من المختصين في هذا الجانب للخروج بنظرة كلية متكاملة في هذا الموضوع .

ثانيا : المنهج التحليلي : حيث تتمُ دراسةُ تلك الأحاديث النبوية التي تم جمعها، وتقسيمها حسب مباحث هذا الموضوع، وكذلك دراسةُ النصوص والآراء الواردة عن العلماء وفهمها واستيعابها بصورة موضوعية متكاملة، بما يعين على الاستنباط الصحيح . بحيث يتمُ تحديدُ جوانب هذا الموضوع بصورة دقيقةٍ ومُحدَّدةٍ، وبيان الأوجه التي يُمكنُ من خلالها إعادةُ بناء العقل المسلم المعاصر، وذلك بعد بيان أسباب أزمة العقل المسلم، كما وردت في الأحاديث النبوية.

ثالثا : المنهج الاستنباطي : من خلال النظر والتدقيق في النصوص الحديثية، وبيان المعاني المتعددة التي ذكرها العلماء، بحيث يُستنبَطُ من ذلك كلّه، ما يتعلق بالموضوع ويتوافَقُ ويتلاءمُ منها مع واقعنا المعاصر، بحيث يتمُ تنزيلُ النصوص الحديثية عليه، وبخاصة فيما يتعلق ببناء العقل المسلم في وقتنا الحاضر .

من منهجي في الاستشهاد بالأحاديث النبوية :

ـ إذا كان الحديث مُخرّجاً في الصحيحين، أو أحدهما، اكتفيت بتخريجه بما ورد في الصحيحين أو أحدهما .

ـ أما إذا كان الحديث مخرّجاً في غير الصحيحين، فأذكره مع بيان درجته إذا حَكم أحدٌ من الأئمة عليه تصحيحاً أو تضعيفاً .

ـ اعتماد الرواية الأكمل والأتم، أو الاعتماد على روايات متعدّدة للحديث الواحد، إذا كان فيها زيادة بيان أو توضيح لما يُراد ذِكْرُه والتأكيد عليه .

ـ أمّا الاستشهاد بالحديث الضعيف، فلا يكون إلاّ إذا لم يُوجَدْ إلا حديث ضعيف ضعفاً يسيراً يمكن أن يرتقي لدرجة القبول، من خلال المتابعات والشواهد ـ وبخاصة في الفصل الأول، بمباحثه الثلاثة؛ المتعلّقة ببيان أسبابِ الأزمةِ ومظاهرِها وآثارِها، جرياً على الاستشهاد بمثل هذه الأحاديث، في بعض أحداث السيرة النبوية والأحداث التاريخية، أو في فضائل الأعمال، لأنّ موضوع الدراسة يحمل هذه الطابع . أمّا الفصل الثاني فاستشهدت بالأحاديث المقبولة فقط .

من منهجي في الحكم على الأحاديث :

- إذا وُجِدَ قَوْلٌ لِأَحَدٍ من الأئمة في تصحيح حديث ما أو تضعيفه، فأعتمد قوله في التوثيق، ما لم يكن هناك اختلاف في التصحيح .

- إذا وقع اختلاف في تصحيح الحديث أو تضعيفه، فأبيِّن ذلك بإيجاز مع الترجيح .

- إذا كان الحديث دون درجة المقبول، فأذكر سبب التضعيف بإيجاز .

- قد توجد أحاديث على درجة من الضعف، ولكن قد يكون معناها صحيح ويشهد لصحة المعنى آية من القرآن، أو متابعات وشواهد فأبيِّن ذلك .

- غالباً ما اعتمدت في تصحيح الأحاديث وتضعيفها - التي لم يحكم عليها العلماء السابقون - على ما ذكره الألباني في سلسلته الصحيحة والضعيفة وغيرها إذا لم أجد تصحيحاً أو تضعيفاً لغيره .

أما منهجي في الدراسة بشكل عام :

- أكتفي بذكر بعض الأمثلة التي فيها بيان لما أريد توضيحُه إذا كان عنوان المطلب عاماً، وذلك كما جاء في المطلب الرابع، من المبحث الأول، من الفصل الأول الموسوم" الرواسب والمؤثرات الأجنبية الدخيلة" حيث لا يمكن حصرها .

- توثيق النصوص وعزوها إلى مصادرها الأصلية، فإنْ تعذَّر ذلك، فأعزو النص إلى مَنْ نقلتُ عنه .

- غالباً ما أذكر النصوص عن قائليها بالمعنى، وبخاصة إذا كانت الفكرة أو المعلومة الواردة عن قائلها، موجودة بتفصيل موسَّع، لأقتصر في صياغتها بالمعنى على موضع الدلالة .

- وكذلك يكون النقل عن قائل العبارة بالمعنى، إذا كان النص الذي يراد الاستشهاد به، قد جاء عن قائله في صفحات متعددة مُكرَّراً .

- نادراً ما ألجأ إلى نقل النصوص حرفياً عن قائليها، ولا يكون ذلك إلا إذا كان النص مختصراً وقصيراً، ويدلُّ على المعنى الذي أريده بشكل دقيق .

- قد تتكرَّر بعض الأفكار أو النصوص المنقولة بالمعنى، في أكثر من موضع في الرسالة، والمسوِّغ لذلك هو التداخل بين موضوعات مباحث الرسالة، وارتباطها ببعضها، علماً بأنَّ التكرار

الموجود ليس كثيراً، وموضع الاستشهاد بهذه النصوص مختلف مع وجود التكرار بحسب طبيعة المبحث الذي تكرَّر فيه النص .

هذا وقد جاءت هذه الدراسة متوسِّطةً في حجمها، ويمكن ملاحظة ذلك من الخُطة التي سِرْتُ عليها، حيث تتكون هذه الخطة من : مقدمة، وتمهيد، وفصلين : الفصل الأول، وفيه ثلاثة مباحث، والفصل الثاني، وفيه ثلاثة مباحث ، ثم الخاتمة، وقد سبق بيانها في المحتويات في البداية.

التمهيد

إنَّ هذا التمهيد يهدف إلى تصوُّرٍ إجمالي لموضوع الرسالة المقترحة، حتى لا يكون هناك مجالٌ لِأيِّ لُبسٍ، أو تشويش في ذِهن القارئ لهذا الموضوع، نتيجة للتداخل الموجود بين مباحث هذه الرسالة. وهذا التداخل بين هذه المباحث يرجع للارتباط الوثيق بين أسباب أزمة العقل المسلم المعاصر، ومظاهرها، وآثارها .

وعندما نتحدَّث عن أزمة العقل المسلم المعاصر، فهي أزمة خاصة بالمسلم المعاصر، حيث لم يكن لهذه الأزمة وجود ظاهر سابقاً، وهي ناشئة عن تعامل المسلمين في العصر الحالي، مع شريعة الإسلام، ويتَّصفُ هذا التعامل بالاضطراب والتشويش والتخبُط، وهذا أمرٌ لم يكن له مثل هذا الظهور أو الوجود عند من سبقهم من المسلمين . والذي يُؤكِّد أنَّ هذه الأزمة خاصة بالمسلم المعاصر، أنَّ الإسلام بمصدَرَيْه واحد، منذ جاء به الرسول ﷺ، وحتى وقتنا الحالي، والذي اختلف بين السابقين والمعاصرين من المسلمين، هو طريقة تعاملهم مع الإسلام، حيث شابها كثير من الاضطراب والتشويش عند المعاصرين، وهو ما يمكن أن يُقال فيه، إنَّ الأزمة أزمة فكر لا أزمة عقيدة .

إنَّ أسبابَ أزمة العقل المسلم المعاصر ترجع إلى غياب التصوُّر الإسلامي الصحيح للحياة التي ينبغي على الإنسان المسلم الالتزام به، وفِقْدانُ الإنسان المسلم للأسس التي يُبنى عليها تفكيره وسلوكه وعمله في الحياة، هو مصدر أسباب الأزمة التي يعانيها العقل المسلم المعاصر. وهذه الأسباب أشبه بأسباب المرض عند الإنسان، ويختلف تأثيرها بحسب الصحة والقوّة .

ولو نظرنا إلى سلوك الإنسان المسلم المعاصر؛ لَوجَدْنا من خلال هذا النَّظَر كثيراً من التصرُّفات والانفعالات والأعمال، بعيدة كلَّ البعد عمَّا تدعو إليه شريعة الإسلام، بالرغم من انتساب كثيرٍ من المسلمين إلى الإسلام ظاهراً،ممَّا أوجدَ تبايناً واسعاً بين واقع المسلمين ، وبين ما يهدف الإسلام إلى تحقيقه. وهذه كلها مظاهر تدلُّ على وجود أزمة، حيث إنَّ واقع هذه الأمة لا ينسجم، ولا يتَّفق مع ما تقرِّره شريعة الإسلام من أحكام، بل يتناقض معها . فمظاهر الأزمة هي أشبه بأعراض المرض الذي يُصيب الإنسان، بحيث يختلف تأثيرها باختلاف الظروف والأحوال عند المريض، وليس الأثر واحداً في الأحوال كلِّها .

وما يؤكِّد حقيقة هذه الأزمة، أنَّنا نلمسُ آثارها في كل جزئيات حياتنا المعاصرة، فَوَاقِعُنا مُناقضٌ لما يُريده الإسلام منَّا، وعلى النقيض ممَّا كان عليه المسلمون في صدر الإسلام، وهذا دليل على أنَّ العِلَّة والمَرض فينا نحن، وفي طريقة تعاملنا مع الإسلام .

وقد سعيت خلال هذه الدراسة إلى توضيح ما يتعلق بالفَرْق بين الأسباب والآثار والمظاهر والتداخل بينها، ومحاولة الربط بينها، وذلك يظهر جلياً في مطالب ومباحث الفصل الثاني، ومن خلال توضيح أوجه الارتباط بين الأسباب والنتائج والآثار، يمكن ملاحظة الفرق بينها .

الفصل الأول

أزمة العقل المسلم

أسبابها، ومظاهرها، وآثارها

تُعاني الأمّةُ الإسلاميةُ في عصرِها الحاضرِ، أخطرَ أزمةٍ مُستحكِمة، تركَتْ آثارَها في الميادين جميعِها، أزمةٌ لم تكنْ وليدةَ وقتِنا الحاضر، بل كانت نتيجةً لِتراكُماتٍ امتدت قروناً، فاستفْحَلَ أمْرُها، وزادَ خَطَرُها، ألاَ وهي أزمةُ العقل المسلم في العصر الحالي .

وقد أصبحتْ الأزمةُ مُستعصيةً على الحَلِ، بِسببِ المُضاعَفَاتِ الناشئةِ عن وجودها، لامتدادها وطولِ مُدَّتها . ورُبَّما سَاهَمَ في استفحالِها وصعوبةِ حلِّها ـ عند من يُقرّ بوجودها ـ عدمُ إدراكِ أبعادِها، ولا آثارِها، ولا أسبابِها. وقدْ أدّى عَدَمُ الإدراكِ الكاملِ لأَبْعادِ هذه الأزمة، إلى التداخُلِ ما بين الأسبابِ، والمظاهرِ، والآثارِ، فصَارَ مِن الصعوبةِ بِمكان التمييزُ بين الأسباب، والمظاهر، والآثار. لذلك كانَ مِنَ الضرُورةِ الفصلُ بين الأسباب والمظاهر والآثار، لأنّ هذا الفصلَ والتمييزَ بينها جُزْءٌ من الحل . ومِمَّا ساهم في تعمّق أزمة العقل المسلم وتشعُّبها، وجودُ كثيرٍ من المحاولات، التي اتَّجهتْ لمعالجة آثار الأزمة، دون البحث عن الأسباب ومعالجتها.

إنَّ المحاولات الكثيرة التي بُذلَتْ؛ اتَّجهتْ إلى معالجة آثار الأزمة، دون البحث عن الأسباب ومعالجتها، حيث أدّى ذلك إلى استمرار الأزمة بِصُوَرٍ متعددة، فكان لا بد من البيان والتفصيل، مع الإدراك أنّه قد يكونُ هناك تداخلٌ بين المظاهر والآثار، فَمَعرِفةُ الأسباب ومعالجتُها، هو الطريق الصحيح لحل المشكلة .

وقد تناولتْ كثيرٌ من الأحاديث النبوية هذا الموضوع بأبعاده المختلفة، فكان من الضروري الاستعانة بها في تحديد أسباب هذه الأزمة على وجه الخصوص، والتوجيهاتُ النبوية في هذا الشأن، مُتعدِّدةٌ ومتنوعة .

وقدْ جاءت الأحاديثُ النبويةُ شاملةً لمختلف نواحي الحياة، ما بين الأمر والنهي، أو البيان والتحذير من العلل التي أصابت الأمم السابقة، أو ممَّا ستواجهه هذه الأمة في مستقبلها، مما يعين على كيفية التعامل مع تلك التحديات .

المبحث الأول

أسباب أزمة العقل المسلم

لقد تم تقسيم هذا المبحث إلى مطالبَ خمْسَةٍ؛ لِبَيانِ أهمّ أسباب أزمةِ العقل المسلم، وقد اجتهدت في تقسيم هذا المبحثِ إلى هذه المطالب، بناءً على التّنويع والتّقسيم لِمَا ورد من الأحاديث النبويةِ في هذا الجانب؛ لِيَختصَّ كلُ مَطْلبٍ منها، بِسببٍ مُحدّد ، لأن الأمر يتطلّب التوسّع في بيان كل سبب، بشكل منفصل . وكل هذه الأسباب متفرّعة عن السبب الأساس، ألا وهو ترك كتاب الله وسنة رسوله ﷺ .

المطلب الأول

الافتراق بين أهل العلم وأهل الحكم

إنَّ ما واجَهَتْهُ هذه الأمةُ مِنْ أحوالٍ وتَغيُّرات، في كثيرٍ من المجالات، وعلى مختلف المستويات، كان مِنْ جُمْلَةِ ما بيَّنه الرسول ﷺ لأصحابه، ولأمته مِنْ بعدِه .

وقَدْ بيَّن في أحاديث متعدّدة طبيعةَ ما سيكونُ في أُمّته من تغيُّرٍ وتَبدُّلٍ في النظام السياسي بعدَه، حيثُ بيَّن أنَّ العهد الآتي مباشرةً بعده، سيكونُ خلافةً راشدةً على مِنهاج النبوة، يسيرُ الخلفاءُ فيه، على سيرة نبيِّهم ومنهجه في الحُكْمِ وفي تعاملهم مع الرعية والشعب، بالالتزام بِحُكم الشريعة الإسلامية.

لمْ يشعرُ المسلمون في عَهْدِ الخلافة الراشدة؛ باختلاف بين العهدين: عهد النبوة، وعهد الخلافة الراشدة، وذلك لأنَّ المرجعية في الحكم والإدارة واحدة، مستمدة من كتاب الله وسنة رسوله، لاسيَّما أنَّ هؤلاء الخلفاء قدْ تربُّوا في مدرسة محمد ﷺ، وتخلَّقوا بأخلاقه، فكانت طريقتهم كطريقة نَبِيِّهم في إدارة الدولة الإسلامية بعده، وفي تعاملهم مع الرعيَّة، يتَّبعون المنهجَ نفسه، الذي سار عليه نبيُّهم .

وقدْ جاء في الحديث عن النبي ﷺ، ما يؤكّد طبيعة الخلافة الراشدة، بأنّها على منهاج النُّبُوَّة، وأنَّها محدودةٌ في مُدَّتها، حيث قال ﷺ: **" الخلافة في أمتي ثلاثون سنة، ثمَّ مُلْكٌ بعد ذلك "*** فَفِي هذا الحديث يُبيِّن الرسول ﷺ أنَّ الخلافةَ في أمَّتِه مُدَّتُها محدَّدةٌ بثلاثين سنة، يعيشُ الناسُ فيها، في ظلّ شرع الله تعالى، في ظِلّ خِلافةٍ على مِنهاج النبوة، كما هو مُبيَّنٌ في بعض الأحاديث التي ستأتي لاحقاً.

---

* الترمذي، محمد بن عيسى، الجامع الكبير ، كتاب الفتن ، باب ما جاء في الخلافة ، حديث(٢٢٢٦) ، وقال: وهذا حديث حسن . ٤ /٨٢ تحقيق: د. بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٩٩٦م.

ثُمَّ يأتي بعد الخلافة الراشدة، المُلْكُ العاضُ، ثمَّ المُلْكُ الجَبْري، ويَستمِرَّانِ إلى ما شاء الله، ثُمَّ خلافةٌ على منهاج النبوة، كَمَا وَرَدَ ذلك في الحديث النبوي :" **تكونُ النُّبُوَّةُ فيكم ما شاءَ اللهُ أنْ تكون، ثُمَّ يَرفعُها إذا شاءَ أنْ يرفعها، ثُمَّ تكونُ خِلافةٌ على مِنْهاجِ النُّبُوَّةِ، فتكونُ ما شاء اللهُ أنْ تكون، ثُمَّ يرفعُها إذا شاء أنْ يرفعَها، ثُمَّ تكونُ مُلْكاً عَاضًا، فيكونُ ما شاء اللهُ أنْ يكون، ثُمَّ يرفعُها إذا شاء أنْ يرفعَها، ثمَّ تكونُ مُلْكاً جَبْرِيَّةً، فتكونُ ما شاء اللهُ أنْ تكون، ثُمَّ يرفعُها إذا شاء أنْ يرفعُها، ثمَّ تكونُ خلافةٌ على مِنْهاجِ النُّبُوَّةِ. ثم سكت** "[٦].

حيثُ بيَّنَ هذا الحديث أنَّ الأمةَ ستدخُلُ بعد مرحلة الخِلافة، مَراحلَ من الحُكْم المَلَكي، ما بين مُلْكٍ عَاضٍ، ومُلْكٍ جَبْرِيَّة . وقدْ بيَّنَ الرسولُ ﷺ أنَّ الخلافة الراشدة على منهاج النبوة، كما كانت في البداية؛ فكذلك ستكون في النهاية . ثم تأتي أنظمةٌ سياسيَّةٌ في الولاية والحكم في بلاد المسلمين، تكون مغايرةً في مَنْهجِها للمنهج النبوي، بين فَتْرَتَيْ (الخِلافة الملتزمة بمنهاج النبوة) في البداية والنهاية، تكون قائمةً على مناهج وضعية بشرية، ما بين مُلْكٍ عاضٍ، أو مُلْكٍ جَبْرِيةٍ .

إنَّ هذا الإخبار النبوي بِتغيُّر الأحوال في النظام السياسي لهذه الأمة، فيه تنبيهٌ مِنَ النبي ﷺ لِمَنْ معه ولِمَنْ عاصَرَه، ولِمَنْ بعدهم، بقدوم فِتَنٍ وانقلاباتٍ وتغيُّرات، ينبغي أنْ يلتمسوا المخرجَ منها، ولذلك كانت الوصية النبوية بالاستمساك بكتاب الله.

ويمكن القولُ: إنَّ العهدَ النبويَّ، وعَهْدَ الخلافةِ الراشدةِ ـ على وجه الخصوص ـ هما العَهْدان اللذان كان التوافق والانسجام فيهما تاماً، بل ومتَّحِداً بين أولي الأمر وأهل العلم، وهو ما انعكس بدوره على العلاقة بين مجموع الأمة وقيادتها، فكلاهما يَصدُرُ في توجهاته وأعماله من مشكاة واحدة، كتاب الله وسنَّة نبيه. حيثُ اجتمعتِ هاتان الركيزتان للرسول ﷺ، فكان هو المُبلِّغُ لدين الله، المُبيِّنُ لشرعه، وكانت له القيادةُ السياسية للأمَّة، التي قام من خلالِها بتطبيق أحكام الشريعة الإسلامية، في مجالات الحياة المختلفة. وكان التوافق والانسجام تاماً في حياة الناس، بين العقيدة التي يؤمنون بها، والفِكر الذي يحملونه من ناحية، وبين الواقع الذي يعيشونه، لأنَّ النظام الذي يُسيِّرهم ويَسُوسُهم، ينبثق من المرجعية نفسها التي يؤمنون بها.

---

[٦] ابن حنبل، احمد بن حنبل، المسند، حديث (١٨٥٩٦) . ص ١٣٤١ (٢٧٣/٤) بيت الأفكار الدولية، الرياض،١٤١٩هـ ١٩٩٨م . قال الهيثمي في " المجمع" : رواه أحمد في ترجمة النعمان، والبزار اتم منه، والطبراني ببعضه في الأوسط ورجاله ثقات . الهيثمي، علي بن أبي بكر بن سليمان، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، تحقيق: محمد عبد القادر عطا ، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، ١٤٢٢هـ ٢٠٠١م. الحديث(٨٩٦٠) ٥/ ٢٤٦ . وقال الألباني : قال الحافظ العراقي: هذا حديث صحيح..." . وذكر الألباني الاختلاف في أحد رواته، وقال: فحديثه حسن على أقل الأحوال إن شاء الله . الألباني، محمد ناصر الدين، سلسلة الأحاديث الصحيحة، مكتبة المعارف ، الرياض . حديث(٥) ٣٤/١ـ ٣٥ .

ثُمَّ جاء بَعْدَهُ الخلفاءُ الراشدون، يطبّقون أحكامَ القرآنِ وتوجيهاتِه، في شؤون الحكم المختلفة، في شتّى مناحي الحياة، وكانوا أعلمَ أهْلِ زمانهم بما يريده القرآن منهم، ومن رعيّتِهم . ولم يُعرف الفَصْلُ بين تعاليم القرآن وأحكامه، وبين شؤون الحياة المختلفة، ولم يكن في عهدهم ما وُجِدَ بعدَهم، مِنْ تنْحية الإسلام عن الحُكْم، حيث كانتْ خلافة راشدة على منهاج النبوة .

ومع أنَّ الفتنة التي حصلتْ في عهد الخليفة عثمان - رضي الله عنه - كانت تُشيرُ إلى مقدّمات التحول والتغيُّر، الذي بدأت الأمة تدخلُ فيه، تمهيداً للدخول في مرحلة المُلْكِ بشتى صوره - كما جاء في الأحاديث النبوية - إلاَّ أنَّ الخلفاءَ استَمَرُّوا في سياستهم على منهاج النبوة، فلم يحدث أيُّ تغييرٍ جذري في أحوال المسلمين وشئونهم. إلاَّ أنَّ التغيُّرَ في النظام السياسي بعد ذلك، في مراحله المختلفة، الممتدة خلال القرون التي عاشتها هذه الأمة، قد تركَ أثراً وتأثيراً في نسيج الأمة ومؤسساتها . حيث حوّلَ النظام السياسي مؤسسات الأمة لِتُنْتِجَ ما أنتجته، بشكْلٍ يتوافق مع طبيعة ذلك النظام، وعلى هواه، تحقيقاً لمصالحه، وفي أحوال كثيرة بصورةٍ تتعارض وأحكام الشريعة الإسلامية .

وقدْ كان الرسولُ ﷺ يعلم ما سيؤول إليه أمْرُ الأمة لاحقاً ، وما ستواجهه مِنْ فِتَنٍ، لذلك كانت وصيتُه التي كرّرها وأكّد عليها، هي التمسك بالكتاب والسُّنَّةِ، حتى لا تضِلَّ هذه الأمة. فقد جاء في الحديث الذي رواه زيد بن أرقم - رضي الله عنه - حيث قال: " **...قام رسولُ الله ﷺ يوماً فينا خطيباً، بماءٍ يُدعى خُمَّاً بين مكة والمدينة، فَحَمَدَ اللهَ وأثنى عليه، وَوَعَظَ وذكّر، ثُمَّ قال :أمَّا بعدُ؛ ألاَ أيُّها الناس، فإنَّما أنا بَشَرٌ، يُوشِكُ أنْ يأتيني رسولُ ربي فأُجِيب، وإنّي تاركٌ فيكم ثَقَلَيْن : أوَّلُهما كتابُ اللهِ، فيه الهُدَى والنُّور، فَخُذُوا بِكِتابِ الله واستمسكوا به"، فَحَثَّ على كتابِ اللهِ ورَغَّبَ فيه، ثم قال: " وأهلُ بيتي، أُذَكِّرُكُم اللهَ في أهل بيتي ...**"[٧]، وقد كان هذا الموقف عند مُنْصَرَفِه من حِجَّةِ الوداع، فأوصاهم بأهم وصية قُبَيْلَ وفاته، حيث أمَرَهم بالتمسُّك بكتاب الله، فأمرهم بالحرص على الالتزام بما فيه، والاستمساك به، فهو طريق النجاة . وأخرج الإمام مَالِك في الموطأ الحديث برواية أخرى، فيما بَلَغَهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: "**تَرَكْتُ فِيكُمْ أَمْرَيْنِ لَنْ تَضِلُّوا مَا تَمَسَّكْتُمْ بِهِمَا: كِتَابَ اللَّهِ وَسُنَّةَ نَبِيِّهِ** " [٨] ، فاتّفقت كلتا الروايتين على الأمر بالتمسك بالقرآن،

---

[٧] مسلم ، مسلم بن الحجاج ، أبو الحسين (٢٦١هـ) **صحيح مسلم** ، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل علي بن أبي طالب، حديث (٢٤٠٨) ، ١٨٧١/٤. تحقيق محمد عبد الباقي، دار الحديث، القاهرة، ط١، ١٤١٢هـ ١٩٩١م .

[٨] **الإمام مالك** ، مالك بن أنس (١٧٩هـ) **الموطأ برواياته** ، كتاب القدر، باب النهي عن القول بالقدر،حديث (١٧٧٣) ،٤/ ٢٨٠ . تحقيق سليم الهلالي ، مجموعة الفرقان التجارية ، دبي ،١٤٢٤هـ ٢٠٠٣ م . **قال ابن عبد البر في التمهيد: وهذا أيضاً محفوظ معروف مشهور عن النبي عند أهل العلم شهرة يكاد يستغني بها عن الإسناد. ابن عبد البر**، يوسف بن عبد الله، **التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد**، تحقيق سعيد أعراب، المغرب،١٤١١هـ ١٩٩١م. ٣٣١/٢٤ .

الذي لن يكونَ الهُدى إلاّ به، حيث أمر بالأخذ بكتاب الله والاستمساك به، بحيث يُبتغى به الهُدى ويُبتغى به النورُ، ليكونَ مُنقِذاً لنا من الظلماتِ.

والهُدى والنور لنْ يُوجَدا إلاّ في كتاب الله، المعصوم عن الهوى والخطأ، " **كِتابُ اللهِ فيه الهُدَى والنُّورُ. مَنْ اسْتَمْسَكَ بِهِ، وأَخَذَ بِهِ، كانَ على الهُدَى. ومَنْ أخطأهُ ضَلَّ** "[9]، فَمَنْ التمسهما في غيره ضلَّ الطريقَ، وخاب سعيُه، وتخبّط في الظلمات، ولنْ يجد المخرَج إلاّ في القرآن، مصداقاً لقوله تعالى : **{الَر. كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ}**[10] .

فإذا كان الأخذُ بالقرآن، والاستمساكُ به سبباً للهدى والنور، فإنَّ تَرْكَه والتَّخلّي عنه، سيكونُ سبباً للضلال، والضياع، والإغراق فيهما . وهو ما بدأت تدخل فيه هذه الأمة بشكل مُتدرِّج، عندما هجَرَت كتابَ ربها، إلى أنْ استقرَّت الأزمة في صورتها الحالية، التي نعيش في ظِلالها في عصرنا الحاضر، وقد نصَّ الحديث السابق، على أنَّ نتيجة تَرْكِ القرآنِ والتخلّي عنه ستكون الضلال. ومَا كانت وصيَّته لأُمّته بالتمسُّك بكتاب الله؛ إلاّ لأنّه يعلم بما سيكون من الافتراق بين القرآن والسلطان، حيث كانت بداية عَزْلِ القرآن عن واقع الحياة، إلى أنْ وصلَ الأمرُ إلى هَجْرِه. ومع هَجْرِ القرآن من قِبَل الأمراء والحكام، تكون الأمّة قد سلكت طريق الضلال، وقد ورد في الحديث عن النبي ﷺ أنّه قال : " **... ألاَ وإنَّ رَحَى الإيمان دائرةٌ، فَدُورُوا مع الكتاب حيث ما دار، ألاَ وإنَّ الكتابَ والسُّلْطان سيفترقان، فلا تفارقوا الكتاب ...** "[11] حيث يبين بشكل صريح ما سيؤول إليه الأمر من العزلة والافتراق بين القرآن والسلطان، وما يجب على المسلمين في تلك الحالة، من التمسُّك بالكتاب لئلاّ يَضِلُّوا.

لمْ تقتصرْ وصية الرسول ﷺ بالتمسُّك بالكتاب على فئة بعينها، بل هي وصيَّةٌ عامة لأمته، فإذا تخلّى الحُكّام عن شرع الله، فعلى الأمة أنْ تنحاز إلى كتاب ربها، لأنَّ فيه النجاة من الضلال والفرقة والاختلاف، وهو ما ذكره القرآن الكريم ، في معرض الامتنان عليهم ، بالاجتماع بعد

---

[9] مسلم، صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل علي بن أبي طالب، حديث(٣٤٠٨) ٤/ ١٨٧٤

[10] سورة إبراهيم ، الآية ١ .

[11] الطبراني، سليمان بن أحمد، أبو القاسم (٣٦٠هـ)، المعجم الكبير، حديث(١٧٢) ٩٠/٢٠ . تحقيق حمدي السلفي، مكتبة ابن تيمية، القاهرة . وأخرجه أبو نعيم الأصفهاني في حلية الأولياء وقال: غريب من حديث معاذ لم يروه عنه إلا يزيد وعنه الوضين. الأصفهاني، أبو نعيم،أحمد بن عبد الله(٤٣٠هـ)،حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، ٥/١٦٥-١٦٦، دار الكتب العلمية، بيروت. وقال الهيثمي في " مجمع الزوائد" : ويزيد بن مرثد لم يسمع من معاذ بن جبل، والوضين بن عطاء وثّقه ابن حبان وضعّفه جماعة، وبقية رجاله ثقات . الهيثمي، مجمع الزوائد ٥/٢٢٨، ٢٣٨ . قلت: الحديث ضعيف بسبب الإرسال، فيزيد بن مرثد، وإنْ كان وثّقه أحمد وابن معين وأبو داود، إلاّ أنَّ روايته عن معاذ مرسلة فيها انقطاع. للمزيد أنظر: ابن أبي حاتم، الجرح والتعديل٩/٢٨٨(١٢٢٥)، العلائي، صلاح الدين أبي سعيد بن خليل(٧٦١)، جامع التحصيل في أحكام المراسيل، ص٣٠٢(٩٠٣) تحقيق حمدي السلفي، عالم الكتب، بيروت، ط٢، ١٤٠٧ هـ، ١٩٨٦م.

الفرقة والخصام ، قال تعالى :{وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُواْ وَاذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنتُمْ عَلَىَ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ }[١٢] .

أمّا كيف ابتدأ هذا الهَجْرُ لكتاب الله والانحرافُ عنه، والابتعاد عن سبيله، والدخول في الأزمة، التي امتدت إلى العصر الحالي، فقد بيّنه الحديث الوارد عن رسول الله ﷺ، حيثُ قال: **" لتُنقَضَنَّ عُرى الإسلام عُرْوةً عُرْوةً، فكلما انتقضت عُروة، تشبَّثت الناس بالتي تليها، وأولهنَّ نقضاً الحكم، وآخرهنَّ الصلاة "** [١٣] . فهذا الحديث بيّن فيه الرسول ﷺ ما سيكون من شأن هذه الأمة، مِنْ الابتعاد والتخلّي عن أحكام الشريعة الإسلامية، وهو ابتعاد متدرجٌ، استغرق زمناً طويلاً . فَقَدْ كان التحوّلُ في "نظام الحكم" نقطةَ البداية في الانحراف، انتقالٌ من الاختيار الحر والشورى ومبايعة الخليفة، إلى تولّي الحكمُ بالغلبة والقوة. بهذه الطريقة تمّ ترسيخُ نَهْجِ الاستبداد السياسي، وصارت الإمامة العُظمى بعيدةً عن" البيعة"، التي تقوم على عقْدٍ والتزامٍ بين الحاكم والمحكوم، بناءً على إرَادَاتٍ حُرَّةٍ للأمة، حتى انتهت هذه الحالة، إلى ترك آخر العُرَى التي ذكرها الحديث النبوي [١٤].

وفي هذا الحديث بيّن الرسول ﷺ حالَ هذه الأمّة عندَ ضعفها، حيثُ تراخَتْ قبضتها في التمسك بحبل النجاة، وجَدَّت في سَيْرِها الحثيث نحو الفساد والضياع والهلاك ، وهو أشبه بحال الغريق الذي ضعُف عن إنقاذ نفسه، حتى وَصَلَتْ حالةُ الأمة إلى هذه الصورة من الضَّعْف . حيث بيّن الحديث النبوي، أنَّ أولَ ما يتم التخلي عنه من أمر الإسلام، الحُكم بكتاب الله، بحيث يُصبح الإسلام بعيداً عن مجال الحكم، فيُحتكَم إلى غيره. وهذا التخلّي عن كتاب الله، وعدم الاحتكام إليه، مِنْ قِبَلِ الحُكّام والسلاطين، تَبَعاً لأهوائهم ومصالحهم ، قدْ أورَثَ تبدُّلاً في الموازين والمقاييس، زادَ الأمةَ ضَعْفاً على ضَعْف .

لقد دخلت الأمةُ بالتخلّي عن شرع الله، في مرحلة تعدّد المناهج والمرجعيات، بل وتعارض المرجعيات مع بعضها، فَبَعْدَ المنهج الواحد، والمرجعية الواحدة، صار تعدّد المناهج والمرجعيات

---

[١٢] سورة آل عمران ، الآية ١٠٣.

[١٣] ابن حنبل، المسند، حديث (٢٢٥١٣) ص ١٦٣٨، (٥/٢٥١) . قال الألباني : وهو صحيح . الألباني ، محمد ناصر الدين ، التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان، حديث (٦٦٨٠) ، ٣٩٠/٩ ، دار باوزير، السعودية، ط١ ، ١٤٢٤هـ ٢٠٠٣م .

[١٤] ابن الوزير، إبراهيم بن علي الوزير، " على مشارف القرن الخامس عشر الهجري. دراسة للسنن الإلهية والمسلم المعاصر"، ص ٥٠ ، دار الشروق، القاهرة، ط٤، ١٤٠٩هـ ١٩٨٩م.

هو منشأ الفساد، وسبيل الضلال، وطريق الفُرْقةِ والاختلاف، الذي حذّر منه الرسول ﷺ.
ونتيجة لعدم التمسّك بكتاب الله، وعَدَمِ الالتزام بِشَرْعِ الله، أصبح الفسادُ عاماً يشمل الحاكم والمحكوم، لِيَصِلَ إلى أعلى درجاته، بنقض آخر عُرى الإسلام : الصلاة . كما أنَّ في هذا الحديث دلالةً، على أنَّ الدين سيُنحّى عن واقع الحياة في هذه الأمة، فكذلك لا يكونُ نَقْضُ عُرى الإسلام، عُروةً عُروة، إلاّ بعد أنْ يتلاشى دور العلماء، ولا يبقى لهم أيُّ تأثير يُذكر في حياة الأمة، حيث ضَعُفَ دورهم في التوجيه والإرشاد .

إنَّ اعتزالَ علماءِ الأمة - ورَثَةُ الأنبياء - وانطواءهم على أنفسهم، وابتعادهم عن مَرْكزِ القيادة، والتوجيه، وعدم قيامهم بواجب النصيحة لأئمة المسلمين وعامتهم، قدْ أفقدُهم الفعل والتأثير في شؤون الحياة المختلفة. فهذه الحالة من الافتراق بين أهم فئتين في المجتمع ، قد تركتْ أثرها السيئ على الأمة، وذلك لأنَّ أيَّ مجتمع لا يمكن أنْ يسير أو يتقدم إلاّ بهما ، لأنّهما بمثابة قوة العقل والفكر ، وقوة السلطة والنفوذ .

فالعلماء هم من يُبيّن أحكام الدين ، وهم ورثة هذا العلم، وقد جاء في الحديث عن رسول الله ﷺ أنّه قال:" **من سلك طريقاً يطلب فيه علماً ...وإنَّ العلماء ورثة الأنبياء،وإنَّ الأنبياء لمْ يُورِّثوا ديناراً ولا دِرْهماً، وَرَّثُوا العلمَ، فَمَنْ أخَذَه أخَذَ بِحَظٍ وافِرٍ** "[١٥]، والعلماء إنّما ورثوا عن الأنبياء العِلمَ، الذي يتعلّق بأمر الدين . إنّهم مَنْ يجب عليهم بيان الأحكام الشرعية، والتي لا يستقيم إسلامُ المرء إلا بالالتزام بها، وتطبيقها في جميع شؤون الحياة على الفرد والجماعة والمجتمع، مِنْ أحكام الحلال والحرام، والحقوق والواجبات، التي بها قوام الفرد والمجتمع، وصلاح حال الأمة.

فهذه التشريعات والأحكام، هي جَانِبٌ من العِلم الذي يجب على العلماء بيانه للأمة، وهي التي يقوم على أساسها تحديد العلاقات بين الناس، بالعدْل والحق، وحفظ الحقوق والواجبات، في ظلِ الاحترام والتقدير المُتبَادل بين أفراد الأمة كافة، فلا يُظلم أحدٌ .

---

[١٥] أبو داود السجستاني ، سليمان بن الأشعث (٢٧٥هـ) ، السنن. كتاب العلم ، باب الحث على طلب العلم حديث ٣٦٤١ ، ص٤٠٣ طبعة بيت الأفكار الدولية ، الأردن . وقال الترمذي : ولا نعرف هذا الحديث إلا من حديث عاصم بن رجاء بن حيوة، وليس هو عندي بمتصل هكذا: حدثنا محمود بن خداش بهذا الإسناد. وإنما يُروى هذا الحديث عن عاصم بن رجاء بن حيوة، عن الوليد بن جميل عن كثير بن قيس عن أبي الدرداء عن النبي . وهذا أصح من حديث محمود بن خداش، ورأى محمد بن إسماعيل هذا أصح .الترمذي، الجامع الكبير، كتاب العلم، باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة حديث (٢٦٨٢)، ٤/ ٤١٤ - ٤١٥. قلت: وكذلك أخرجه البغوي في شرح السنة، وقال المحقق: حديث حسن، وصححه الحاكم وابن حبان رقم(٨٨)، وحسنه حمزة الكناني، وله شواهد يتقوى بها كما قال الحافظ ابن حجر في الفتح ١/ ١٦٩. البغوي، الحسين بن مسعود(٥١٦هـ)،شرح السنة، باب فضل العلم،حديث(١٢٩)، ١/٢٧٥-٢٨٢. تحقيق: زهير الشاويش و شعيب الأرناؤوط، المكتب الإسلامي،بيروت،ط٢، ١٤٠٣هـ ١٩٨٣م

ولا يقتصر البيانُ من العلماء للأحكام والتشريعات التي تُحدِّدُ علاقة الإنسان بالإنسان فقط، بل يتَّسِعُ البيان، ليشمل تحديد علاقة الإنسان مع بقية المخلوقات، التي يحتويها هذا الوجود، وذلك حتى يُؤدي الإنسان رسالته في الحياة، على النحو الذي يَضمنُ ويَكفلُ دوامَ هذا الوجود على أفضل الأحوالِ وأحسَنِها، بالسعي إلى البناء وعِمارة الأرض، مادياً ومعنوياً، فالإنسان المسلم مأمور بالإحسان في كل شيء . ولا يمكن أنْ يُكتب النجاح لهذا المسعى، إلاّ إذا كانت علاقةُ الإنسان بخالقه، قائمةً على أساس إظهار العبودية لله تعالى، العبودية التي من خلالها تتحقّقُ سعادة الإنسان وكرامته، بحيث يكون الوازع الديني موجوداً وفاعلاً في حياة الفرد والجماعة والأمة، ليتحقّق لها وصفُ الخيرية بين الأمم. لذلك ينبغي أنْ يُعيدَ العلماءُ للعقيدة الإسلامية دورها الفاعل في الحياة، بعدما تمَّ تهميش هذا الدور، ليبقى مقتصراً على مسائل نظرية وفلسفية، لا أثر لها في حياة الإنسان المسلم .

وإنَّما يُعادُ لها هذا الدور، من خلال الربط بين الجانب الفقهي العملي، والجانب الأخلاقي الإيماني، ليبقى الالتزام بأحكام الشريعة عند كل مسلم، مرتبطاً بحقيقة الإيمان بالله واليوم الآخر، المستقرة في القلوب .

ولو تدبَّرْنا كثيراً من الآيات القرآنية، حيث الربط بين الإيمان بالله واليوم الآخر، ومصير الإنسان؛ لأدركنا السِّرَ في هذا الارتباط، وأثره في الأمن والاستقرار للمجتمع، والسعادة والهدى للإنسان . وهذا كله من الواجب المُلقى على العلماء، ورثة الأنبياء . ولكنَّ من هؤلاء العلماء مَنْ تخلَّى عن هذا الواجب طوعًا أو كرهاً، ومِنهم مَنْ زلَّت قدمه بمُحاباةِ الحُكَّام ومُداهنتهم، ومنهم مَنْ كان بينه وبين الحُكَّام جَفَاءٌ وقطيعة، ومنهم مَنْ اعتزل نهائياً عن شؤون المسلمين العامة. وقد ترك كلُّ ذلك أثرَه على واقع الحياة، حيث فقدَ عامة الناس التوجيه والإرشاد، وبيان الحق، فَفَقدَ الناسُ بفقدهم للعلماء، الميزانَ في تقييم شؤون حياتهم، فلم يجدوا من يُبيِّن لهم أمر دينهم، وأحكام شريعتهم، مما ساهم في غُربة الناس عن الإسلام .

وهذا الأمر- أي إبعاد الإسلام عن الحياة - لم يحصل بين يوم وليلة، فقد مَضَتْ بعد عهد النبوة والخلافة الراشدة عهودٌ، بدأ يَظهرُ فيها الاختلافُ والتباينُ، بين فترة صدر الإسلام - وهي فترة العهد النبوي والخلافة الراشدة - وما تلاه من عهود، فكُلَّما امتد الزمان، كلَّما كانت الخطواتُ حثيثةً في هذا المجال مِنْ قِبَلِ الحُكَّام، وبشكل مُتدرِّج، للاستئثار بالسلطة بعيداً عن الدين وتشريعاته وأحكامه.

بدأت المسافة الفاصلة بين الحُكّام وبين العلماء، تَتّسِعُ وتَمْتَدُّ لِتَصِلَ إلى افتراقٍ، لا التقاءَ بعدَه وذلك بوجود اتجاهين متضادين، بعدما كانا اتجاهاً واحداً في فترة صدر الإسلام. وقد تولّى أمرَ المسلمين بعد ذلك، مِنَ الحُكّام والسلاطين، مَنْ لا زادَ له مِنَ العِلم الشرعي، ولا علاقة له بالإسلام إلاّ بالاسم، فكان يسوسُ الناسَ ويحكمهم، بِغير ما أنزل الله، فلا يقبل نصيحةً مِنْ عَالِمٍ، ولا مشورة، بل قد يضيق بها ذرعاً، وقد تأخذه العِزّةُ بالإثم، فيُنكِّلَ بالعلماء، أو يبطش بهم . وكان هذا الافتراقُ نتيجةً لِمَا أراده السلاطين والأمراء، مِنْ الاستئثار بالحُكْم، وفقاً لمصالحهم، وأهوائهم، وغاياتهم الدنيوية، وهو أمْرٌ لمْ يَجِدوا فيه مسايرةً من جمهور العلماء. وبالمقابل فقد حَرِصَ كثيرٌ مِنَ العلماءُ على الالتزام بالقرآن والسنة، والحفاظ على ميراث النبوة، وذلك على النقيض مما أراده الحكام، وهذا ما جَعَلَ إمكانيةَ التلاقي بينهما بعيدةً، بل ومستحيلة، إلا بأنْ يتنازل أحد الطرفين عن دوره . فكان الافتراقُ بين الطائفتين، وذلك لأن الخلاف بينهما، على أصول لا على فروع، فَطائفةُ العلماءِ تُريدُ التمسك بما أمر به الرسول ﷺ، حيث أمَرَ بالأخذ بكتاب الله، والاستمساك به، واتباع سنته، وهذا أمرٌ وجد فيه الحكام والسلاطين تناقضاً مع توجهاتهم .

ويستطيعُ مَنْ يسترجع التاريخ ويقرؤه، أنْ يتبيّنَ الجذور الأولى لهذه الأزمة ، وذلك حين حدثت الفُرقة بين القيادة الفكرية، المتمثّلةِ بالعلماء، وبين القيادة السياسية للأمة، المتمثّلة بالحُكام والسلاطين. ففي أعقاب الفتنة التي اشتدَّت بِمقتل ذي النورين، عثمان بن عفّان - رضي الله عنه - نتيجة الصراع الذي انتهى إلى المواجهة السافرة بين الملتزمين بسياسات الإسلام العامة، وبين رجال القيادة السياسية من أُسَر الحكم ورئاسات القبائل، ظهرتْ وعَلَتْ منطلقات العصبية والقبلية، بحيث انتهت المواجهة بين الفريقين إلى هزيمة قيادات الفكر والالتزام ، متمثلين في هيئة العلماء، والزعامات الدينية، وانسحابهم من السياسة والحكم بالعزلة والمعارضة .

" وبِمُضيِّ الوقت تفاقمت هذه العُزلة والفرقة ، وطال أمدها لعدة قرون، مما ترك آثاره على الفكر الإسلامي، وعلى تفكير رجالاته واهتماماتهم، وقد كان لذلك تأثير كبير، في تحجيم دور الدين في الحياة، وقَصْرِه على نواحٍ قليلة" [١٦] بحيث إنّ الغالبية العظمى من المسلمين، أصبحت لا تشعر بهذه الغُربة عن الإسلام، حيث صار الأمر مألوفاً لديهم، وأصبح الإسلام في نظرهم مجرّد علاقة بين الإنسان وخالقه، وحدود هذه العلاقة، مقتصرة على العبادات التي هي أركان الإسلام، أمَّا ما سوى ذلك من شئون الحياة المختلفة، فقلَّما يأبه كثير من المسلمين لِحُكْم الإسلام فيها .

---

[١٦] انظر: د.أبو سليمان ، عبد الحميد أحمد ، أزمة العقل المسلم ، ص ٣٩ ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الولايات المتحدة الأمريكية ، ط١، ١٤١٢هـ، ١٩٩١م ..

وقد اتّخذ الابتعاد عن الإسلام وإقصاؤه عن واقع الحياة، صُوَراً متعدّدة، وفي هذا السياق فقد حذّر الرسول ﷺ من ترك السنة النبوية، بحجة الاكتفاء بكتاب الله تعالى، كما جاء في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال :" **ألاَ إنِّي أوتِيتُ الكتابَ ومِثْلَه معَه، ألاَ يُوشِكُ رجلٌ شبعان على أريكته يقول: عليكم بهذا القرآن، فما وجدتم فيه من حلال فأحلُّوه، وما وجدتم فيه من حرام فحرّموه.**"[17]. فهذا الحديث يبيّن من خلال التحذير النبوي حالة الإعراض عن السنة النبوية، بدعوى الاكتفاء بكتاب الله تعالى، وهو يُبيّن صورةً مِنْ صُوَر الإعراض عن الهدي الإلهي ككل، بحيث تبدأ بترْك السنة النبوية، وما جاءت به مِنْ أحكام، لتنتهي بِتَرْك الإسلام كلّه، من خلال ترك الكتاب والسنة .

إنّ إبعادَ الدين، وتنحيتَه عن ميدان الحكم، وإضعافَ تأثيره في المجتمع، هو أهم الأسباب وأشدُّها أثراً في الأزمة المستعصية التي يعاني منها العقل المسلم، وبخاصة في العصر الحالي، بحيث يقتصرُ أثرُه - إنْ وُجِد - في الحياة الشخصية للفرد، ليبقى مجاله محدوداً في العلاقة بين الإنسان وخالقه، في مجال العبادات، أو فيما يتعلق بالأحوال الشخصية للفرد والأسرة، دون أن يتجاوز ذلك . وهذا لم يكن بِمَحض الصدفة، بل هو ناتجٌ عن تخطيط وتدبير، ليبقى المجال واسعاً للحُكّام والأمراء، لِتسيِيرِ أمورِ المجتمع والأمة، وِفْق مصالحهم وأهوائهم .

وهذا على النقيض مما أمَر به الحقُّ - سبحانه وتعالى - وبِخِلاف ما أوصى به الرسول ﷺ أُمّته، من التمسك بالكتاب والسنة، والالتزام بأحكامهما في شئون الحياة كلها، لأنه لا سبيل إلى الهداية والنجاة إلا بالتمسك بهما . وتظهر الآثار الإيجابية، للتمسُّك بالكتاب والسنة في حِفْظِ وِحْدةِ الأمة أولاً، من خلال اتحاد المرجعية في الحكم لجميع أفراد الأمة، وفي صيانةِ المسلمين عن الشقاق والاختلاف، وعن تبديد الجهود والطاقات، وفي وجود الانسجام، والتوافق، وعدم حصول الانفِصّام بين ما جاء به الإسلام الذي يؤمن به كل مسلم من ناحية، وبين الواقع الذي يعيشه المسلم من ناحية أخرى . وهذا كلُّه يُعدُّ من عوامل القوة والمَنَعة للأمة. وهذه الآثار الإيجابية كانت واقعاً ملموساً في حياة العرب في عصر النبوة والرسالة ، حيث وحّدهم القرآن، بعدما كانوا متفرّقين، وهداهم إلى الحق بعدما كانوا ضالين، فلذلك كانت وصية الرسول ﷺ لهم، ليبقوا على هذا النهج ، من التمسك بكتاب الله تعالى .

---

[17] أبو داود، السنن، كتاب السنة ، باب لزوم السنة ، حديث (٤٦٠٤) ص٥٠٤ . وقال الترمذي : حسن غريب من هذا الوجه. الترمذي، الجامع الكبير، كتاب العلم، باب ما نهي عنه أن يُقال عند حديث النبي ، حديث(٢٦٦٤)، ٣٩٩/٤ .وقال المحقق د. بشار معروف: الحسن بن جابر اللخمي مقبول حسن الحديث عند المتابعة وقد توبع.

وقد جاءت بعض الأحاديث النبوية التي تبيِّن بعض هذه الأحوال بين العلماء والحكام، ومن ذلك ما جاء عن رسول الله ﷺ أنه قال : **" إنَّه يُستعمَلُ عليكم أُمَرَاء، فَتَعرِفُونَ وتُنكِرون، فَمَنْ كَرِهَ فَقَدْ بَرِئ، ومَنْ أنكَرَ فقدْ سَلِمَ، ولكنْ مَنْ رَضِيَ وتابَع. قالوا : يا رسول الله، ألاَ نُقاتِلُهم ؟ قال: لا ، ما صَلُّوا "** [١٨] ، فهذا الحديث يبيِّن صورةً من العلاقة بين الحُكَّام والرعيَّة، ومنها العلماء، حيث سَيَكونُ أمراءُ لا يلتزمون في إمارتهم وحُكمِهم بأحكام الإسلام، بل إنَّ في نهجهم وطريقتهم، مِمَّا يُنكره الإسلام. حيثُ لا يَسْلَمُ في تلك الحال، إلاَّ من أنكر عليهم المنكر، بل ربَّما بلغت الحال بمثل هؤلاء الأمراء، أنَّهم شدَّدوا من الوطأة بالتهديد والوعيد، على من يُنكر عليهم مخالفتهم لأمر الشرع، إلى الدرجة التي قد لا يستطيع بعض الناس أن يُظهر إنكاره لهذا المنكر، بحيث يكتفي هذا الصنف بالكُره للمنكر، بشكل لا يستطيع أن يُظهر به ذلك الكُره على الملأ خوفاً من بَطْشِ السلطان .

ويمكن القول : إنَّه بوجود المداهنة والنفاق في أمر الدين، بحيث تُرَى المنكرات يُجهَرُ بها مِنْ قبل الأمراء والحُكَّام ، فلا يَجرؤُ أحدٌ مِنَ الناس وبخاصة العلماء على إنكاره، فيَسكتوا عن تغيير المُنكر. وقد يبلغ الحال من المداهنة والنفاق، إلى أن يبرِّرَ بعضُ العلماء للحاكم صنيعه، لمصلحة دنيوية يبتغيها عند الحاكم، أو بدعوى الخوف من بطشه، مع رضاه بهذا المنكر. أما الفريق الآخر من العلماء ، فقد يُؤثرون الابتعاد عن الحاكم، وعدم مخالطته، إنْ لم يجد سبيلا لإنكار المنكر . وربما تكون هناك قلةٌ من العلماء ، من يقف لِيُنكر المنكر على فاعله .

لقد وَصَلَ الحال بين الفريقين، إلى درجة أشدَّ من ذلك، وذلك بتمادي الحكام في التسلُّط والاستبداد، بحيث تصل إلى تبادل اللعن والبغض بين الفريقين، وهو ما يبيِّنه الحديث الوارد عن رسول الله ﷺ حيث يقول : **" خِيارُ أئمَّتِكم الذين تحبّونهم ويحبّونكم، وتُصلّون عليهم ويُصلّون عليكم، وشِرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم، وتلعنُونَهم ويَلعنُونكم... "** [١٩] وقد يصل الأمر إلى نهايته، في الافتراق بين العلماء والحكام، بالرغم من بطش السلطان وجوره، بحيث يرى العلماء أنَّ الواجب يقتضي الجهر بكلمة الحق، دفاعاً عن الدين، وحِفاظاً على الأمة من الهلاك . كما جاء في الحديث الذي الوارد عن رسول الله ﷺ حيث قال : **" أفضل الجهاد**

---

[١٨] مسلم، صحيح مسلم ، كتاب الإمارة ، باب وجوب الإنكار على الأمراء فيما يخالف الشرع وترك قتالهم ما صلوا ونحو ذلك ،حديث (١٨٥٤) ، ١٤٨١/٢

[١٩] مسلم ، صحيح مسلم ، كتاب الإمارة ، باب خيار الأئمة وشرارهم ، حديث(١٨٥٢)، ١٤٨٢/٣

كلمة عدل عند سلطان جائر، أو أمير جائر" [٢٠]، فالحديث يُبيِّن صورة مأساوية وصلت إليها الأمة، عندما لا يتورَّع الحاكم عن الطغيان والاستبداد، وامتهان كرامة الإنسان، والاستهتار بالحرمات . وبالمقابل فإنَّ جُهْد العلماء يكون منصرفاً في هذه الحالة، ليس لتعظيم المنافع والمصالح التي تحتاجها الأمة، بل إلى محاولة درء المفاسد والمخاطر، التي انتشرت بوجود مثل هذا الصنف من الحُكَّام .

وهذا الافتراق بين الفريقين ، يبيّن إلى أي مدى وصل الاختلاف ، الذي لا يمكن الالتقاء بعده، إلاّ بأنْ يتنازل أحدُ الفريقين عن مُسلَّماته، إذا أُريدَ الالتقاء والاتفاق مع الطرف الآخر، فأحَدُ الفريقين يبتغي مصلحةُ الأمة، وصلاحها، وهدايتها، والآخرُ يريدُ تحقيقَ مصالحِه وأهدافِه، التي لا تتحقَّق إلاّ على حساب مصلحة الأمة. فلذلك جاءت العزلة والفرقة بين الفريقين ، بحيث إنَّه يُخشى على من أتى أبواب السلطان الفتنة، كما ورد في الحديث الوارد عن النبي ﷺ حيث قال : **" مَنْ سكن البادية جَفَا، ومن اتَّبع الصيد غَفِل، ومَنْ أتى السلطان افتتن"** [٢١] ، وذلك لأن طرق أبواب مَنْ كان هذا حاله مِنْ الحكام والسلاطين في مثل هذه الحالة، لنْ يكونَ إلاّ على حساب الدين، ، وذلك كَمَنْ يبيع دينَه بِدُنيا غيره .

وخلاصة الأمر أنَّ الانحراف التدريجي قد بدأ في حياة الأمة الإسلامية منذ وقت بعيد، بعد عهد النبي ﷺ وعهد خلفائه الراشدين ـ رضي الله عنهم ـ حيث حدث الانفصال بين أهل العلم من رجال الفقه والعقيدة، وبين أهل الحكم والسياسة، وما تبع هذا الانفصال من استبداد سياسي، تجاوز قمع المعارضات السياسية والتنكيل بها، إلى قمع كل ما فيه مساس بشؤون الحكم، من الرأي العلمي المتعلق بشؤون الاعتقاد، وشؤون الحياة العامة. فكانت نتيجة ذلك ابتعاد العلماء عن المشاكل الواقعية للحياة الإسلامية العامة، بدافع من التوجس من سَطْوَةِ الحُكَّام وبطشهم، حيثُ عَكَفُوا على ما بين أيديهم من موروث فقهي ثري، يعملون فيه بالترتيب والشرح والتفصيل[٢٢]

---

[٢٠] أبو داود، السنن، كتاب الملاحم ،باب الأمر والنهي ، حديث (٤٣٤٤) ، ص ٤٧٤ .وقال المنذري : وعطية العوفي لايحتج بحديثه . وقال الألباني : صحيح. الألباني ، صحيح سنن أبي داود ، حديث(٤٣٤٤). ٣٧/٣ .

[٢١] أبو داود ، السنن ، كتاب الضحايا ، باب في اتباع الصيد ، حديث (٢٨٥٩)، ص٣٢٣ . قلت : حسّنه الترمذي حيث قال: هذا حديث حسن غريب من حديث ابن عباس، لا نعرفه إلاّ من حديث الثوري. الترمذي، الجامع الكبير، أبواب الفتن، باب (٦٩)، حديث(٢٢٥٦)، ١٠٦/٤ـ١٠٧.

[٢٢] د.النجار ، عبد الحميد ، من سلسلة كتاب الأمة " في فقه التدين فهما وتنزيلا "، ١٣١/١ إصدار رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية ، دولة قطر، ط١، ١٤١٠هـ .

المطلب الثاني

الجمود الفكري والتقليد

أمّا السبَبُ الثاني من الأسباب التي أدت بالأمة إلى الدخول في الأزمة التي تعانيها، فهو المَيْلُ إلى التقليد والمحاكاة في كثير من الأمور، بحيث تعطّلت آلة التفكير عن عملها، وأُصيبتْ بالجمود والعجْز.

ولمْ يُصبحِ الإنسانُ المسلمُ أسيرَ التقليد والمحاكاة، إلاّ بعدما تغلّبت حالة الجمود على العقل المسلم، بعد مرحلة التفكير والإبداع، حيثُ صارت مجاراة الآخرين، تقليداً ومحاكاةً، أيسرَ السبل وأسهلَها؛ لِمُحاولةِ تجَاوُزِ الصعاب وحَلّ المشكلات. إذا الغالبُ أنّ المهزومَ يتّجه إلى تقليد المُتفوّق والمنتصر، حيث يَعتبره مِثالاً ونموذجاً للاقتداء، كما ينمو لدى الصغير تقليدُ الكبير ومُحَاكاتِه .

والتقليدُ والمحاكاةُ مع تلازمهما للجمود الفكري، لا يحقّقان النتيجة التي يرْجوها المقلّد، وذلك لأنّ مَنْ لجأ للتقليد والمحاكاة، قد اتخذ أنموذجاً جاهزاً، أو حلاً جاهزاً، رُبما كان يَصلُحُ لمجتمع ما، ولا يَصلُحُ لغيره، فيكونُ هذا الحلُ ناجحاً وناجعاً في موضع، وفاشلاً في موضع آخر، بسبب اختلاف الظروف، والوقائع، والأحوال، والمقلّد قد أغفل وأهمل هذه الاختلافات. بالإضافة إلى أنّ مَنْ يلجأ للتقليد والمحاكاة ، إنّما يُتابعُ مَنْ يُقلّده في كل شيء، فلا يُدركُ أيّ فرقٍ بين ما يُعدُ خطأ أو صواباً . فإذا كان التقليد والمحاكاة مذمومين عموماً عند عُقلاء الناس؟ فكيف إذا كانت الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية قد نصّت على ذم التقليد والمحاكاة ؟ إنّ التقليد والمحاكاة من المجتمع المسلم، أو الفرد المسلم، يصبحُ أشدُ ذمّاً، وذلك لأنّ المسلمَ مأمورٌ بأنْ يكون صاحبَ عقليّةٍ عِلْمِيّةٍ، تَتّبعُ الدليلَ والبُرهان، ولكنّ المسلمين قد صار هذا حالهم، مِنَ الحِرْص على تقليد الآخرين ومجاراتهم .

وقد جاء في الحديث النبوي ما يصوّر هذه الحالة التي ستكون فيها هذه الأمة ، ويشخّصها بأدقّ ما يكون، ففي الحديث عن النبي ﷺ أنّه قال : **" لَتتبعُنّ سننَ مَنْ قَبلَكم شبراً بشبر، وذراعاً بذراع، حتى لو سَلكوا جُحْرَ ضَبٍّ لَسَلَكْتُمُوه. قلنا: يا رسول الله، اليهود والنصارى؟ قال: فَمَنْ ؟ "** [٢٣] ، فهذا الحديث يُبيّن أنّ هذه الأمةَ، ستدخلُ مجالَ التقليد والمحاكاة للآخرين، والتشبُّه بهم، فهذه الأمة ستَقَعُ في تقليد اليهود والنصارى ومُجاراتهم والتشبُّه بهم على وجه

---

[٢٣] البخاري،محمد بن إسماعيل ، أبو عبد الله (٢٥٨هـ)، صحيح البخاري وبشرحه فتح الباري لابن حجر، كتاب الأنبياء ، باب ما ذكر عن بني إسرائيل ، حديث(٣٤٥٦) ص١٥٩٢. بيت الأفكار الدولية ،الأردن ، ٢٠٠٠م .

الخصوص، وهو ليس مُحَدَّداً بزمانٍ مُعيَّن، أو أمْرٍ مُعيَّن، ما يَدلُّ على أنَّ تقليد هذه الأمة لليهود والنصارى عامٌّ ، وإنْ كان الغالب فيه في أمور الدين، بل في أصول مهمة .

وسيجري على هذه الأمة - مِنْ خلال التقليد - ما جرى على اليهود والنصارى، **فالرسول** ﷺ عندما يُخبرُ عمّا سيقع من هذه الأمة، من التقليد لليهود والنصارى واتباعهم، فإنّه أرادَ تحذيرَ أمَّتِه مِنْ اتباعهم، ومَنْعِهم من الالتفات لغير دين الإسلام، فأصابتهم الغَفْلةُ، فوقَعُوا فيما حذَّرهم منه . بلْ إنَّ تقليدَ هذه الأمة لِأهلِ الكتاب، والتشبُّه بهم، تميّز بالمبالغة في ذلك، والحِرص الدقيق حتى في دقائق الأمور، فوَقَعَ الأمرُ كما أخبر به الرسول ﷺ : " **حتى لو سلكوا جحر ضبٍّ لسلكتموه**"، وهذا هو السِّرُّ في التخصيص بجُحْرِ الضَّب، وذلك لِنتْنِهِ ضِيقِهِ ورَدَاءتِه، فإنَّ هذه الأمة لاقتفائها آثار اليهود والنصارى، وتشبُّهها بهم في العادات، والسلوك، في أمور الحياة المختلفة، فإنَّهم لو دخلوا في مثل هذا الجُحْر الضَّيِّق الرديء، لتبعتهم هذه الأمة في ذلك[24] .

وهذه الحالة من تقليد اليهود والنصارى، ومُحاكاتِهم، والتشبُّه بهم، لمْ تأتِ دُفْعةً واحدة، بل تمَّ تشرُّبُها والحِرْصُ على فعلها، بشكل مُتدرّج، كما كان يفعلها أهل الكتاب، بحيث لم يَتركوا شيئاً مما صَنَعه أهلُ الكتاب، إلاَّ فَعَلُوه وأتوا به، كما صنعه أهل الكتاب، في حالة استلاب ثقافي، وغزو فِكري، لا تَحدُثُ إلاَّ عندما تشعرُ الأمة بالهزيمة النفسية أمام هؤلاء. بل إنّه قد يبلغ الأمرُ بهذه الأمة، أنْ يطرأ عليها من الابتداع والاختلاف، مِثْلَ الذي كان قدْ وقع لبني إسرائيل، في أصول الدين وقواعده، لأنه قد أطلق عليها مِلَلاً، وأخبر أن التمسُّك بشيء من تلك الملل موجب لدخول النار، ومثل هذا لا يقال على الاختلاف في الفروع؛ فإنه لا يوجب تعديد الملل، ولا عذاب النار [25].

وقد جاء في بعض روايات الحديث " **لا تُخْطِئون طريقَهم، ولا تُخطِئنَّكم** " [26] ، وفيما جاء دلالةُ على شدة التَّتَبُّعِ والتقليد، فهذه الحالة من التقليد والمحاكاة والتَّشبُّه بالآخرين ما كانت لِتُوجد، إلاَّ عندما يَتوقَّف العقلُ عن التفكير، نتيجة للجمود الواقع فيه، والعزلة المفروضة عليه، بحيث لا يجد

---

[24] ابن حجر العسقلاني،أحمد بن علي (٨٥٢هـ)، فتح الباري بشرح صحيح البخاري ، ص١٥٩٣، بيت الأفكار الدولية ، الأردن ، ٢٠٠٠م .

[25] القرطبي ، أحمد بن عمر ، أبو العباس (٦٥٦هـ)، المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم ، ٦/٦٩٤ - ٦٩٥ .تحقيق: محي الدين مستو وآخرون، دار ابن كثير، دمشق، ط١، ١٤١٧هـ ١٩٩٧م .

[26] الآجري ، محمد بن الحسين ، أبو بكر(٣٦٠هـ) ،الشريعة ، ص٢٢٢ حديث (٣٥) وقال المحقق: إسناده حسن .تحقيق د. عبدالله بن عمر الدميجي، دار الوطن، الرياض، ط١، ١٤١٨هـ ، ١٩٩٧م .

المرء مفراً في هذه الحال، إلاّ اللجوء إلى التقليد والمحاكاة، وهما من أسباب الأزمة التي يعانيها العقل المسلم، وبخاصةً في هذا العصر.

وحيث إنّ لليهود والنصارى، بُناةَ الحضارة الغربية المعاصرة، وُجُوداً ونُفوذاً قويّاً، وسَيْطرةً مُحْكَمَةً، وتَفوُّقاً لا يُجارى في الميادين جميعِها، فقدْ كان لذلك أثرٌ سلْبيٌّ عميقٌ على هذه الأمة، زادَ حالةَ الاستلاب الثقافي التي تشعرُ بها الأمةَ، وتعيشُ في ظِلِّها، فَكانَ التقليد والمحاكاة لهما بما لا نَفعَ فيه لهذه الأمة، شاملاً لأمور الدين والدنيا .

ويمكنُ القولُ: إنّ الحديث النبوي قد أشار إلى أمر مُهم، وهو أنّ عاقبة التقليد لليهود والنصارى، ستَكونُ مزيداً من التقهقُرِ والانحدار، لأنه تقليدٌ وتشبُّهٌ على حساب إسلامنا الذي به قِوَامُ هذه الأمة، ولذلك خصَّهم الله ـ تعالى ـ بِالذِكْرِ، تحذيراً للمسلمين مِنْ التشبُّه بهم، وموالاتِهم حيث قال جلّ شأنه : **{وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللّهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ }**[٢٧]

ومَنْ يتصفحُ أحوالَ هذه الأمة، على مدار تاريخها الطويل، يرى أُمُورَها ـ عند عامة المسلمين ـ تجري على طريقة أهل الكتابين، وعلى طريقة كسرى وقيصر قديماً، وعلى طريقة الغربيين ومنهجهم في الحياة حالياً، تشبُّهاً بأهلِ الجاهلية القديمة والمعاصرة، وذلك مثل الأنظمة والقوانين المستوردة، والتي بها تُدارُ شئون المسلمين، سياسياً، واقتصادياً، واجتماعياً، وتعليمياً، وإعلامياً. وكُلُّها تجري بينهم على خلاف الكتاب والسنة، وما أقل من يتخلّص من البلاء الذي قد عمّ الناس، ولن يُميِّزَ هذا إلاّ عاقلٌ قد أدّبه العلم ،والله الموفق لكل رشاد ، والمعين عليه[٢٨]

إنّ الرسول ﷺ قد وَرَدَ عنْه كثيرٌ من الأحاديث، التي تحُثُ المسلم على مخالفة أهل الكتاب تحديداً، وعلى عدم التشبُّهِ بهم . إنّ هذا النهي النبوي عن التشبه بالآخرين، يأتي في سياق الحفاظ على استقلالية الفرد المسلم، والمجتمع المسلم . ويُلاحظُ أنّ الأحاديث الواردة في النهي عن التشبُّه بالآخرين، تنهى عن أمور قد يَعُدُّها بعض الناس، مما يدخل في باب الحرية الشخصية، مِمَّا يتعلّقُ بمَظهر الإنسان . إنّ هذه الأحاديث جاء فيها الأمرُ بمخالفة غير المسلمين؛ لأنّ التَّشبُّه بغير المسلم في هذه المظاهر، يحمل في بذوره حُباً ومَيلاً لهم، واستعداداً لمجاراتهم ومحاكاتهم، فيما وراء ذلك، مما قد يخفى على الآخرين. وفي الوقت نفسه، فإنّ في النهي عن التشبُّه بالآخرين، والأمر

---

[٢٧] سورة البقرة ، الآية ١٢٠

[٢٨] الآجري، الشريعة . ص٣٢٣- ٣٢٤ .

بمخالفتهم، دعوةً لكل مسلم، لكي يتميَّز بشخصيَّته، وفكره، وسلوكه، يبتعد عن كلِّ طريق قد يُوصِلُه إلى دُرْبِ التَبعيةِ، والانقياد للآخرين . فأمَرَ الرسولُ ﷺ بمخالفةِ المشركين، في كل شيء، وذلك لِتَناقُضِ الشِرْك ومنهجه، مع الإسلام والفطرة، فأُمِرْنا أنْ نُخالف المشركين في مَظْهرِنا، وعَمَلِنا، تمييزاً للمسلمين عن المشركين، واجتناباً لمشابهتهم، والسَّيْر على طريقتهم : **" خالفوا المشركين: ووفِّروا اللحى، وأحفوا الشوارب "** [29]. وهذا هو الشأن نفسه أيضاً مع المجوس، ومَنْ شاكَلَهم، وسار على طريقتهم، فأُمِرْنا بِمخالفتهم: **" جُزُّوا الشواربَ وأرْخوا اللِّحى. خَالِفُوا المجوسَ "** [30] ولم يتم استثناء اليهود والنصارى، مِنَ النهي عن التشبه بهم، والأمر بمخالفتهم : **" إنَّ اليهود والنصارى لا يصبغون، فخالِفوهم "** [31] . وكلُّ ذلك تمييزاً للإنسان المسلم، في كلِّ شيء عن غير المسلم .

لقد حذَّرَ الرسول ﷺ المسلمين - مَنْ سَلَكَ منهم مَسلكَ غير المسلمين - من اليهود والنصارى، وسائر المشركين، مِنَ الخروج من جماعة المسلمين، والانشقاق عنهم. والتشبُّه بهم هو أولُ الطريق للوصول إلى هذا المصير، لأنَّ أمْرَ التَّشبُّه بالآخرين، لنْ يقتصر على الأمور الظاهرة، بل له جذور باطنةٌ خفيَّةٌ، تستوطن نَفْسَ المُتشبِّه، وتجعلُه قَلْباً وقالباً، ظاهراً وباطناً، مُوالياً لهم، فلذلك عدَّ الرسول ﷺ مَنْ تشبَّه بِقومٍ، بأنَّه منهم، كما صرَّحَ الحديث النبوي بذلك: **" من تشبَّه بقومٍ فهو منهم "** [32].

وهو ما يُوجد تَيَّاراً دخيلاً في المجتمع والأمة، يَحمِل فكراً غريباً، يتبنَّى نهج الولاء للأعداء، وهذه هي حقيقة التقليد للآخرين والتشبُّه بهم، وهو سبب رئيس من أسباب الأزمة التي تعانيها الأمة الإسلامية اليوم .

---

[29] البخاري، صحيح البخاري، كتاب اللباس، باب تقليم الأظافر، حديث(٥٨٩٢) . ص٢٦١٠.

[30] مسلم، صحيح مسلم، كتاب الطهارة، باب خصال الفطرة، حديث(٢٦٠) . ١/ ٢٢٢ .

[31] البخاري، صحيح البخاري، كتاب الأنبياء، ذكر بني إسرائيل،حديث(٣٤٦٢) . ص١٥٩٢ .

[32] الطبراني، سليمان بن أحمد، المعجم الأوسط ، وقال: لم يرو هذا الحديث عن هشام بن حسان إلأ علي بن غراب، ولا عن علي إلأ عبد العزيز ، تفرَّد به محمد بن مرزوق حديث(٨٣٢٧) ٨/ ٣٩٢٠، تحقيق: طارق عوض الله و عبد المحسن الحسيني، دار الحرمين، مصر ، ١٤١٥هـ ١٩٩٥م . قلت: قال ابن عدي في الكامل : علي بن غراب له غرائب وإفرادات، وهو ممن يكتب حديثه. ابن عدي، عبد الله بن عدي (٣٦٥هـ) الكامل في ضعفاء الرجال،٦/ ٣٥٠ـ ٣٥٥(١٣٥٨/٣٩٠) ، تحقيق: عادل عبد الموجود، وعلي معوض،دار الكتب العلمية، بيروت . وقال الذهبي في الميزان: علي بن غراب وثقه ابن معين والدارقطني، وقال ابو حاتم: لا بأس به، وقال أبو زرعة: هو عندي صدوق، وقال أحمد: وكان يدلس وما أراه إلا صدوقاً، وقال الخطيب : تكلم فيه لأجل مذهبه، واما رواياته فقد وصفوه بالصدق. الذهبي،محمد بن أحمد(٧٤٨هـ)، ميزان الاعتدال في نقد الرجال مع ذيله للعراقي،١٨٠/٥(٥٩١٢)،تحقيق: علي معوض وعادل عبد الموجود، دار الكتب العلمية، بيروت،ط١، ١٤١٦هـ ١٩٩٥. قال الهيثمي:علي بن غراب، وقد وثَّقه غيرُ واحد، وضعَّفه بعضهم، وبقية رجاله ثقات. الهيثمي، مجمع الزوائد . حديث(١٧٩٥٩) . ٣٤٦/١٠. قلت: الحديث بهذا الإسناد حسن.

فهذا النهي عن التشبه، والأمر بمخالفة غير المسلمين، يدخلُ في باب وِقايةِ الأمَّة وصِيانتها، عن التبعيَّةِ، وعن الأسباب المؤدية إلى الضعف والتشرذم، لئلا تكون هناك عقول وشخصيات مأسورة بالتقليد والمحاكاة في كل شيء، مما قدْ يجعل الأمة عُرْضةً للأمراض، وللآفات التي تفتك بِبُنيةِ المجتمع المسلم .

لذلك فقدْ تجدُ مجتمعاً يؤمن أفرادُه بالإسلام، ولكنَّهم لا يُجَسِّدون هذا الإيمانَ حياةً، ولا يُطبِّقونه عملاً، فَمُجْتَمَعُهم مجتمَعُ ضائعُ، مائعٌ، لا يملك الهُوِيَّةَ الإسلامية، ولا يُمثِّلُ الأصالةَ العقائديةَ، يُقلِّد غيرَه في القوانينِ، والفنونِ، والآدابِ، والمفاهيمِ، وأسلوبِ الحياةِ، بشكلٍ يجعلُ مظاهرَ الحضارةِ، وصِبغةَ الحياةِ العامةِ فيه، هي أقربُ إلى الصِّبْغة الجاهليةِ، والحياةَ الضائعة التي لا تَعرفُ الأصالةَ، والالتزام . وأصبح مِنَ المعتاد في هذا المجتمع، أنْ نُشاهدَ حانةَ الخَمْرِ، أو المرأةَ الخليعةَ، أو دارَ البِغاءِ، أو مصارفَ الرِّبا، ونِظامَ الحياةِ الماديةِ، ونماذجَ الفَنِّ المُبْتَذَل، وصُنُوفَ الثقافة المادية، والأدبَ المُنْحَل..الخ. بحيثُ يَنْطبقُ عليهم الوَصْفُ الوارد في الحديث عن الرسول ﷺ أنَّه قال :" **...وإنَّه سيخرج من أمتي أقوام تَجَارى بهم تلك الأهواء ، كما يتجارى الكلب لصاحبه** " [٣٣] .

إنَّ الفرد أو المجتمع، إذا كان لَدَيْه مَيْلٌ إلى تقليد الآخرين والتشبُّه بهم ، فَلَنْ تكونَ هناك حُدُودٌ ولا قُيُودٌ، في هذا المجال، بل سيكون المجال مفتوحاً، وشاملاً، ومتنوعاً . إنَّ هذا سيُدْخلُ الأمةَ في مَتاهةٍ لا مَخْرَجَ منها، حيث لا ضوابطَ ولا قواعدَ، يُمكن أنْ يلجأ إليها الإنسان، والمجتمع، لاستعادة الهويَّة، والشخصيَّة التي يتميَّزُ بها عن الآخرين . وعندما لا تجدُ الأمَّةُ من يُبَصِّرها بمُشكلاتِها، وأمراضِها، وأوجاعها، فإنَّ هذا يجعلها عَالةً على غيرها، ترجو الحلَّ عند غيرها، وترتضي في سبيل ذلك، التبعيَّةَ والانقياد لغيرها، وهي بهذا المعنى، أمَّةٌ حَكَمَتْ على نفسها بالموت والفناء .

ولعلَّ في التجارب المعاصرة في التقليد والمحاكاة، واستيراد الحلول الجاهزة، والقائمة على منهج فِكريٍّ، مُناقض للإسلام وشريعته، ما يُبيِّن الأثرَ الخطيرَ، على حاضر هذه الأمة ومستقبلِها، لِما يترتَّب على ذلك من التبعية، والتقهقر، والتخلُّف . إنَّ كلَّ هذه التجارب والحلول المستورَدة تزيد الحواجز وتُعمِّقها، وتُعِيقُ أيَّة محاولة للنهوض، والإصلاح، والارتقاء، وتَزِيدُها صعوبة .

---

[٣٣] أبو داود ، السنن ، كتاب السنة ، باب شرح السنة ، حديث ٤٥٩٧، ص٥٠٣ . وحسنه الألباني : الألباني، صحيح سنن أبي داود ، ١١٥/٣

إنَّ هذا المُنطلق، المبني والقائم على التقليد والمُحاكاة، ما زال مسيطراً على مقدرات الإصلاح، وإعادة التنظيم الاجتماعي في العالم الإسلامي عامةً، دون استثناء، وعلى تَوَجُّهاتِ حركة الأمة الإسلامية منذ قرون، ومِنْ ذلك ما قامتْ به الدولة العثمانية بِقوّةٍ وعَزْمٍ، منذ القرن الثامن عشر الميلادي، على يد السلطان سليم الثالث، بتقليد الأجنبي الأوروبي ، واعتبرت ذلك التقليد ، سبيلها الوحيد إلى القوة وإعادة البناء .

لم يُكتَب لهذه المحاولة أيُّ نجاحٍ، في تحقيق القوة، أو مواجهة التحدي، أو نَقْلِ المعرفة، وغَرْسِها في كيان الأمة، بل استمرَّ تقهقُرُ القوّةِ العثمانية أمام أوروبا، واستمرَّ نمو القوة الأوروبية . إنَّ محاولات الإصلاح من منطلق أجنبي لم تتوقف، بالرَّغم من ذلك كلِّه، ولكنها استمرت إلى آماد أبعد وأشمل، حيثُ قام رُوّادُها بالتغيير الكامل الشامل وفقا للنموذج الأوروبي، وأنْهَوْا دَوْرَ الإسلام، ودَورَ الثقافة الإسلامية في بناء المجتمع، فَلَم تتحسَّن أحوالُها، بل استمرَّت في التدهور، مع أنَّها مرَّتْ بِكل مراحل التقليد الأجنبي .[٣٤]

إنَّ المعاناة والأزمة التي تعيشها هذه الأمة على المستوى الاقتصادي، والتي تظهرُ في صُوَرِ العجز والفقر والبطالة فيها تأكيدٌ لِدَيْمومَةِ الأزمة التي تعيشها هذه الأمة، واستمرارِها حتى الوقت الحالي، وهي نتيجةٌ لاستيرادِ الحلولِ الجاهزة وتطبيقها، وكلُّ ذلك يَدخلُ تحت باب التقليد والمحاكاة. فقد عزَمَ وُلاة الأمر على حلِّ الأزمة الاقتصادية، مِنْ خلال لجُوئهم إلى حلولٍ ومناهج اقتصادية مستورَدةٍ، تتناقضُ وقِيَمَ هذه الأمة ومعتقداتِها، فكانت النتيجة مزيداً من المصاعب، والمشاكل، وزاد خَطَرُ الأزمة. " حيث إنَّ النظامَ الاقتصاديَّ الغربيَّ الرِّبَويَّ، حين تبنَّاه المسلمون تقليداً ومحاكاةً، في تعاملاتهم المالية والمصرفية، والبنوك والمؤسسات المالية، فإنَّ تطبيقات هذا النظام الرِّبَوي، قد تركت آثارها السلبية على البيئة الجديدة، وعلى بُنْيَةِ الأمَّة الإسلامية، الدينية، والاجتماعية، والاقتصادية - لاختلاف العقائد والقيم - وأثارَت مِنَ التَّمزُّقِ، والصِّراعات، والسلبيات، ما كان له أسوأُ الأثَرِ في كيان الأمة، وفي تبديد طاقاتِها، وكَبْحِ دوافعِها .

لقد كان من آثار هذه التجارب الفاشلة؛ إحكام السيطرة الأجنبية على مقدَّرات الأمة وطاقاتها، بدل أن تكون عَوْناً لها على البناء والتنمية الاقتصادية، حيث ربطَتْ مَصيرَ هذه الأمة بالقوى الغربية، ونظامِها الرأسماليِّ الجَشِع، فَصَدَّرَ الغربُ إلى هذه الأمة، أزماتِه الاقتصادية، وجعَلَها سوقاً استهلاكية لصناعاته، تزيدُه قوةً، وتزيدُنا ضعفاً على ضعف. وذلك لأنَّ ما أنشأته المؤسسة الغربية مِن أنظمة اقتصادية كانت - في حقيقتها - استجابةٌ لِحَاجاتٍ، ووظائف اقتصادية، وتجارية

---

[٣٤] د. ابو سليمان، أزمة العقل المسلم . ص٣٠ - ٣٣.

في بلاد الغرب، ومنسجمة مع المنهج الفِكري الذي يتبنّاه الغرب، فكان النجاحُ حليفها في ذلك المجال، واستطاعت أنْ تحقّق نهضة اقتصادية كبيرة . أمّا في العالَم الإسلامي، فإنّ سبب فشل المؤسسة البنكية الغربية في خدمة المجتمعات الإسلامية، يَكْمُنُ إلى حَدٍ كبير، في أنّ المجتمعات الإسلامية لجأتْ إلى تطبيق نظامٍ اقتصادي يقوم على مُنطلَقاتٍ تُغايرُ مُنطلَقات الإسلام وقيمه في المجال الاقتصادي .

فكان الإنسانُ المسلمُ، والأمّةُ المسلمةُ، أمام خيارٍ صعْبٍ مرفوضٍ في المجال الاقتصادي؛ فالإنسانُ المسلمُ مُخيّرٌ- بالتعامل الرَّبَويّ مع البنوك - بين الغِنَى والقُدرةِ الاقتصاديةِ في الدنيا، وبالتالي، فالمصيرُ في الدار الآخرة الخالدة تعاسةٌ وشقاءٌ وعذاب . وبينَ العَنَاء والعَجْز والفقْر في الدنيا، إذا التزم بقيم الإسلام وشريعته، ورَفضَ التعاملَ مع المؤسسة البنكية الرَّبَويّة، مقابل أمل النعيم والفلاح في الدار الآخرة"[٣٥].

ولم يقتصر الأمر فقط على تقليد غير المسلمين ومحاكاتهم، بل امتدّ ليشمَلَ محاولةَ الاقتداء بالنماذج التي تُعَدُّ قُدوةً، على صُوَرٍ وأنماطٍ لا تُدرَكُ حقائقها، في الانحباس ضِمْنَ أُطُرٍ أقربُ ما تكون إلى المحاكاة، والغفلة عن المقاصد الشرعية، ذلك أن التقليد الذي يعني المحاكاة ومشابهة سلوك الببغاء، مُختلِفٌ عن الاقتداء والتأسّي، الذي يعني العلم والإحاطة، وإدراك مناط الحكم ومقاصده.

" إنّ الانحباس ضمن الأشكال، أو المحاكاة للمبادئ، بعيداً عن النَفَاذِ إلى المعاني، والمقاصد، بمقدور الأطفال أنْ يقوموا به، وهو مِنْ أدنى وظائف العقل، إنْ كان للعقل مَدْخَلٌ في ذلك، أمّا النفاذ إلى المعاني والمقاصد وبلوغ الرشد، فهي الإشكالية التي نعاني من غيابها اليوم"[٣٦]

---

[٣٥] د.أبو سليمان، أزمة العقل المسلم . ص٣٤ - ٣٥ .

[٣٦] حسنة ، عمر عبيد ، في منهجية الاقتداء ، ص٤٢ المكتب الإسلامي، عمان، ط١، ١٤١٧هـ ١٩٩٧م .

المطلب الثالث

اختلال المفاهيم والقيم واختلاطها

خلال المسيرةِ الطويلة لهذه الأمة، حدثت انحرافاتٌ كثيرةٌ في حياة المسلمين، وكان الانحرافُ الأخطرُ في حياتهم؛ الانحرافَ في المفاهيم والقِيَم عند المسلمين، وهو انحرافٌ عن التصوُّر الصحيح الذي جاء به الإسلام .

إنَّ هذهِ المفاهيم ترتبط ارتباطاً وثيقاً، بحياة كل مسلم، اعتقاداً، وسلوكاً، وقولاً، وفِعلاً، ابتداء بشهادة "لا اله إلا الله"، وانتهاء بالمفاهيم العامة للمسلم عن الكون والحياة . وقد آلَ أمرُ المسلمين إلى ما نشاهده في أيامنا هذه، وما نمارسه في حياتنا، حيث إنَّ الأعمالَ والأفعالَ التي يقوم بها كثيرٌ من المسلمين، هي نِتاجُ تطبيقٍ لهذا الخلل الكبير الذي حصل للمفاهيم والقيم، في أذهان المسلمين. ولعلَّ الحديث الذي أخرجه الإمام مسلم ـ رحمه الله ـ عن حذيفة بن اليمان ـ رضي الله عنه ـ يُبيِّن حقيقة هذا التبدُّل، والانقلاب، والانحراف الذي حصل في حياة المسلمين، وهو انقلاب حقيقي في المفاهيم والقيم .

هذا التبدُّلُ والانقلابُ، في القِيَمِ والمفاهيم، وحتى العقائد، لم يكن بِمَعْزِلٍ عن الأسباب التي تم ذكرها في المطالب السابقة، من الافتراق بين الحُكَّام والعُلماء، وتقليد الآخرين من غير المسلمين والتشبُّه بهم، فقد وَرَدَ في الحديث عن حُذيفةَ بنِ اليمان ـ رضي الله عنه ـ أنَّه قال : **" كان الناسُ يسألون رسولَ الله ﷺ عن الخير، وكنتُ أسألُه عن الشَّر، مَخافةَ أنْ يُدْرِكَني، فقلت: يا رسول الله، إنَّا كُنَّا في جاهلية وَشَرٍّ، فجاءنا اللهُ بهذا الخير، فهل بَعْدَ هذا الخيرِ شرٌّ؟ قال: نعم. فقلتُ: هل بعَدَ ذلك الشَّرِّ مِنْ خير؟ قال نعم، وفيه دَخَن . قلت: وما دَخَنُه؟ قال: قوم يَستَنُّونَ بِغير سُنَّتي، ويَهتدونَ بغير هدْيِي، تَعرفُ مِنْهم وتُنْكِر. فقلت: هل بعد ذلك الخير مِنْ شرٍّ؟ قال: نعم، دُعاةٌ على أبواب جهنَّم، منْ أجابهم إليها قَذَفُوه فيها. فَقُلتُ: يا رسولَ الله، صِفْهُمْ لَنا. قال: نعم، قَوْمٌ مِنْ جِلْدَتِنا ويَتَكلَّمُون بألْسِنَتِنا. قلت: يا رسولَ الله، فَمَا تَرى إنْ أدرَكَني ذلك؟ قال: تَلْزمُ جماعةَ المسلمين وإمامَهم . فقلت: فإنْ لمْ تَكنْ لهم جَمَاعةٌ ولا إمام، قال: فاعتزل تلك الفرقَ كلَّها، ولَوْ أنْ تَعَضَّ على أصل شجرة، حتى يُدرِكَك الموتُ وأنت على ذلك "** [٣٧]

---

[٣٧] مسلم ، صحيح مسلم ،كتاب الإمارة ، باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين ثم ظهور الفتن وفي كل حال وتحريم الخروج على الطاعة ومفارقة الجماعة ، حديث١٨٤٧. ٣/ ١٤٧٥

إنّ هذا الحديث قد بيَّن عِدَّة تحوُّلات وتغيُّرات، ستَحْدُثُ في المجتمع المسلم، ومنها تَقلُّب المجتمع بين الخَيرِ والشَّرِّ، وهذا التقلُّب الحاصلُ في المجتمع، يحصُلُ مُتَرَافقاً مع الإدراك لطبيعة كلٍّ منهما، ومَعَ وُضوحٍ في القِيَم والمفاهيم، وخَلَلٍ في التطبيق . ويُخبِرُ الحديث أيضاً عن حالة أخرى، تَخْتَلُّ فيها المفاهيم، بحيث يُخالِطُ الشَّرُّ فيها الخيرَ، أيْ لا يكون خيراً محضاً **بل فيه "دَخَن "**، وهذا فيه دِلالةٌ على الانقلاب والاختلاط الذي خالط الخير والصواب ، بحيث تتغير المفاهيم وتنقلب، فَيكون مآلُ الأمرِ بعْدَ ذلك، وُجُودَ قَوْمٍ يَستنُّونَ بِغيرِ السُّنَّة النبوية، ويهتدون بغير الهدي النبوي .

وقد فسّر الرسول ﷺ هذا الدَّخَن بقوله:**"قوم يستنُّون بغير سُنَّتي، ويهتدون بغير هديِي "** ، ولا يكون ذلك إلا باختلال المفاهيم والقيم واختلاطها، حتى يَصِلَ الأمْرُ بعد ذلك، إلى مَرْحلة الانحرافِ الكامل عن الدين، بِوُجُودِ **" دعاة على أبواب جهنم "** . وقدْ بيَّنَ الرسولُ ﷺ أنَّهم لَيسُوا بعيدين عن هذه الأمة، بل هم منها **" قوم من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا"**. إنَّ هؤلاء القوم، الذين لا يهتدون بِهَدْيِ الرسول ﷺ ، لَيْسُوا فِئة عديمة التأثير، بل هم مِنْ عِلْيَةِ القوم وساداتِهم، إنَّهم أئمةٌ قادةٌ، يَملِكونَ تأثيراً ونُفُوذاً وسُلْطةً في مجتمعهم . وقد جاء في رواية أخرى، عند مسلم :**" يكون بعدي أئمة، لا يهتدون بهُداي، ولا يستنون بسنتي "**، فهذه الرواية فيها بيانٌ، أنَّ مَنْ يَقُودُ هذا الانقلاب والتغيير، هم قادة في هذه الأمة، لقوله ﷺ **" يكون بعدي أئمة "**.

إنَّ عمليةَ التبديلِ والتغييرِ في المجتمعات، التغيير في القناعات، والأفكار، والقِيَم، التي تتم بِيَدِ أئمة الضلال هؤلاء، تُحدِثُ انقلاباً جذرياً في المجتمع، بِفِعْلِ ما يملِكونَ من الوسائل والأدوات والتأثير، وبخاصةٍ عندما يكونون موضعاً للاقتداء من قِبَل البقية، بحيث تنقاد لهم الشعوب في دعواتهم، مناصرةً وتأييداً، وقد تنقاد لهم المجتمعاتُ لِشِدَّةِ بأسِهم وطُغْيانِهم، خُضُوعاً واستسلاماً للأمر الواقع، طلباً للسلامة في دنياهم .

ومِنَ المفاهيم التي تغيَّرَتْ عند أكثرية المسلمين، بحيث لم يَعُدْ لها أثَرٌ في حياتهم، التي صُبِغَتْ به حياةُ المسلمين في صدر الإسلام، فَتَغَيَّروا وغَيَّروا وبدَّلوا: مفهوم " لا اله إلا الله" . فقد تحوَّل إلى كلمةٍ تُقَال باللسان، لا علاقةَ لها بالواقع، ولا أثَرَ لها في حياة المسلمين .

إنَّ مفهوم " لا إلهَ إلا الله" يعني الاستسلام والخضوع لله رب العالمين، فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، فلا طاعة مُطلَقَةٌ إلاَّ للواحد الأحد . ويعني أنْ يكون الله ـ تعالى ـ أحبَّ للإنسان مما سواه، فلا محبَّة من المسلم، تَعْلُو على مَحَبَّتِه لله تعالى . وقد كان قادة المجتمع في الجاهلية الأولى يُدركون هذا المعنى، فَعندما خاطبهم رسول الله ﷺ وطَلَبَ منهم أنْ يُعطُوه كلمةً تدين لهم

بها العرب والعجم - أي كلمة التوحيد - وقال له أبو جهل: وأبيكَ عشْرُ كلمات، ولكنّهم نَكَصوا عن ذلكَ لِمَّا علموا ماهيَّةَ الكلمةِ المطلوبة منهم. ولذلك رَفضت قريشٌ - ومنهم أبو جهل - أنْ يُقِرُّوا بهذا المفهوم ،حيث صرَّحوا بأنّها تعني الإقرار بِوَحدانية الله تعالى، وهذا على نقيض ما يعتقدونه من تَعَدُّدِ الآلهة [38].

رُبَّما كان إدراك قريش وزُعمائها لمعنى " لا اله إلا الله" ومضمونها، أوضحَ مما يُدركه كثيرٌ من المسلمين، الذي تحَوَّلَتْ لديهم كلمةُ " لا اله إلا الله" إلى كلمة تُنطَقُ باللسان، دون أنْ تستقرَّ في الجَوْف، ولو تأمَّلْنا حروفها، سَنَجِدُ أنّها حروف جوفية، ومِنْ حقِّ هذه الكلمة " لا اله إلا الله" أنْ تكونَ صادرة مِنْ قَلْبِ الإنسان، لا مِنْ لسانه.

" وأمَّا مفهومُ " العبادة " فقد حَصَرَه غالبية المسلمين في شعائرِ التعبُّد: الصلاة، والزكاة، والصوم، والحج، من أدَّاها فقد أدّى كل ما عليه من العبادة، ولم يَعُدْ مُطالَباً بشيءٍ من التكاليف أمام الله ! فضلاً عمّا أصاب الشعائر التعبدية ذاتَها من عُزْلةٍ كاملةٍ عن واقع الحياة، كأنّها شيءٌ ليس له مُقتضى في الحياة الدنيا ولا تأثير !

رُبَّما ترسَّخ مفهوم " العبادة " بهذه الصورة لدى غالبية المسلمين، كنتيجةٍ غير مُتَوقَّعةٍ لِصَنيع الفقهاء، في كُتُب الفقه، حيث دَرَجوا على تقسيم أبواب الفقه إلى: عبادات، ومعاملات، وغيرها، باعتبار أنَّ العبادات يُشتَرَطُ لصحتها " النِّيَّة"، بخلاف البقية . فَظَنَّ كثيرٌ من المسلمين أنَّ العبادة هي هذه العبادات، ومِنْ هنا وقع الخطأ في تصَوُّر مفهوم " العبادة " بمعناها الواسع، الذي يعني: الانقياد والخضوع والاستسلام والطاعة لله في كل أمر .

وأمَّا مفهومُ " القضاء والقدر " الذي كان في صورته - كَمَا أدركه وفهِمَه مُسْلِمُو صَدْرِ الإسلام - قوةً دافعةً رافعةً، تدفعُ المسلمَ إلى العمل والنشاط والحركة والأخذ بالأسباب، تحقيقاً لمعنى التوكُّل على الله . فانقلب مفهومُ " القضاء والقدر " بعد ذلك، إلى العجز والكَسَل، وترْك العمل، وإهمال الأسباب، وإغفال السُّنن الجارية التي تسير الحياة بناء عليها، فضلاً عما صاحب ذلك من استخدام القوى الخفية من السحر والجن ... إلخ .

وأمَّا مفهومُ الدنيا والآخرة – الذي يربط الدنيا بالآخرة، ويجعل الدنيا مزرعةَ الآخرة، فقد تحوَّلَ إلى فَصْلٍ كاملٍ بين الدنيا والآخرة، يجعلهما موضع التضاد الكامل، بحيث أنَّ مَنْ أراد الدنيا ترَكَ

---

[38] ابن هشام، عبد الملك بن هشام، السيرة النبوية، باب وفاة أبي طالب ،٦٦/٢ تحقيق: د. عمر تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٣، ١٤١٠هـ، ١٩٩٠م.

الآخرة، ومَنْ أراد الآخرة تَرَكَ الدنيا، واكتفى فيها بالكفاف، وحبَّبَ إلى نفسه الزُهد فيها، وأثنى على الفقْر، وصِرْنا نُرَبِّي الأجيالَ على ذلك .

وأما عِمارة الأرض، فلا حاجة للمسلم إلى ذلك، باعتبار أنَّ غايتَنا وهدَفَنا هو الآخرة، حيث أُهمِلتْ عِمارةُ الأرض، حين أُهمِلتْ الدنيا، مِنْ أجْل الآخرة، فخيَم على الناس الفقرُ، والجهلُ والمرضُ والتخلُّفُ الحضاري، والمادي، والعلمي، والعقلي. وزاد على ذلك - في حِسِّهم وتصوُّرِهم - أنَّ تلكَ الأمراض الاجتماعية كلَّها، قَدَرٌ مقدور من عند الله، لا حِيلةَ لهم فيها، إلا بالتسليم والرضا بما قدَّره الله " [٣٩]

إن هذا الواقع الذي نعيش فيه، لم يكن ليُوجَدَ بين ليلة وضحاها، بل تدرُّج التغيُّر نحو الانحطاط والتقهقر، والتراجع في الميادين كافة، حتى وصل إلى قَلْبِ الأمور، متمثِّلاً بالانحراف والاختلاط في القيَم والمفاهيم .

فقَدْ أصاب الأمةَ الإسلامية تخلُّفٌ ماديٌّ، نتيجةً لِتخلُّفِها الديني الذي بلغ – مع تَوَالي الأيام والسنين- درَجاتٍ خطيرة، إلى الحد الذي غابت فيه معالم السنن، وحدثَ تشويهٌ في العقائد، واضطرابٌ في المفاهيم، حتى ابتعَدَت المجتمعاتُ الإسلامية عن "التصور الإسلامي للحياة" .

وصارَ واقعُها بعيداً عن "النظام الإسلامي للحياة" ، حتى أمسَتْ هذه المجتمعات أقرب إلى المجتمعات الجاهلية، وإنْ انْتَسَبت إلى الإسلام بالاسم، وهكذا ظلَّت هذه المجتمعات تدور في هذه الحلقة المفرغة، حتى انتهت إلى أنْ تُصبحَ غريبةً غُرْبةً كاملة عن الإسلام[٤٠] .

مَنْ يَستطلع واقعَ المسلمين اليوم، يرى أنَّ الموجودَ في حياة الأمة ليس هو الإسلامُ الذي أنزله الله، وليس هو الإسلامُ الذي صَنَعَ خيْرَ أمَّةٍ أُخْرِجتْ للناس . فالاحتكاك مع الغرب، بِفِعْلِ الوسائل الحديثة الموجودة، مِنْ فَضائيَّاتٍ، وانترنت،وغيرها، تَرَكَ الباب مُشرَعاً أمام غزو المفاهيم الغربيَّة لمجتمعنا الإسلاميّ، حيث أصبح التبدُّل في المفاهيم والقِيَم مُتسارعاً وجَذْرِيّاً، مِنْ خلال أنماط التفكير، والسلوك، والقِيَم، التي تتناقض مع دين الإسلام، والتي أصبح يتبنَّاها أبناؤنا وأحفادُنا .

فها نحنُ أصبحنا نرى المعروفَ مُنكراً، والمنكرَ معروفاً، فأصبح الأمرُ بالمعروف، والنهيُ عن المنكر، عند كثيرٍ من الناس، مدعاةً للاستنكار والاستهجان، وإثارةً للفتنة، والطائفية، وإفساداً

---

[٣٩] قطب، محمد، واقعنا المعاصر، ص ٩مؤسسة المدينة للصحافة، جدة، ط٢ ١٤٠٨هـ ١٩٨٧م . انظر للمؤلف: قطب ،" مفاهيم ينبغي أن تصحح" ، دار الشروق ، القاهرة .

[٤٠] قطب، سيد، مقومات التصور الإسلامي، ص ٢٢- ٢٣ دار الشروق ، القاهرة ،ط٣ ،١٤١٨هـ ١٩٩٧م .

للاستقرار، فأصبح الربا فائدة، وأصبح الاختلاسُ والسرقة ذكاءً ونباهة، وأصبحت العمالة ورهن قضايا الأمة في يدِ أعدائها بطولة وحنكة سياسية . بحيث يصدقُ على هذه الحال، حديثُ رسول الله ﷺ ، حيث قال " **إذا فَعَلَتْ أُمَّتِي خَمْسَ عشْرَةَ خَصلةً حلَّ بها البلاء" قيل: وما هُنَّ يا رسول الله؟ إذا كان المَغْنَمُ دُوَلاً، والأمانة مَغْنَماً، والزكاةُ مَغْرَماً،...**" [41]

إننا في زمنٍ ابتعدْنا فيه عن كتاب ربنا وسنة نبينا، فأصبحنا نرى الأمور من منظار آخر غير ما ارتضاه لنا ربنا، فأصبحتْ المغانمُ مُتَداوَلَةً بين قِلَّة من الناس، يستأثرون بها، ولا نصيبَ فيها لِبقيَّةِ المسلمين، حيثُ يتنعَّمون فيها، ولا يأبهون لحالِ غيرِهم، من أبناء أُمَّتهم، الذين يُعانُون من الفاقةِ والحِرمان، وشَظَفِ العيش، والمجاعاتِ التي أهلكتهم . وصارت الأماناتُ المُودَعَةُ مغانمَ، لِمَنْ استُودِعَتْ عندهم الأمانات، وأصبحَتْ فريضةُ الزكاة مَغرماً، يضنُّ الإنسان بإخراجها، ويضيقُ صدرُه، ويتبرَّم لسانه عند أدائها، ويودُّ لو أعفِيَ منها .

وهذا الواقع يُعطي صورةً واضحةً تدل على تبدّل المفاهيم، وقد جاء في الحديث الوارد عن رسول الله ﷺ أنه قال: "**كيف أنتم إذا كثرت أمراؤكم وطغت نساؤكم ؟ قالوا: وإن ذلك كائن يا رسول الله؟ فقال: نعم وأشدُّ من ذلك . قالوا : وما هو يا رسول الله ؟ قال : لا تأمرون بمعروف ولا تنهون عن منكر . قالوا: وإن ذلك كائن يا رسول الله ؟ قال: نعم، وأكثر من ذلك . قالوا : وما هو يا رسول الله ؟ قال : لا تعرفون المعروف ، ولا تنكرون المنكر . قالوا: وإن ذلك كائن يا رسول الله ؟ قال: نعم، وأكثر من ذلك . قال: يكون المعروف فيكم منكراً ، ويكون المنكر فيكم معروفاً**" [42] .

إنَّ الواقع المُشاهَد في هذه الأيام، يُؤكِّد ما جاء به هذا الحديث، ويَنطق به، فالحديث يتحدَّثُ بوضوح، عن خَطَرِ التغيُّر في المفاهيم، الذي وصَلَ إلى درجة الانقلاب، ويَعدُّ هذا الانقلاب والتبدُّل، شراً أشدَّ مِنْ تَرْكِ فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

---

[41] الترمذي، الجامع الكبير، كتاب الفتن، باب ما جاء في علامة حلول المسخ والخسف، حديث(٢٢١٠) ،وقال: هذا حديث غريب، لا نعرفه من حديث علي بن أبي طالب إلا من هذا الوجه، والفرج بن فضالة ضعَّفه بعض اهل العلم. وقال الألباني : ضعيف . الألباني، ضعيف سنن الترمذي، مكتبة المعارف، ط١، الرياض، ١٤٢٠هـ ٢٠٠٠م . ص ٢١٤.

[42] ابن أبي الدنيا، عبد الله بن محمد(٢٨١هـ)،الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حديث(٧٩) ص١١٦، رواه عبد الله بن السائب عن ابن مسعود وروايته مرسلة، فيها انقطاع، تحقيق صلاح الشلاحي، مكتبة الغرباء ، المدينة المنورة،ط١، ١٤١٨هـ ١٩٩٧م. قلت: الحديث ضعيف للانقطاع، ولشطره الأخير شاهد ضعيف عن أبي هريرة عند الطبراني، الطبراني ،المعجم الأوسط ، حديث (٩٣٢٥) وقال : لم يرو هذا الحديث عن الأعمش إلا ياسين، ولا عن ياسين إلا عبدالمجيد، تفرّد به حريز بن المسلم .١٢٩/٩ (٣٢٥٤). وقال الهيثمي في " مجمع الزوائد": وفي إسناد الطبراني حريز بن المسلم ولم أعرفه، و همام بن يحيى لم أعرفه . الهيثمي، مجمع الزوائد، ٢٨٠/٧ وقال الألباني : ضعيف، والأفة من ياسين الزيات فإنه مجمع على ضعفه الألباني، سلسلة الأحاديث الضعيفة، ٣٤٣/١١ - ٣٤٥ (٥٢٠٤) مكتبة المعارف، الرياض.

فابتعدنا عن أجواء الطُهْرِ، والعَفاف الفِكْري والسياسي، في حياتنا العامة، وتَمَرّغنا في وَحْلِ الشُبُهات والمُوبقات. كُنّا نَستظِلُ في ظِلِّ القرآن العظيم، والسُنة المُطهَّرة، فأبَيْنا إلاّ هُجرانَهما والتخلّي عنهما، فانْقلبت الأمور، وتَغَيَّرَتْ الأحوال، وتبدَّلت القِيَم، وأصبحتْ وسائلُ إعلامِنا مَليئةً بالفِتن والمفاسد، وصار أبناؤنا وبناتنا غارقينَ فيها، وظهرت أنماطٌ من سلوكهم وأفعالهم وتصرُّفاتهم، تُنبئ عن واقعٍ بعيدٍ كلَّ البُعْدِ عن قِيمِ الإسلام ودعوته .

من هذه المفاهيم التي تبدَّلَتْ وتغيَّرَتْ، ما يَرتبطُ بالقِيَم الاجتماعيَّة التي تمسّ سلوكَ الإنسان في حياته، وطريقته في التعامل مع الآخرين، بل يمكن القولُ: إنَّ كثيراً من هذه المفاهيم، لها تَمَاسٌّ واتصالٌ بالواقع الاجتماعي، للأفراد والجماعات في هذه الأمة، مِنْ حيث الصلاحُ والفسادُ، الذي ينتشر في المجتمع .

وقد بيَن الحديثُ أحوالَ الناس في ذلك، وتدرُّجها من خلال حالاتٍ ثلاثٍ متواليات:

فالحالةُ الأولى: فيها تقصيرٌ في الأمرِ بالمعرف، والنهي عن المنكر، بحيث يُترَكُ الأمرُ بالمعروف والنهيُ عن المنكر . أمّا الحالة الثانية: فأشدُّ مِنَ الأولى بِكَثير، وذلك عندما ينقلب الحالُ، فيُؤمَرُ بالمنكر، ويُنهى عن المعروف، وهي أشدُّ من الأولى، لأنَّ الواجبَ على كل مسلم إنكارُ المُنْكر، كُلٌّ حسب قُدرَتِه واستطاعته، فإذا تعذَّر عليه إنكارُ المنكرِ باليد أو باللسان، فأدنى الدرجات أنْ يُنكرَ المنكر بِقَلبِه .

ومع ذلك فإنّ في الحالتين: الأولى والثانية، حدوداً واضحةً للتمييز بين المعروف والمنكر، فالأولى، يكونُ التقصيرُ في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والثانية، يكون التقصير مُضَاعَفاً، بالأمر بالمنكر، والنهي عن المعروف، ففي كلتا الحالتين تبقى معالمُ المعروف والمنكر واضحة. أمّا الحالةُ الثالثةُ: فهي أخْطَرُ الحالات، وأشدُّها ضرراً على المجتمع والأمة، وهي الحالة التي يُصبح فيها المعروفُ منكراً، والمنكرُ معروفاً، وهذه الحالة تدلُ على حقيقة الانقلاب الخطير في المفاهيم ـ والذي سيترك أثرَه على الأمة ـ بحيث يُغيِّر حالَها، وواقِعَها، لِتكونَ بعيدةً عن الإسلام، تفقِدُ الأمةَ بهذا الانقلاب، تَميُّزها عن غيرها من الأمم، في كثير من الأمور .

يَصْدُق فيهم، وينطبق عليهم حديثُ رسول الله ﷺ حيث قال:" **كيفَ أنتَ يا عبد الله بن عمرو! إذا بَقِيتَ في حُثالةٍ من الناس؟ قال: وذاك ما هم يا رسول الله، قال: ذاك إذا مَرِجَتْ أماناتُهم**

وعُهُودُهم، وصاروا هكذا: وشبَّكَ بينَ أصابعه . قال: فكيف ترى يا رسول الله؟! قال: تعملُ ما تَعرِفُ، وتَدَعُ ما تُنكِر، وتعمَلُ بِخاصَّةِ نَفْسِكَ، وتدَعُ عَوَامَّ النّاس " [٤٣]

وهذا التبدُّل والانقلاب في كل شيء، لا يكون إلاّ عندما يبقى شِرار الناس وأراذِلُهم، الذين لا خير فيهم، حيث تَختلطُ أمورُ الناس وتَلتبِسُ عليهم، بحيثُ يجبُ على من طلبَ النجاة مِنْ هذه الحالِ، تَرْكُ عوامِّ الناس، والانصراف إلى خاصة نفسه، فيعملُ بما يعرف، ويتركُ ما يُنكر. وما نشاهده في هذه الأيام، يُؤكِّدُ خطورة هذا الانقلاب في المفاهيم، ومن أمثلة ذلك : إنَّ الذي يأكلُ المالَ الحرامَ، يُسمَّى عند الناس ذكيًا، والفتاةُ المتبرّجةُ تُسمَّى بالتعبير المعاصر فتاةً مُتحضّرةً، والذي يُداهنُ الناسَ في دينه، يُسمَّى لَبِقاً ومَرِناً. فالقِيمُ تبدَّلَتْ وانقلبتْ. لذلك كانت أخطرَ مَرْحلَةٍ تَمُرُّ بها الأمة، المرحلةُ التي أصبح فيها المعروفُ مُنكَراً، والمنكرُ معروفاً.

وخُلاصة الأمر، إنَّ في هذا الحديث بيانٌ لمسارات السقوط، ومَرَاحل الانحطاط، التي آلت وستؤولُ الأمةُ إليها، حيث قسّمها إلى ثلاثِ مَرَاحل :

المَرحلةُ الأولى : مَرْحَلَةُ التحلُّلِ العَمَلي، وبُرُوزِ الفساد السُّلُوكي في الأمة، بِتَناسي القيامِ بالفريضة، وأدائها على الوجه الصحيح، مِنْ خِلال تَرْكِ الأمرِ بالمعروف، والنهيِ عن المنكر .

المَرحلةُ الثانية : مَرْحَلَةُ الانقلابِ السُّلُوكي العام، الذي يُمارِس الناسُ فيه، دَوْراً مُناقِضاً تماماً لِدَوْرِهم المَنُوطِ بهم؛ فاسْتَحلُّوا المُنكَرَ، وتَرَكُوا المعروف .

المَرحلةُ الثالثة : مَرْحَلةُ مَسْخِ الهويَّةِ، والطَّمْسِ على العقول والقلوب، مِنْ خلال تَغيُّر النَّظْرَة إلى الأشياء وتَبَدُّلِها، فَبَعْدَ أنْ كان الفَرْدُ يُمارِسُ المُنْكَر، ويَتْرُكُ المعروف، مَع عِلْمِه بأنَّ ما يُمارِسُه هو المُنْكَر، وأنَّ ما يَتْرُكُه هو المعروف، ولِشِدَّةِ المُدَاومَةِ على ذلك، انتقلَ التغيُّرُ والتبدُّلُ مِن السلوكيات والتصرفات، إلى المفاهيم والقيم، لِيصلَ الفَرْدَ والمُجتمعَ إلى المَرْحلةِ الثالثة، وهي رُؤيةُ المعروفِ مُنْكَراً، ورؤيةُ المُنكَرِ معروفاً، بحيث أصبح المجتمعُ والأمَّةُ على هذه الحالة .

---

[٤٣] ابن ماجة، محمد بن يزيد القزويني، السنن مع شروحها، كتاب الفتن، باب التثبت في الفتن، حديث(٣٩٥٧) ص١٤٤١، وعزى المحقق صحته للألباني، تحقيق: رائد صبري، بيت الأفكار الدولية. ابن حبان، الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان لابن بلبان وبهامشه التعليقات الحسان للألباني، كتاب الرهن، باب ما جاء في الفتن، حديث(٥٩٢٠) ، وقال الألباني: صحيح. ٣٥٩/٨. دار باوزير ،السعودية ، ط١، ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٣م .

فهذه المَرَاحلُ تُبيِّنُ أسبابَ التَّخَلُّفِ أو الانحرافِ كُلِّها، في المجالات والميادين جميعِها. فَالوَضْعُ السياسيُّ الاستبداديُّ المُتَرَدِّي، والاقتصاديُّ المُتَهالِكُ، والدِّينيُّ المُنافِقُ أو المُهادِنُ، والاجتماعيُّ الصامتُ المُغَيَّبُ، والثقافيُّ المُفَرَّغُ مِنْ أيِّ وَعْيٍ حَقيقيٍّ، والمُنكَراتُ التي يفعلُها بعضُهم، ويَظُنُّ أنَّها مَعْرُوفٌ.

فَالبِدْعةُ سُنَّةٌ، وَالسُّنَّةُ بِدعةٌ، فهذا تَحلُّلٌ عَمَليٌّ وسُلُوكيٌّ، نَرَاه ونَلْمِسُه، ويُنسَبُ لِلدِّينِ بِاسْمِ الفريضةِ والواجبِ، وانقلابٌ على مفاهِيمِ الدِّين، وتفسيرُها تفسيراً خاطئاً، وهو ما يُؤدي إلى مَسْخِ الهويةِ الحقيقيةِ لِلدِّين، الذي إنَّما جاء لِيُرسي قواعِدَ الرَّحْمَةِ والإنسانية ، وضَبْطِ الحقوق والواجبات .

" وَنتيجةً لما وَرَدَ على هذه الأمة، وخَالَطَ فِكْرَها من جاهليات الأمم التي دخلت الإسلام، وما تشرَّبته تلك الأمم من الثقافة والفلسفة، فإنَّ مِنْ أهم المفاهيم التي أصابها الغَبَشُ، وعَلِقَ بها كثيرٌ من الشوائب والأوهام، مفهوم غائية الخلق والوجود، ومفهوم حُرِّيَّة القرار والإرادة، ومفهوم كلية التوكل، ومفهوم سببية الأداء والفِعْل الإنساني" [44]. حيثُ أصاب الخللُ تفكيرَ الإنسان المسلم وسعيَه في الحياة، فأصبحت حياتُه بِلا هدَف، تمَّ الفَصْلُ فيها بين أمر الدنيا وأمر الآخرة، وصار الإنسان فيها مضطرب التفكير، في قضية حرية الإرادة، وهل الإنسان مسيَّرٌ أم مُخيَّر؟ وهل عليه السعي والأخذ بالأسباب، أم أنَّ كلَّ شيء مُقدَّرٌ فلا حاجة إلى العمل والسعي والأخذ بالأسباب؟!

[44] أبو سليمان، قضية المنهجية في الفكر الإسلامي، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ١٤٠٩هـ ١٩٨٩م. ص١٩ .

المطلب الرابع

الرواسب والمؤثرات الأجنبية الدخيلة

إن عامة الرواسب والمؤثرات الأجنبية الدخيلة، تُعَدُّ أحَدَ أسباب أزمة العقل المسلم، بل وأهمُها، لأنّ سُلوكَ الناس، وأعمالَهم، وتصرُّفاتِهم، تَبَعٌ لِمَا يعتقدون، ولِمَا يَحمِلون من أفكار.

إنّ أغلب ما توارثه المسلمون في العصر الحاضر، عمّا سبقهم من الآباء والأجداد يتناقَضُ مع الذي دعا إليه الإسلامُ وحَثَّ عليه، وهو ما يُمْكنُ تَسميتُه بالجاهلية. فالجاهليةُ في حقيقتها، وجوهرها كما صوَّرها الإسلامُ وبيّنها، معناها: الضلالُ، والتِيهُ، والانحرافُ عن مَنْهج الله، والتنكُّرُ لعبادته.

فهي في العُرْف الإسلامي، دِينٌ ومَنْهجُ حياةٍ، يَتَمَحْوَرُ على خَطٍّ مُضادٍ لِخَطِ الإسلام، في الطَّبيعة والغاية، ويَسيرُ بِمَسارِ الضَّلالِ، والانحراف عن مَنهجِ الدين الحق، وشريعة الله الهادية للإنسان .

فالجاهليةُ طريقةُ حياةٍ، لَهَا عقيدتُها، ومنهجُ تفكيرِها، ولَهَا نَظامُها، وصِيغةُ حياتِها المُمَيِّزةُ لِمُجتمعِها ـ بكل ما فيه ـ من أخلاقٍ، وعباداتٍ، ومفاهيمٍ، ونَظْرَةٍ للحياة، وطَريقةٍ لِصُنْعِ الحضارة، وتوجيهٍ للنشاط البشري، من ثقافةٍ، وفَنٍ، وأدَبٍ، وقُوىً مادية . .الخ .

ومِنْ أبرز ظواهِرها المَرَضِيَّةِ التي بيّنها القرآنُ الكريم :الظلمُ، والتكَبُّرُ، والإسرافُ، والانحرافُ، والإفسادُ في الأرض، وسَفْكُ الدماء، والسُخْريةُ مِن الحق، والتَّبعيَّةُ العمياءُ لِقَادةِ الضلال والفساد، واتِّباعُ الشَهَوَاتِ والأهواء.

وحيثما وُجِدتْ هذه الصِّفَةُ، صِفَةُ الشَرِ والفساد، في العقيدةِ والنظامِ، وأُسلُوبِ الحياةِ، اسْتَطَعْنا أنْ نَصِفَ الحياةَ الإنسانيةَ المُتَمَرِّغةِ في أوحالِها، بأنَّها حياةٌ جاهلية، وأنْ نُطْلِقَ على الإنسان المُرْتَكِسِ في ضَلالِها اسمَ(الجاهلي)، أوْ اسمَ (الضَّال)، وأنْ نُسَمِّي هؤلاء المُنْحرفينَ (الضالين)، وهي حالُ مَنْ يَجْهلُ الطريقَ، ويَتَخَبَّطُ بعيداً عن الحَقِ والهُدى، سَوَاءٌ في تفكيرِه ومُعْتقَدِه، أو في تَعَبُّدِه، ونِظامِ حياتِه، وأسلوبِ تعامله .

فالعَادَاتُ والسُلُوكاتُ التي يكتسِبُها الإنسانُ طِوالَ فَتْرةِ حياتِه، يَكُونُ لها نَصيبٌ كبيرٌ، في تكوينِ هذا الإنسانِ، مِنَ الناحيةِ الفِكريةِ والعَمَلِيةِ، بحيث يُصبِحُ الإنسانُ أسيراً لها، مِمَّا يَجْعلُ هذا

الإنسانَ، يُواجِهُ صُعُوبَةً في التَّخَلِّي عنها، لأنَّها عاداتٌ يتوارَثُها . وهذا ينطبق على الأفرادِ والجماعاتِ، في أيَّةِ أمَّةٍ من الأمم، والأمَّةُ الإسلاميةُ، بأفرادِها وجماعاتِها، ليست استثناءً من ذلك، لأن هذه من طبيعةِ البَشَرِ عموماً .

لذلك عَرَضَ لهذه الأمةِ، ما عَرَضَ للأمم الأخرى، من العَوْدةِ إلى العاداتِ، والرواسِبِ المُتَوارَثةِ من الجاهلية السابقة، وهذا ما يَتعارَضُ مع ما أمَرَ به الإسلامُ، ودعا إليه، وبخاصة عند مَنْ لمْ يتمكَّنْ الإسلامُ من قُلوبِهم. فالشُّعُوبُ التي دَخَلَتْ الإسلامَ، كانت في عهود انحطاطها عندما دَخَلَتْ الإسلام، ومَا حقَّقَتْهُ هذه الشعوبُ بعد ذلك، إنَّما كان بِفَضْلِ الإسلام، ومبادئِه ومُنْطَلَقاتِه .

" إنَّ ما وَقَعَتْ فيه هذه الشعوبُ الإسلاميةُ، بِالرَّغْمِ مِنْ قِيَمِ الإسلام، ومَبادئِه، وقُوَّةِ دَفْعِه، مِنْ انحرافاتٍ، وانْحِطاطٍ، اسْتَمَدَّتْ جُلَّ مادَّتِه مِنْ رَواسِبِ ماضيها، ومِنَ المُؤثِّراتِ الأجنبيةِ الدخيلةِ عليها، ولولا بقية من معاني الإسلام في نفوس الناس، لَكَانَ حَظُّ شعوبِ المسلمين أشدَّ ظُلْمَةً، وأكثرَ فَسَاداً، وأعتى جاهلية "[45] .

لذلك جاء التحذيرُ النَّبَوِيُّ، والنهيُ عن كثيرٍ من الرواسبِ، والأفكارِ الأجنبيةِ الدخيلةِ، التي تتعارض مع دعوة الإسلام . ومِنْ صُوَرِ رَوَاسبِ الجاهلية التي تحدَّث عنها النبي ﷺ حيث قال: " **أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهن :الفخر في الأحساب، والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم ، والنِّيَاحة** " وقال: " **النائحة إذا لم تتب قبل موتها تقام يوم القيامة وعليها سِرْبَالٌ**[46] **من قَطِرَان، ودِرْعٌ من جَرَب** "[47]

فهذا الحديث النَّبَوِيُّ، يُبيِّن بَعْضَ ما تَوَارَثَه بَعْضُ المسلمين مِنْ أمْرِ الجاهلية، مما يتعارض مع ما أمر به الإسلام، وانتقل مَعَهم لَمَّا أسلموا، بحيث صَبَغَتْ هذه الأمورُ الجاهليةُ المُتَوارَثة، مُعْتَقَداتِهم، وتَصرُّفاتِهم، وأقوالَهم، لِتَرجِعَ بِهِمُ القهقرى، بعدما تقدَّموا بالإسلام، وارتقى بهم في طريقة تفكيرهم وسلوكهم. فهذه الأمور الأربعة الواردة في الحديث، تصْرِفُ الإنسانَ عمَّا رغَّبَ فيه الإسلام، ودعا إليه، مِن كرامة الإنسان وإنسانيته، والمساواة بين الناس، وتَرْك العمل السلبي، والتعامل الإيجابي مع الواقع . إنَّ هذه الموروثات الجاهلية، تجعلُ مَنْ يستسلم لها، ويخضع لها، إنساناً سلبياً، عاجزاً، لا يُحسِنُ التعامل مع واقعه.

---

[45] أبو سليمان ، أزمة العقل المسلم . ص ٦٥ .

[46] السربال: ما لايلبسْ من قميص أو درع، والجمع سرابيل، وسربلته السربال فتسربله بمعنى: ألبسته إياه فلبسه. الفيومي، أحمد بن محمد بن علي(٧٧٠هـ)، المصباح المنير، ص١٠٤، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٨٧.

[47] مسلم ، صحيح مسلم ، كتاب الجنائز ، باب التشديد في النياحة ، حديث (٩٣٤) . ٦٤٤/٢

فهذه الأمورُ تَرَكَتْ أثراً سلبياً كبيراً عليهم، وهي مع غيرها من الرواسب، أدت مَعَ مُرُورِ الأيام والسنين، إلى النتيجة التي وَقَعنا فيها، مِنَ الانحطاطِ، والتخلُّف، والسَّلبية.

وذلك بالرُّغم مما قد وَرَدَ عن الرسولِ ﷺ من أحاديث متعدِّدة فيها تحذيرٌ لأمَّته من كثير من رواسب الجاهلية؛ ممَّا نهى عنها، كالطيرة، وإتيان الكهان، والتي تجعل مَنْ يُلازِمُها أسيراً للخرافات والأساطير، كَدَأبِ أهل الجاهلية في جاهليتهم.

ولَعلَّ مِنْ أخطرِ هذه الرواسب الجاهلية أثراً، مَا حَرِص الرسول ﷺ على أنْ يُوصِي أمَّته باجتنابِها وتَرْكِها، حيث قال: " **إنَّ دِماءَكم، وأموالَكم، حَرَامٌ عليكم، كَحُرْمَةِ يومِكم هذا، في شهرِكم هذا، في بلدِكم هذا. ألاَ كُلُّ شيءٍ مِنْ أمْرِ الجاهليةِ، تَحْتَ قَدَمَيَّ موضوعٌ، ودِماءُ الجاهلية موضوعةٌ، وإنَّ أوَّلَ دَمٍ أضَعُ مِن دمائِنا، دمَ ابنِ ربيعةِ بنِ الحارث. كان مُسْتَرْضَعاً في بني سعد، فَقَتَلَتْهُ هُذَيْل. وَرِبَا الجاهليةِ موضوعٌ، وأوَّلُ رِباً أضَعُ رِبَانَا، رِبَا عبَّاسِ بنِ عبدِ المُطَّلِب، فإنَّه موضوعٌ كُلُّه ...**"[48]

فهذه الأمور التي حرَّمَها الرسولُ ﷺ من أمرِ الجاهلية، لا يستقيم حال من أسلم بها، لأنَّها تتناقض ونَظْرةَ الإسلام، في أهم ناحيتين مُؤثِّرَتَيْن في المجتمع: الاجتماعية، والاقتصادية، فلا يُمْكنُ أنْ يقوم المجتمع المسلم، على ركائز الجاهلية وقِيَمِها المبنية على الظُّلم، وامتهان كرامة الإنسان، وإهدار إنسانيَّتِه .

ومِنَ الذي أوصى النبي ﷺ أمَّتَه، باجتنابِه وتَرْكِه من رواسب الجاهلية وأمورها،ما يعرفه الصغير والكبير، والقريب والبعيد، ألاَ وهو (ثَارَاتُ الجاهلية)، التي تَستَهدِفُ أشخاصاً أبرياء، لا ذَنْبَ لهم غالباً، حيثُ تُستباحُ دماؤهم دُونَ وجه حق، وما يَلْحَقُ ذلكَ مِنَ التَّشْريدِ، والنَّفْي، والآثارِ السلبيةِ الخطيرة، التي لا يعلمُ مَدَاها إلاَّ اللهُ تعالى . و(الربا) مِثْلُ ذلك أيضاً، من حيثُ الأثَرُ الخطير، المُدَمِّرُ للمجتمع، ومَا فيه مِنْ أكْلٍ للأموال بالباطل، وتدميرٍ لاقتصادِ الأمَّةِ، وجَعْلِها عالةً على الأمم الأخرى، فَهُوَ السببُ الرئيسُ لِغلاءِ الأسعار، وقِلَّةِ الإنتاج، وتفشِّي الفقْرِ، والبِطَالة، وكثيرٍ من المفاسد الاجتماعية والأخلاقية .

فيُلاحظ أنَّ المجتمعَ الذي يَرْتَكِسُ في رَوَاسِبِ الجاهلية، يَصيرُ أفرادُه أسرى للخرافات والأساطير، مُقَيَّدين في عُقُولِهم، وسَكَناتِهم، وحركاتهم، بِهذه الأساطير والخُرافات، وتُصبحُ لَدَيْهم قابِليةٌ كبيرةٌ، لِتقبُّل الأفكار الأجنبية الدخيلة، ويُصبحُ بِأفرادِه وجماعاتِه مجتمعاً حائراً، يَصْدُقُ

[48] مسلم، صحيح مسلم، كتاب الحج ، باب حجة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، حديث (١٢١٨) ٢/ ٨٨٦ ـــ ٨٨٩ .

عليهم الوَصْفُ الوارد في الحديث عن الرسول ﷺ حيث قال : " ...وإنَّه سَيَخرُج من أمتي أقوامٌ تَجَارى بِهم تلك الأهواء، كما يَتجَارى الكلبُ لصاحبه " [49] فَالحيرَةُ، والقَلَقُ، والضَّياعُ، والاضطرابُ، هي أبرزُ الظواهرِ المَرَضِيةِ، التي يَتَّصِفُ بها الإنسانُ الجاهليُّ بسبب التيه، والضلال، والبُعْدِ عن منهج الله، وشريعتِه. وهكذا يكونُ التِيهُ، والحيرةُ، والضلالُ، والانحرافُ، مِنَ الخصائصِ الأساسيةِ المُمَيِّزةِ للمجتمع الجاهلي، الغارقِ في أوحال الجريمةِ، والعَبَثِ، والظُّلْمِ، والفسادِ، والشَّهَوَاتِ .

وما جاء وَصْفُ الإسلامِ للإنسانِ الجاهليِّ، بأنَّه ضالٌّ، وتائِهٌ، وحائرٌ، ومُضْطَرِبٌ، إلاَّ لأنَّ هذا الإنسانَ، يُعاني مِنْ حالةٍ، فِكْريةٍ، ونَفْسيةٍ، مُضْطَرِبةٍ، ومَريضةٍ، تَنْسَحِبُ آثارُها، وأعْرَاضُها على كلِّ مَظَاهرِ الحياةِ والسلوكِ، التي يعيشُها هذا الإنسان .

وهكذا يَجِدُ الإنسانُ نَفْسَه في كلِّ عَصْرٍ ومَرْحلةٍ، أمامَ طريقتين في الحياة، وأُسلوبين للعيش فيها، ومَنْهَجَيْنِ للتعامل معها : مَنْهجِ الهُدى والإيمان، ومَنْهجِ الجاهلية والضلال.

تُعاني الأمَّةُ الإسلاميةُ في هذا العصر، مِمَّا تُعاني منه الأممُ والشعوبُ الأخرى، مِنْ جاهليةٍ وثَنيةٍ مُزمِنة، تُعدُّ من أخطر جاهليات التاريخ، بل هي مَصَبّ الجاهلياتِ، والانحرافاتِ المَرَضِيَّةِ التي عانت منها الأمم البائدة.

مَا مِن مَرَضٍ جاهليٍّ، ولا ظَاهرةٍ جاهليةٍ، ابْتُليتْ بها الأممُ المُتفرِّقةُ، إلاَّ وهِيَ موجودةٌ اليومَ، بِأبشعِ صُوَرِها في حضارة الإنسان المادية المعاصرة، فَالكُفْرُ، والإلحادُ، والتَّحلُّلُ الأخلاقي، والظلمُ، والعُدوانُ، والجَشَعُ، والتَّسلُّطُ، والاستغلالُ، والحروبُ، والإبادةُ، والفوضى الاجتماعيةُ، أصبحتْ مألوفةً، غيرَ مُستنكَرةٍ، يُمارِسُها الإنسانُ المعاصرُ بشكلٍ اعتياديٍّ في حياته اليومية .

بلْ إنَّ المسلمين الذين يؤمنون بدين الإسلام، مُضطرُّونَ أو راضون بالانسياق مع تلك التيارات الجاهلية، والانحدار في هاويتها السحيقة، إلاَّ أولئك المؤمنون الذين أدركوا هذا الخطر المدمِّر، فابتعدوا عنه ورفضوا الانسياق معه .

وخُلاصَةُ الأمْرِ، إنَّ الرَّوَاسبَ الجاهليةَ، والأفكارَ الأجنبيةَ الدخيلةَ، الوافدةَ على المجتمعات الإسلامية، في مختلف البقاع، أوْرَثَتْ المسلمين انقساماً وفُرْقةً، في تَوَجُّهاتِهم وأهدافِهم. وتَظْهرُ خُطُورَةُ الرواسبِ الجاهليةِ، والأفكارِ الأجنبيةِ الدخيلةِ، في أنَّها تُمثِّل الفِكْرَ والمُعْتَقَد الذي يَنطلقُ

[49] سبق تخريجه ص ٣١، أخرجه أبو داود وصححه الألباني .

الإنسانُ منه، في سلوكِه، وتَصرُّفِه، وحتى آرائه، وهو ما أسْهَمَ في مَزِيدٍ من التِيهِ والضياع، حيث أدّى ذلك كُلُّه إلى تفاقم أزمة العقل المسلم.

المطلب الخامس

التسلط والطغيان والاستبداد

هذه الأمور الثلاثة: التَّسَلُّطُ، والطُّغيانُ، والاستبدادُ، تُعَدُّ بِحَقٍ مَقْبَرَةً لأيَّة محاولة في الإصلاح والتغيير، وذلك لأنَّ الحاكم أو السُّلطان، يَتفرَّدُ فيه بالأمر، ويستأثِر بالسُّلْطَة والحُكم، فَيكون الحُكْمُ حُكْماً فَرْدِياً مُستبِداً، تعلو فيه فَرْدِيَّته على الأمة بمجموعها، ولا يكون ذلك إلاَّ بالتسلُّطِ والطغيان.

فالتسلُّطُ فيه حِدَّةٌ وشِدَّةٌ وسَطْوَة[٥٠]. والطُّغيان فيه مُجاوَزَةٌ للقَدْرِ وارتفاع وغُلُوّ[٥١]. والاستبداد فيه انفراد بالأمر والرأي والحُكْم[٥٢]. لذلك فإن الإصلاح في هذه الأحوال، يحتاج إلى مجاهدة، لما يواجهه كل من يريد الإصلاح، أو الأمْرِ بالمعروف، والنَّهيِ عن المُنكَرِ، من عَنَتٍ وشِدَّة وظُلم، من قِبَلِ أئمة الجور والمستبدين .

فَلا يُمْكِنُ القيامُ بفريضة الأمرِ بالمعروف، والنهيِ عن المنكر إلاَّ بمشقة كبيرة، في ظِلِّ واقِعٍ تُسيطرُ عليه هذه الحالاتُ الثلاث، ولا تجتمعُ هذه الأوصاف الثلاثة إلاَّ في حاكمٍ ظالم. ولذلك استحق مثل هذا الحاكم، أن يكون أوَّلَ الداخلين إلى النار يوم القيامة. وقد جاء في الحديث النَّبويِّ أنَّ الأميرَ الظالمَ أوَّلُ الثلاثة الذين يدخلون النار، فَعَنْ رسول الله ﷺ أنَّه قال : **"عُرِضَ عليَّ أولُ ثلاثةٍ يدخلون النار: أميرٌ مُسَلَّطٌ، وذو ثروة من مال لا يؤدي حق الله، وفقير فخور"** [٥٣] .

إنَّ الحُكْمَ الاستبدادي إذا استقرَّ في بَلَدٍ، حلَّ معه الخَوْف، وذهب الأمْنُ، وانتشر الفساد بمختَلَف أصنافه، السياسي، والاقتصادي، والاجتماعي، والأخلاقي، فسادٌ يعمُّ الحاكم والمحكوم، حيث إنَّ من منهج الحُكَّام الطُّغاةِ المستبِدِّين، زرعَ الشقاق والاختلاف بين شعوبهم، وتمزيقِهم شِيَعاً وأحزاباً، يُؤلِّبونهم ويُحرِّضون بعضهم على بعض، لِيَستقرَّ أمرُهم وحُكْمُهم .

وهذا المنهج الذي يسير عليه الحكام المستبدون الجائرون خَطَرٌ على الأمة في فكرها وأخلاقها، وعلى قدراتها وطاقاتها البشرية، بما تملكه أنظمة الحُكم، وبما أصبح في أيديها من

---

[٥٠] ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب، دار صادر، بيروت. حرف الطاء، فصل السين . ٣٢١/٧ .

[٥١] ابن منظور، لسان العرب، حرف الواو والياء من المُعْتَل، فصل الطاء . ٧/١٥.

[٥٢] ابن منظور، لسان العرب، حرف الدال، فصل الباء. ٨١/٣ .

[٥٣] ابن حبان، الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان لابن بلبان،وبهامشه التعليقات الحسان للألباني، كتاب مناقب الصحابة ، باب صفة النار ،ذكر الأخبار عن أول الثلاثة الذين يدخلون النار نعوذ بالله منها، رقم: ٧٤٣٨. وقال الألباني: ضعيف . ٤٤٩/١٠ .

إمكاناتٍ هائلة، من خلال المؤسسات التي تديرها تلك الأنظمة، وتتحكم بها، سواء المؤسسات التعليمية، أو الإعلامية، أو التشريعية، أو القضائية، أو الأمنية، والعسكرية.

وما كان هذا الاستبداد والظلم ليقع من الحكام الجائرين، إلا بِمعُونةٍ ومساعدة تُقدَّمُ لهم، مِمَّن ينتفع باستبدادهم وجَوْرِهم، وأقرب الناس إليهم هم شِرار الناس، وقد جاء في الحديث النبوي التحذيرُ مِنْ إعانتهم على الظُّلم والجَوْر، قال ﷺ : **" لَيأتينَّ عليكم أمراء؛ يُقرِّبون شِرار الناس، ويُؤخِّرون الصلاة عن مواقيتها، فَمَنْ أدرك ذلك منهم؛ فلا يكونَّن عريفاً، ولا شُرْطياً، ولا جابياً، ولا خازناً "**[٤٤]، وهؤلاء الأربعة الذين ذكرهم الحديث، هم أدَوَاتُ الحاكم المستبد، وهم شُركاء له في الظُّلم والاستبداد. بهم يَبْطِشُ بالناس، ويُرَوِّعهم، ويزداد طُغيانه وجبروته، وتنزلق الأوطان إلى أسوأ أحوالها، حيث أصبحت هذه المؤسسات مُسخَّرة بالكامل لمصلحة الأنظمة المُستَبِدَّة، التي صارت سُلْطَتُها مُطلَقةً، لا يجرؤ أحدٌ على مواجهتها أو محاسبتها، وصار الفساد مُطلَقاً لا حدود له.

إنَّ الاستبدادَ السياسيَّ، كان سبباً في تخلِّي صنفٍ من العلماء عن دَوْرِهم في ترشيد الحكم، ومجابهة الحُكامِ الظالمين، ما دفعهم لأنْ يكْتَفوا بِدوْرِهم في البحث والاجتهاد، والتأليف والتدوين، دون أن يكون لهم أثر كبير على واقع المجتمع، فاعْتَزَلُوا الحياةَ العامة، إيثاراً للسلامة في دينهم ودنياهم، بعيداً عن الحُكام المستبدين. وبِمُضيِّ الوقت تفاقمتْ هذه العُزلة والفُرقة، وطال أمَدُها لعدة قرون، ...وجفّت الجذور الفكرية للقيادات الاجتماعية والسياسية، وسلّمت هذه القيادات زِمَامَها للعجز الفكري، والجهل السياسي .

وكَان مِنْ نتائج ذلك الاستبدادِ والطُّغيان، غيابُ المرجعية العلمية التي تمنع تفكُّكَ الأمة، وانعزالُ أفرادِ الأمة داخل الإسلام (الفَرْدي)، الذي اختُزِلَتْ أحكامه وتشريعاته في علاقة الإنسان بخالِقه، وبِأسرته.

وأمَّا ما يتعلَّقُ بالمجتمع ـ سياسة واقتصاداً ـ مِن أحكام الإسلام وتشريعاته، فَقَدْ تمَّ تعطيلها وتجميدها، بحيث تحوَّل الحُكْم في الدولة، إلى حُكْمٍ فَرْدِيٍّ تَتَركَّزُ فيه السُّلطة في يد الحاكم، ولا تُتاح فيه الفرصة لمشاركة الأمة، فانتهى الأمر بالأمة إلى الوقوع في قبضة الاستبداد، والقهر،

---

[٤٤] ابن حبان، الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان، كتاب السير، باب طاعة الأئمة، حديث(٤٥٦٧) ، وحسّنه الألباني. ٢٨/٧.

والتدهور السياسي والاجتماعي، حيث إنَّ القيادة السياسية والاجتماعية، لم يَعُدْ لها أيضا قاعدة فكرية تستند إليها، وتستقي الحلول والتطورَ والبدائل منها [٥٥] .

مِنْ أجْلِ ذلك، كانت أيَّةُ محاولة لتصحيح هذا الواقع، ولمقاومة انحراف الحُكَّام عن الجادة، تُعَدُّ أفضل الجهاد، فَفِي الحديث عن الرّسول ﷺ أنه قال : **" أفضل الجهاد كلمةُ عدل عِنْدَ سُلطان جائر، أو أمير "** [٥٦] . فكانتْ كلمةُ حق تُقال في وجه الحاكم الظالم، أفضلَ الجهاد، لأنَّ قِلَّة من الناس، هي التي تجرؤ على ذلك، عندما تَسْتَكِينُ غالبيتهم لِظُلم الحُكام وجَوْرِهم.

في هذا الواقع، الذي فَقَدتْ فيه الشعوب التوجيه والإرشاد، من العلماء المُصْلِحين، وبدأ دَوْرُ الذين ينْحسِر، وبدأت تعلو رايات الجاهلية، وتعود أدراجها إلى ميادين الحياة العامة، وأصبح الناس يزدادون غُربةً وابتعاداً عن الدين وأحكامه وتشريعاته، يأتي هؤلاء المُصلِحون، ليُقاوموا الحكام المستبدين، وليُبيِّنوا الحقَّ وليُعْلُو رَايَتَه، وليُعيدوا للأمة كرامتها وعِزَّتها .

إنَّ الدُوَلَ والأممَ مهما كانت عظيمة في بداياتها، لا يُمكن أنْ يستقرَّ أمرها، ويتقدَّم شأنها، ويعلو أمرُها، إلاَّ بأنْ يكونَ إنسانها حُراً، يشعرُ بكرامته، يملكُ قرارَه، غيرَ مُستعبَدٍ، ولا مُمْتَهَنٍ " وكَمْ مِنْ دُوَلٍ في تاريخ الإسلام، بدأتْ قويَّةً لها مكانتُها، كالأيوبيِّين، والأتراك العثمانيين، ولكنها بدأتْ تتآكلُ وتضعف، لا لِشيء إلاَّ لأنَّها كانت ثقيلةَ اليد على الناس، شديدةَ الطمع في أموالهم، قليلةَ الاهتمام بدمائهم، ولهذا توقَّف معظمها بعد مسير قليل، وتحوَّلَت إلى دُوَلٍ مستبِدَّة فقيرةٍ، يتقاتلُ أفرادُها على المُلْك والحُكْمِ" [٥٧] .

وقد جاء في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: **"سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب، ورجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه فقتله"** [٥٨] حيث بيَّن النبيُّ ﷺمنزلة من يتصدَّى للسلطان الجائر، ولم تأخذه في قول الحق لومة لائم. وإنَّما جُعِلَ هذا الأجرُ، وهذه المنزلةُ، لِمَنْ قام بمواجهة الحُكَّام المستبدين الجائرين، بسبب ما يترُكُه الاستبداد والقهر على الأمة، مِنْ آثارٍ مُدمِّرة.

---

[٥٥] د.أبو سليمان ، أزمة العقل المسلم . ص ٣٩ .

[٥٦] سبق تخريجه ص٣١، أخرجه الترمذي، وصححه الألباني.

[٥٧] د. مؤنس، حسين ،أطلس تاريخ العالم الإسلامي ،الزهراء للإعلام العربي ، ط١ ،القاهرة ، ١٤٠٧هـ١٩٨٧م . ص ٤٣١.

[٥٨] الطبراني، المعجم الأوسط ، حديث (٤٠٧٩) ١٤٤٣/٤ .قال الهيثمي: رواه الطبراني في "الأوسط"، وفيه ضعف . الهيثمي، "مجمع الزوائد" ، حديث(١٥٤٦٦)، ٣١٩/٩ . وقال الألباني عَقِبَ إيراده ترجمة فيها توثيق لأحد رواة الحديث: وهذه ترجمة هامة، وبالوقوف عليها اطمأن القلب لثبوت الحديث، فاقتضى إيراده في هذه السلسلة. الألباني، سلسلة الأحاديث الصحيحة ، حديث (٣٧٤) .١/ ٧١٦-٧١٨ .

المبحث الثاني

مظاهر أزمة العقل المسلم

هذا المبحث بيَّنتُ فيه أهم مظاهر أزمة العقل المسلم، في مطالبَ خمسة، والمتأمِّلُ في هذه المظاهر، يَجِدُ إنَّها تدلُّ على الأسباب التي تم ذِكْرها في المبحث الأول من هذا الفصل. فهي مظاهرُ دالَّةٌ على وجود الأزمة، ولا يعني ذلك أنَّ كل مظهر منها يدلُّ على سبب بعينه، بل إنَّ كلَّ مَظْهَرٍ منها، قد يشترك فيه أكثرُ من سبب، ويدلُّ الواحدُ منها على أكثر من سبب .

ومن خلال هذه المظاهر، يمكن الاستدلال على الأسباب الحقيقية للأزمة المعاصرة، التي يعاني منها العقل المسلم، والإنسان المسلم في الوقت الحالي، ولهذه المظاهر آثار آتٍ ذِكْرُها .

المطلب الأول

افتقادُ الأمة لمكانتها وهيبتها

عندما كانت الأمة قوية عزيزة، كان يُحسَب لها ألفُ حساب، فكانت عزيزة الجانب، يرهبُها أعداؤها، يوم أنْ وَهَبت نفسها لله، وسخَّرَت قُواها وطاقاتِها في التمكين لدين الله، وعَمِلتْ على تطبيق شريعته، لا تبتغي من وراء ذلك إلاَّ رضوان الله تعالى .

كان ذلك، يوم كان المسلمون كالجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضوٌ، تَداعى له سائر الجسد بالحمَّى والسَّهَر، كما جاء وصفهم، في الحديث عن النبي ﷺ حيث قال:" **ترى المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم، كَمَثَل الجسد، إذا اشتكى عضوٌ، تداعى له سائر جسده بالسهر والحُمَّى** "[٥٩]، وَوُجِدَتْ هذه الحال من التَّراحُمِ، والتَّوَادّ، والتَّعاطُف بين أفراد الأمة وطبقاتها، يوم كانت أمَّةً حيَّة، تستشعر المَرَض والخَطَر، وكانت أعضاء الإحساس فيها سليمة وصحيحة، إذا أصاب جُزءاً منها خَطَرٌ، أو مَرَضٌ، كانت تَهُبُّ مُسْرِعةً لِدَرْئه عنها، ولا يستقرُّ لها حال، حتى يزول هذا الخطر أو المرض .

---

[٥٩] البخاري، صحيح البخاري، كتاب الأدب ، باب رحمة الناس والبهائم ، حديث (٦٠١١) . ص ٢٦٤٦ .

فلمّا انقلبتْ الحال، وتغيّرت الأنفس، وصار كلُّ مسلم لا يهتم إلاّ بخاصة نفسه، آلَ أمرُهم إلى التفرُّق والضَّعف، وافتقدتْ الأمةُ مكانتَها، وزالتْ هيبتُها من قلوب أعدائها، لأنها فقدتْ صفةَ الحياة، والجَسَدِ الحي.

لقد قُذِفَ "الوهنُ" في قلوب المسلمين، فأصبَحتْ أمتُهم تخافُ من المُطالبة بالحرية، والكرامة الإنسانية،خَوْفاً من التضحيات والنتائج، وأصبحت تخافُ مِنْ مجابهة الظُّلم في الداخل، وتجبُنُ عن مواجهة أعدائها المتربصينَ بها من الخارج. فهي ليستْ على استعداد لتحمُّلِ ذلك، مما جعَلَها أمّةً ضعيفةً، لا تَقْوى على معالجة ضَعْفِها وتَشَرْذُمِها، ولا على مواجهة أضعف أعدائها، فتداعت عليها الأمم وتكالبت: حتى أحاط الأعداء بها، فأوصلوها إلى مرحله " القَصْعة المُستباحة"، التي حذَّرهم إيَّاها رسول الله ﷺ .

وهكذا، بَعْدَ أنْ كانت الأمةُ الإسلامية تُمسِكُ بزمام قِيادة البشرية، وتسير في المقدمة، صارت في مؤخرة الرَّكْب، وهذه هي سُنَّةُ الله الجارية، في أحوال الأمم والجماعات والأفراد .

ولعلَّ أصدق تصوير لحالة هذه الأمة، التصوير والتشبيه الذي جاء في الحديث عن الرسول ﷺ ، حيث شبَّهها بالوليمةِ التي تَداعى الأكَلَةُ عليها، وهي الحالةُ المُشاهَدةُ في أيَّامِنا هذه، فلا يخفى على أيِّ إنسان، كيف استباح الأعداءُ الجشعون هذه الأمة، فنَهَبُوا ثرواتِها، وسَرَقوا أموالَها، وجعلوا ساحاتِها مَيداناً للتجارب والحروب، في حالٍ يبكي منها العدو قبل الصديق، فكان حالُها كما جاء وصفُها في الحديث عن رَسُولُ الله ﷺ أنّه قال : " **يُوشِكُ الْأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ كَمَا تَدَاعَى الْأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا. فَقَالَ قَائِلٌ: وَمِنْ قِلَّةٍ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ: بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ؛ وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ، وَلَيَنْزَعَنَّ اللهُ مِن صُدُورِ عَدُوِّكُمْ الْمَهَابَةَ مِنْكُمْ، وَلَيَقْذِفَنَّ اللهُ فِي قُلُوبِكُم الْوَهْنَ، فَقَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ! وَمَا الْوَهْنُ؟ قَالَ: حُبُّ الدُّنْيَا وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ** " [٦٠].

فهذا الحديث يُبيِّن بتعبيرٍ دقيق، وبصورة يدركُها ويشاهدها المسلم المعاصر، على وجه الخصوص، ما حدث لهذه الأمة، في علاقتها بالأمم الأخرى، حيث انقلبت أحوالُها، فالأمر لا يحتاج إلى توضيح وبيان، لأنَّ واقعَ هذه الأمة، أفضلُ تفسيرٍ، وأوضحُ بيانٍ لهذه العلاقة .

---

٦٠ أبو داود، السنن ، كتاب الملاحم، باب في تداعي الأمم على الإسلام، برقم: (٤٢٩٧). ص٤٦٩. وصححه الألباني . الألباني، صحيح سنن أبي داود ٣٠/ ٢٤_٢٥ ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة :حديث (٩٥٨).٦٤٧/٢ ــ ٦٤٨ .

إنّها مُعاناة يعيشها كلُ مسلمٍ في هذا العصر، ووَاقعها كما عبّر عنه الحديث النبوي، حيثُ تداعي الأكَلَة على القصعة، والنَّهْشُ، والقَضْمُ، والبلْع، والأكل لهذه الوليمة الدسمة، فكانتْ غنيمةً مُجْزية، وطعاماً مُشتهىً، والأكَلَة قد تداعَوا وتوافدُوا، ليأخذَ كلٌ منهم نصيبَه من هذه الوليمة.

وفي التشبيه بالقصعة من الدقَّة ،ما يُبيِّن دَرَجة الوهن والضعف، التي وصلت إليها الأمة، فقد طمع فيها لِهَوَانها وضعفِها، القويُ الجَشِع، والضعيف الجائع، فأصبحت مَطْمعاً لكل عَدُو .

هذا التصوير الدقيق لحال هذه الأمة، ولتكالُب الأعداء وتداعيهم عليها، باعتبارها وليمة دسمة، جَعَلَ بعض الصحابة يسألون عن سِرِّ هذه الحال، التي ستكونُ عليها هذه الأمة، وعنْ سِرِّ تداعي الأمم الأخرى عليها، هل هو لِقلَّةٍ في العدد ؟

لقد بيّن الرسولُ ﷺ سببَ ذلك، إنَّه الوهنُ الذي سَيَطرَ على هذه الأمة، مِنْ حُبِّ الدُنيا وكراهية الموت . إنَّ حُبَّ الدُنيا، وكراهيةَ الموت، يؤدِّيان بالمجتمع عموماً، إلى حالةٍ تَشِيعُ فيها الأنانِيَّةُ والأثَرَة، وتَنْعدم التضحيةُ والإيثار، فلا يهتم أفرادُ المجتمع عند ذاك، إلا بِمَا يُحبُّونَه لأنفسهم، وبِما يُرْضي أهواءهم ونَزْوَاتِهم .

أمَّا الواجبات فيتمُ إهمالُها، ويكُوُن حِرْصهم على الأخْذِ دونَ العَطاء، يَرْتَضُونَ لأنفسهم، أنْ تكونَ يَدُهم، اليدُ السُفلى، اليدُ التي تأخذُ ولا تُعطي، دون اعتبارٍ لِحقوق الآخرين عليهم. وقد يزداد الأمر سُوءاً، عندما تَتمُ استباحةُ كل شيء، فلا حقَّ إلاَّ لهم، فَيَستَوْلي الإنسانُ على حق غيرِه .

" إنَّ هذه الحال تكونُ، عندما تقودُ الإنسانَ غرائزُه، إرضاءً لِشهَوَاته، فَيَنْمو لديه حُبُّ الذات، ويميلُ إلى الدَّعة، والكَسَل، والخُمول، وتغيبُ لديه قِيَمُ الإيمان، والتضحية، والعطاء، والإنتاج، والاحتساب عند مَرْحلةِ غِيابِ الإيمانِ والعَقْلِ، وبُرُوزِ الشَّهْوةِ والغريزة، واختلال الموازين الاجتماعية، واستباحة كل شيء، دون رَادعٍ من دين أو خُلُق، عند ذلك تسقط الحضارة، وتموت الأمة، ويتم الاستبدال." [٦١] فَحُب الدنيا، وكراهية الموت، وسيطرة الوهن، إذا استولَتْ على قَلْبِ إنسانٍ، جَعَلَتْه مُؤْثِراً خاصةَ نَفْسِه، لا يأبَهُ لإخوانِه، ولا لأشقَّائه، ولا لِجيرانه، ولا لِمَنْ له حقٌّ عليه. ففي سبيل البقاء مُعافىً من أيِّ أذىً يلحقُه، أو ضُرٌ يُصيبُه، تراه لا يأبَهُ إلا لِنَفْسِه، لا يَعنيه شأنُ إخوانِه من المسلمين، حتى لو كان الدِّينُ يَحثُّه على التكافلِ، والتعاونِ، والنُصرةِ لإخوانه المسلمين.

---

[٦١] د. الإمام ، أحمد علي ، من سلسلة كتاب الأمة " المستقبل للإسلام" ، ط١ ، وزارة الأوقاف القطرية ،العدد٤٦ ، السنة الخامسة عشرة، ١٤١٦هـ ، ١٩٩٥م . ص٢٢ .

إنَّ هذه الروح إذا سَرَتْ في نفوس المسلمين، وغَلَبَتْ عليهم، فأعْرَضَ كلُّ واحدٍ منهم عن واجبه تجاه الآخرين، وآثر السلامة في نفسه، على حساب دينه وآخرته، فإنَّ هذه الأمة تُصبحُ كالجسد الميِّت، أو القَصْعَة. فلا قيمةَ لهم عند الآخرين، ولا وَزْنَ، ولا اعتبار، فهم كَغُثاء السيل. فَهُم كثرةٌ من غير تأثير فاعل، بل يتمُّ تقاذفُهم، والتلاعبُ بهم، وتسخيرُهم وما يملكون من القُدُرات، والطاقات، والإمكانات، لِمزيدٍ من إضعاف هذه الأمة وتفكيكها .

فالأمة إذا دخلت في مرحلة القصعة تداعت عليها الأمم، وأمَّا إذا بَقِيَتْ حيَّةً كالجسد، يتداعى بقيةُ أفرادها وجماعاتها، لِمُوازرةِ بعضِهم، سَنِهابُها أعداؤها. والأمةُ لا تفقدُ مكانتَها وهيبتَها، إلاَّ بَعْد أنْ تَنْخرَ في جَسَدِها، عوامِلُ الضَّعْفِ والمَرض، بالتغيُّر والتبدُّل في مجال القِيَم والمفاهيم، وانقلابِها رأساً على عقِب.

وهذا الأمرُ لا يقتصر على الأفراد والجماعات، بل يشملُ الدُّوَلَ والأممَ، وهُوَ ما نُشاهده في هذه الأيام، حيثُ يُستَفْرَدُ بِدُوَلِ العالَم الإسلامي، من قبل أعداء هذه الأمة، دولةً دولة، دون وُجُود إحساس من قبل البقية ـ حتى على مستوى الشعوب ـ بأنَّ المصير واحد، وبأنَّ ما يجري على بعض هذه الدول، سَيَجْري على البَقِيَّة، إنْ عاجلاً أم آجلاً، فليس هناك وِحْدةٌ تجمعُهم، ولا قِيادةٌ تتولَّى رعايتهم والسهر على مصالحهم، تسير فيهم بحكم الله، وتدفعُ عنهم تكالُبَ أعدائهم.

لَوْ وُجِدت القيادات والحكومات التي تسير بهذه الأمة، بسيرة النبي ﷺ، والخلفاء الراشدين من بعده ـ حيث كان التوافق والانسجام بين القيادات السياسية والقيادات الدينية والفكرية ـ لما كان هذا حالُها اليوم. وذلك لأنَّ الشعوب إنَّما تسير في ركاب القادة والزعماء، الذين يمتلكون من التأثير والتوجيه، والنفوذ والسلطان، والقوة والإرادة، ما يمكّنهم من تحقيق أهدافهم وسياساتهم، والناس في غالبيتهم العظمى تَبَعٌ لهم.

وهذا الحال الذي تعيشه الأمة اليوم، نتيجةٌ لهُجران كتاب الله تعالى، وتَرْكِ الاعتصام بِحَبْل الله، حيث تفرّقتْ أمةُ المسلمين، ودبّ الخلافُ فيها، وأصبح فيها الطُّغيانُ والاستبدادُ شائعاً ، وصارتْ شِيَعاً وأحزاباً ودُوَلاً شتى، فَفَقَدت فاعليَّتَها وإيجابيَّتَها، فاستحقَّتْ أنْ تكونَ في آخر الرَّكْب.

فهذه هي الصورة على مستوى الأمة، شعوباً ودُوَلاً، أمَّا على المستوى الفردي، فهناك أحوالٌ وصُوَرٌ مُتعدِّدةٌ ومُخْتلِفةٌ، وَرَدتْ في عِدَّةِ أحاديث تُبيِّنُ ما كان مُجمَلاً في الحديث السابق، بتفصيل دقيقٍ لِمَا ألمَّ بالمجتمع المسلم، مِنَ الهَوَانِ والضَّياع، ومن ذلك ما جاء في الحديث عن رسول الله ﷺ أنَّه قال :"مَا مِن امْرِىءٍ يَخْذُلُ امْرأً مُسْلِماً، في مَوْضِعٍ يُنْتَهَكُ فِيهِ حُرْمَتُهُ، وَيُنْتَقَصُ فِيهِ مِنْ

عِرْضِهِ، إلاَّ خَذَلَهُ الله فِي مَوْطِنٍ يُحِبُّ فِيهِ نُصْرَتَهُ. وَمَا مِن امْرِئٍ يَنْصُرُ مُسْلِماً، فِي مَوْضِعٍ يُنْتَقَصُ فِيهِ مِنْ عِرْضِهِ، وَيُنْتَهَكُ فِيهِ مِنْ حُرْمَتِهِ، إلاَّ نَصَرَهُ الله فِي مَوْطِنٍ يُحِبُّ نُصْرَتَهُ "[٦٢]

فالحديث يبيِّن عاقبة الخِذْلان، منَ المسلم لِأخيهِ المسلم، فالجزاء من جنس العمل، فَمَنْ خذلَ أخاه المسلمَ الذي يرجو نُصرتَه، خَذَلَه الله في مِثْلِ مَوْطِنِه. ولْيَعْلَمِ المسلمُ أنَّ خذلانه لِأخيه المسلمِ، سَبَبٌ لِخِذلانِ الله له، كما أنَّ نُصْرَةَ المسلمِ لأخيه المسلمِ، سَبَبٌ لِنصْرِ اللهِ له .

إنَّ حالةَ خِذْلانِ المسلمِ لِأخيهِ المسلم، تُعبِّر عن صُورة مَوْتِ الإحساسِ والشُّعُور لَدى المسلم تجاه إخْوانِه المسلمين، وانتفاءٍ لِمَعَاني الأُخُوَّةِ في الإيمان، وضَعْفٍ في إيمانه، في وقت كان يُرجى منه نُصرة أخيه المسلم.

وهذه الصُورةُ الفردية، بتكرُّرِها، واتّساعِها، وشموليَّتِها، على مستوى الجماعة والأمة، تكون نتيجتُها تغيُّرُ نَظْرَةِ الأخرين لهذه الأمة، بهذه الصورةِ السَّلبيَّةِ، وهذا ما يَجعلُ هذه الأمةَ، فاقدةً لاعتبارها، ومكانتِها، وهيبتِها، أمامَ أعدائها، على الصورة التي وَرَدَ بيانها في حديث " القصعة" وكما بيّن الحديث عاقبة خِذْلانِ المسلمِ لأخيه المسلم، فَقَدْ بيّنَ أيضا، عاقبةَ نُصرةِ المسلمِ لِأخيه المسلم، وهي التي تُعبِّر في صُوُرتِها الجماعية، عن صُوُرَةِ الجَسَدِ الحَي، الذي يتألَّمُ فيه بقية الجسد، لِحالِ العُضْوِ المُصاب، فهنا حياة، وإحساسٌ، وشعورٌ مُتبادَلٌ بين الأعضاء جميعِها، وبحيث تكونُ الأمةُ في حالةِ يَقَظةٍ، وتَنَبُّهٍ لِما قد يصيبُها، في أيِّ جُزْءٍ فيها، وهو ما يجعلُ الأممَ الأخرى تَحْسِب لهذه الأمةِ كلَّ حساب ، فلا يَطمعُ فيها أحَد .

وقد جاء في حديثٍ آخر، بيانُ ما يجب على المسلم تجاه أخيه المسلم ـ بما يُعزِّز مفهوم الأمةِ، والأُخُوَّةِ في الدين ـ ففي الحديث عن رَسُولِ الله ﷺ أنَّه قال : **"لَا تَحَاسَدُوا، وَلَا تَنَاجَشُوا، وَلَا تَبَاغَضُوا، وَلَا تَدَابَرُوا، وَلَا يَبِعْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَيْعِ بَعْضٍ، وَكُونُوا عِبَادَ الله إِخْوَانًا، المُسْلِمُ أَخُو المُسْلِمِ لَا يَظْلِمُهُ، وَلَا يَخْذُلُهُ، وَلَا يَحْقِرُهُ، التَّقْوَى هَاهُنَا وَيُشِيرُ إِلَى صَدْرِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ المُسْلِمَ، كُلُّ المُسْلِمِ عَلَى المُسْلِمِ حَرَامٌ دَمُهُ وَمَالُهُ وَعِرْضُهُ"**[٦٣].

---

٦٢ أبو داود، السنن، كتاب: الأدب، باب من رد عن مسلم غيبة ، حديث (٤٨٨٤)، وحسنه الألباني د. صبري، أحمد نصرالله، مختصر صحيح الجامع الصغير، ألفا للنشر، ط١، مصر، ١٤٢٩هـ ٢٠٠٨م ،حديث(٤١٣٨ـ٥٦٩٠) . ص ٣٠٩ . وقد ضعّفه في ضعيف سنن أبي داود. الألباني، ضعيف سنن أبي داود ص ٣٩٧ . قلت: الحديث بهذا الإسناد ضعيف حيث إنّ ابن حجر قال في التقريب: إسماعيل بن بشير: مجهول من الثالثة، وقال العظيم آبادي في عون المعبود: الحديث سكت عنه المنذري. انظر: تقريب التهذيب لابن حجر العسقلاني: ١٠٦(٤٢٧). العظيم آبادي في عون المعبود ص٢٢٤٥. أمّا المتن فيشهد لصحته الحديث الذي يحث على نصرة المسلم لأخيه المسلم،كما جاء في الصحيح " انصر أخاك ظالماً أو مظلوما" وهو عند مسلم في صحيحه، سيأتي ص١٥٦، وكذلك الحديث الآتي .

٦٣ مسلم، صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم ظلم المسلم، برقم: (٢٥٦٤). ص١٩٨٦ .

ففي هذا الحديث، نَهْيٌ عن سلوكات سلبيةٍ، من العلاقات الاجتماعية بين المسلمين، تؤدّي نتائجُها التراكميةُ على المدى الطويل، إلى ترسيخ ضَعْفِ الأمة، وزَوَالِ هيبتِها.

وحتى لا يَحْصُلَ التفكُّك الاجتماعي، ولا يسري الضعف في كيان الأمة الاجتماعي، فعلى المسلمِ اجتنابُ خِذْلانِ أخيه المسلم، أو ظُلْمِه، أو احتقارِه، والامتناعُ عن إقامة علاقاتٍ مع غيرِه على التحاسُد، والتناجُش، والتباغض، والتدابر، أو أيِّ علاقة يُمكنُ أنْ تملأ قلوب المسلمين وصدورَهم، بالغِلّ، والضغينة على الآخرين، سواء على مستوى الفرد أم الجماعة أم المجتمع.

فالأصْلُ في علاقةِ المسلمِ مع إخوانِه المسلمين، أنْ تكونَ القلوبُ والصُّدُورُ سليمةً، وخاليةً من هذه الآفات الاجتماعية، التي تُهدِّد النسيج الاجتماعي للأمة . فَكُلُّ ما نُهِيَ عنه في هذا الحديث، هو باب من أبواب الشرِ، بمختلف صوره وأشكاله، عاقبته في نهاية المطاف، المزيد من الفرقة والاختلاف والتشرذم ،المؤدي إلى طَمَعِ الأعداء بهذه الأمة، وقد جاء النهيُ لإغلاق هذه الأبواب، درءاً لمفاسد اجتماعية عظيمة.

بل إنَّ الرسولَ ﷺ قد بيَّنَ، أنّه لا يَحلُّ للمسلم أنْ يَهْجُرَ أخاه المسلمَ فوقَ ثلاثِ لَيالٍ، لِما في الهُجْرانِ والخِصام، مِنْ تقطيعٍ لِعُرَى الأخوَّةِ بين المسلمين. ويجبُ على المسلم أنْ يجتنبَ كُلَّ ما من شأنه، أنْ يكونَ سبباً للفُرْقة والضعف، بين أفراد المجتمع، حتى ولو كان على مستوى الأفراد، لأنه سَيَتْرُكُ أثَرَه على الجماعة، والمجتمع، والأمة . حتى نصَّ الحديثُ النَّبويُّ على تحريم، هذه الأشكال من العلاقات الاجتماعية، بين المسلمين، لأنَّها تُناقض مُسمَّى الإيمان الذي وُصِفوا به. عَنْ أبي أيُّوب الأنصاري أنَّ رسولَ الله ﷺ قال : " **لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال ، يلتقيان فيُعرض هذا ويُعرض هذا ، وخيرهما الذي يبدأ بالسلام** "[٦٤]

إنَّ هذه الأمور التي سبق ذِكْرُها، والتي نهى عنها رسول الله ﷺ تُشكّل كثيراً من المظاهر المَرَضيَّةِ، التي تُشكّل حالةَ الوهْن والضَّعف . إنَّ زيادةَ هذه المظاهر، وتراكُمها، يُوصِلُ المجتمعَ إلى أقصى درجات الضعف والهوان، الذي قدْ يُهدِّدُ بإذابة هذه الأمة في غيرها من الأمم، إذا فَقَدتْ كل ما يُميِّزها عن الأمم الأخرى، وتلاشى ما تَبقَّى من خصوصياتها.

إنَّ هذا الأمرَ ليس مُستبعَداً، وبخاصة في هذا العصر، الذي أصبح فيه التواصلُ بين المجتمعات مشرَعَ الأبواب؛ ما يُمهِّد الطريقَ للقوى الكبرى؛ لإحكام السيطرة والاستحواذ على الآخرين، ومنهم المسلمون.

---

[٦٤] مسلم، صحيح مسلم، كتاب البر والصلة ، باب تحريم الهجر فوق ثلاث بلا عذر شرعي، رقم (٢٥٦٠) . ص١٩٨٤

" فنحنُ مُعرَّضون لِفِقْدانِ هويَّتِنا، وتذويب بقايا كِيانِ أُمَّتنا، والبقية الباقية من خصوصياتنا، في ظِلِّ نِظامٍ جديدٍ يسعى جاهداً إلى رَبْطِ الأمة الإسلامية بِعَجَلَتِه، لعلَّه يعالجُ بذلك بَعْضَ أزَمَاتِه، أو على الأقل، يأمَنُ مِنْ خلال ذلك، أنْ لا يكونَ له مِنْ بَينها وارِثٌ لَه" [٦٥].

[٦٥] العلواني ، طه جابر ، " الأزمة الفكرية ومناهج التغيير ، الآفاق والمنطلقات " ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، ط٢،القاهرة، ١٤١٧هـ ١٩٩٦م . ص٢٠ ،

المطلب الثاني

الافتقاد للقيم الخُلُقِية

القِيَمُ الأخلاقيةُ على جانب كبير من الأهمية، وذلك للارتباط الوثيق بين الأخلاق والدين، ولأنها الأساس المتين الذي تقوم عليه المجتمعات، فهي الأساسُ المتينُ لِبناء العلاقات الاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية.

وإنَّما تَتَقدَّمُ الأممُ وتَرْتقي بهذا الجانب، وقدْ جاءت شريعةُ الإسلام لِتَحُثَّ على الأخلاق، وتدعو إلى التمسُّك بها، وإلى ترسيخ القِيَم الأخلاقية، والمحافظة عليها، حيثُ بيَّنَ الرسولُ ﷺ أنَّه بُعِثَ لِيُتَمِّم مكارِمَ الأخلاق، ومحاسِنَها، كما جاء في الحديث عن الرسول ﷺ أنَّه قال:" **إنما بُعِثْتُ لأتمِّم مكارم الأخلاق** "[66]. وقد بيّن الرسولُ ﷺ في أحاديثَ متعدِّدة أنَّ الدين حُسْن الخُلُق، وأنَّ خِيار الناسِ أحَاسِنُهُم أخلاقاً، فَقَدْ جاءَ في حديث عبد الله بن عمرو أنَّه قال : لمْ يكنْ رسولُ الله ﷺ فاحشاً ولا مُتفحِّشا، وإنَّه كان يقول : " **إنَّ خِيارَكم أحاسِنُكم أخلاقاً** " [67].

لقدْ جاءت هذه الدعوة إلى محاسنِ الأخلاق ومكارِمِها في الشريعة الإسلامية، وذلك لأنَّ العلاقات بين الأفراد والجماعات تتوثَّقُ بهذا الجانب، وفي ذلك زيادةٌ لِقُوَّةِ المجتمع والأمة. ثمَّ إنَّ مِنْ طبائع البشر، أنْ يَجِدَ الإنسانُ في نَفْسِه مَيلاً إلى صاحب الخُلُق الحَسَن، ولذلك كان الخُلُقُ الحَسَنُ طريقاً للقبول لدى الآخرين، كما أنَّ افتقادَ المرْءِ للخُلُق الحَسَنِ يكونُ سبَباً لإعْراض الآخرين عنه، والنُّفورِ منه، حتى لو كان يسعى لِخَيْرِهم ومَنْفَعَتِهم .

وقد بيَّن الحقُّ ـ سبحانه وتعالى ـ ذلك بقوله : {**فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ**} [68] . ولذلك جاءت الدعوةُ في كثير من الآيات القرآنية والأحاديث

---

[66] الإمام مالك، الموطأ، كتاب حسن الخلق ، باب ما جاء في حسن الخلق ،حديث (٨،١٧٨٩) ٢٩٦/٤، وقال ابن عبد البر: وهو حديث متصل من وجوه صحاح عن أبي هريرة وغيره . ابن عبد البر، التمهيد . ٣٣٣/٢٤

[67] البخاري، صحيح البخاري، كتاب الأدب ، باب حسن الخلق والسخاء ، حديث (٦٠٣٥) . ص٢٦٥٤ .

[68] سورة آل عمران ، الآية ١٥٩ .

النبويةُ، لتُؤكِّدَ على جانب القِيَمِ والأخلاقِ، مِنْ أجْلِ أنْ تبقى القِيَمُ الأخلاقيةُ راسخةً في المجتمع، عند الأفرادِ والجماعاتِ .

وهي الأساسُ الذي تُبنى عليه المجتمعات، فإذا ذهبَتْ الأخلاق، سارعتْ المجتمعاتُ في الانهيار، وانهيارُ الأممِ إنَّما يكونُ بإفلاسها في مَجَالِ القِيَم والأخلاق . والقِيَمُ الأخلاقيةُ تؤثر في جَوانبِ الحياة الاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية، والثقافية، لأيَّةِ أمَّة، ففي ظلالها تترقَّى الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية للأمة .

وفي ظِلالِها تترقَّى الحياةُ الإنسانيةُ تَرَقِّياً صحيحاً، وتنمو نُمُوّاً سليماً، لذلك لابد من تربية أفرادِ الأمة على القِيَم الإسلامية: كالحُرِّيَّةِ، والعدالة، ونُصرَة الحق، والإنصاف، والصِّدْق، والأمانة، والمواطنة، وَحُبِّ العَمَل، والانتماء للأمة، والشعور بالمسئولية.

إنَّ تربيةَ الإنسانِ المسلمِ على هذه القِيَم، تعني أنَّ هذا الإنسانَ يأبى الظُّلم، ويُحبُّ الخير لإخوانه، ويَسعى لِخيرِهم وسعادتِهم، وهي قَبْلَ ذلك كله، دليلٌ على مدى كَمَالِ الإيمان عِنْدَ الإنسان المسلم، فَلا مَجَالَ للحديث عن القِيَمِ الإسلامية، إلاَّ بالاستنادِ إلى الرَّكِيزةِ الكبرى، وهي الإيمانُ بالله ـ عزَّ وجلَّ ـ ، فَمِنْ هذا الإيمانِ، تَنْبثِقُ القِيَمُ التَّربويةُ الإسلاميةُ، كما يَنْبثِقُ النُّورُ من الشمس، فَجِماع القيم التربوية الإسلامية، كما بيَّنَتْها سورة العصر، هي : العمل الصالح، والتواصي بالحق، والتواصي بالصبر، حيث جاء ذِكْرُها عَقِبَ الإيمان بالله في هذه السورة الكريمة . قال تعالى: **وَالْعَصْرِ{١} إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ{٢} إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ{٣}** [٦٩]

والعملُ الصالحُ ـ كما هو واضحٌ من خِلال سُورَةِ العصر، وغيرِها من السّوَرِ والآيات ـ يشملُ مَكارِمَ الأخلاقِ كُلِّها، سواءٌ ارْتَبطتْ تلك الأخلاقُ بتهذيب النفس، أو شَحْذِ العقل وإطلاقِ طاقاتِه، بما يُحقِّقُ التكامُلَ المَنْشود، مِنْ قبيل : الصِّدقِ، والإخلاصِ، والعَدْلِ، والإيثارِ، والوفاءِ، وحُبِّ الخَيْرِ للناس، والتَّعاونِ، والاعتدالِ في المَأكَلِ، والمَشْرَبِ، والإنفاقِ، والحِرْصِ على الوقت مِنَ الضَّياع، وصِلَةِ الرَّحِمِ، ومُواساةِ الضُّعفاء .[٧٠] فمثل هذه القيم تُعَدُّ من فضائل الأخلاق عند جميع العقلاء، ولكن الأهم من ذلك، هو الحِرصُ على أنْ تكونَ هذه الفضائلُ والقِيَمُ الخُلُقية، واقعاً حياً في المجتمع، لأنَّ حياةَ المجتمعِ والأمةِ لا تكون إلا بها .

---

[٦٩] سورة العصر ، الأيات ١ ـ ٣.
[٧٠] بن مسعود، عبد المجيد ، من سلسلة كتاب الأمة " القيم التربوية الإسلامية والمجتمع المعاصر "،وزارة الأوقاف القطرية ،السنة الثامنة عشرة ، العدد ٦٧ ، ط١، ١٤١٩ هـ ،١٩٩٩م . ص ٧٠ـ ٧١.

فإذا ما افتقدت هذه القيم من الناحية الواقعية، واختفت من ميدان التطبيق العَمَلي في حياة المسلم، كانَ افتِقادُها من هذه الناحية - مؤشراً على وجود حَالةٍ مَرَضيةٍ يعاني المجتمع منها، يَدلُّ ذلك على أزمة خُلقية، يُعاني منها المجتمعُ والأمة .

إنّ الدعوة إلى التمسُّك بالأخلاق والقيم من الناحية النظرية، دونَ تطبيق لها، يُمثّل حالة انفصامٍ فِكْريّ، وخُلُقيّ، ودينيّ، تعيشها الأمة، وهي في الحقيقة، أزمةٌ مُسْتَحْكِمة، وبخاصة عندما لا يَشعُرُ الإنسان المسلمُ بِأيِّ تَناقضٍ بين ما يدعو إليه، أو يدَّعي أنّه يَحرِصُ عليه، وبين ما يمارسه في حياته اليومية، كأنْ يكونَ حريصاً على أداء الصلاةِ في المسجدِ في وقتِها، وفي الوقت نفسه لا يَتورّع عن التعاملِ بالربا مثلاً، مع عِلْمِه بحُرمة الربا، بعيداً عن الضرورة ومقتضياتها، أو عدم التورُّع عن الافتراء على الآخرين وظلمهم .

إنَّ هذه الحالةَ، إذا صارت مألوفةً، غيْرَ مُستنكَرةٍ، فهذا دليلٌ على درجة الانحطاطِ الخُلُقي الكبيرة التي وصلَ إليها المجتمع . " فإذا صارَ المسلمُ لا يَشعرُ بأيِّ حَرَجٍ في ممارسة الكَذِبِ، والغِشِ، وخيانةِ الأمانة، والتهاونِ في العمل، وعَدَمِ الوفاء بالوعد، والحِقْدِ على الآخرين، وتَمَنّي زوالِ النِعمَةِ عنهم، والغمْزِ واللّمْزِ والغِيبةِ، وغيْرِها من الآفات الخُلُقية، عندئذٍ يكونُ قدْ فَقَدَ جَوْهرَه الحضاريَّ الإسلاميَّ، لأنه تجرَّدَ مِنْ أخلاقيات "لا إله إلا الله"، وتجرَّدَ مِن قِيَمِها الإنسانيةِ العُليا، التي هي جوهر الحضارة ، وعماد المجتمع المتحضر" [٧١] .

وقدْ بَيَّنَ حديثُ رسول اللهِ ﷺ ، شيئاً من ذلك، حيث قال:" **كيف بِكُم وبِزَمانٍ، أوْ يُوشِكُ أنْ يأتيَ زمانٌ يُغربلُ فيه الناسُ غَرْبلَةً، تبقَى حُثَالةٌ مِنَ الناسِ، قَدْ مَرَجَتْ عُهُودُهم، وأماناتُهم، واختَلَفوا، فَكَانوا هكذا، وَشبَّك بين أصابِعِه، فقالوا:كيف بِنا يا رسول الله ؟ قال:" تأخُذونَ ما تَعرِفون، وتَذَرونَ ما تُنكِرونَ، وتُقْبِلونَ على أمْرِ خاصَّتِكم، وتَذَرونَ أمْرَ عامَّتِكم"** [٧٢] .

فالحديثُ النَّبويُّ يتحدَّثُ عن صِنْفٍ من الناس، لا يَكونُ أمرُهم مُستقيما، بل يكونُ كلُ واحدٍ منهم، في كُلِّ لَحْظةٍ على طَبْعٍ، وعلى عَهْدٍ، دَيْدَنُهم النِّفاقُ والتقلُّبُ، يَنقُضونَ العُهُودَ والمواثيق،

---

[٧١] محمد قطب ، واقعنا المعاصر ، مؤسسة المدينة للصحافة ، ط٢، جدة ، ١٤٠٨هـ ١٩٨٨م . ص ١٧٨.

[٧٢] أبو داود، السنن، كتاب الملاحم ، باب الأمر والنهي ، حديث (٤٣٤٢) ، ص٤٧٤ . وقال الألباني :صحيح . الألباني، صحيح سنن أبي داود ٣٧/٣ . وأخرج له الطبراني شاهداً بمعناه عن أبي هريرة في المعجم الأوسط وقال: لم يرو هذه الأحاديث عن عمرو بن أبي عمرو إلا يعقوب بن عبد الرحمن الزهري . الطبراني، المعجم الأوسط ص ٣٠٧٥ حديث(٨٧٩١) . قال الهيثمي: رواه الطبراني في الأوسط بإسنادين رجال أحدهما رجال الصحيح . الهيثمي، مجمع الزوائد ٣٩٣/٧ .

وَيَخُونُونَ الأَمانَاتِ، فَلا يُعْرَفُ الأَمِينُ مِن الخَائِنِ، ولا البَرُّ من الفَاجِرِ، بحيث يُصبح المرء في حيرة من التعامل مع هذه الأصناف، التي انعدمت عندها القيمُ والأخلاق [٧٣].

وقد جاءت أحاديثُ كثيرةٌ، عن النبي ﷺ، تُبيِّنُ كثيراً مِنَ المظاهرِ المَرَضيَّةِ الموجودة في المجتمع، والتي قد تكونُ من باب التحذير من هذه الأمور، حتى لا يَقعَ المجتمعُ في المُهلِكات، التي أهلكتِ الأمم السابقة، ومِنْ ذلك ما جاء في الحديث عن النبي ﷺ حيث قال :" **دَبَّ إليكم داءُ الأممِ قَبْلَكم، الحَسَدُ والبَغْضاءُ ...**" [٧٤].

هذا الحديث يبيِّن باختصار، ما سَيَكونُ في هذه الأمة ـ قبلَ وقوعه ـ مِن الحَسَدِ والبَغْضاءِ، بحيث يَسْري في هذه الأمة، ويَدِبُّ فيها، كما دَبَّ في الأمم السابقة، نتيجة التنافس على الدنيا ومتاعِها. وهذه سُنَّةٌ من السُّنَنِ الإلهية، التي لا تَتَخلَّفُ عن أمة، إذا أصبحتْ الدنيا أكبرَ همِّها، وَوَقعَ التنافس على الدنيا بين أفرادِها، وهذا التنافسُ يُولِّد الحَسَدَ والبَغْضاءَ بين المُتنافسين على مَتاع الدنيا.

فإذا كان الرسول ﷺ قد بيَّن أنَّ هذه الأمةَ ستَتَّبعُ الأمم السابقة، حَذْوَ النَّعْلِ بِالنَّعْلِ، وقد بيَّنَ كذلك، أنَّ الوَهْنَ سُيقذَف في قلوب أتباعِها، بِسببِ حُبِّ الدنيا وكراهية الموت. فإنَّ كلَّ ما سبق كان سبباً لِوُقُوعِ الحَسَدِ والبَغْضاءِ، بِالرَّغم مِنْ أنَّ كلَّ مُسلِمٍ مُكلَّفٍ، يَعْلمُ تحديداً القيمَ والأخلاقَ التي جاء الإسلامُ لِتَرسيخِها في المجتمع المسلم، ويعلم ما نهى الإسلام عنه مِنْ مساوئ الأخلاق.

إنَّ انشغالَ المسلمينَ بِحُبِّ الدنيا والتنافس عليها، وما ينتُجُ عن ذلك من التحاسُدِ والبَغضاءِ، دليلٌ على أنَّ الأزمةَ، التي تعاني منها الأمةُ، هي مُشكِلةُ عَجْزٍ في التَّعامُلِ مع القِيَم، ولَيْستْ أزمةَ قِيَم .

إنَّ العَجْزَ عن التعاملِ مَعَ القِيَمِ، وانعدامَ القُدرةَ على تنزيلها على الواقع الإنساني، هوَ سببُ كثيرٍ من المُغالَطاتِ، والتَّراجُعاتِ، والحواجزِ النَّفسيةِ التي لا تزال تُكرِّس التَّخَلُّف باسم التَّدَيُّنِ، خِلافاً لِمَنْ يَتَوهَّمُ بأنَّ الأزمة في القيمِ نفسِها.

---

[٧٣] العظيم آبادي،أبو عبد الرحمن شرف الحق ، عون المعبود على شرح سنن أبي داود ، تحقيق النعماني الأثري ، دار ابن حزم ، ط١ ، بيروت ، ١٤٢٦هـ، ٢٠٠٥م . ونسبه إلى القاري . ص٢٠٠٢ .

[٧٤] الترمذي، الجامع الكبير، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع ، حديث ٢٥١٠. ٢٨٠/٤ قال الترمذي : هذا حديث قد اختلفوا في روايته عن يحيى بن أبي كثير. وقال المحقق د. بشار معروف: إسناد ضعيف لجهالة مولى أبي الزبير.. . ابن حنبل، المسند، حديث(١٤١٢)، ص ١٥١ (١٦٥/١). وقال الألباني : حديث حسن. الألباني،سلسلة الأحاديث الصحيحة ١/ ٤ .

فالعلّةُ الحقيقيةُ ليستْ في الدين، أو في القِيَمِ، أو في الأخلاقِ، ولا في المقاصد ولا في الغايات التي أرادها الإسلام، بلْ تَرجِعُ إلى فِكْرِهم، وعَقْلِهم، وقُدْرَتِهم على تَنْزيلِ تلك القِيَمِ على الواقع، أو- بالأصحّ - في الارتقاءِ بهذا الواقعِ، مِنْ خلال تَمَثُّلِ القِيَمِ، والأخلاقِ الإسلاميةِ في السلوك، والتَّصرُّفاتِ الصادرةِ عن الفرد المسلم "[٧٥].

لأنَّ القِيَمَ التي جاء بها الإسلام قِيَمٌ نبيلةٌ، تَرْفَعُ مِنْ شأن الفَرْدِ والمجتمعِ، وعنْدما تَمَثَّلَها الجيلُ الأوَّلُ من المسلمين وطبَّقُوها في حياتِهم، سُلوكاً وعَمَلاً، صاروا جيلاً فريداً لا مثيلَ له في تاريخ البشرية .

من الأمثلةِ والصُّوَرِ التي تُناقضُ القِيَمَ الخُلُقيةَ، ما جاء النهيُ عنه، والتحذيرُ منه، في الحديث عن رسولِ الله ﷺ حيثُ قال :" **إيّاكم والظَّنَّ، فإنَّ الظَّنَّ أكذبُ الحديثِ ، ولا تحسّسوا، ولا تجسّسوا، ولا تَحَاسَدوا، ولا تَدَابَرُوا، ولا تَبَاغضوا، وكونوا عباد الله إخوانا** "[٧٦] .

فَكُلُّ ما وردَ النَّهْيُ عنه في هذا الحديث، يتناقض مع الأُخُوَّةِ، التي دعا إليها في الشَّطْرِ الأخير من الحديث نَفْسِه . فالأصلُ في علاقة المسلم بأخيه المسلم، أنّها مَبْنيةٌ على إحْسانِ الظَّنِّ به، ذلك أنَّ كلَّ مسلم يُحبُّ لأخيه المسلم ما يُحِبُه لِنَفْسِه، وبِناءً على العلاقة الوثيقة بين المسلمين، يُقامُ صرْحُ المجتمعِ المسلمِ على أساسٍ قويٍّ متين .

وأما سُوْءِ الظَّنِّ، فينبغي أنْ لا يكونَ له وُجُودٌ في تَعامُلِ المسلمِ مع أخيه المسلم، لِما يترتَّبُ على ذلك من آثارٍ سيئةٍ، ومِنْ هنا فقدْ حَذَّرَ الرسولُ ﷺ المسلمَ من الظَّنِّ السيّئ، وبيَّنَ بأنَّ مِثْلَ هذا الظَّنِّ هو أكذبُ الحديث ، فهو أصلٌ لِكثيرٍ من الأخلاقيات السيِّئةِ، والتي ينبغي للمسلمِ أنْ يجتنبَها .

إنَّ السلوكاتِ السيِّئةِ الموجودة في حياة المسلمين، آثارُها سلبيَّةٌ وخَطيرةٌ على تماسُكِ المجتمعِ وقوَّتِه . فإذا كانتِ النُّفُوسُ قدْ تأصَّلَ فيها داءُ الأنانيَّةِ، والأَثَرَةِ، والكَذِبِ، والحَسَدِ، والخِيانةِ، فإنَّ المجتمعَ يُصبحُ في خَطَرٍ داهم، يمكن أن يتسرَّبَ الوهن والاختلال إليه، ويُهدِّدُ نسيجه الاجتماعي. أمّا إذا خَلُصتِ النُّفُوسُ من تلك العِلَلِ والأمراضِ، فإنَّ أفرادَ المجتمعِ، يَكُونُونَ مُتعاونين على البِرِّ والتقوى، أيْ على كل ما تَصْلُحُ به الحياةُ، وتَسْعَدُ به النُّفوس، مِنْ جَلْبٍ للمصالح، والمنافع، والخيرات، التي تَخْدِمُ المجتمعَ في حَرَكَتِه نَحوَ تحقيقِ أهدافِه .

---

[٧٥] العلواني، إصلاح الفكر الإسلامي بين القدرات والعقبات ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، ط٢، الرياض ، ١٤١٤هـ ، ١٩٩٤ م . ص٤

[٧٦] البخاري ، صحيح البخاري مع الفتح، كتاب الأدب، باب ما ينهى عن التحاسد والتدابر، حديث(٦٠٦٤)، ٣/ ٢٦٦٤.

إنَّ كلَّ الآدابِ، والأخلاقِ، والتَّشريعاتِ، التي جاء بها الإسلامُ، ذاتَ صِبْغَةٍ اجتماعيةٍ واضحةٍ، وإنَّ الهَدَفَ منها، تنظيمُ الحياةِ في المجتمع المسلم، على أساس مبادئ العَدْلِ، والمساواةِ، والحقّ .

إنَّ مجتمعاً تسري في أوصالِه مِثْلُ هذه القِيَمِ، التي جاء الإسلام بها، لا يُمكنُ أنْ يَتسرَّبَ إليه الوهْنُ، والاختِلالُ، والأصلُ في المجتمع المسلم أنْ تسري فيه مثْلُ هذه القِيَم، حتى لا يتسرَّب إليه الوهْن والضَعف، وبهذه القِيَمِ فإنَّ أفرادَه لا يَكتَفُونَ بالوقُوفِ عِند حُدُودِهم - فذلك حدٌ أدنى - بل إنَّهم لَيَتجَاوزونَ ذلك، إلى تقديمِ العَوْنِ إلى بعضهم بَعْضاً، وتفْريجِ كَرْبِ بَعْضِهم بَعْضاً[٧٧].

وحتى لا يكونَ للشيطانِ مَدَاخِلُ في تزيينِ مَساوئ الصِّفاتِ والأخلاق، لِصِنْفٍ من الناس، يَتظاهرون بالصَّلاحِ والدِّين، حيثُ يُخادعونَ أنفسَهم، فَيُصوِّرونَ لأنفسِهم الغِيبةَ بأنَّها مِنَ النَّصيحةِ في الدين. أو يَتظاهرونَ بإبداءِ الشَّفقةِ والرَّحْمة، لِيُمارِسوا مِنْ خلالِ ذلك الغيبةَ والنميمةَ، وبِخاصةٍ عِند الأقران والمتنافسين على الدنيا ومتاعها.

وهذا البابُ من أخْطرِ الأبواب، في وُلُوجِ المجتمع إلى مِثْل هذه السُّلُوكات السيِّئة، المألوفة في كلِّ عصْرٍ، وللناسِ مقاصِدُ، في مثْل هذه السُّلُوكاتِ بِحَسَبِ أصنافهم، فإنَّ الغيظَ، والحَمِيَّةَ، والحَسَدَ، وسُوْءَ الظَّنِّ، مَنْبعُ غِيبةِ الهَمَجِ والجَهَلَةِ، وهذا لا يَخْفى على الشخص الواعي .

وأمَّا غِيبةُ العُلماءِ، فَالمَدْخلُ إليها الخِدَاعُ الذي تُمارِسه النَّفْسُ الإنسانيةُ، التي غَلَبتْ عليها الشَّهوةُ، حيث يُمارِسُ صاحبُها الغِيبَةَ في حقِّ الأقران بالتَّظاهُر بإبْداءِ النَّصيحةِ، وتَأويلِ ما لا يَصِحُ مِنَ الأحاديث المنسوبة إلى النبي ﷺ، لِكي يُبيحوا لأنفسهم الغِيبةَ[٧٨]. وأما مَنْبعُ الغِيبة من القُرَّاءِ والنُّسَّاك، فَمِنْ طريق إظهارِ التَّعجُّبِ، حيثُ يُبدي أحدُهم عُيوبَ أخيه، ثم يتصنَّعُ ذلك، بالدُّعاءِ لأخيه في ظهر الغيب.

وأمَّا مَنْبعُ الغِيبة من الرؤساء، وذَوي المَنزلة والمكانةِ الاجتماعية، فَمِن طريقِ إبداءِ الرَّحمةِ والشَّفَقة، ثم يتصنَّع ذلك، بالدعاء له عند إخوانه[٧٩].

---

[٧٧] بن مسعود، "القيم الإسلامية التربوية والمجتمع المعاصر " . ص١٣٣ ـ١٣٤ .

[٧٨] الإشارة هنا إلى حديث "أترغبون عن ذكره ؟ اذكروه بما فيه ليحذره الناس " ذكره العقيلي. العقيلي، محمد بن عمرو، كتاب الضعفاء، دار الصميعي، ط١، الرياض، ١٤٢٠هـ ٢٠٠٠م . أورده في ترجمة الجارود (٢٤٨) . ٢١٩/١ . قال ابن عدي في الكامل : والبلية فيه من الجارود ،وقال أحمد: حديث منكر . ابن عدي الجرجاني، أحمد بن عبدالله (٣٦٥هـ)، الكامل في ضعفاء الرجال ،تحقيق عادل عبد الموجود وآخرون ،دار الكتب العلمية ، بيروت ، ٤٣٠/٢ (٣٦١/٣٦)

[٧٩] ابن الجوزي ،عبد الرحمن، " تلبيس إبليس" ، دار القلم ، بيروت . ص١١٤ .

إنّه مِنَ الواجبِ على المسلمِ بِمُقتضى إسلامِه وإيمانِه؛ الالتزام بكل ما جاء به الدين من أحكام وتشريعات، وقيم وأخلاق، في مختلف جوانب الحياة.

والتساؤلُ الذي يَرِدُ هنا: مِنْ أين جاءت هذه السُّلُوكات ؟! قد يَرجعُ الأمر في ذلك للشُّعُوب التي دخلتْ في الإسلام، وقد دَخَلَتْه عندما كانت في عهود انحطاطها . وما حقّقته هذه الشعوب بعد ذلك، إنّما كان بِفضلِ الإسلام، ومبادئه . وإنّ ما وقَعَتْ فيه هذه الشعوب مِنْ انحرافاتٍ، وانحطاطٍ - بالرَّغم مِنْ قِيَمِ الإسلامِ، ومبادئه، وقوّة دَفْعِه - استَمَدَّتْ جُلَّ مادَّتِه، مِنْ رَوَاسبِ ماضِيها، ومِنْ المُؤثِّراتِ الأجنبيةِ الدخيلةِ عليها. ذلك كلُّه بخِلاف ما أمَرَ به الإسلام، في أحكامِه وتوجيهاتِه، ولولا بَقِيَّةٌ من معاني الإسلام في نفوس الناس، لَكانَ - ولا شك - حظُّ شُعُوبِ المسلمين، أشدَّ ظُلمةً، وأكثرَ فساداً .

إنَّ بإمكانِ المسلمين في العَصْرِ الحالي، أنْ يُحقِقوا ما حقَّق أسلافُهم في صَدْرِ الإسلام، ويَضَعوا حَدّاً لِلمُعاناةِ التي يعيشون في ظِلالها، إنْ هُم سَارُوا على مَنْهجِ هؤلاء الأسلاف، وعَمِلوا بما أمر به الإسلامُ، في التشريعات، والأحكام، والتوجيهات، التي جاء بها، وحثَّ عليها، وهذا هو وحْدَه الكفيلُ بالخروج من الأزمة، وتصحيحِ مَسِيرةِ الأمة [80]. فأين القِيَمُ التي قد يَتغنَّى بها كثيرٌ من المسلمين، من خلال حديثِهم عن التآخي، والتكافلِ، والتضامنِ، والوِحْدة ؟

إنّنا نشاهدُ شُعوباً مُسلمةً تَتَعرَّضُ إلى حَمَلاتِ إبادةٍ وتَهميشٍ وتجويعٍ، كان نِتاجُها مَجاعاتٍ، وأمراضٍ، وكوارثَ، كما يَحصُلُ في قارتَّيْ إفريقيا وآسيا في هذه الأيام، وفي الوقت نَفْسِه، نَجِدُ دُوَلاً وشُعُوباً تنتسب لِدِينِ الإسلامِ، ذاتُ ثَراءٍ عريضٍ، بِما حَبَاها الله، مِنْ ثَرَواتٍ وإمكاناتٍ، لا تأبَه لِحالِهم، ولا تُظهِرُ أيَّ اهتمامٍ بِهِم، بالرغم مِنْ عِلمِهِم، ومعرِفتِهم بأحوال إخوانِهم من المسلمين، بَلْ إنَّهم ينفقونَ الأموالَ التي لا حَصْرَ لها، فيما لا نَفْعَ فيه.

لا شكَّ، إنَّ وجودَ مثل هذه الحالات، تُنبئ عن أزْمةٍ خُلُقيةٍ كبيرةٍ تعيشها هذه الأمة، حيث انعدمَ التكافلُ، والتراحمُ، والمواساة، بين المسلمين، وفَقَدَتْ المؤاخاة معناها، ورُوحها . وفي الحديث عن الرسول ﷺ أنّه قال : " **... وأيُّما أهل عَرْصَة أصبح فيهم امرؤٌ جائع فقد برئت منهم ذمة الله تعالى** " [81]. فالتوجيهُ النَّبويُّ في التكافلِ، والتضامنِ، لا يقتصر على الأفراد فقط، بل ينطبق على

---

[80] أبو سليمان، أزمة العقل المسلم . ص٧١ .

[81] ابن حنبل، المسند، حديث ٤٨٨٠ . ٣٩٦ (٣٣/٢) . قال الهيثمي : فيه أبو بشر الأملوكي، ضعفه ابن معين. الهيثمي، مجمع الزوائد حديث (٦٤٧٦) ١٢٥/٤. وقال الساعاتي: الحديث صحيح لا مطعن فيه. وقال الحافظ: ثم إن للمتن شواهد تدل على صحته. رواه ابن ماجة ورواته ثقات. الساعاتي، الفتح الرباني، حديث ٥٩٤١ . ص ٢٣٠٧. قلت : الحديث بهذا السند ضعيف، فيه أبو بشر ، قال فيه ابن معين: أبو بشر عن أبي الزاهرية لا شيء . ابن حجر، التهذيب، ٤٨٦/٤. وأما ما ذكره الساعاتي في الفتح الرباني، أنَّ ابن ماجة قد

الشعوب بِمجموعِها، فليس من الإسلام، ولا من أخوَّة الإيمان، أنْ تُوجَدَ شُعُوبُ ودُوَلٌ مُترَفةٌ، لا تَدري كيفَ، ولا أينَ تُنفِقُ ثرواتِها . وفي الآنِ نفْسِهِ، تَجِدُ شعوباً أخرى، تَنْهشُها المجاعةُ، والفَقْرُ المُدقِع، جميعها تنتسب لهذه الأمة . فأين هذا مِنَ " المؤاخاة" التي أقامها الرسول ﷺ، بين المهاجرين والأنصار، يومَ هاجر إلى المدينة ؟! .

إنَّ هذه القيم والأخلاق التي حثَّ عليها الإسلام، تُعَدُّ وسيلةً لإحياء المجتمع والأمة، وضماناً لاستمرار الحياة فيهما، وضماناً للتفوُّق والتقدُّم. وبهذه القِيَمِ الإنسانيةِ، تكونُ هذه الأمة مُستحِقَّةً لِقيادةِ الأمم جميعها، وذلك لأنَّ الأخلاق في الإسلام ليست عدداً من الفضائل المبعثرة، كلٌّ على حِدَة، بلْ تُشكِّلُ نظاماً متكاملاً لحياة شاملة. وهذا النظامُ يوجّه ويَضبِطُ أوْجُهَ النشاطِ الإنسانيِّ، في شتَّى جوانب الحياة. وكلُّ نشاطٍ خيِّرٍ، بنَّاءٍ، هادفٍ، هو نشاطٌ أخلاقي، بِشَرْطِ ألاَّ تتناثرَ مُفردَاتُ الأخلاق، وألاَّ يُؤخذ كلُّ خُلُقٍ مُستقِلاً لِوحدِه، لأنَّ أخْذَ كلِّ خُلُقٍ لِوَحدِه، لا أثَرَ له في ضَبْطِ النشاط الإنساني. إنَّما الأخلاق بمجموعها تؤلِّفُ نظاماً متكاملاً لحياة شاملة، يُمكنُ من خلال هذا النظام، تَوجيهُ وضَبْطُ النشاطِ الإنسانيِّ، بِجُمْلَتِه في السر والعلانية .[82]

عندما تُقدَّمُ القِيمُ، والأخلاقُ، كَمنظُومةٍ، مُتكامِلةٍ، ومُنسجمةٍ مع بعضها البعض، فإنَّها تُؤدِّي دورَها في البناءِ والرُّقيْ، على مستوى الفرد، والجماعة، والأمة . " أمَّا التنازُلُ عن القِيمِ، وبَعْثرتِها، والانتقاءِ منها، بِحَسْب المنافع والمصالح، وتجْميدُ الفاعليةِ، وإقرارُ الظُّلمِ، والعُدُولُ عن الحق، والتَّوقُّفُ عن الإنجازِ الحضاريّ باسم الواقعية، فَهُو فِقدانٌ للإرادة، وانتحارٌ جماعيٌّ، وانحدارٌ بَشَريٌّ، وقضاءٌ على أي أمل في الإصلاح " [83] .

وهناك سَبَبٌ آخرُ حَالَ دون التزامِ الأمة للقيم والأخلاق، في كثيرٍ من مَجالاتِ الحياة، وهوَ تَعَرُّضُ المسلمين لِغزْوٍ ثقافي وفِكري، يستهدفُ بالدرجةِ الأولى تشكيكَ المسلمين بإسلامِهم، وصَرْفِهم عن الإسلام .

ومِن ذلك ما تُسَوِّقه كثيرٌ من الوسائل الإعلامية، مِنْ أخلاقِ (الفضائح الاجتماعية) التي قتَلتِ الرجولةَ، والشَّهامةَ، والمُرُوءةَ، والاستقامةَ، ورُوحَ الجهاد، في حياة المسلمين، بَعدما كَسَرَتِ الحاجزَ النفسيَّ - عند غالبية المسلمين - الذي كانَ يَحُولُ بينهم، وبينَ هذه المُنْكَرات، والمُحرَّمات .

رواه، فقد أخرج ابن ماجة شطره الأول وصححه البوصيري : ابن ماجة ،السنن، تاب التجارات، باب الحكرة والجلب، حديث(٢١٥٥) ٧٢٩/٢ . وفي الزوائد: إسناده صحيح ورجاله موثقون . البوصيري، أحمد بن أبي بكر بن إسماعيل(٨٤٠هـ)، زوائد ابن ماجة على الكتب الخمسة، حديث (٧٢٣) ص ٣٠٠- ٣٠١، تحقيق محمد مختار، دار الكتب العلمية ، بيروت، ط١، ١٤١٤هـ، ١٩٩٣م .

[82] سيد قطب، مقومات التصور الإسلامي . ص ٢٩٥

[83] أحمد بوعود ، من سلسلة كتاب الأمة "فقه الواقع ، أصول وضوابط"، وزارة الأوقاف القطرية، ط١، ١٤٢١هـ ٢٠٠٠م . ص٣٠ .

" بحيث صارت هذه الأخلاق مع ضعف التدين، بديلاً للأخلاق التي حثَّ عليها الإسلام ، وأصبحتْ بفعلِ المحاكاةِ والتقليدِ واقعاً اجتماعياً ، ولا يخفى في هذا المجال الدور الاستعماري في إشاعة الفساد ، والانحلال الخُلُقي " [٨٤].

وهذه الأخلاق التي حلّتْ بديلاً - عند المسلمين - للأخلاق التي دعا إليها الإسلام ، وحثَّ عليها، أخلاقٌ لا ارتباطَ بينها وبين منهج الله. "فقَدْ انفصلتِ الأخلاقُ في الجاهليَّةِ الأوروبِّيةِ الحديثةِ عن منهجِ الله، وأصَابَها انحرافٌ كبيرٌ، حيث صارت الأخلاق نَفْعيَّة وأنانيَّة . وفي النهاية أخذتِ هذه الأخلاقُ النَّفعيةُ الأنانيةُ ذاتُها تتداعى على يد الجيل الناشئ في الغرب، مُؤْذِنَةً بالانهيار "[٨٥].

---

[٨٤] عبد الستار، سعيد ، الغزو الفكري والتيارات المعادية للإسلام ، دار الوفاء ، ط٥ ، المنصورة ، ١٤١٠هـ ١٩٨٩م . ص٧٤ و ص١١٩ - ١٢١ .

[٨٥] محمد قطب، جاهلية القرن العشرين ، دار الشروق ، ط٩ ، مصر ، ٢٠٠٠م . ص ٢٤٦

المطلب الثالث

الافتقاد للبعد الديني في بناء المجتمع

يُقاس تديُن الفردِ، أو المجتمعِ، بِمقدارِ التزامِه بأحكام التشريع. ويَتفاوتُ الأفرادُ والمجتمعاتُ في الالتزام بالدين وبأحكامِه، وهذا التفاوتُ، والاختلافُ في التديُن، حالةٌ عامةٌ موجودةٌ في كل زمان ومكان .

ولعلَّ أكبرَ عاملٍ مُؤثِّرٍ في التديُن عند الفرد، هو الإيمان بالله تعالى، وذلك لارتباطِ العَمَلِ الصالحِ بالإيمان، فأكبرُ دافعٍ لِلعملِ الصالح هو الإيمان بالله تعالى، وكذلك لا جَزاءَ على العمل الصالحِ في الآخرةِ إلا بالإيمان بالله تعالى، فَكُلُ قِيمة يَتَشبَّعُ بها المسلم، مِنْ قِيَم الإيمانِ، لا بُدَّ أنْ تَظْهرَ آثارُها، من خلال السُلُوكِ الصادرِ عنه[86].

إنَّ الحقَّ ـ سبحانه وتعالى ـ قدْ جعلَ الأحكامَ الشرعيةَ العَمَليةَ، مُرْتبِطةً ارتباطاً وثيقاً بالجانب الأخلاقي، والإيماني، حيث ارتبطَ تطبيق أحكام الإسلام ارتباطاً وثيقاً عند الفرد المسلم " بالتقوى"، وهذه قضيةٌ أساسيةٌ في الالتزام بالأحكام الشرعية، وبِغِيابها وزَوالِها من القُلوب، تَبدأُ رِحْلةُ الإنسانِ والمجتمعِ نحوَ الضياع والهلاك وبُعدِه عن الإسلام.

وهذه المَسيرةُ قدْ بدأتْ مُبَكِرةً في هذه الأمة، ويُصوِّر ذلك، الحديث الذي رواه حُذيفةُ بنُ اليمان ـ رضي الله عنه ـ حيثُ قال: حدَّثنا رسولُ الله ﷺ حَدِيثَيْنِ قد رأيتُ أحدَهما وأنا أنتظرُ الآخرَ، حدّثنا **" أنَّ الأمانة نزلَتْ في جِذْرِ قُلُوب الرجال. ثُمَّ نَزَلَ القرآنُ . فَعَلِموا من القرآنِ وعَلِموا من السُنَّة" ثُمَّ حدَّثَنا عن رَفْعِ الأمانة قال: ينامُ الرجُلُ النَّوْمَةَ فَتُقْبَضُ الأمانةُ مِنْ قَلْبِه. فَيظلُّ أثرُها مِثْلَ الوَكْتِ[87]. ينامُ النَّوْمَةَ فَتُقْبَضُ الأمانةُ مِنْ قَلْبِه. فَيظلُّ أثرُها مِثْلَ المَجْلِ [88]. كَجَمْرٍ دحْرَجْتَه على رِجْلِك. فَنَفِطَ فَتَرَاه مُنْتَبِراً وليس فيه شيءٌ(ثُمَّ أخَذَ حَصَىً فَدَحْرَجَه على رِجْلِه) فَيُصبِحُ الناسُ**

---

[86] بن مسعود، "القيم الإسلامية التربوية والمجتمع المعاصر " . ص٦٨

[87] الوكت: الأثر اليسير في الشيء . ابن منظور، لسان العرب، مادة" وكت" . ١٠٨/٢.

[88] المجل : مَجِلَتْ يَدُه بالكسر ومَجَلَتْ: نَفِطَتْ من العمل وظهر فيها ما يشبه البَثْرَ من العمل بالأشياء الصلبة الخشنة . ابن منظور، لسان العرب، مادة " مجل"٦١٦/١١.

يتبايعون . لا يكادُ أحَدٌ يُؤدِّي الأمانةَ، حتى يُقالَ: إنَّ في بني فُلانٍ رَجُلاً أميناً. حتى يُقالَ لِلرَّجُلِ: ما أجْلَدَهُ! ما أظْرَفَهُ! ما أعْقَلَهُ! وما في قَلْبِهِ مِثْقالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ إيمانٍ"[89]

هذا الحديثُ يُصوِّرُ كيْفِيَّةَ ذهابِ الإيمانِ من القلوب، حتى يصيرُ التديُّنُ في الناسُ قليلاً، وبخاصة الأمانة، حتى يُقَالَ إنَّ في بني فُلان رجُلاً أميناً، وهذا يدلُ على الحال الذي صارت الأمةُ عليه.

إنَّ غِيابَ هذا البُعد الإيماني، عن مجال التشريع في حياة الفرد المسلم، كان من نتائجه تضاؤلُ دَوْرُ الإسلام، عقيدةً وتشريعاً، في تَرشيدِ الحياة الاجتماعية، حيث أصبحتِ الأحكام التشريعية، مُجرَّدَ معلومات ومعارف نظرية، لا أثر لها في الواقع العملي، في حياة الفرد المسلم. " لقد أصبحَ لدى الفقهاء فقهٌ نظريٌّ افتراضيٌّ لا مساس له بقضايا الناس، ولا يُعالِجُ مشكلاتهم اليومية، ولَذَتُها المناظراتُ والمجادلاتُ والقضايا الخلافية، حيث تحوَّلَ الفقه ـ بعد تلك الممارسات الخاطئة ـ مِنْ وسيلةٍ لِضَبْطِ حياة الناس ووقائعها بضوابطِ الشريعة، إلى وسيلةٍ لِتَبريرِ الواقع" [90]

والأدهى من ذلك، أنَّ " عِلْمَ العقيدة تَحوَّلَ في جَوْهرِه، إلى عِلْمِ المُتشابِهات، والمُعَمَّيات، والجَدَلِيَّاتِ، التي تَقذِفُ العقلَ المسلمَ في أمواجٍ مُتلاطِمةٍ من الغَيْبِياتِ، التي ليستْ من شأنه، ولا في طاقة نَظَرِه وإدراكه وصارتْ في كثيرٍ من الأحوال، تُعيقُه وتصرِفُه عن غاياته، وجِدِّية أداء مُهمَّتِه في الحياة" .[91]

بِفِعْلِ هذا الإغفال للبُعد الإيماني وتغييبه، عن مجال الأحكام الشرعية العملية، وبِفِعْلِ ما ألِفَه أكثر الناس، من المُزاوجَةِ بين ما يعرفونه نظرياً من أحكام الإسلام، وبين حياتهم التي أقاموها ـ غالباً ـ على غير هذه المعرفة، دخلَ أكثرهم في حالة غُرْبة عن الإسلام .

والإنسان في مثل هذا الواقع المرير، بغياب الإسلام وإبْعادِه عن معظم جوانب الحياة، يُدرِك بِشكلٍ عَمَليٍّ، معنى غُرْبة الإسلام. فَمِنْ غُرْبةِ الإسلامِ في دياره، أنْ لا تَرَى الالتزامَ بأحكامِه، فَلا تَكادُ تَلْمَسُ أيَّ أثَرٍ للدين وتوجيهاتِه وأحكامِه، في حياةِ المسلمين، فليس لهم من الإسلام إلاَّ اسمُه، حيثُ يَحْتكمُ الناسُ إلى أهوائهم، ولا يَرَوْنَ في الدين إلاَّ تِجارةً لِتحقيقِ منافِعِهم ومصالِحِهم .

---

[89] مسلم، صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب رفْع الأمانة والإيمانِ مِنْ بعضِ القلوب، وعَرْض الفِتَنِ على القلوب، حديث(٢٣٠). ١/١٢٦-١٢٧.

[90] العلواني، أدب الاختلاف في الإسلام، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط٥، الولايات المتحدة، ١٤١٣هـ١٩٩٢م. ص١٣٩ ـ ١٤٠ .

[91] أبو سليمان، أزمة العقل المسلم . ص ٦٧ـ ٦٨ .

إنَّ غُربةَ الإسلامِ في أيامنا هذه، كَغُربتِه في بدايةِ عهْده، لا لِقِلَّةِ عَدَدٍ، وإنَّما غُربةُ قِيَمٍ، ومبادئ وتشريعات، حيثُ صَارَ واقع حياة المسلمين مَبْنياً على غير قواعد الإسلام وأحكامِه، فإذا عُرِض عليهم الإسلام كما جاء به نبيُّنا محمد ﷺ، أنْكَرَته قلوبُهم، ورُبَّما وقع منهم التعجُّب والاستهجان لِما يُلْقى إليهم، بحيث صار الإسلام غريباً، كما أخبر الرسول ﷺ حيث قال **" بدأ الإسلام غريباً، وسيعود غريباً كما بدأ. فطوبى للغرباء "**[٩٢]

لقد كان الفَصْلُ بين الجانب العَقَدِيِّ الإيماني، وبين الجانب الفِقْهِيِّ، من خلال تقسيم العلوم الشرعية - حتى على المستوى النظري، عند بَيانِ الأحكامِ الفقهية العَمَلية - هو نُقْطةُ البِداية، في بَدْءِ التحلُّلِ من الالتزام بالأحكام الشرعية، في جميع المجالات .

لقد ذكرتْ بعضُ الأحاديثِ النبويةِ أسباباً للبُعد عن الدين، وضُعف التَّدَيُّن، وهو أمر لا يحدث فجأةً، وقد لا يكون مُتعمَداً في بعضِ صوره، ومِنْ ذلك الجهلُ بالدين.

ففي الحديث عن رسول الله ﷺ أنّه قال : **" إنَّ الله لا يقبضُ العِلمَ انتزاعاً، يَنْتزعُهُ مِنَ العِباد، ولكنْ يَقبضُ العِلمَ بِقَبْضِ العُلماء، حتى إذا لَمْ يُبْقِ عالِماً، اتَّخذَ الناسُ رُؤوساً جُهَّالاً؛ فَسُئلوا فَأفْتَوا بِغيرِ عِلْمٍ، فَضَلُّوا وأضَلُّوا "** [٩٣].

إنَّ هذا الحديث يُبيِّن حالةً، يَفتقدُ فيها المجتمعُ والفردُ تديُّنه، جَهْلاً وبِغير قَصْد، ويُبيِّن سبباً من أسبابِ الجَهلِ بأمور الدين، حيثُ يَتفشَّى الجَهلُ بأحكامِ الدِّينِ في المجتمع، حِينَ لا يَجدُ الناسُ مَنْ يُبيِّن لهم أمْرَ دِينِهم على الوجه الصحيح، وذلك إذا فقد الناسُ العالِمَ الرَّبَّانيَّ، الذي يُبيِّن لَهم أحكامَ الشَّريعة والدين .

ولا يَجدُ الناسُ إلاّ صِنفاً مِمَّن ادَّعى العِلم، ونَسبَ نفْسَه لِلعِلم زُوراً وبُهتاناً، في مجتمعٍ يُخيِّمُ عليه الجَهْلُ، حيثُ تصدَّرَ هذا الصِّنفُ، لِلفَتوى وبيان أحكامِ الدِّين، فاغْترَّ الناسُ بهم، وبِعِلْمِهم، فَقلَّدُوهم، واقْتَدَوا بهم، فكانوا سبباً لِضلالِ الناس، وسبَباً لضَعْف الالتزام بالدِّين .

وللشيطان مَدَاخِلُ كثيرةٌ عِند هذه الأصناف، حيث يُزيِّن لهم صَنيعَهم، ويُلبِّس عليهم أمْرَهم، " فَمنهم مَنْ يُقدِم على الفتوى بالخطأ، لِئلاً يُرَى بِعين الجهل، وطَمَعاً في أنْ يُشار إليه بالبَنان، بأنّه عالِمٌ، لا يُشقُّ له غُبار " [٩٤].

---

[٩٢] مسلم، صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان أن الإسلام بدأ غريباً ، حديث(٢٣٢) . ١٣٠/١ .

[٩٣] البخاري ، صحيح البخاري ، كتاب العلم ، باب كيف يقبض العلم ٣٣/١-٣٤ ، كتاب الاعتصام ، باب ما يذكر في ذم الرأي وتكلف القياس ، ١٤٨/٨ .

وَمِنْ أسباب افتقاد التديُن في المجتمع، الفصلُ بين المُعتَقَدُ والعمل، بحيث يبقى الإيمانُ قضيةً قَلْبيةً عند الفَرْد، ليس له أثَرٌ على السُلُوك والواقع، ولعلَّ الفِكْرَ الإرْجائي الموجود في الأمة، كان عاملاً مُساعِداً لذلك، باعتبار أنَّه لا يَضرُّ مع الإيمان ذَنْبٌ. في نَظَرِ مَنْ يتبنَّى هذا الفِكْرَ، لا يُمنع التَزَاوُجُ بين وجودُ الإيمانِ في القَلْب، وبينَ وجودِ المَعصيةِ والذنْبِ في السلوك والعمل، فالمجتمعُ ـ بهذه الصورةِ ـ سلوكاً وواقعاً بَعيدٌ عن الإسلامِ، في أحكامه وتشريعاته، فَمَنْ يَنظرُ إلى هذا المجتمع، لنْ يَجدَ أيَّ اختلافٍ بينه وبين المجتمعات الأخرى، التي تَدينُ بغير الإسلام.

فالتاجرُ بَعيدٌ في تعامُلِهِ عن أخلاقياتِ الإسلامِ وأحكامه، فلا بأس أن يغِشَّ في تجارته، أو يَحتكرَها، أو يَتعامَلَ بالحرام، وهكذا الأمرُ عند جميعِ فئاتِ المجتمعِ وطبقاته، فالإسلامُ بعيدٌ عن واقع الحياة، ويَنْحصرُ دَورُه، في تنظيمِ علاقة الإنسان بخالِقه، دُونَ أنْ تَترُكَ هذه العلاقةُ أثراً في عَلاقةِ الإنسانِ بمجتمعه وأمتِه .[94]

" في مثل هذا الحال، قَدْ تَجدُ فِئاتٍ كثيرةٍ مِنَ الناس لا تَكْره الإسلامَ عقيدةً، ومَعَ ذلك لا تُحبُ تطبيقَه في واقع الحياة ! يُريدون الإسلامَ عقيدةً مُستسِرَّةً في القلب، عقيدةً يُصلِّي لها الإنسانُ ويصوم، أمَّا ما وراءَ ذلك، فَتَعبُ قَلْبٍ ليس له لزوم!! ... أمَّا أنْ يلتزموا بِتكاليفِ الإسلامِ في كُلِّ صغيرٍ وكبير، في المَلْبس، والمأكلِ، والحُكم ! فهذا ليس له لزوم !" [95]

ورُبَما كان لِتوجُّهاتِ الناسِ واهتماماتِهم الدُنيويَّةِ، وحِرصِهم على الدنيا وتهافتِهم عليها، الدَّوْرُ الأكبرُ في انصرافهم عن أحكام الإسلام وتشريعاتِه، فَكانت الدنيا وزينتُها ونعيمُها فِتنةً لهم، بِتنافُسِهم عليها، كما تنافست الأمم السابقة عليها، فيكون في ذلك هلاك هذه الأمة كما أهلكتْ الأمم السابقة . وهو ما حذَّرَ الرسولﷺ الأمَّةُ منه، حيث قال: " **... فَوَاللهِ لا الفَقْرَ أخشى عليكم، ولكنْ أخشى عليكم أنْ تُبْسطَ عليكم الدُنيا، كما بُسِطتْ على من كان قبلكم، فَتَنَافَسُوها كما تَنافسوها، وتُهلِكَكم كما أهلكتهم "**[96]. وذلك لأنَّ انْفتاحَ الدنيا على الإنسان يَجعلُه يزدادُ رغبةً فيها، طَمَعاً في الحصول على نعيمها طَمَعٌ قدْ يَصِلُ إلى درجة الشراهة والجشع، الذي يُؤدِّي إلى التنافس الشديدِ عليها، ورُبَما الصراع عليها، وهوَ مُؤذِنٌ بالهلاك والدمار، بِتغيُّر الأنفس بالشُحِّ والبُخْلِ والحَسَدِ والحِقْد.

---

[94] ابن الجوزي، تلبيس إبليس، ص ١١٢ ـ ١١٥ .

[95] محمد قطب ، جاهلية القرن العشرين . ص٢٧٩ـ ٢٨٠ .

[96] البخاري، صحيح البخاري، كتاب الجزية والموادعة ، باب الجزية والموادعة ، حديث (٣١٥٨). ص١٤٩٠.

وقَدْ ينحطُّ بعْضُ الناسِ إلى الدَّرْك الأسفل، بأنْ يَبيعَ دينَه بِعَرَضٍ زائلٍ من الدنيا، وهو زَمَنُ الفِتَنِ، الذي تكون فيه الفِتَنُ كَقِطع الليل المظلم، والتي تجعل الإنسان يتخبَّطُ في الظُّلُمات والشُّبُهات، ويتقلَّبُ بدينه بين الكفر والإيمان، لا يستقرُّ على شيءٍ من ذلك، ولا يُنقِذُ الإنسان من تلك الحيرة والتقلب في زمن الفتن، إلاّ عملٌ يُبادر به، يُبعدُه عن الخوض في الفتن، والوقوع فيها وقد جاء في الحديث عن الرسول ﷺ أنه قال : "**بادِروا بالأعمال فِتَناً كَقِطعِ الليل المُظلِم، يُصْبِحُ الرجلُ مؤمناً ويُمسي كافراً، أو يُمسي مؤمناً، ويُصبِحُ كافراً، يبيعُ دِينَه بعَرَضٍ من الدنيا**" [٩٧] وقد ينحط أكثر من ذلك، بأنْ يبيعَ دِينَه بِدُنيا غيرِه، وما بيَّنه الحديث النبويُّ هنا، هو صورة لمجتمع افتقاد تأثير الدين فيه .

والخلاصة إنَّ مُجْرَياتِ الواقع الإسلامي - خلال عَهْدِ التراجع الحضاري - آلَ الأمر فيها إلى تفسُّخِ الصِّلة وانقطاعها بين أصول العقيدة، وبين فَعالياتِ الحياة المختلفة .

لَمْ تَعُدْ مَظاهرُ السلوك المختلفةِ تَندفِعُ في تِلقائيةٍ ووضوحٍ من مَرجِعيتِها العقدية، وغَدَت حقائقُ العقيدة تُشبِه أن تكون تَصَوُّراتٍ ذِهنيةٍ، ليس لها غايةٌ؛ غايتُها في ذاتها ، وضعُفَ الشعور بغايتها السلوكية .

لَقَدْ أدّى هذا الوضعُ إلى ما يُشبِه الانفصالَ، بين الاجتهادات الفرعية في أحكام الإسلام وتشريعاتِه، وبين مَرْجِعيتِها العَقَديةِ، ويُمثِّلُ لذلك بِحقيقةِ التوحيد، التي كانت في عهود الازدهار الإسلامي تَطْبَعُ حياةَ المسلمين كلِّها، تشريعاً، وآداباً، وفُنُوناً، وعِمارةً، " ثُمَّ أصبحتْ بعد ذلك محصورةً في أذهان المسلمين، في بُعْدٍ واحدٍ تجريديٍّ، هو وَحْدانيةُ الذاتِ الإلهيةِ، وتقلَّصَ أثرُها في مناحي الحياة العملية " [٩٨] .

الدِّينُ هو المِيزانُ والمِعيار الذي تُوزَن به الأمور وتُقاس، وبه يتبيَّن الصوابُ والخطأ، سَواءً في جانب العبادات، أو المُعاملات، أو العقائدِ، أو السلوك، أو الأقوال . إنَّ الالتزامَ بالجانبِ الديني يُوفِّرُ للمسلم، مِعْياراً وميزاناً ثابتاً، يستطيع بناءً عليه، إعادة بِناءِ المجتمع على أُسُسٍ قويَّةٍ متينةٍ، ويُحافَظَ به على المجتمع من الخَلل والفساد والضياع، من خلال عَمليةِ النَّقْدِ والتقويم المستمرة .

---

[٩٧] مسلم، صحيح مسلم ، كتاب الإيمان ، باب الحث على المبادرة بالأعمال ...، حديث رقم(١٨٦) ، ص١١٠

[٩٨] د.النجار، " في فقه التدين ، فهما وتنزيلا " . ٢/ ٤٠ ـ ٤١

المطلب الرابع

الاختلاف والتشرذم

عِمادُ هذه الأمةِ قائمٌ على كلمة التوحيد، وتوحيد الكلمة، وهذه الأمةُ أقيمَ بناؤها من أوّل يوم على أساس الإسلام، وسُمّيتْ بهذا الإسلام الذي انتسبتْ إليه، فهو دعوة التوحيد الخالصة.

إنّ كَلمةَ " التوحيد " تعني أنّه لا إله لهذا الوجود إلاّ خالِقه، ومُدبّرُ أمره، وهو الله - جلّ في عُلاه - وليس هناك إلهاً غيرُه، وذلك يعني وحدة الهدف والغاية، عند جميع مَنْ يُقِرُّ بوحدانيةِ الله تعالى، والتي ينبغي أنْ تسيرَ الأمةُ بناءً عليها، وهو الأمر الذي يقود إلى " توحيد الكلمة " فتحافظ الأمة على وحدتها وقوّتها، بعيداً عن الفُرقة والاختلاف، فَتَبقَى مَنيعةَ الجانب، قويّة البُنيان، يَهابُها الأعداء .

ولذلك كانت دعوةُ الإسلامِ تقومُ على وحدانيةِ الله تعالى، حيثُ يتوجّهُ الناسُ إلى " الله" الواحدِ الأحدِ، في كلّ شأنٍ من شؤون حياتِهم، في عباداتِهم، ومعاملاتِهم، وسائر توجُّهاتِهم .

أمّا إذا اختلّ مفهومُ " التوحيد" في قلوب الناسِ، وأفكارِهم، وسلوكِهم، وتعدّدتْ غاياتُهم، واختلفتْ توجُّهاتُهم، فإن نتيجة ذلك ستكونُ الفُرقةُ، والاختلافُ.

فإذا لمْ يَكنْ الإسلامُ السبيلُ لِوحدتِهم، فَلنْ يُوحّدهم غيرُه، فَلا قوميةٌ، ولا عَصَبيةٌ، ولا لُغةٌ، يُمكنُ أنْ تكونَ أساساً لأيّة وِحدةٍ ينشِدونها، لأنّها لا تَحْمِل في ذاتِها أيّةَ إمكانية، لِتحقيقِ وِحْدةِ الهدف والغاية، بلْ هي على النقيض من ذلك، لأنّها من أسباب الفُرقةِ والاختلاف في الأمة .

فوجود الاختلاف بين الناس بناءً على ذلك أمْرٌ بَدَهِيٌّ؛ نتيجةٌ لِتعدُّد الأديانِ، والمذاهبِ، والمعتقداتِ . أمّا إذا وُجِدَتْ وِحدةٌ بين الناس، في المُعتقَد، أو المبدأ، فإنْ وُجِدَ الاختلافُ فَسيَبْقى اختلافاً مقبولاً، وقد يكون محموداً، إذا كان ضمن هذا الإطار، وكان بعيداً عن الأهواء، بحيث لا يخرجُ على الأساسياتِ المُتَّفَقِ عليها.

فاختلافُ المسلمين ضِمْنَ إطارِ الإسلام - بحيث تبقى أصولُه وأركانُه بعيدةً عن الاختلافِ والخلافِ والنزاعِ - يبقى اختلافاً مقبولاً ومشروعاً، فالاختلاف في وُجُهاتِ النَّظرِ، وفي تقديرِ

الأشياءِ والحُكْمِ عليها، أمْرٌ فِطْريٌّ طبيعيٌّ، ويتّفقُ والفروقُ الفرديةُ الموجودة بين البشر إلى حد كبير. " ومِنْ طبيعةِ الأعمالِ الذِّهنيةِ والعَمَليةِ، اقتضاءُ مَهاراتٍ وقُدُراتٍ مُتفاوتةٍ ومُتبايِنةٍ" [99].

والاختلافُ في أصُولِ الدين مَذْمُومٌ، وقدْ نَهى عنْه، وحَذَّرَ منه الرسولُ ﷺ، لأنَّه طريقُ الاختلاف والفُرْقة بين المسلمين، وقدْ جاء في الحديث عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أنَّه قال : **" خَرَجَ علينا رسولُ الله ﷺ ونحنُ نَتنازعُ في القَدَرِ، فَغضِبَ حتى احْمَرّ وجْهُه، حتى كأنّما فُقِيء في وجْنَتَيْه الرُّمَّانُ. فقال: "أبِهذا أُمِرتُم ؟ أمْ بِهذا أُرْسِلتُ إليكم ؟ إنَّما أهلكَ مَنْ كان قبلَكم حين تَنَازعوا في هذا الأمر. عَزَمْتُ عليكم ألاَّ تَنَازَعوا فيه ""** [100] . يُبيِّن الرسولُ ﷺ لأمته في هذا الحديث، وجُوبَ الكَفِّ عن التَّنازعِ والجِدالِ فيما لا طائلَ من ورائه، حيث تَنازعوا في أمْرٍ من أمور الغيب، وهو" القَدَر" الذي يَجبُ أنْ نؤمنَ به، لا أنْ نُجادلَ فيه . وحِينَ انشغلت الأمّةُ، بما نُهِيَتْ عنه، وانْشَغَلَتْ بالجِدالِ والخِصامِ في "القَدَر"، وتَرَكَتْ العَملَ اتّكالاً على "القَدَرِ"، أصابَها الذي أصابَ الأممَ السابقةَ، " حيثُ وَرِثْنا عِلَلَ أهْلِ الكتاب، بَدَلَ أنْ نَرِثَ الكتابَ، ونتدبَّرَه ونَعْملَ بما فيه ؟ وقد وَرِثْنا البَغْيَ والجدالَ، بَدَلَ أنْ نَرِثَ العِلمَ والمَعْرفةَ ونَلْتزمَ بأخلاقهما . إنَّ الاختلافَ، والبَغْيَ، والتّفرُّقَ في الدِّينِ مِنْ عِلَلِ أهل الكتاب، التي كانت سبَباً في هلاكِهم" [101].

إنَّ أمورَ الغيبِ وقضاياه تُؤخذ بالتسليم، فعندها يكونُ أمرُ الأمة مجتمعاً، أمَّا محاولةُ إخضاعِ القضايا الغيبية لِلجدالِ العَقْليّ، فتُورِثُ الاختلافَ والخِصامَ، والفُرْقةَ والتنازعَ .

" ومما يُؤسَف له، أنَّه في القضايا التي تحتملُ الاختلافَ، تَحوّلَ الاختلاف بوجهات النظر فيها، مِنْ ظاهرةٍ صِحّيَّةٍ تُغْني العقلَ المسلمَ بِخُصوبة رأيٍ، وعُمْقِ تَمْحيصٍ، وسعةِ اطِّلاعٍ على وُجُهاتِ نَظَرٍ متعدِّدةٍ، ورؤىً مختلفةٍ، وإمعانِ نَظَرٍ، وقَدْحٍ لِزِناد الفكر. لقدْ تحوَّلَ الاختلافُ عن كلِّ هذه الإيجابياتِ عند مسلمي العَصْرِ إلى مَرَضٍ عُضالٍ، وسُمٍّ زُعافٍ، أدّى إلى التآكلِ، والتَّفَتُّتِ، والتَّشتُّتِ، والتَّدابُرِ، والتَّشاحُنِ، ومحاولة الاستئثار بالحق والحقيقة، حتى كاد الأمرُ يصِلُ عند بعض المُختلِفين إلى حَدِّ التَّصْفيةِ الجَسَديةِ، وتطرَّفَ بعضهم حتى رأى - بِمَقاييسَ مُحزِنةٍ - أنَّ

---

[99] عمر عبيد حسنة في مقدمته لكتاب" أدب الاختلاف في الإسلام" للعلواني . ص١١.

[100] الترمذي، الجامع الكبير، كتاب القدر ،باب ما جاء في التشديد في الخوض في القدر حديث ٢١٣٣، وقال : هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه من حديث صالح المُرّي ، وصالح المري له غرائب ينفرد بها لا يتابع عليها . وقال المحقق: فهو ضعيف ١١/٤ . قال ابن عدي : عامة أحاديثه منكرات ينكرها الأئمة عليه، وليس هو بصاحب حديث، وإنما أتي من قلة معرفته بالأسانيد والمتون، وعند مع هذا أنه لا يتعمد الكذب بل يغلط بيِّناً. ابن عدي ، الكامل في ضعفاء الرجال ٩٢/٥ - ٩٨ (٩١٢/٥) وحسّنه الألباني . الألباني، صحيح سنن الترمذي ٤٣٩/٢ . قلت: الحديث ضعيف بهذا السند، لضعف صالح المري وهذا الحديث من غرائبه ولم أجد له متابعاً. والله أعلم

[101] العلواني، أدب الاختلاف في الإسلام . ص ١٠.

أعداءَ الدين، وأهلَ الكتاب أقربَ إليه، من المُخالِفِينَ له بالرأي من إخوانِه المسلمين، الذين يَلْتقُونَ مَعَه على أُصول العقيدة"[102] .

والاختلافُ بهذه الصورة لم يقتصر على عامة الناس، بل امْتَدَّ الانقسامُ والاختلافُ ليشملَ العلماءَ وقادةَ الفِكر في الأمةِ، فَمِنَ العُلماء ـ حَمَلَةُ العلم الشرعي ـ مَن يُوالي السلطانَ والحُكَّام، ويُزيِّنُ لهم أعمالَهم ويُبرِّرُها، ويُناصِر الحُكَّام المُستَبِدِّين ويُكفِّر من يَخرُج عليهم أوْ يقاتِلهم، على ظُلْمِهم، وبَغْيِهم، وإسرافِهم في القتل والإفساد .

ومِنْهُم مَنْ ثَبتَ على الحَقِّ وبيَّنه، ودافَعَ عنه، ونصَرَه، ويرى جَوَازَ الخُروجِ على الحُكَّام المستبِدِّين ومقاتلتِهم، ويَعُدُّ ذلكَ جِهاداً في سبيل الله، وأنَّ مَنْ يُقتَلُ على هذا الحال شهيدٌ .

وهذا الاختلافُ والتشرذُمُ بين العلماء، أوْ مَنْ يَنْتسِبُونَ لِلعِلم الشرعي، في فَتَاواهم وأحكامِهم التي تَتَّصفُ بالتناقض غالباً، أوْرَثَتِ الأمةَ بَلبَلةً واضطِراباً، نَجِدُ آثارَهما في النزاع، والخصام الشديدِ، وظهورِ العَصبيَّاتِ المذهبيةِ والطائفيةِ .

" وأكثرُ ما وقعَ من الاختلاف بين المسلمين، ناشئ عن الهوى الذي سيطر عليهم، ولَمَّا اختلفتْ مقاصدُهم وغاياتُهم، دبَّ الخلافُ والشقاقُ بينهم، فأصبحَ داءً لا علاج له، لِاستحكامِ الهوى المُغلَّفِ بالجهل أحياناً، بحيثُ لم يُترك مجالٌ، أو ميدانٌ، إلاَّ وَدَبَّ الخلاف فيه بين المسلمين، فأنْبتَ لَفيفاً من الأقوام المُتصارِعةِ، وكأنَّ كلَّ ما لدى هذه الأمة، مِنْ أوامِرَ، ونَواهٍ، وتعاليم، يَحُثُّها على الاختلاف، ويُرَغِّبُ في التَّدابُرِ والتَّناحُر"[103] .

تُوجَدُ أحاديثُ كثيرةٌ حذَّر فيها الرسولُ ﷺ أمَّتَه من هذا الداء، حيثُ كان سبباً لِهلاكِ الأممِ السابقةِ، وقد اسْتَجدَّت صُوَرٌ جديدةٌ من أبواب الاختلاف، لمْ تكنْ معروفةً سابقاً، ويبدو أنَّه كلَّما تقدَّم الزمان، اتسعتْ رُقْعةُ الخلافِ إلى الحالِ الذي يَصدُقُ عليه حديثُ ابنِ مسعودٍ حيثُ قال : **"خَطَّ لَنا رسولُ الله ﷺ خطاً ، ثم قال : هذا سبيلُ الله، ثُمَّ خَطَّ خُطوطاً عن يمينه، وعن شماله، ثُمَّ قال : هذه سُبُلٌ مُتفرِّقةٌ، على كلِّ سبيلٍ منها شيطانٌ، يَدْعو إليه، ثُمَّ قرأ { وَأَنَّ هَـذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ }[104] "[105]**

---

[102] عمر عبيد حسنة، في مقدمته لكتاب" أدب الاختلاف في الإسلام" للعلواني . ص ١١ـ ١٢ .

[103] عمر عبيد حسنة في مقدمته لكتاب "أدب الاختلاف في الإسلام" للعلواني . ص ٨ .

[104] سورة الأنعام ، الآية ١٥٣ .

[105] ابن حنبل، المسند ، وقال المحقق أحمد شاكر: إسناده صحيح، رواه الحاكم في المستدرك، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه . حديث (٤١٤٢)٤/١٥٥ـ١٥٦ . الحاكم، المستدرك، ٢/٣١٨ . قلت: ثم ذكر المحقق، أن ابن كثير قد أورده في تفسيره، وبيَّن طرقه عند الحاكم والنسائي ثم عقب ذلك: وقد صححه الحاكم من الطريقين كما رأيت . ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ٣/٤٢٧ـ ٤٢٨

فهذا الحديث يُبيّن أنّ اتّباعَ الهوى، والانقيادَ الشيطان، هو سببُ الفُرقةِ والاختلافِ بين المسلمين، وأنّ الفُرقةَ والاختلاف هي نتيجةُ التّخلّي والابتعادِ عن الصراط المستقيم، وعنْ كتابِ الله تعالى، وأنّ اتباعَ سُبُلِ الشيطان نتيجتُه الضلالُ والهلاكُ .

فَالمَخْرجُ مِنَ الفُرقةِ والاختلافِ، قدْ بيَّنه رسول الله ﷺ في الحديث حيثُ قال : " **فإنّه مَنْ يَعشْ منكم فَسَيَرى اختلافاً كثيراً، فَعليكُم بِسُنّتي وسُنّةِ الخلفاءِ الراشدينَ المَهْديينَ مِنْ بَعدي ، فَتمسّكوا بها، وعُضّوا عليها بالنّواجِذ، وإيّاكم ومُحْدثاتِ الأمور، فإنّ كلَّ مُحدَثَةٍ بِدْعةٌ، وكُلَّ بِدْعةٍ ضَلالة** " [١٠٦]، حيث أخبر النبي ﷺ أصحابه بأنّه سيَظْهرُ بَعْدَه اختلافٌ وصَفه بأنّه كثير، ولعلّ الابتداعَ أحدُ أسبابِ هذا الاختلاف الكثير، ولذلك فَقَدْ حذّر مِنَ البدع، بَعْدَ أنْ أمَرَ بالتمسُّك بِسُنّته وسنّة الخلفاء الراشدين . ومَع هذا التحذير من البِدَعِ، فإنّ الأمةَ الإسلاميةَ ما زالتْ تَتخبّطُ في هذه البِدَع، وتَسْتَحدِثُ منها أصنافاً كثيرةً.

وكذلك كان من أساليب زرع الشقاق والفرقة بين المسلمين، أسلُوبُ نَبْشِ الحضارات القديمة، وإحياءِ معارفِها، لإحتواءِ المسلمين وأمتهم، وإضعافهم، وتمزيقِهم، وتمزيقِ ولاءِ المسلمين بين الإسلام، وبين تلك الحضارات، بحيث يُمجّدُ أهلُ كلِّ بَلَدٍ من المسلمين، الحضارة التي كانت في بَلَدِهم، في تقهقُرٍ مرسومٍ لهم، نحوَ الجاهلية القديمة وآثارِها، تمهيداً لاقتلاعهم نهائياً من الولاء للإسلام [١٠٧]

وللوصول إلى الحق، والالتزام به، ولِئلاً يكونَ هناك اختلافٌ كثير، وفُرْقة بين المسلمين، فإنّ رسولَ الله ﷺ قد بيَّن للمسلمين، أنّ التزام الجماعة واجبٌ عليهم، وأنّ عليهم أنْ يَحذروا من السعي إلى الفرقة والاختلاف . وقد جاء في الحديث أنّ رسول الله ﷺ قال : " **...عليكم بالجماعة، وإيَّاكُم والفُرْقةَ، فإنّ الشيطانَ مع الواحد، وهو من الاثنين أبْعَدُ ...**" [١٠٨] فالارتباطُ وثيقٌ بين الشيطان وبينَ الشذوذِ عن الجماعة، وأنّ المسلمَ إذا لازَمَ جماعةَ المسلمين، وحَرِصَ

وقال الألباني في تعليقه على كتاب " السنة" لابن أبي عاصم : إسناده حسن. ابن أبي عاصم،الضحاك بن مخلد، السنة، ،تحقيق الألباني ، المكتب الإسلامي ، ط١ ، بيروت ، ١٤٠٠هـ ١٩٨٠م، ١٣/١

[١٠٦] الترمذي، الجامع الكبير، كتاب العلم ، باب ما جاء في الأخذ بالسنة واجتناب البدع ، حديث ٢٦٧٦ ، وقال : حديث حسن صحيح ٤٠٨/٤

[١٠٧] محمد قطب، واقعنا المعاصر . ص ٢٠٢.

[١٠٨] الترمذي، الجامع الكبير، كتاب الفتن ، باب ما جاء في لزوم الجماعة ،حديث رقم (رقم ٢١٦٥) ، وقال : هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه ،٤/ ٤٦٥ .وصححه الألباني. الألباني، صحيح سنن الترمذي ٤٥٧/٢.

على إشاعة رُوح الجماعة، أنقذ نفسَه مِن حَبائلِ الشيطان في بثِّ الفُرقة والاختلاف بين المسلمين، وأنقذ نفسَه من الضلالِ والهلاكِ، وأنقذ مجتمعَه وأمتَه من معاول الفساد والدمار .

المطلب الخامس

افتقاد النظرة الشمولية المتكاملة

لقد جاء الإسلامُ بأحكامٍ، وتشريعاتٍ، وتوجيهاتٍ، تُعالجُ مُختلفَ جوانب الحياة، مُنطلِقاً بالأمة، أفرادٍ وجماعاتٍ، إلى المَكانة التي ينبغي لها أنْ تتبوأها، وتُحافظَ عليها، من خلال تحقُّق وصف الخيرية فيها، لِتُؤدّي رِسالتَها في الحياة، تحقيقاً لِكرامةِ الإنسان وسعادتِه .

وهذا الأمر لا يَتِمُّ إلاّ بِوجُودِ مجتَمعٍ لديه تصوُّرٌ شاملٌ ومتكاملٌ، عن هذا الوجود الذي يعيش فيه، لِضمانِ وجودِ تَناسُبٍ وتلاؤمٍ بَيْنَ أهدافِه وغاياتِه، وسعيِه وحرَكَتِه في هذه الحياة مِنْ ناحيةٍ، وبَينَ ما يُطْلَبُ مِنه تحقيقُه على أرض الواقع .

وقد تمكَّنَ المسلمون في عصْرِ الإسلام الأول، مِنَ القيامِ بِما كان مَطْلُوباً منهم، حيث استطاعوا إدراك مضامين الرسالة التي كُلفوا بها، من خلالِ سعيِهم المتوازنِ والمتكاملِ، في ميادينِ الحياةِ المختلفة، دونَ طُغيانٍ لِجانبٍ على آخر.

وإذا وُجِدَت بعضُ الحالاتِ الفردية، التي يَظْهرُ مِنْ خلالِها خُرُوجٌ على هذا المنهج المتوازن المتكامل، والتي تُعبِّر عن فهْمٍ جُزئيٍّ غير متكاملٍ، ولا متوازنٍ، في أيِّ مجال ، فقد كانت هذه الحالةُ تُواجَه بِتَصويبِه و مُعالجتِه وتقويمه دون إبطاء، أو تأخير.

وقد حَدَثَ مِثلُ ذلك في العهد النَّبوي، وتَظهَرُ صُورتُه في الحديث الذي رواه أنس بْن مَالِكٍ ﷺ حيث قالَ: " **جَاءَ ثَلَاثَةُ رَهْطٍ إِلَى بُيُوتِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ يَسْأَلُونَ عَنْ عِبَادَةِ النَّبِيِّ ﷺ، فَلَمَّا أُخْبِرُوا كَأَنَّهُمْ تَقَالُّوهَا، فَقَالُوا: وَأَيْنَ نَحْنُ مِن النَّبِيِّ ﷺ، قَدْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ. قَالَ أَحَدُهُمْ: أَمَّا أَنَا فَإِنِّي أُصَلِّي اللَّيْلَ أَبَدًا. وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَصُومُ الدَّهْرَ وَلَا أُفْطِرُ. وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَعْتَزِلُ النِّسَاءَ، فَلَا أَتَزَوَّجُ أَبَدًا. فَجَاءَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَيْهِمْ، فَقَالَ: أَنْتُم الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا؟ أَمَا وَاللهِ، إِنِّي لَأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ وَأَتْقَاكُمْ لَهُ، لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي**"[١٠٩] .

---

[١٠٩] البخاري، صحيح البخاري، كتاب النكاح، باب الترغيب في النكاح،حديث (٥٠٦٣). ص٢٢٣٢ .

إنَّ هؤلاء الثلاثة الذين ذُكِروا في الحديثِ، أرادوا أن ينالوا أجراً وثواباً، يتحقَّقُ به مَغفِرةُ ذُنوبِهم، والفوزُ برضا الله تعالى، فأرادوا أنْ يعلموا كيفَ كانتْ عِبادةُ النبي ﷺ ليَقتدوا به. كانوا يتوقَّعون أنْ يَستغرِقَ الرسولُ ﷺ في العبادة جُلَّ وقتِه، فلمَّا عَلِموا أنَّ عبادتَه لم تكنْ حَسْبَ تَصوُّرِهم، وَوَجدوا أنَّها قليلة وَقْتُها، لا تُلبِّي طُمُوحَهم ولا سَعْيَهم؛ عَقَدوا العَزْمَ على الاجتهاد في العبادة - حتى يتحقَّق لهم مُرادُهم - من خلال الاعْتزالِ الكُلِّي للدنيا.

إنَّ هذا المنهج الذي أراد هؤلاء الثلاثة، أن تسيرَ حياتُهم بناءً عليه، فيه خللٌ كبير، وهو قائم على النَّظَرِ الجُزْئيِّ القاصرِ لِدَوْرِ الإنسان المسلم في الحياة، حيثُ إنَّ اهتمامَهم بالعبادة - أوْشَكَ أن يَصرِفَهم عن الاهتمام بأمورٍ أخرى، هُم في حاجةٍ ماسةٍ لها - لأنهم تصوَّروا أنَّ العبادة لا تكون إلا باعتزال الدنيا طَلَباً للآخرة. إنَّ العَمَلَ بهذا المنهج البعيد عن النظرة الشمولية المتكاملة، لِرسالة الإنسان المسلم في الحياة، فيه إهدارٌ لحقوق الآخرين، ويتعارض مع الفطرة الإنسانية، ومعَ ما أُودِع فيها من غرائزَ، لا يستطيعُ الإنسانُ أنْ يتجاهَلَها أو يَكبِتَها، ولا قُوامَ للإنسان إلا بها .

إنَّ هذا المنهجَ لَوْ صارَ مُتَّبَعاً وشائعاً في المجتمع والأمة، لأدَّى إلى انصرافِ المسلمين عن الدنيا، والاهتمام بالآخرة فقط، وهذا فيه خَلَلٌ خطير، لأنَّ فيه هدماً للحياة، وما كان المنهجُ إلاَّ نتيجةً للنظرة الجُزئية لِوظيفة الإنسان في هذه الحياة. وهوَ منهجٌ يقوم على تحديد مفهوم " العبادة"، وهو شائعٌ لدى كثيرٍ من المسلمين في الوقت الحالي، بحيث اقتصر مفهوم " العبادة" على الصلاة والزكاة والصيام و الحج، وأمَّا ما سِوى ذلك من الأعمال الصالحة، فقدْ أخرجَه كثيرٌ من المسلمين من دائرة العبادة، وهو منهجٌ يتعارضُ مع " العبادةِ" بِمفهومِها الشامل.

لقدْ أدَّى هذا المنهج القائم على مفهوم " العبادة " القاصر؛ إلى عَزْلِ الإسلام عن الحياة، وإلى انصراف كثير من المسلمين عن الدنيا طلَباً للآخرة .

إنَّ "العبادة" لو وُجِدَت بمفهومها الشامل في حياة المسلمين، لَمَا كانَ هذا حالُ الأمة الإسلامية اليوم، ولأدْرَكَ المسلمون بِأنَّهم مُطالَبُون بالسعي للدنيا والآخرة، وهذا في الحقيقةِ أحدُ مظاهرِ الأزمة التي يعيشها المسلمون اليوم، حيث أهملوا السعي والعمل والاجتهاد في الدنيا، وتركوها لغيرِهم الذين تفوَّقوا على المسلمين، وأخضعوهم لِسيطرتهم .

إنَّ الرسولَ ﷺ قد أنكرَ على هؤلاء النفر الثلاثة منهجَهم الخاطئ، وَأمَرَهم وبيَّنَ لهم أنَّ مَنْ أراد أنْ يَقتدي به، فَلْيقتدي به كما أمَر، وإلاَّ كان راغباً عن سُنَّته، مُنحرِفاً عن منهجه، وفي ذلك توجيه لأمته، بأنْ لا يَرْكَنوا الدنيا بعيداً بِدعوى أنَّهم يُريدون السعي للآخرة فقط، بل عليهم السعي للدنيا والآخرة معاً، لِئلاَّ يكونوا عالةً على غيرِهم، وتحتَ سَطْوَتِهم .

فَكان مِنْ نتائج ذلك التوجيهِ النَّبَوِيِّ التوازنُ والتكاملُ بين حاجاتِ ومُتطلَّبات الروح والجسد، والتّوازنُ في السعي للدنيا والأخرة مَعَاً، والتّكاملُ بين معارف الوحي والعقل، ولمْ يُوجَدْ عندَهم أيُّ تناقضٍ بين حاجات الجسد وبين حاجات الروح، أو أيُّ تناقضٍ بين السعي للدنيا وبين السعي للآخرة، أو أيُّ تناقضٍ بين معارف الوحي وبين معارفِ العقل ودوره في الحياة، وفيما يتعلّق بعالم الغَيب والشّهادة ، على وجه الخصوص . وبهذا استقامتِ الحياة عندَهم، وصلُحَتْ، ومِنْ ثَمّ قاموا بالإصلاح لما أفسده الناس .

إنَّ مِنَ الأهميَّةِ بمَكانٍ، أنْ تَكونَ النظرةُ الكليةُ الشاملةُ، منهجاً للإنسان المسلمِ في كل شيء حتى تستقيمَ الأمور، وتَسيرَ الحياةُ سَيراً صحيحاً، لأنّه من خلال تلك النظرةِ الشموليةِ، يُمْكنُ جَعْلُ الموازينِ دقيقةً في كل شيء، فيُوضَعُ كلُّ شيءٍ في مَوْضِعِه الصحيح.

وهذا الأمر بيَّنه الرسول ﷺ لأبي الدرداء وقد آخى بينه وبين سلمان الفارسي - رضي الله عنهما - **فَزار سلمانُ أبا الدرداء، فرأى أمَّ الدرداء مُتَبَذِّلةً، فقالَ لها: ما شأنُكِ؟ قالتْ: أخوك أبو الدرداء ليس له حاجةٌ في الدنيا. فجاء أبو الدرداء، فَصنَعَ له طعاماً، فقال: كُلْ، قال: فإنّي صائم، قال : ما أنا بآكِلٍ حتى تأكلَ، قال: فأكلَ. فَلَمَّا كان الليلُ ذهب أبو الدرداء يقومُ، قال: نَمْ، فَنَامَ، ثمَّ ذهب يقومُ، فقال:نَمْ، فلمَّا كان مِنْ آخرِ الليلِ، قال سَلْمانُ: قُمِ الآنَ، فَصَلّيا، فقال له سَلْمانُ: إنَّ لِربِّكَ عليك حقّاً، ولِنَفْسِكَ عليك حقّاً، ولأهلِكَ عليك حقّاً، فأعْطِ كُلَّ ذي حقٍّ حقَّه، فأتى النبيَّ ﷺ فَذَكَرَ ذلكَ له، فقالَ النبيُّ ﷺ : صَدَقَ سَلْمانُ "** [١١٠]

إنَّ أبا الدرداء في غَمْرَةِ حِرصِه ومواظبته على صَوْمِ التطوُّعِ، وقِيام الليل، قَدْ غَفِلَ عمَّا لِنَفْسِه ولأهلِه من الحقوق، فلمَّا زار سلْمانُ أبا الدرداء، ورآه على هذا الحال، أنكرَ ذلك على أبي الدرداء، وقدْ شَكَتْ أمُّ الدرداء زَوجها إلى سَلْمان - وقَدْ تجدُ كثيراً من المسلمين، يسيرون في حياتهم على المنهج الذي كان أبو الدرداء يسيرُ عليه - فَبيَّن سلمانُ المنهج الصحيح، وصدَّقه على ذلك رسول الله ﷺ . وهو منهج يقوم على نظرة متكاملة، تُحفَظُ فيه الحقوق لأصحابها، ويُوجِبُ على المسلم العَملَ في الحياة، وعَدَم هجرِها .

ولا يمكن أن تتم الأمور إلا بمثل هذا المنهج، وذلك لأنَّ الحياة مِنْ طبيعتها، وجودُ التداخلِ والتأثيرِ بين كل مكوناتها . فالنظرة الشمولية تُعطيك مَوْضِعَ الجزء وعلاقتَه بِالكُل .

---

[١١٠] البخاري، صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب من أقسم على أخيه ليُفطر في التطوع، حديث(١٩٦٨) . ص١٠٩٥ .

إنَّ تضخيمَ الجُزْء على حساب الكُل، فيه ظُلمٌ للمجتمع، وتَشْويهٌ لِصُورَتِه، تماماً كما لو أنَّ شخصاً اقتصرَ في العنايةِ على الجَسَدِ دُوْنَ العقلِ والرُوْحِ، فإنَّه سَيكونُ عنده مُشَوَّهاً من الناحيةِ العقْليةِ والرُوحية، وكانَ مِنْ حقِّه أنْ يُولِيَ الجوانبَ الثلاثةَ، عِنايتَه ورعايتَه، حتى ينشأ صحيحاً سوياً .

إنَّ النظرةَ الجُزئيةَ تَحْجبُ عن الإنسان المسلم المقاصدَ والغاياتِ التي شُرِعت لأجْلِها الأحكامُ الشرعيةُ، مِمَّا قد يؤدي إلى نَتائجَ مُتناقِضةٍ تُخِلُّ بمصْلحةِ المسلمين، وذلك لأنَّ نَظَرَ الإنسانِ المسلم - في كلِّ أحواله - إلى الأمورِ نظْرةً شاملة متوازنة، في ضوء الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، ومقابلتها بعضها ببعض، وردُّ المتشابهات إلى المُحْكَماتِ، والجزئياتِ إلى الكُلياتِ، هو الذي يُوَضِّح له الرؤية، ويَمنحُه الحُكم الذي يكون سليماً من الغلوِّ والتشدُّد، ويمنعُه من الوقوع في خطيئة تكفير المسلم [111].

ولذلك حذَّرَ رسول الله ﷺ من الغُلُوِّ والتنطُّع في الدين، في الحديث عن ابن عباس - رضي الله عنهما ، أنّه قال: **" قَال لي رسول الله ﷺ غَدَاةَ العَقَبةِ، وهُوَ على راحِلَتِه: هاتِ الْقُطْ لي، فَلَقَطْتُ له حَصَياتٍ، هُنَّ حَصَى الخَذْف، فَلَمَّا وَضَعْتُهنَّ في يَدِهِ، قال: بأمثالِ هؤلاء، وإيَّاكم والغُلُوَّ في الدِّينِ، فإنَّما أهْلَكَ مَنْ كان قَبْلَكم الغُلُوُّ في الدِّين "** [112].

مِنَ التنبيهات التي يُشارُ إليها، لِما فيها مِنْ دِلالة، أنَّ التحذيرَ النبويَّ من الغُلُوِّ في الدين، قد جاء في سياق أمْرٍ لا يَنبغي المبالغةُ فيه، وتعظيمِه، حيث قال عند التقاط الحَصَياتِ: بأمثالِ هؤلاء وحَذَّرَ من الغُلَوِّ في الدين.

وقدْ يجعلُ كثيرٌ من المُتَنَطِّعينَ مثلَ هذه الجزئياتِ أُمَّ القضايا والمسائل، فَيُشغِلُ بها نفْسَه ومجتمعَه، وينسى بالمقابل، أو يُغفلُ ويَتجاهلُ قضايا ومسائلَ تحتاج إلى مَزِيدٍ من الاهتمام، وهذا الغُلُوُّ ناشئٌ عن التفكير في جُزئياتٍ، الانشغال بها، وهيَ لا تستحقُّ ذلك الاهتمام، وإغفال الكليَّات والنظرة الشمولية .

وإذا كان رسول الله ﷺ قد حذَّرَ من الغُلُوِّ في الدين، وحذَّرِ المُتنطِّعين من الهلاك، فإنَّ الابتعاد عمَّا حذَّرَ منه رسول الله ﷺ، لا يكونُ إلاَّ بِتصويبِ المنهج الذي سار عليه الغلاة

---

[111] د. القرضاوي، يوسف، الصحوة الإسلامية وهموم الوطن العربي، مكتبة وهبة، ط٢، مصر، ١٤١٧هـ ١٩٩٧م ،ص٦٠

[112] النسائي، أحمد بن شعيب، سنن النسائي بشرح الحافظ السيوطي وحاشية السندي، تحقيق عبد الفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب . كتاب المناسك، باب التقاط الحصى، حديث(٣٠٥٧) . ٥/ ٢٦٨. وصحّحه الألباني. الألباني، صحيح سنن النسائي، مكتبة المعارف،ط١، الرياض، ١٤١٩هـ ١٩٩٨م . حديث(٣٠٥٧). ٢/ ٣٥٦

والمُتنطِّعين، القائم على النظرة الجزئية الأحادية للأمور، والذي يُؤدِّي إلى تضخيم وتكبير بعض المسائل والقضايا، ومَنْحِها اهتماماً وشأناً لا تستحقُّه، وكان غيرُها أولى بذلك الاهتمام.

لَوْ كانتْ هناك نظرةٌ شموليةٌ لهذه الأحكامِ ضِمنَ الإطارِ العَقَدي، لَزَالَ هذا التناقضُ، لأنَّ الأساسَ العَقَدي للأحكامِ الشرعية، يُعْطِيها التصويبَ الملائمَ، ومِنْ هنا تَجبُ صياغةُ الأحكامِ السُّلُوكيةِ في إطار المبادئ العقدية الخاصة، في كُلِّ مَجالٍ من مجالات السلوك المختلفة، مثالُ ذلك: إنَّ الإطارَ العقديَّ للسلوكِ الاقتصاديِّ، هو الإيمانُ بأنَّ المُلْكية الحقيقية لكلِّ شيء إنَّما هي ملكية الله تعالى، والإنسانُ ليس إلاَّ مُستخلَفا على كل ما بين يديه من مُقَدَّراتٍ. وفي هذا الإطار، ينبغي أنْ يتنزَّلَ سلوكُه في المجالِ الاقتصادي، إنتاجاً وتوزيعاً واستهلاكاً .

إنَّ الإطارَ العَقَديَّ للسلوكِ الاجتماعيِّ بمعناه العام، يعني الإيمانُ بِكَرامةِ الإنسانِ، وعُلُوّ قِيمتِه، وفي هذا الإطار، يَنبغي أنْ تَنْدَرِجَ جميعُ التَّصرُّفات الاجتماعيةِ. وهكذا في كلِّ وَجْهٍ مِنْ وُجُوهِ النشاطِ الإنسانيِّ، " إذْ أنَّ الأسسَ العقدية - بِحُكْمِ مبدئيتها وتكاملها فيما بينها - تَقُومُ مَقَامَ العاصِمِ حينما يُحتكمُ إليها، مِنْ أنْ تَكونَ للأحكامِ آثارٌ متناقِضةٌ، مُخِلَّةٌ بالمصلحة . وهي تقومُ مَقَام المَرْجِعِ الكُليِّ، الذي يُنسِّقُ الأحكامَ الجُزئيةَ، ويَسُوقُها إلى التكامل في توجيه الحياة إلى التدين الأكمل " [113].

ومِنَ الثِّمارِ السَّلبيةِ لإنعدامِ النظرةِ الشموليةِ، والاعتمادِ على النظرةِ الجُزْئيةِ لِلأحاديث النَّبَويةِ على وجه الخصوص، أنَّها أدَّت في بَعْضِ الأحيان، إلى غَفْلةٍ عن المرجعيةِ العَقَديةِ، التي ينبغي أنْ تَستنِدَ إليها جزئياتُ الأحكامِ الفقهيةِ، فَكَانَ ذلك مِنْ أسبابِ التَّعارضِ المُخِلَّةِ بالمصلحة ." ومِنْ ذلكَ أنَّ بعضَ الفقهاء أجازوا وِلايةَ السُّلْطانِ المُسْتَبد، ومَنَعوا عَزْلَه إذا كانَ مُقيماً لِشعائرِه الدينيةِ مع استبدادِه وظُلمِه، وهذا يَتَناقضُ مَعَ الأحكامِ التي جاء بها الدين، لِغَرَضِ تَحقيقِ الأمنِ والعدْلِ، ودَفْعِ الناسِ للتَّعميرِ في الأرضِ، وهي من غايات قِيام الإمامة في الأمة" [114]

ومِنَ المُؤسفِ أنَّ الحكام المستبدين، يَجِدونَ لَهُمْ سَنَداً عند بعض الفقهاء أو العلماء، الذين يعتمدون في بيان الأحكام الشرعية، على النَّظَرِ الجُزْئيِّ لِبَعضِ الأدلة الشرعية، بَعيداً عن المقاصد والغايات، وبِشَكلٍ يتناقضُ مع أحكامٍ، جاءت بها نصوصٌ صريحةٌ في الكتاب والسنة، إنما شُرعت لتحقيق الأمن والعدل والكرامة للإنسان ، بحيث إننا نلمس الآثار السلبية الخطيرة التي أنتجَتْها مِثْلُ

---

[113] النجار، " في فقه التدين ، فهما وتنزيلا " . ٨٨/٢ - ٨٩

[114] النجار ، " في فقه التدين ، فهما وتنزيلا " ٩٠/٢ .

هذه النظرةِ الجُزْئية، مِنْ طُغيانِ الحُكَّامِ المُستَبِدِّينَ، وإشاعةِ الفسادِ في المجتمع وامتهانِ كرامةِ الإنسان .

إنَّ إصلاح المجتمعِ والأمةِ، لا يكون إلاَّ بِمنهج مُتكاملٍ، تَطغى عليه النَّظْرةُ الشاملة لكلِ النواحي والمجالات . والإصلاحُ الجُزئيُ لا يؤتي ثِماراً، بل يزيدُ ويُطيلُ حالة الفساد، لذلك نرى أنَّ الأيدلوجيات الثَّورية تسعى دائماً للسيطرة على الحياة كلِّها، لتُوَجِّهها وتُؤثِّرَ فيها وِفْقَ فِكرَتِها، إعلامياً، وتربوياً، واقتصادياً، وسياسياً، وثقافياً، ودينياً، ضِمْنَ نَظْرةٍ مُتكامِلَةٍ لحياة المجتمع وأهدافه، وقِيَمِه العُليا، ومصالِحِه الكُبرى، وبِتنسيقٍ مُحْكَمٍ، وإلاَّ فإنَّ جهودَ البناء والتعمير ستضيع بلا فائدة [115].

[115] القرضاوي، الصحوة الإسلامية وهموم الوطن العربي . ص٩٨ .

المبحث الثالث

آثار أزمة العقل المسلم

إنَّ واقعَنا مليءٌ بكثيرٍ من التَّناقُضاتِ في شتَّى الميادين، وهذه التناقضاتُ من الآثار السلبيةِ للأزمة التي يعانيها العقل المسلم حالياً، وبالرَّغم من التباين في تفاصيلِ تلك التناقُضاتِ، وتعدُّد أشكالِها، وألوانِها، إلاَّ أنَّه يُمكنُ إجمالُها في ثلاثةِ آثارٍ شاملةٍ لِكلِّ هذه الجُزئياتِ والتفاصيل، آتٍ بيانُها في المطالب الثلاثة الآتية :

المطلب الأول

الهوان والضياع والعجز

إنَّ حالَ الهوانِ والضياعِ والعَجْزِ الذي تعيشه هذه الأمة الإسلامية حالياً، يُعَدُّ مِن أبرزِ الآثارِ التي يُمكنُ مُعاينتُها والإحساسُ بها، فهذه الأمةُ قد فقدَتْ هيبتَها، ومكانتَها بين الأمم، ولَمْ يَعُدْ لها وَزْنٌ ولا اعتبارٌ على الساحة الدوليةِ . فقد تجرَّأ عليها أعداؤها، وهانَتْ حتى على نفسِها، فأصبَحتْ لا تأبَهُ لِمَا يَنزل بها من المصائبِ والكوارثِ، مِمَّا أورثَها ضَياعاً فوْقَ ضياعٍ، وازدِياداً في مُعاناتُها على المستوياتِ جميعِها، فَلا تدري لَها مَخرجاً مِمَّا هي فيه، فَكُلَّما جَرَّبَتْ حلاً، أو التَمَستْ طريقاً؛ للخروجِ من أزمتِها، ازدادتْ تيهاً وضَياعاً، وتَضاعَفَ عجْزُها وتَرَاكم وهذا الحالُ أحَدُ الثِّمارِ السيِّئةِ لِلفرقةِ والاختلاف، الحاصلِ بين قياداتِ الأمَةِ الدِّينيةِ والفِكْريَّة من جانب، وبين القِياداتِ السياسيةِ الحاكمةِ من جانب آخر .

لقدْ تجرَّأتُ الأممُ الأخرى على أُمَّتِنا لِضَعْفِها وهَوَانِها، فلا تجدُ لها ناصراً، وكيف تجد ذلك وقدْ فَرَّطَتْ في حَقِّ نفْسِها ؟ حيثُ انْعدمَتْ مَشاعِرُ الأخُوَّة بين المسلمين، وتَقَطَّعَتْ الصِّلاتُ فيما بينهم، سواءٌ بين الأفرادِ والجَمَاعاتِ، بل وانْقلَبَ الحالُ بينهم إلى عَداواتٍ شديدةٍ، نتيجةَ حُبِّ الدنيا، والتنافس عليها.

وقد جاء في الحديثِ النبويِّ التحذيرُ من التنافس على الدنيا، لأن عاقبةَ ذلك التنافس هو الهلاك، كما حصل مع الأمم السابقة. وليس المقصودُ مِنَ الحديثِ، طلبَ الانصراف عن الدنيا، وإنَّما الانصرافُ عن التنافس على زينتِها وحُطامِها، الذي يُؤدِّي إلى الانشغال بها، وتَرْكِ الآخرة وإهمالِها، ويُؤدِّي إلى إثارة البغضاء والعداوة والتدابُر، وتفكيك النسيج الاجتماعي للمجتمع والأمة، ولذلك قال رسولُ الله ﷺ مُحَذِّراً أمَّتَه : **"... وإنِّي لستُ أخشى عليكم أن تشركوا، ولكني أخشى عليكم الدنيا أن تنافسوها "** [١١٦] .

---

[١١٦] البخاري، صحيح البخاري، كتاب المغازي ، باب غزوة أحد ، حديث (٤٠٤٢) . ص١٧٩٤.

وأما الجدُّ في الدنيا، والسعيُ فيها، بعيداً عن آفاتها وملهياتها ومُغْرَياتها، وبما يعود بالنفع على الإنسان والمجتمع بالخير والقُوَّة، فَلا حَرَجَ على المسلم في ذلك .

والنَّهْيُ والتحذيرُ مُتعلِّقان بالتنافس المؤدِّي إلى حال اللهو والفساد في الدنيا، وإلى الإعراض عن الأخرة، وقد بيَّنَ رسولُ الله ﷺ ذلك في حديثٍ آخر، حيثُ قالﷺ لأصحابه يومَ أنْ قدِمَ أبو عبيدة - رضي الله عنه - بمالٍ من البحرين:" **أظنُّكم سمعتم بقدوم أبي عبيدة، وأنَّه جاء بشيء" . قالوا: أجل يا رسول الله، قال: " أبْشِروا وأمِّلوا ما يَسُرُّكم، فَوَاللهِ ما الفقرَ أخشى عليكم، ولكنْ أخشى عليكم أنْ تُبسَطَ عليكم الدنيا، كما بُسِطَتْ على مَنْ كان قبْلَكم، فتَنافَسُوها كما تَنافَسُوها، وتُلْهِيَكم كما ألْهَتْهم"**[117]

إنَّ حالَ العَجْزِ والهوان لَيَمتدُّ بالأمة، مِنْ مرْحَلةِ التنافس واللهوِ، إلى مَرْحَلَةٍ أشدُّ في الضَّعْفِ والعجز، وفي أعلى صُوَرِه التي تقودُ إلى الهلاك، وذلك ما جاء بيانُه، في رِواية أخرى عند مسلم، فَعَنْ رسولِ الله ﷺ أنَّه قال: " **... إني لستُ أخشى عليكم أن تشركوا بعدي. ولكنِّي أخشى عليكم الدنيا أن تنافسوا فيها، وتَقْتَتِلُوا، فتَهْلِكوا، كما هَلَكَ من كان قَبْلَكم** " [118]

حيثُ وَقعَ ما كان يخشاه الرسولﷺ ، فلمَّا تَنَافسوا على الدنيا، ودبَّ الصراعُ بينهم على زينتِها وحُطامِها، واختلَفَت قلُوبُهم، وامتلأت حِقْداً وغلاً على بعضهم بعضاً، واستَوْلَت الأثَرَةُ والأنانيةُ وحبُّ الذات عليهم. عند ذلك تقطَّعت العلاقاتُ بينَهم، وزالتِ المَوَدَّةُ والمَحَبَّةُ من القلوب، وحلَّ بهم الضَّعْفُ والوَهْنُ، وتداعتْ عليهم الأمم، كما أخبر به الحديث المروي عن رَسُولِ الله ﷺ أنَّه قال : **"يُوشِكُ الْأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ كَمَا تَدَاعَى الْأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا. فَقَالَ قَائِلٌ: وَمِنْ قِلَّةٍ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ: بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ؛ وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ، وَلَيَنْزَعَنَّ اللهُ مِن صُدُورِ عَدُوِّكُمْ الْمَهَابَةَ مِنْكُمْ، وَلَيَقْذِفَنَّ اللهُ فِي قُلُوبِكُم الْوَهْنَ، فَقَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ! وَمَا الْوَهْنُ؟ قَالَ: حُبُّ الدُّنْيَا وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ"** [119].

هذا الحديث يبيِّن بإيجازٍ دقيقٍ حالَ الهَوَانِ والضَّياعِ والعَجْزِ الذي تُعانيه الأمةُ، وبخاصةٍ في العَصْرِ الحاضرِ، فهذه الأمةُ كثيرةُ العدد، ولكنَّ هذه الأعداد الكبيرة من شعوبها بِلا قيمةٍ ولا وَزْنٍ، حيث فقدَتْ تأثيرَها وفاعليتَها، فهي أشبهُ بِغُثاءِ السَّيْل. وما يحمِلُه السَّيْلُ مِن حَطَبٍ وَوَرَقٍ

[117] البخاري، صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب ما يُحذَر من زهرة الدنيا والتنافس فيها، حديث(٦٤٢٥) . ص ٢٨١٦ .

[118] مسلم، صحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب إثبات حوض النبي، حديث(٢٢٩٦) . ٤/ ١٧٩٦

[119] سبق تخريجه ص ٥٥، أخرجه أبو داود وصححه الألباني .

وأعْوادٍ وغيرِها، مما يتَّصف بالخِفَّة، والسَّطْحيَّةِ، وعَدَمِ التَّجانُس، وفِقْدانِ الهَدَفِ، لا أثَرَ له ولا وَزْن، وهو تشبيه دقيق لِحَالِ الهَوَانِ والضَّياعِ والعَجْزِ، الذي أصاب الأمَّة الإسلامية .[١٢٠]

أمَّا الهوانُ : فَالأمَّةُ الإسلاميةُ اليومَ،لا يُؤبهُ لها، ولا يُحسبُ لها أيُّ حِسابٍ في العلاقاتِ الدُّولية، سواءٌ في السلم أم في الحرب، فَدَوْرُها يقتصرُ على الالتزام بالقراراتِ الدُّولية وتنفيذِها، حتى لو كان فيه إضرارٌ بمصالِحها، لأنَّها عاجزةٌ مَسْلُوبَةُ الإرادة . وأمَّا الضَّياعُ : فَقَدْ باتتْ فاقدةً لِهَيبتِها ومكانتِها، فقد تعدَّدتِ انتماءاتُها، وتَناقضتْ توجهاتُها شَرْقاً وغَرْباً، فاتَّخذَتْ أعداءها أصدقاءَ وحُلفاءَ، وجعلتْ مِنْ أصدقائها وحلفائها أعداءً لها. وأمَّا العَجْزُ : فقد أصبح سِمةً مُلازمةً لها في كُلِّ شيء، ويَظْهرُ ذلك بِوُضوحٍ في فِقْدانِها لِزمامِ المبادرة، وفي حَلِّ مشكلاتها الداخلية والخارجية، حيث باتتْ تنتظرُ مَنْ يقومُ بذلك الأمرِ نِيابةً عنها، فأصبحتْ عِبئاً على الآخرين، عديمةَ الثقةِ بنفسِها وبِقُدراتِها وطاقاتِها، بِالرَّغم مِنَ الإمكاناتِ الهائلةِ التي تمتلِكُها، والتي صارتْ سبباً للأطْماعِ فيها ، ولِتكالُبِ الأمم عليها .

لقدْ تَعدَّدتْ وتَنَوَّعتِ التجاربُ الفاشلةُ، التي خاضَتْها الأمةُ الإسلاميةُ؛ للخروجِ من أزمتِها المستحْكِمةِ، وقدْ تجلَّتْ صورةُ العجزِ بِفِقدانِ قُدرتِها على تلمُّسِ الطريقِ الصحيحِ، للخروجِ من أزمتِها المستحكمة. وعجْزُ الأمة الإسلاميةِ يَظْهرُ في لُجُوئها إلى التماس حُلُولٍ مُستورَدةٍ، غيْرِ ملائمةٍ لِمُعالجةِ واقِعِها، مِمَّا زادَ الطينَ بِلَّة، وازدادَ الأمرُ سُوءاً على سُوءٍ. ونتيجةً لهذا العجزِ ومُضاعَفاتِه، صارَ المجتمعُ المسلمُ يُعبِّر عن مبادئِه وأهدافِه بِصورةٍ عشوائيةٍ ومُرْتبكة، ويَظْهرُ هذا التعبير العشوائي في صُورةِ ردودِ أفعالٍ مُتشنِّجَةٍ، خاضعةٍ للعاطفة، حيثُ تَرَكَ الإنسانُ المسلمُ المجالَ واسعاً لِانفعالاتِه لتتحكَّم به، بعيداً عن التوجيهِ والإدراكِ العقليِّ الصحيحِ.

لقد بات التنبُؤ بردودِ الأفعالِ من جهة المسلمين سَهْلاً وميسوراً على الأعداء، وصاروا يَستدرِجونَ هذه الأمة إلى ما يُحقِّق لَهم أهدافَهم . فهذه الأمةُ أصْبحتْ عاجزةً عن فَهْمِ مُعظَمِ مُشكلاتِها نتيجةً لِلتَّبَعيَّةِ الفِكرية، والعِلْميةِ المُتَرَسِّخة، مِمَّا أوْقعها في حَيْرةٍ شديدةٍ، جَعَلَتْها تَهيمُ تائهةً من دون بُوصلَةٍ تَهتدي بها. " وهُوَ ما يُفسِّر فِقْدَان الإنسانَ العربيُّ خاصةً، والإنسانَ المسلمَ عامةً، كثيراً من الخِصال التي وهبتها إيَّاه ثقافته وعقيدته، وكيفَ أصبحتْ كثيرٌ من سلوكياتِه عُرْضة لِلإخلالِ والاختلال" [١٢١].

---

[١٢٠] القرضاوي، الصحوة الإسلامية وهموم الوطن العربي والإسلامي . ص ١٤٥

[١٢١] د. نبيل علي، من سلسلة عالم المعرفة ، " العقل العربي، مظاهر الأزمة واقتراحات بالحلول" ، الكويت ، ١٤٣٠هـ ٢٠٠٩م. ٢/ ١٢

وهذا الحالُ الذي صارَتْ عليه الأمةُ الإسلاميةُ اليومَ، لم يكنْ مُصادفة، هُناكَ أسبابٌ جَوْهريةٌ أدّت إلى هذا المصير، سبقَ ذِكْرُها [١٢٢]، حيثُ بَدأتْ الأمَّةُ تَسيرُ في طريق الانحدارِ والتقهقُرِ، منذ اليوم الذي تسلَّم فيه مقاليدَ الحُكْمِ في هذه الأمة، مَنْ كان يَرى أنَّ الإسلامَ لا صِلَةَ له بالسياسة والحُكْم، فَاسْتأثرَ بكل شيء، وغيَّرَ وبدَّلَ، وهو لا يُحسِنُ التدبير .

وعندما وُسِّدَ الأمرُ لِغيْرِ أهلِه، أصبحَ الهوى وحُبُّ السُّلطةِ مِقياساً وميزاناً لتقييم الأعمال والقرارات، والصواب والخطأ، والحق والباطل، والمصلحة والمفسدة، واضطربت المَوازين واخْتلَّتْ نتيجةَ ذلك كله . ولعلَّ هذا هو المقصود بِضَياع الأمانة، حيث بيَّنَ رَسُولُ الله ﷺ لِمَنْ سأله عن الساعة، بِأنْ يَنْتظرَها إذا ضُيِّعَتِ الأمانة، وضياع الأمانة يكون بإسناد الأمر إلى غيْر أهْلِه، وهذا يكون عند ذهاب العلم، وغَلَبة الجهل، حيثُ قالَ رَسُولُ الله ﷺ : **" إذا وُسِّدَ الأمر لِغيْرِ أهلِهِ فانتظر الساعة "** [١٢٣].

إنَّ الانحراف عن المنهج النبويِّ كان - ولا زالَ - السببَ الأولَ للتغيير والانحراف، ومَا نَجَمَ عن هذا التغييرِ الظاهرِ الملموسِ، مِنْ تغييرٍ مَعْنويٍّ كان أشدَّ خطراً وأبعدَ أثراً، وكان أساساً هاما لِمَا حصلَ بعد ذلك مِنَ الضعف والتدهور، وتَرَاجُعِ الطاقةِ الهائلةِ التي فجّرها الإسلام في نفوس أتباعِه

" إنَّ الذي أَوْجَدَ التُّرْبةَ الخَصْبةَ لأمراضِ الأمةِ اللاحقة، والتي جعلَتْها اليومَ تقف فِكرياً ومادياً عاجزةً ومُهدَّدةً في صميمِ وُجُودِها وكِيانِها، أمامَ التَّحدي الحضاريِّ الغربيِّ المُعاصرِ، وجعلَها مُهدَّدَةً بالسحق والدمار، هُوَ التمزُّقُ والانفصامُ بين العُلَماءِ والحُكّامِ، الذي أنتجَ تَراجُعاً وتَقَهقُراً في قوَّةِ الأمة، وتَمَزُّقاً في نَسيجِها الاجتماعي، وتدهوراً في الفكر والأنظمة الإسلامية " [١٢٤] .

---

[١٢٢] انظر: المبحث الأول من الفصل الأول : أسباب أزمة العقل المسلم

[١٢٣] البخاري، صحيح البخاري، كتاب العلم، باب من سئل علماً وهو مشتغل في حديثه...، حديث (٥٩) . ص٣١٥

[١٢٤] أبو سليمان، أزمة العقل المسلم . ص ٤٨- ٤٩

المطلب الثاني

تفشي الفساد والانحراف

كَمَا أنَّ النارَ العظيمةَ تَكونُ مِن مُستصغَرِ الشَّررِ، فَكذلكَ يَبدأُ كُلٌّ من الفسادُ والانحرافُ ضئيلاً وبسيطاً، وإنْ لم تَتمّ مقاومتُهما عند ذاك، فإنَّه يَصْعُبُ اجتثاثُهما عند رُسُوخِهما، وَكلّما تقدّم الزمانُ، تَراكمَتْ وتضاعفتْ آثارُهما، حتى ينتشرا انتشارَ النار في الهشيم.

في هذا الحال يُصبحُ الفسادُ والانحرافُ هُما القاعدةُ والأصلُ، ويكونُ كُلٌّ منهما عاماً وشاملاً.. وعندما ينتشر الفسادُ والانحرافُ، فإنَّه لا يقتصر على مجالٍ بعينه، ولا على فِئةٍ بِذاتِها، أو طبقةٍ مُحدَّدة . وفي هذا الحالُ يَصيرُ الإصلاحُ والاستقامةُ استثناءً، وشيئا قدْ يَعزُّ وجودُه، وكما جاء في الحديث عن الرسولِ ﷺ أنّه قالَ : " **سيأتي عليكم زمان لا يكون فيه شيء أعزُّ من ثلاث: درهمٌ حلال، أو أخٌ يُستأنَسُ به، أو سُنَّةٌ يُعمَلُ بها**"[١٢٥]. فَكما أخبر هذا الحديث، سيأتي زمانٌ يتمنَّى فيها الصالحون من الناس والأتقياء هذه الأمورَ الثلاثةَ التي عزَّ وجودُها، وهذا الإخبارُ يبيّنُ المدى الواسع والشامل الذي بَلَغَه الفساد عند الناس، مِنْ استشراء المال الحرام، وتفسُّخ العلاقات الاجتماعية، فلا يَجِدُ الإنسانُ أخاً يَستأنِسُ به، وتعُمُ البِدَع وتُهجَرُ السُّنن .

وعند ذلك أيضاً يَصْدُقُ ما جاء في الحديثِ النبويِّ، على هذا الحال مِنَ انتشار الفساد والانحراف في المجتمع، حيث يَكونُ عاماً وشاملاً، فهو فسادٌ إداريٌّ ،ومَاليٌّ، واجتماعيٌّ، ومَنْ يُمارِس الفسادَ غالباً، يمارِسُه دون أنْ يَشعر بأيِّ حرَجٍ، لأنَّ القِيَمَ والتصوُّراتِ التي يتبنَّاها، تُشجِّع على تلك المُمارسَة، نتيجة الانقلاب والتبدُّل في القيم والمفاهيم والتصوُّرات.

فقد جاء عن الرسولِ ﷺ أنّه قالَ : " **إذا فَعَلَتْ أمّتي خمس عشْرَةَ خَصْلَةً، حلَّ بها البلاء". فَقِيلَ : وما هُنَّ يا رسول الله ؟ قال:" إذا كان المَغْنَمُ دُوَلاً، والأمانةُ مَغنَماً، والزكاة مَغرَماً، وأطاع الرجلُ زوجته، وعقَّ أمَّه، وبَرَّ صديقَه، وجفا أباه، وارتفعت الأصواتُ في المساجد، وكان زعيمُ**

---

[١٢٥] الطبراني، المعجم الأوسط ، وقال : لم يروه عن سفيان إلا روح بن صلاح حديث(٨٨) ١/ ١٦٤ . وقال الهيثمي: وفيه روح بن صالح، ضعّفه ابن عدي، وقال الحاكم: ثقة مأمون، وذكره ابن حبان في الثقات، وبقية رجاله موثقون. الهيثمي، مجمع الزوائد، حديث (٨٠٢) ١/٢٣٣ـ ٢٣٤ . قلت: الحديث بهذا الإسناد ضعيف فيه روح بن صلاح وليس ابن صالح (كما قال الهيثمي)، ضعفه ابن عدي وقال: وفي بعض حديثه نكرة .ابن عدي، الكامل في ضعفاء الرجال، ٦٣/٤(٦٦٧/١٧) ، وكذلك الدارقطني . ابن حجر ، لسان الميزان٣/ ٤٨٠ـ ٤٨١(٣١٦٥)

القوم أرذلُهم، وأُكرِمَ الرجلُ مَخافةَ شرِّه، وشُرِبتِ الخُمورُ، ولُبِسَ الحريرُ،واتُّخِذَت القَيْناتُ، والمعازفُ، ولَعَنَ آخرُ هذه الأمةِ أوّلَها، فَلْيرتقبوا عند ذلك رِيحاً حمراءَ، أو خَسْفاً ومَسْخاً "[126]

و الانحرافُ حينَ يبدأ يَكونُ انحرافاً يسيراً وعلىّ خَجَلٍ وتَوارٍ من المؤمنين، وقدْ يَكونُ مَنْشؤه الضَّعْفُ عن احتمالِ التكاليفِ، والضّعفُ عنِ الاستقامة، أو يَكونُ انحرافاً مُتَعمَّداً ومَقْصوداً، مِنَ الذين ينتظرون الفرصة ليهدموا الإسلام، ولم يؤمنوا به. ولكنَّه يزدادُ، وتزدادُ الشُقة اتساعاً، وتزدادُ النفوسُ ضَرَاوةً على الفسادِ، عند تَحَكُّمِ الطاغوت في أحوالِ الناسِ وحياتِهم، بعيداً عن منهجِ الله.

وعندئذٍ لا يَعود المُفْسِدون ـ باختلاف مُسمَّياتِهم ـ يَستجيبون لِمَنْ يدْعُوهم إلى الهُدى والصَّلاح، بل يَقِفونَ منه مَوْقفَ المُكابرةِ والعِنادِ، ويُحارِبُونه ويَسْعَوْنَ إلى القضاء عليه، خَشْيةً على كِيانِهم ومصالِحِهم، وشهواتِهم وانحرافاتِهم، ويُؤازرون ويَتَّحالفونَ مع بعضِهم، في منظومة واحدةٍ، تسهرُ على رعايةِ الفساد وتقويتِه، "ويَصنعونَ من الوسائل والأدوات ما يَنشُرُون به فسادهم، تشريعاً وتنفيذاً، يستوي في ذلك المُفسدون في أيِّ زمانٍ ومكانٍ، ولا يُستثنى من ذلك المُفسدون في دِيارِ الإسلام" [127] . بِهذه الصورةِ صارَ الفسادُ مَنهجاً مُتَبعاً، تُصاحِبُه قُوةٌ تَحْمِيهِ وتُدافِعُ عنه، فَوُجُودَها مُرتبِطٌ بِوُجودِه، وكُلَّما تدرَّجَ المجتمعُ بِالفسادِ خطوةً زادَ بُعْداً عن الإسلام، والعكس صحيح أيضاً .

إنَّ الفسادَ في التصوُّر لِحَقائقِ الإسلام، يُعَدُّ أخطرَ فَسادٍ حلَّ بهذه الأمةِ، حيثُ أوْرَثها فساداً في السُّلُوكِ، كانتْ نتيجتُه الملموسةُ، الانتسابَ للإسلامِ اسماً، دون وجود أثرٍ لحقيقة الإسلام في نُفُوسِهِم، وَلا في واقعِهم، فَالفسادُ الذي وُجِد في الأمَّة الإسلامية في القُرونِ الأخيرةِ، كانَ أشدَّ خَطَراً مِن الفسادِ الموجودِ في العصورِ السابقة، بِالرَّغْمِ مِنَ اجتياحِ جَحَافِلِ التَّتارِ لِدَوْلةِ الخِلافة، وتدفُّق الصليبيين.

لأنَّ التَّصوُّراتِ لِحقائقِ الإسلام في تلك العصور كانتْ صحيحةً، بعيدةً عن الفساد، أو أقربَ إلى الصحة، وَمَا وُجِدَ مِنْ انحرافاتٍ مُتَعلِّقةٍ بالتصوُّرِ، كانت محصورةً في نِطاقٍ محدود.

أمَّا حين بدأ الفسادُ في التصوُّر يَتَّسعُ حتى أصبحَ هو الأصل، فقد تغيَّر الأمرُ، " ولمْ يَعُدْ فسادُ السلوكِ وحْدَه هو العِلَّةَ، وإنَّما أصبحَ الأمرُ يَحتاجُ إلى جُهدٍ ضخم يبْذل لتصحيحِ المفاهيم أوَّلاً، ثم تصحيحِ السلوكِ بعد ذلك، أو تصحيحِهما معاً في الوقت ذاته.

---

[126] سبق تخريجه ص٤٣، أخرجه الترمذي وضعفه الألباني.

[127] محمد قطب، جاهلية القرن العشرين . ص٢٦٩ ـ ٢٧٠ .

خرجت بعد ذلك أجيالٌ أخذتْ تتخفّفُ من التكاليف، فتُخرجها رُويداً رُويداً من دائرة العبادة، وتُضيّقُ دائرةَ العبادة تدريجياً، حتى تمّ حصرَها نهائياً في الشعائر التعبدية .

فأخرجتِ الصّدقَ، والأمانةَ، والوفاءَ بالوعدِ، ونُصرَةَ الحقّ والجهرَ به، والإنصافَ، والعدلَ، وحُبَّ الخير، والإتقانَ في العمل،مِنْ دائرةِ العبادة، بحيث لَمْ تَعُدْ هذه القيَمُ والأخلاقُ في حِسّ الناس لازمةً، وإنّما أصبحتْ شيئاً جميلاً إنْ وُجِد، فإنْ لمْ يُوجَد فلا بأس. حتّى صار عند الناس إسلامٌ بلا أخلاق، إسلامٌ لم يُنزِّله الله تعالى، ولم يأمرْ به" [128] .

كان هذا الفسادُ في التصوُّرِ والسلوكِ - ولا يزالُ - السّمةَ العامةَ للأمةِ الإسلاميةِ في العصر الحالي، ويتّسعُ مداه كلما تقدم الزمان، ويَتنوَّعُ في صُوَرِه، وأشكالِه، وأصنافِه، وهذا ما جَعَلَه مألوفاً عند أكثرِ الناس، وبخاصةٍ في ظل تشجيعٍ وتأييدٍ، مِمَّنْ تَرْتَبطُ حياتُه ومصالِحُه، بِاستمرارِ الفسادِ وَنمُوِّه .

وأصلُ الفسادِ كلّه هجْرُ كتابِ اللهِ، وعَدَمُ التمسُّك به، ومِنْ ثَمّ غَلَبَةُ الهَوَى المُتّبع. والهَوَى المُتّبَعُ أحَدُ المُهلِكات كما جاء في الحديث الوارد عن الرسول ﷺ ، حيثُ قال : **" ثلاثٌ مُهلِكاتٌ : شُحٌّ مُطاعٌ، وَهَوَىً مُتّبَعٌ، وإعجابُ المَرْءِ بِنَفْسِه من الخُيلاء، وثلاثٌ مُنجيات: العدل في الرضا والغضب، والقصد في الغنى والفاقة، ومخافة الله في السر والعلانية"** [129] . والهَوَى إذا كان مُتّبعاً، فإنّه سببٌ من أسباب الهلاك، ولاَ فَرْقَ في العاقبةِ بين العالم والجاهل في اتّباعِ الهَوَى، ولأنّ الهَوَى المُتّبَعَ هو السببُ في الإعراضِ عن شرع الله تعالى وهديه، وعاقبةُ ذلك كلّه الضلالُ، والشقاءُ، الانحرافُ، والفسادُ . وهذا ما بيّنه الحق - سبحانه وتعالى - في قوله تعالى : **{ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ}** [130] .

وتزدادُ عاقبةُ الهوى المُتّبع سُوءاً وخطَراً؛ بتَألِيهِ ذلك الهوى، وذلكَ لأنّ مَنْ ألّهَ هوَاه، يَرى كلَّ فسادٍ أو انحرافٍ، مَصلَحةً ومَنْفعةً يجِبُ تحقيقُها، وعدَمُ تجاهُلِها أو إهمالِها. وفي نَظَرِ هذا

---

[128] محمد قطب، واقعنا المعاصر . ص ١٣٤ـ١٣٨ .

[129] الطبراني، المعجم الأوسط، وقال: لم يرو هذا الحديث عن الحسن إلا حميد بن الحكم، تفرّد به: إبراهيم بن محمد بن عرعرة. حديث رقم (٥٤٥٢) . ١٩٢١/٥. حسّنه الألباني . الألباني، سلسلة الأحاديث الصحيحة، حديث (١٨٠٢) ، ٤١٢/٤ - ٤١٦ . قلت :الحديث بهذا الإسناد ضعيف، لم أجد له متابعة، فيه حميد بن الحكم ، قال فيه ابن حبان: منكر الحديث جداً، لا يجوز الاحتجاج بخبره إذا انفرد . ابن حبان، المجروحين من المحدثين، (٢٦٨) ٣٢٠/١ ، تحقيق: حمدي السلفي، دار الصميعي، ط١، ١٤٢٠هـ ٢٠٠٠م. ابن حجر، لسان الميزان، (٢٨٠٠)، ٢٩٦/٣، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، دار البشائر، بيروت، ط١، ١٤٢٣هـ ٢٠٠٢م. وهذا الحديث يصح موقوفاً على قتادة بنحوه مع زيادة في آخره، أخرجه: الصنعاني،عبد الرزاق بن همام(٢١١هـ)، المصنف، باب حق الرجل على امرأته،حديث(٢٠٦٠٦)، ١١/ ٣٠٤، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، المكتب الإسلامي، بيروت، ط٢، ١٤٠٣هـ١٩٨٣م.

[130] سورة القصص ، الآية ٥٠ .

الإنسانِ الذي ألّهَ هواه، فإنَّ صلاحَ المجتمعِ والأمةِ، لا يَكونُ إلاّ بِمَا يَسْتَحسِنُه هَوَاه. وقدْ بيَّنَ الحق ـ سبحانه وتعالى ـ عاقبةَ مَنْ يتحكَّمُ الهوى فيه، في قوله تعالى، : **{أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلا تَذَكَّرُونَ}**[١٣١]

إنَّ الطَّبَقاتِ المُتْرَفةَ والحُكَّامَ المُستَبِدِّين، همْ أكثرُ الفئات المنتفعة من وجود الفسادِ وانتشارِه، بلْ وصِناعَتِهِ وإيجاده. فالطَّبَقاتُ المُترَفَةُ بِما لديها من أموال وثراءٍ فاحشٍ، والحكامُ المُستبِدُّون بِما لديهم من سُلطةٍ مُطلَقةٍ ـ كِلْتا الفِئتين ـ لا تعيش إلا في أجواء الفساد والإفساد للمجتمع والأمة. وَوَسيلَتُهم في ذلك، للحِفاظِ على مصالحِهم، واستمرارِ سُلْطانِهم وجَبروتِهم، تَوْلِيةُ الفاسدين الطامعين، وإسنادُ الأمر لغيرِ أهلِه. وهو الزمان الذي تُضيَّعُ فيه الأمانة، كما أخبر عن ذلك رسولُ الله ﷺ حيثُ قالَ : " **إذا وُسِّدَ الأمر لِغَيْرِ أهلِهِ فانتظر الساعة** "[١٣٢].

والفسادُ يَمْتَدُّ ويَنتشِرُ بالعدوى إذا لم يَجِدْ مَنْ يُقاوِمُه ويُنكِرُه، ويَظهرُ في الأرض، حين يتقاعسُ الناسُ عن الأمر بالمعروف، والنَّهيِ عن المنكر، **{ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ }**[١٣٣].

وهذا التقاعسُ عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قد يَكونُ في إحدى صُوَرِه نوعاً من الفساد، وهو الفسادُ الاجتماعيُ، حيثُ يُداهنُ خِيارُ الناسِ فُجَّارَهم، كما وَرَدَ ذلك في الحديث النبويِّ الوارِدِ عن حذيفة بن اليمان ـ رضيَ الله عنه ـ حيثُ قالَ : يا رسول الله، **متى نتْرُكُ الأمرَ بالمعروف والنهي عن المنكر، وهما سيِّدا أعمال أهل البِرِّ؟ قال:" إذا أصابكم ما أصاب بني إسرائيل". قلتُ: يا رسول الله، وما أصاب بني إسرائيل؟ قال: " إذا داهَنَ خِيارُكم فُجَّارَكم، وصار الفقه عند شِرارِكم، وصار المُلْكُ في صغارِكم،فَعِنْدَ ذلك تَلْبِسُكم فتنةٌ، تكرُون ويُكرُّ عليكم"** [١٣٤]

---

[١٣١] سورة الجاثية ، الآية ٢٣ .

[١٣٢] سبق تخريجه ص ٨٥، أخرجه البخاري .

[١٣٣] سورة الروم ، الآية ٤١ .

[١٣٤] الطبراني، المعجم الأوسط، وقال: لم يرو هذا الحديث عن الأعمش إلا عمَّار بن سيف، ولا عن عمار إلا أبو سعيد التغلبي، تفرَّد به يحيى بن سليمان الجعفي حديث (١٤٤)١/١٨١ .وقال الهيثمي في " مجمع الزوائد": وفيه عمار بن سيف، وثَّقه العجلي وغيره، وضعَّفه جماعة، وبقية رجاله ثقات، وفي بعضهم خلاف. الهيثمي، مجمع الزوائد ، حديث (١٢٢٣٨) . ٧/ ٣٩٧. قلت: عمار بن سيف الضبي: وثقه العجلي وابن معين وضعفه أبو زرعة وأبو حاتم وقال ابو داود : كان مغفلاً. الذهبي، ميزان الاعتدال ٥/٢٠٠(٥٩٩٥) ، وقال ابن عدي في الكامل: بعد أن ذكر قول ابن معين في توثيقه : الضعف بيِّنٌ في حديثه . ابن عدي، الكامل في ضعفاء الرجال، ٦/١٣٥-١٣٧ (٢٨٣/١٢٥٠)، فالحديث بهذا الإسناد ضعيف، فيه عمَّار بن سيف، وقد بيَّن ابن حبان سبب تضعيفه، حيث قال: إنه كان يروي المناكير عن المشاهير، حتى ربما سبق إلى القلب أنه كان المتعمد لها، فبطل الاحتجاج به لما أتى من المعضلات عن الثقات وروى عن إسماعيل

المطلب الثالث

نشوء الفرق والمذاهب المنحرفة

إذا كان من سُنَّة الله تعالى وجُودُ الاختلاف بين الناس، فهل هناك من ضررٍ ناشئ عن الاختلاف بين الناس، أو الاختلاف بين أتباع الدين الواحد، أو الشريعة الواحدة ؟

لقد أمَرَ الحقُّ ـ سُبحانه وتعالى ـ المسلمين وحَثَّهم على الاعتصام بكتاب الله، ونَهاهم عن التفرُّق والاختلاف، وذَكَّرَهم بما كان عليه حالُهم عند اختلافِهم وتفرُّقِهم، وما آل إليه أمرُهم عندما أسلموا واتَّبعوا الرسول والْتَزَمُوا أمرَه، حيث نَجَوا من الهلاك والعذاب، قال تعالى: **{واعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُواْ وَاذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنتُمْ عَلَىَ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ }**[١٣٥].

وهذا أمْرٌ أكَّدَه الرسولُ ﷺ وأمَرَ به المسلمين، وبخاصةٍ عند كَثْرَةِ الاختلاف الذي سَيَقعُ بُعيْدَ وفاتِه، عِنْدَ ظهور الفِتَنِ والبِدَعِ، نتيجةَ الأهواء وعدَمِ الاعتصام بِحَبْلِ الله، فَقَدْ جاء في الحديث عن رسولِ الله ﷺ أنَّه قال : " **... فإنَّه مَنْ يَعِشْ مِنكم فَسَيَرَى اختلافاً كثيراً، فَعَلَيكم بِسُنَّتي وسُنَّةِ الخُلفاءِ الراشدِين المَهدِيين مِنْ بَعْدي، فَتَمَسَّكوا بِها، وعَضُّوا عليها بِالنَّواجِذ، وإيَّاكم ومُحْدَثاتِ الأمور، فإنَّ كلَّ مُحْدَثةٍ بِدْعةٌ، وكُلُّ بِدْعةٍ ضَلالةٌ** " [١٣٦] لَقد بيَّنَ الرسول ﷺ أنَّه سينشأ بَعْدَه اختلافٌ كبيرٌ في أمَّتِه. وكَوْنُ هذا الاختلافِ كبيرٌ كما جاء في الحديث، فإنَّ في هذا الوَصْفِ دلالةٌ على تأصُّله وديمومتِه. كما يُمكنُ القولُ إنَّ البِدَعَ سببُ هذا الاختلافِ الكبير، وهذه البِدَعُ انحرافٌ عن الإسلام، ولذلك أمَرَهم بالتمسُّكِ بِسُنَّتِه، وبِسُنَّةِ الخلفاء الراشدِين المَهْدِيين مِنْ بَعْدِه. والتزام المسلمين بما أمَرَ به نبيُّهم هوَ سبيلُ النجاة مِن الاختلاف الكبير.

وكَمَا أنَّ الاختلاف الكبير الذي حَدَثَ في هذه الأمة ـ ولا يزال مُستمِرّاً حتى أيَّامنا هذه ـ بين أفرادِها وجَمَاعاتِها، سَبَبُه الابتداعُ في الدين؛ كذلك فإنَّ من نتائجِ هذا الاختلافِ الكبيرِ انتشارُ البِدَعِ، فَكلاهما ـ الاختلافُ والبِدَعُ ـ مُرْتَبِطٌ بالآخر ارتباطَ السببِ بالنتيجة.

ابن أبي خالد وعن ابن أبي أوفى عن النبي ﷺ بأحاديث بواطل لا أصول لها يطول الكتاب بذكرها. ابن حبان، المجروحين من المحدثين، ٢/١٨٨-١٨٩ (٨٣٧)، تحقيق حمدي السلفي، دار الصميعي، الرياض، ط١، ١٤٢٠هـ ٢٠٠٠م .

[١٣٥] سورة آل عمران، الآية ١٠٣ .

[١٣٦] سبق تخريجه ص٧٥، أخرجه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح .

ونتيجةً لِظُهُورِ الفِتَنِ والبِدَعِ، ازدادتْ شُقَّةُ الخلافِ بين أبناء المسلمين، حيثُ نشأتْ فِرَقٌ ومذاهبُ كثيرة، منها مذاهبُ وفِرَقٌ مُنحرفَةٌ عن أصولِ الإسلامِ ومَنْهجِه، تتبنَّى عقائدَ بعيدةً عن الإسلامِ، وتدعو إليها، وتحارِب مِنْ أجْلِها، بل وتُقَاتِلُ في سبيل عقائدِها المُنحرفَةِ جماعةَ المسلمين، التي أمَرَ الرسول ﷺ بالتِزامِها لأنَّها على الحقِّ، وعلى الصِراطِ المستقيم، حيث قال: **" إنَّ اللهَ لا يَجْمعُ أمَّتي، أو قال أُمَّةَ محمدٍ ﷺ على ضَلالةٍ أبداً". وَيَدُ اللهِ مَعَ الجماعةِ، ومَنْ شَذَّ، شَذَّ في النَّار "**[١٣٧]

كانتْ الخوارجُ أولَ تلك الفِرَقِ التي خَرَجَتْ على جماعة المسلمين، بِما ابْتَدَعَتْه مِنْ آراءٍ وعقائد، وقد أخبرَ عنها رسولُ الله ﷺ في الحديث النبوي، مُبَيِّناً حالَها، حيث قال رسولُ الله ﷺ: **" يَخْرُجُ في هذه الأمةِ - ولمْ يَقُلْ مِنها - قَوْمٌ تَحْقِرونَ صلاتَكم مَعَ صلاتِهم، يَقرؤون القرآنَ لا يُجاوِزُ حُلوقَهم، أو حناجرَهم، يَمْرُقون مِن الدِّينِ مُرُوقَ السَّهْم من الرَّمِيَّة ، ..."**[١٣٨] فهذه الفئة التي أخْبرَ عنها رسولُ الله ﷺ، وهي الخوارجُ " كانوا يَتأوَّلُونَ القُرآنَ على غَيْرِ المُرادِ منه، ويَستبدُّون بِرأيِهم، ويَتَنطَّعونَ في الزُّهدِ والخُشُوعِ وغير ذلك "[١٣٩].

إنَّ انحرافَ الخوارجِ وغيْرِهم من الفِرَق، التي وُجِدَت في الأمة الإسلامية، ناشئٌ عنْ اختلاف يُغذِّيه الهَوى، ومَنْشَؤُه عند كثيرٍ من هذه الفِرَقِ الغُلُوُّ في الدين، والبُعْدُ عن المنهج النبوي.

وهذه من أهمِّ الأسباب التي أدَّتْ لِظُهُورِ كثيرٍ من الفِرَق، التي أخبرَ الرسولُ ﷺ عن ظُهورِها في أمته، كما جاء في الحديث الوارد عنه : **" ...وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة "**[١٤٠].

والتاريخُ يُبيِّن أنَّ الفُرقة التي دبَّت في هذه الأمة، كان من آثارها ظهور مذاهب وطوائف متناحرة، تدَّعي كل منها أنَّها على الحقِّ، وهي حاملةُ لِواءِ الحق، المدافعةِ عنه، وأنَّ من يتبنَّى رأياً يخالف رأيها ليس بمسلم ،بل هو من معسكر الباطل ، الذي يجب محاربتُه ، واقتلاعُه من الأرض ، فأصبح حالهم وقد كفَّر بعضُهم بعضاً، بالرَّغْمِ من التَّحذير النَّبويّ من ذلك، في حَجَّةِ الوداع،

---

[١٣٧] الترمذي، الجامع الكبير، كتاب الفتن، باب ما جاء في لزوم الجماعة، حديث(٢١٦٧). وقال: هذا حديثٌ غريب من هذا الوجه. ٣٩/٤- ٤٠ . وقال الألباني: صحيح دون " ومن شذ" . الألباني، صحيح سنن الترمذي. ٤٥٨/٣.

[١٣٨] البخاري، صحيح البخاري، كتاب استتابة المرتدين، باب قتل الخوارج والملحدين، حديث (٦٩٣١)، ص ٣٠٨٢.

[١٣٩] ابن حجر، فتح الباري . ص ٣٠٨٣ .

[١٤٠] الترمذي، الجامع الكبير، كتاب الإيمان ، باب افتراق الأمة ، حديث(٢٦٤٠) وقال : حديث أبي هريرة : حديث حسن صحيح . ٤/ ٣٨١ .

حيث قال الرسولُ ﷺ: " ويْحَكم(أو قال: وَيلَكُم)، لا تَرْجِعوا بَعْدي كُفَّاراً يضْربُ بعْضُكم رِقابَ بَعْضٍ " [141].

وقد تطور هذا الاختلافُ والتَّناحُرُ في عصْرنا الحالي، في هذه الأمة، إلى صُوَرٍ وأشكالٍ مُتَعدِّدةٍ، مُختلِفةٍ في جَوْهرِها عمَّا سبق، حيث ظَهَرَتْ فِرَقٌ وأحزابٌ تتبنَّى أفكاراً وعقائدَ مُناقِضَةٍ للإسلام في جَوْهَرِها، يتبنَّاها ويَدْعُو إليها جَمَاعاتٌ مِنْ أبناء المسلمين، كالأحزاب القَوْمِيَّة أو العِلْمانية. أو يتبنَّاها ويُرَوِّجُ لها تَيَّارات تَدْعو للعودة إلى الفرعونية، أوْ البابلية، أوْ الفينيقية، أوْ غَيْرِها من الدَّعَواتِ الإقليمية.

" فالبِلادُ الإسلاميةُ، وإنْ كانتْ قدْ تَحرَّرتْ سياسياً، إلاَّ أنَّ أمواجاً فِكْرِيَّة تُعادي مَبادئَها وقِيَمَها وعقيدَتَها، قدْ طَغَتْ عليها وَعَمَّتْ . فالمُستعْمِرُ عِندما جلا وَرَحَلَ عنْ دِيارِ المسلمين، أسْلَمَ تلكَ البلادَ بِكَيدِهِ العميقِ إلى تَشتُّتٍ في جماعتِها، وانْقسامٍ في مبادئِها، حيثُ ضَعُفَتْ مناعةُ الشعوبِ الإسلاميةِ؛ أمام الهَجَماتِ الفِكريةِ المُناوِئَة لِدِينِها ، ومُنِيَتِ الأمةُ بِالتخاذلِ، ونَبَتَتْ نَابِتَةٌ تُمجِّدُ الدَّعواتِ الباطلةِ، وتَتَنَكَّرُ لِعقيدةِ الإسلامِ، مِمَّا زادَ في ضَعفِ المسلمين وتفرُّقِهم"[142].

وهذا الحال مِنَ التفرُّقِ والاختلافِ، يزيد الضَّرَرَ والفسادَ والضَّعف في الأمةِ، إذ نَتَجَ عنه ثُنائياتٍ مُتصارِعةٍ، يُعارِضُ بَعضُها بَعْضاً، ويُقاتِلُ بعضُها بعْضاً، كلٌ تحت رايةٍ أو عصَبِيةٍ جاهلية. ولذلك حَذَّرَ الرسول ﷺ من العصبيات الجاهلية بقوله **:"... من قاتل تحت راية عُمِّيَّة يغضب لعصبة، أو يدعو إلى عصبة، أو ينصر عصبة فقُتِلَ فقِتْلَةٌ جاهلية... "**[143]

---

[141] مسلم، صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب معنى قوله ﷺ " لا ترجعوا بعدي كفاراً" ، حديث(١٢٠). ٨٢/١ .

[142] المصري، محمد أمين،المجتمع الإسلامي، دار الأرقم،ط٤، الكويت، ١٩٨٦ . ص٦٣ .

[143] مسلم، صحيح مسلم ، كتاب الإمارة ، باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن وفي كل حال ...حديث ١٨٤٨ ، ١٤٧٦/٢-١٤٧٧ .

الفصل الثاني

بناء العقل المسلم

الأسس، والأهداف، والمنهج

يَهْدِفَ هذا الفصْلُ إلى بَيانِ الأسُسِ التي يقوم عليها العقل المسلم، وهذه الأسُس تُعَدُّ الرّكائزَ الأساسيةَ التي ينطلِق منها الإنسانُ المسلمُ، لِتحقيقِ الأهداف التي جاء الإسلامُ لتحقيقِها في الحياة. وهنا لا بُدَّ من مَنْهجٍ واضحٍ لا عِوَجَ فيه ولا اضطراب، يكونُ رابطاً بين تلك الأسُسِ وبين الأهداف التي يسعى الإسلام لتحقيقها في الحياة، مِنْ خلال الإنسان المسلم.

وبِغَيْرِ هذه الأمورِ الثلاثةِ (الأسسِ، والأهدافِ، والمنهجِ) مُجْتَمِعةً، لا يُمكنُ أنْ تستقيمَ الحياة، ولا يُمكنُ أنْ تقومَ للأمةِ الإسلامية قائمةٌ، ولا أنْ تَسْتَرِدَّ مكانتها بين الأمم. وَبِدونِ هذه الثلاثة، أو أحَدِها؛ تَخْتَلُّ حياةُ المجتمعِ المسلمِ، ويَحْدُثُ الاضطرابُ فيها، بِما فيها حياةُ الأفرادِ والجَمَاعات، وتُصبحُ كلُّ فَعَالِيّاتُها وأنشِطَتُها لا قيمةَ لها، ولا أثَرَ، ويضيعُ كلُّ شيء هذراً .

والأزمةُ التي يُعانيها الإنسان المسلم، هي أزْمةٌ ناشئةٌ عنْ غيابِ المَنْهج الذي بيَّنَه الرسولُ ﷺ للمسلمين، في الأحاديث النَّبويَّة الواردة عنه، والذي مِنْ خلالِه استطاع المسلمون ـ وبِخاصةٍ في العهدِ النَّبويِّ وعهْدِ الخُلَفاء الراشدِينَ وتابِعيهم ـ أنْ يرْتَقوا بالحياة والأمَّة، كما أرادها الإسلامُ.

وكذلك، فإنَّ الأزمة ناشئةٌ عن غِيابِ الأهداف، التي تُعَدُّ بَوصَلَةً يَتِمُّ من خلالِها توجيهُ الطاقات والقُدُرات، والأنشطةُ والفعالياتُ، لِتحقيق الإنجازِ المَلْموسِ، الذي به تَسْتعيدُ الأمَّةُ مكانتها، وتصيرُ خَيْرَ أمَّةٍ كما كان أسلافُهم في العَهْدِ الأول، حيثُ قال الله ـ تعالى ـ في وَصْفِهم : **{كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْراً لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ }** [١٤٤]

وهي ناشئةٌ أيضاً، عن ذِهابِ الأُسُسِ التي ينطلِق منها الإنسانُ المسلمُ في حَيَاتِه، وفي سعيِهِ فيها، للقيام بالدَّوْر المطلوبِ منه. حيث إنَّ غيابها قد يَجْعلُ سعيَ المسلم في غيْرِ مَحلِّه، وتَجْعلُ جُهدَه ونشاطَه لِغيْرِ مَصلَحةِ الأمة .

---

[١٤٤] سورة آل عمران، الآية ١١٠ .

المبحث الأول

أسس بناء العقل المسلم

المطلب الأول

أساسُ التَّصوُّرِ العَقَدِي

إذا كان يُرادُ للإنسانِ المسلمِ أنْ يَنهضَ من جديد، فَلا بُدَّ من إعادة بناء العقلِ المسلمِ على أُسُسٍ صحيحةٍ، تُعيدُ تصحيحَ علاقةِ الإنسانِ المسلمِ بهذا الوجود، وتُعيدُ تحديدَ موقعِه ودَوْرِه في هذه الحياة، وعليها يُبنى مصير الإنسان في الآخرة كذلك، فالعقيدة إن صحَّتْ صحَّ العمل، وإنْ فسدتْ ضاع العمل وأُحبط.

مِنْ أهمِّ هذه الأُسُس؛ التَّصوُّرُ العَقَديُّ، الذي لا يستقيمُ حالَ الإنسان المسلم إلاَّ بِه. فَمِن خِلالِ هذا التصوُّرِ يبني الإنسانُ سلوكَه وتعامُلَه مع الآخرين؛ وذلك للارتباط الوثيق، والتَّلازمِ الشديد بين طبيعةِ التصوُّرِ العَقَدي، وطبيعة النظام الاجتماعي، " فَالنظامُ الاجتماعيُ هو فَرعٌ عن التفسير الشامل لِهذا الوجود، ولِمَوقعِ الإنسانِ ووظيفتِه في هذه الحياة، ولِغايةِ وجودِه الإنساني" [١٤٥].

وبِناءً على هذا التصورِ، يَكُونُ توجُّهُ المسلمِ، وسلُوكُه، وتصرُّفُه في الحياة، فهذا التصورُ هُوَ أداةُ التوجيه، التي تَكْفَلُ للإنسانِ أنْ يكونَ عُنصراً صالحاً في بناء هذه الأمة، وفي تحقيق الغاية من وجوده، من خلال المنهجِ الصحيحِ، الذي يتعاملُ به مع هذا الوجود .

إنَّ هذا التصوُّر العقدي ينطلق مما قرَّره الإسلام وبيَّنه من أركان الإيمان، " ومفهوم الإيمان أو العقيدة ينتظم ستة أمور:

أولاً: المعرفة بالله، والمعرفة بأسمائه الحسنى وصفاته العُليا، والمعرفة بدلائل وجوده، ومظاهر عظمته في الكون والطبيعة.

ثانياً: المعرفة بعالم ما وراء الطبيعة، أو العالم غير المنظور، وما فيه من قوى الخير التي تتمثل في الملائكة، وقوى الشر التي تتمثل في إبليس وجنوده من الشياطين، والمعرفة بما في هذا العالم أيضاً من جن وأرواح.

---

[١٤٥] سيد قطب، خصائص التصور الإسلامي ومقوماته، دار الشروق ، ط١٥، القاهرة ، ١٤٢٣هـ ٢٠٠٢م. ص٢٤ .

ثالثاً : المعرفة بكتب الله التي أنزلها لتحديد معالم الحق والباطل، والخير والشر، والحلال والحرام، والحسن والقبيح.

رابعاً: المعرفة بأنبياء الله ورسله الذين اختارهم ليكونوا أعلام الهدى، وقادة الخلق إلى الحق.

خامساً: المعرفة باليوم الآخر، وما فيه من بعث وجزاء، وثواب وعقاب، وجنة ونار.

سادساً: المعرفة بالقدر الذي يسيرُ عليه نظام الكون في الخلق والتدبير... . وإنما جعل الله هذه العقيدة عامة للبشر، وخالدة على الدهر؛ لما لها من الأثر البيِّن، والنفع الظاهر في حياة الأفراد والجماعات . فالمعرفة بالله من شأنها أن تفجر المشاعر النبيلة، وتوقظ حواس الخير، وتربي ملكة المراقبة... والمعرفة بالملائكة... تدعو إلى الوعي الكامل واليقظة التامة، فلا يصدر من الإنسان إلا ما هو حسن، ولا يتصرف إلا لغاية كريمة... والمعرفة باليوم الآخر: هي أقوى باعث على فعل الخير، وترك الشر. والمعرفة بالقدر: تزوِّد المرء بقوى وطاقات تتحدى كل العقبات والصعاب، وتصغر دونها الأحداث الجسام... فغرس العقيدة في النفوس، هو أمثل طريقة لإيجاد عناصر صالحة تستطيع أن تقوم بدورها كاملاً في الحياة، وتسهم بنصيب كبير في تزويدها بما هو أنفع وأرشد. "[١٤٦]

لا يَتمُّ تحقيقُ الانسجامِ والتوافقِ بين الإنسان وهذا الوجودِ إلاَّ بالإقرار بالعبودية لله تعالى، وبالتَّسليم المُطلَق، والانقيادِ التام لله تعالى، وقد أوضح الشهيد سيِّد قطب أثر الإقرار بالعبودية لله تعالى على تصوُّر الإنسان المسلم وسلوكِه في الحياة، حيث قال" إنَّ العبودية لله تَتمثَّلُ في التصورِ العَقَدي، والذي يتكيَّف به الإنسان في إدراكه لِحقيقةِ ربِّه، ولِحقيقة كَوْنِه الذي يعيش فيه ـ غيبِه وشُهُودِه ـ ولِحقيقةِ الحياةِ التي يَنتسِبُ إليها ـ غيبِها وشُهُودِها ـ ولِحقيقة نفسِه .

ثُمَّ يُكيِّف على أساسِ هذا التصوُّرِ العَقَديِّ تَعامُلَه مع هذه الحقائق جميعاً، فيكونُ تَعامُلَه مَعَ ربِّه تعامُلاً تَتمثَّلُ فيه عبوديتُه لله وحده . ويَكونُ تعامُلُه مع الكونِ ونواميسِه، بِما فيه من إنسانٍ وحيوانٍ وجماد، تعاملاً يَستمدُّ أصولَه من شَرْعِ الله، تحقيقاً لعبوديته لله وحْدَه، والتصوُّرُ العَقَديُّ بهذه الصورة يشمل نشاط الحياة كلِّه" [١٤٧] .

---

[١٤٦] سابق، السيد، العقائد الإسلامية، ص٨ ـ ١٠. دار الكتاب العربي، بيروت .
[١٤٧] سيد قطب، معالم في الطريق، دار الشروق، القاهرة، ١٩٧٩م. ص٧٦-٧٧ .

بالإضافةً إلى ما سبق، فإنَّ هذا التصوُّر يُمثّلُ قوّةً دافعةً للإنسان للانطلاق في سعيه، تحقيقاً لرسالته في الحياة، ويُعطيه زَخماً ونشاطاً لِتَجاوُزِ الصِّعاب والمَشقّات.

ولذلك فإنه من الضروري أنْ يَكونَ الزادُ الذي نَحْمِلُه لإحياءِ الأمة، وبَعْثِ حضارتِها، هُوَ العقيدةُ، والفِكرةُ الدينية المنبثقةُ عن هذه العقيدة . " إنَّ أيَّةَ حضارةٍ لا تَنْبعثُ إلاّ بالفكرة الدينية، ولا تظهرُ في أمّةٍ من الأمم إلاّ في صُورةِ وَحْيٍ من السماء، يكونُ للناس شَرْعاً ومِنهاجاً.

فالفكرةُ الدينيةُ عاملٌ أساسيٌّ في التغيير الاجتماعي، بِشَرْطِ أنْ تكونَ هذه الفكرةُ نابعةً من دِينٍ سَماويٍّ، لمْ يَنَلْهُ تشويهٌ ولا تحريف" [148]

وهذا التصوُّرُ العَقَدِيُّ يقومُ على الإقرار بالوحدانية لله تعالى، والإخلاص له، وهو ما يَمنحُ الإنسانَ المسلمَ وِحْدة الهدف والغاية والمقصد، وبشكل يتلاءم وطبيعةَ هذا الوجود في كل مكوّناته، ما يجعل الإنسان المسلم منسجماً ومتوافقاً مع ما حوله.

ولا تَقِلُّ قضيةُ الإيمانِ باليوم الآخر أهميةً في هذا التصوُّر، وتَظْهرُ مِن خلال تصحيح سعي الإنسان في حياته وتقويمه، حيث يبقى لديه شعورٌ حيٌّ في كل لحظة من حياته، في أقواله وأعماله، بأنّه مُطالَبٌ بالأحسن والأفضل في كلِّ أحواله، تحقيقاً للفوز برضوان الله تعالى.

وتأتي قضية التوكل على الله؛ لِتُظهِرَ علاقة الإنسان المسلم الإيجابية بهذا الوجود، وتفاعلَه المُثمِر، بأخْذِه بالأسباب ضمن فهمِه وإدراكه العميق والصحيح للقضاء والقدر، ومع الإيمان بالغيب، فإنَّ الإنسان المسلم لا ينبغي أن يُغْفِل التخطيط والتدبير للولوج إلى المستقبل العاجل في الدنيا، أو الآجل في الآخرة.

ويَظْهرُ جانبُ حُرِّيَةِ العقيدة كَجُزْءٍ مُهِمٍ في هذا التصور، باعتبار أنَّ كلَّ توجُّهات الإنسان في حياته، وتصرُّفاته وآرائه وأفكاره، تنطلق من هذا الجانب، بناء على القناعات الموجودة لدى الإنسان، والمبنية على الاعتقاد الحُرِّ .

وتأتي مِيزَةُ عالمية الرسالة الإسلامية؛ كَجَانبٍ مُهِمٍ لبيان المجال الحيوي الذي ينبغي أنْ يشملَه هذا التصوُّر، ويمتدَّ فيه حتى تستقيم الحياة الإنسانية عموماً، بعيداً عن أيّة قيود جغرافية قدْ تُفقد هذا التصوُّر فاعليتَه وأثَرَه .

---

[148] د. كنعان، أحمد، من سلسلة كتاب الأمة "أزمتنا الحضارية في إطار سنه الله في الخلق" ،العدد(٢٦) ، قطر ، ١٤١١هـ .ص ١٥٣

- التوحيد لله تعالى والإخلاص له :

إنَّ أهمَّ ما أحدثَه الإسلامُ في قلوبِ أتباعِه وعقولِهم، هو تغييرُ كثيرٍ مِنْ تصوُّراتِهم وأفكارِهِم، التي تتعلَّقُ بهذا الوجود، بحيث تغيَّرتْ نظرتُهم إلى الحياة، وإلى الإنسان ودَوْرِه وغايتِه، واختلفتْ اختلافاً كُلِّياً.

لقد أنشأ الإسلامُ منهم جيلاً مُؤهلاً لِحملِ الرسالة وتبليغها للعالمين، وكانوا أهلاً للقيام بواجب الاستخلافِ في الأرض، فهذا الجيل لمْ يتغيَّرْ إلاَّ بذلك التصوُّرِ العَقَديِّ الجديدِ، وهُوَ تصورٌ جديدٌ يختلف في أُسُسِه، وفي ملامحِه عمَّا أَلِفُوه في الجاهلية.

لقدْ أوجدَ هذا التصوُّرُ التُّرْبَةَ المناسبةَ، والملائمةَ، لِكَي يَكونَ لهذه الأمةِ كيانٌ وَوُجُودٌ، ومِنْ خِلالِه تمَّتِ المحافظةُ على هذه الأمة في وجودِها وتميُّزِها عن سائر الأمم .

يقومُ هذا التصورُ في أساسِه وبنائه على عقيدة التوحيد، التي تُبيِّن لِلمسْلمِ غايةَ الخلقِ والوجُودِ، والتي تُوَفِّرُ له دليلَ حرَكَتِه ونشاطِه في هذه الحياةِ، ودليلَ تعاملِه مع سائر الموجودات.

إنَّ عقيدة التوحيد التي تَقومُ عليها العقْليةُ المُسلمة، تتضمَّنُ بأنَّ الحق - سبحانه وتعالى - هو وحْدُه الخالقُ لهذا الوجود، وهذا يُحتِّم أنْ يكونَ الخَلْقُ مُتَّحِدَ المَصْدرِ والغايةِ . وهذه الوحدانيةُ والوِحْدةُ، تُحتِّم أنَّ هذا الخَلْقَ والوجودَ لم يُخلَقْ عَبَثاً، وإنَّما خُلِقَ لِغايةٍ، وهي تحقيقُ الإنسانِ لِلعِبادة بمفهومها العام والشامل، مِنْ خِلالِ خِلافَتِه ومسؤوليَّتِه في إدارة الكون.

ومن خلال العبودية لله تعالى، وإخلاص العمل له، تتوجَّه كلُّ طاقاتِ الإنسانِ وقُدُراتِه للخير والبناء، بعيداً عن التخبُّط، وهذا ما أوضحه المُفكِّرُ المسلم د. أبو سليمان بقوله :" إنَّ الوحدانية تُشكِّلُ مُنطلَقاً مُهماً للعقل المسلم، يَسْتَضيء بها العقلُ المسلمُ لتحقيق الغايات المطلوبة منه في هذه الحياة، وهذا المُنْطلَقُ يُقيمُ العقلَ المسلمَ على فَرَضيةِ وِحْدةَ المصدر والحقيقة ، والتي ينطلق منها كلُّ الكون والكائنات ، وما حقَّق العقلُ المسلمُ من نجاحٍ إلاَّ وكان منطلقُه في التزام مبدأ الوحدانية ، وما تخبَّط العقل المسلم إلاَّ بتجاهله وغفلته عن هذا المبدأ كدليل فكر وعمل والتزام " [١٤٩] .

إنَّ فِطْرةَ التوحيدِ في العقل المسلم، هي دليلُ حرَكَتِه في التعاملِ مع الكائنات، والأحداثِ الكونيةِ من مُنطلَق هذه الغاية . وهذا يُحتِّمُ على العقلِ المسلمِ إدراكَ مَنطقِ حرَكَةِ هذه الكائنات،

---

[١٤٩] أبو سليمان، قضية المنهجية في التفكير الإسلامي . ص ١٨ .

ونواميسِ أدائِها، حتّى يَتمّ حمْلُ مسؤوليةِ إدارتِها وتسخيرِها، على ما تقتضي به غاياتُ الخَلْق، ومُقتضياتُ الجهادِ والخلافة [150].

إنَّ العقيدةَ الإسلاميةَ القائمةَ على الإقرارِ بوحدانيةِ الله تعالى، تهدِفُ إلى إزالةِ الشِّرْكِ مِنَ الأرض، وتهدِفُ إلى الإصلاحِ وإزالةِ الفساد.

هذا الهدَفُ لا يتحقّقُ إلاّ بأنْ يُعلنَ الناسُ انقيادَهم واستسلامَهم لله رب العالمين، وإزالةِ كلّ بُذورِ الشّرْكِ من نُفوسِهم وحياتِهم، وبهذا الانقيادِ والاستسلامِ لله رب العالمين، تتحقّق لَهُم وِحْدةُ الهدَفِ والغايةِ، ووِحْدةُ المَرْجِعيةِ، التي يقيمون حياتَهم على أساسِها، بحيث يصبحُ سلوكُ المسلمُ في حياته كلّها، تطبيقاً لقولِه تعالى: **{قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ {١٦٢} لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ{ ١٦٣}** [151].

لَقَدْ بيّنتْ هاتان الآيتان في رَبْطٍ مُحكَمٍ؛ الغايةَ التي يَجبُ على الإنسانِ تحقيقُها ـ وهي إعلانُ العُبُوديةِ التّامّةِ لله رب العالمين ـ والوسائلَ التي يَتمُّ بها تحقيقُ هذه الغاية، حيث كانت الصلاةُ وَسيلةً، وكان النُسُكُ وَسيلةً، وكانتِ الحياةُ وَسيلةً. كلُّ ذلك كان في نَظَرِ المسلمِ وسيلةً لِتحقيقِ الغاية من هذا الخَلْقِ، مُنطلِقاً من هذا التصوُّرِ العَقَدِيّ.

وما فصَّلَتْه الآيتان الكريمتان، ذكَرَه الحديثُ النّبويُّ بإيجازٍ بليغ، عَنْ سُفْيَانَ بْنِ عَبْدِ اللهِ الثّقَفِيِّ، قَالَ: " **قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، قُلْ لِي فِي الْإِسْلَامِ قَوْلًا لَا أَسْأَلُ عَنْهُ أَحَدًا بَعْدَكَ**" ـ قَالَ: " **قُلْ آمَنْتُ بِاللهِ فَاسْتَقِمْ** " [152] وفي رواية أخرى عند مسلم :" **ثمّ استقم**" ولعلّ اختلاف الروايات يُبيِّنُ أنّ المطلوب من الإنسان الاستقامة في الأحوال كلّها، ففي الرواية الأولى على السائل المبادرة إلى الاستقامة دون تأخير، بل عليه أن يسارع فيها، وفي الرواية الثانية: عليه المبادرة إلى الاستقامة دوت تعجُلُ قد يُخِلُّ بها .

فقد أمرَ الرسولُ ﷺ السائل بالاستقامةِ بعدَ الإقرار بالإيمان، أي أمرَه بأنْ يكونَ سلُوكُه وسَعيُه، مُنطلَقاً من التصوُّر المَبْني على الإيمان بالله تعالى، وإلاّ فإنّ الاستقامةَ لن تتحقّقَ للسائل

---

[150] أبو سليمان، قضية المنهجية في الفكر الإسلامي . ص٢٠ .

[151] سورة الأنعام ، الآية ، ١٦٢، ١٦٣

[152] مسلم، صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب جامع أوصاف الإيمان، حديث (٦٢) . ٦٥/١ .

بعيداً عن الإيمان بالله تعالى، والإخلاص له في العمل والاعتقاد.

وهذا التصوُّرُ هو الذي يتميَّزُ به المسلمُ عن غيرِه، حيث تُعدُّ الحياةُ عند المسلمِ وسيلةً لتحقيق الغايةِ التي خُلِقَ لأجْلِها، أمَّا عند غَيْرِ المسلم، فَتُعَدُّ غايةً في ذاتِها، بحيث ينصبُ اهتمامُه ـ بناءً على ذلك ـ على الاستمتاعِ بالشهواتِ، وتحقيقِ ما تتمنَّاه تِلك النُّفُوسُ، مِنْ مُتَعِ الحياة الدنيا، دونَ التِفاتٍ إلى الآخرة.

وفي سبيلِ تحقيقِ شَهَواتِهِ، ورَغَباتِهِ، ومصالِحِه، يُظْهِرُ هذا الإنسانُ الأنانيةَ والأثَرَةَ وشَرَاهةً، دون أيِّ اعتبارٍ أو اهتمامٍ بالآخرين، سواءً كان هذا الآخرُ إنساناً أم حيواناً أم نباتاً أم جماداً، وهذا السلوكُ الصادرُ منه يأتي مُنسجماً مع نظرتِه إلى هذا الوجود .

إنَّ لِلتصوُّرِ الذي يَعْتقد به الإنسانُ أهميةً كبيرةً في حياة الإنسانِ، فَبناءً عليه يتمُّ تحديدُ طريقةِ التعاملِ مع هذا الوجود، بِكُلِّ أشكالِه وأجناسِه.

لقد جاءت التوجيهاتُ القرآنيةُ والنَّبويةُ، لِتُوضِّحَ للمسلمِ طريقَه في تحقيقِ الغايةِ التي من أجلها خُلِقَ هذا الإنسان، وذلك مِن خلالِ الإخلاصِ لله ـ تعالى ـ في القولِ والعملِ، لِيُشكِّلَ له ذلك الإخلاصُ مِنهاجاً وطريقاً ينبغي سُلُوكُه والسيرُ فيه .

وإذا أرادتْ هذه الأمةُ استعادةَ دَوْرِها، وتحقيقَ نهضتِها، فإنَّه يجب عليها أن تَرجعَ إلى ربِّها، حتى يستقيمَ حالُها، وقدْ جاء في الحديثِ عن رسولِ الله ﷺ أنَّه قال : " **الأعمالُ بالنِّيَّة، ولِكُلِّ امرئٍ ما نَوى، فَمَنْ كانت هِجرتُه إلى الله ورَسولِه فَهِجْرَتُه إلى الله ورسولِه، ومَن كانت هِجرتُه لِدُنيا يُصيبها، أو امرأةٍ يتزوَّجُها، فَهِجْرتُه إلى ما هاجرَ إليه** "[١٥٣] ، فهذا الحديثُ النبوي يُبيِّنُ ضَرُورةَ أنْ يكونَ توجُّهُ الإنسانِ كُلِّيةً إلى الله تعالى، لأنَّ صلاحَه وصلاحَ أعمالِه جميعِها مُرْتَبِطٌ بذلك.

فالإخلاصُ لله تعالى قُطْبُ الرَّحى، في صَلاحِ الإنسانِ وعَمَلِه، لأنَّه بالإخلاص لله يَستقيمُ حالُ الإنسان، ويَتوافقُ فيه الإنسانُ مَعَ نفْسِه ووُجودِه، فَهُوَ سَوْفَ يَسيرُ في هذا الوجود، قَولاً وعَمَلاً من خلال الالتزام الذاتي، بِما يُرضي الله تعالى، وبذلك يَعلَم الإنسانُ، ويَستقرُّ في دَاخِلِه، أنَّ الإيمانَ بِالله تعالى وحدِه يُعدُّ ضَرُورةً حياتيةً، لا تَستقيمُ حياةُ الإنسان إلاَّ بها .

---

[١٥٣] البخاري، صحيح البخاري ، كتاب الإيمان ، باب ما جاء أن الأعمال بالنية والحسبة، ولكل امرئ ما نوى،حديث(٥٤) . ص٣١٢.

فالإنسانُ بِغَيْرِ هذه الضرورةِ سيكونُ في حالةِ عَدَمِ استقرارٍ، مِمَّا يَجْعَلُه غيرَ مؤهَّلٍ للاستجابة، ولا للقيام بالدَّور المطلوب منه. إنَّ علماءَ النَّفسِ يُؤكِّدُون على أهمية الدِّينِ في تَكامل النَّفس الإنسانيةِ وصلاحِها، وتقويمِ اعوجاجِها، ويؤمنون بِدَوْرِ العاطفةِ الدينيةِ، في تنظيمِ حياة الفَرْد والأسرةِ والجماعةِ، ودَفْعِ الشَّرِّ، ومُكافَحةِ الانحرافِ والأنانية ، وهِيَ آفاتٌ تُصيبُ النفس البشرية وتُخرِجُها عن طبيعتِها في البحث عن الخَيْرِ والسعادة، وتحقيقِ الطمأنينةِ التي تَهدِفُ إليها وتَنْشُدها كلُّ نفس.

وكذلك عند عُلَماء الاجتماع، "تُعَدُّ الوظيفة الاجتماعية للدين أساسَ الترابط الاجتماعي بين الناس، حيثُ يُنَمِّي الدِّينُ السلوكَ الاجتماعيَّ الإيجابيَّ لدى الإنسان، ويَرتقي بِمَشاعرِه وحواسِّهِ للحفاظ على تماسك المجتمع وتضامنه" [154] .

وقَدْ جاء في الحديث عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ حين سُئِلَتْ عن خُلُقِ الرسولِ ﷺ فقالت : **" فإنَّ خُلُقَ نبيِّ اللهِ ﷺكان القرآن "**[155]. أيْ أنَّ الرسولِ ﷺ قد تمثَّلَ القرآنَ، بأحكامه وتعاليمِه، والقِيَمِ التي حَوَاها بين دِفَّتَيْه، في كلِّ ما يَصْدُرُ عنه، وهذه جميعُها أساسُها الإيمانُ بالله تعالى والإخلاصُ له .

وهذا الوصف فيه دِلالةٌ للإنسانِ المسلمِ، على وُجُوبِ أنْ يَكونَ القرآنُ وسُنَّةُ الرسولِ ﷺ مُنطَلَقاً لِجميعِ سلوكياتِه وتصرفاتِه وأعمالِه وأقوالِه، اقتداءً بِمَنْ كان هذا وصْفُه، لِيَكونَ بحقٍ إنسانَ الواجب، الذي يسعى لِخَيْرِ البشرية وهدايتِها ـ كما كان أسلافُه ـ وذلك مِنْ خلال ارتباطٍ عُضويٍّ لا انفكاكَ له، بين العقيدة وبينَ مُقتضياتِها الأخلاقية .

" وهذا الارتباطُ بين العقيدةِ وبينَ مُقتضياتِها الأخلاقية، هو القِيمةُ الحضاريةُ الجَوْهرية في شريعةِ الإسلام، التي تَجْعلُ المجتمعَ المسلمَ مُجتمعاً مُتحضِّراً، حتى لو كان نصيبُه ضئيلاً من العِمارةِ الماديَّةِ للأرض" [156].

من هنا تظهر أهميةُ الاعتقاد بوحدانية الله تعالى في الجانب الأخلاقي، حيثُ يَجْعلُ الإيمانُ بالله تعالى الحقائقَ الأخلاقيةَ تعبيراً عن إيمانٍ حيٍّ صحيح، فَتَسْمُو تلك الأخلاقُ بِصاحِبِها عن الأنانية والأثَرَةِ، وتَفْرِضُ عليه تَبِعاتٍ وسلوكياتٍ، قد تتناقض مع مصالحِه الشخصية، ورَغَباتِه وأهوائِه.

---

[154] د. القاضي، نصر الدين مصباح ، منهج الإسلام في مواجهة التحديات الحضارية المعاصرة ، دار الفكر العربي ، ط١ ، مصر ، ١٤٢٣هـ ، ٢٠٠٢م . ص ٢١٢ ـ ٢١٣ .

[155] مسلم، صحيح مسلم ، كتاب صلاة المسافرين ، باب جامع صلاة الليل ، حديث (١٣٩) ، وهو جزء من حديث طويل . ص٥١٣

[156] محمد قطب، واقعنا المعاصر . ص ١٤٤

وقد بيّن محمد قطب دَوْرَ الإيمان بالله تعالى في الربط بين القيم الأخلاقية، والأحكام الشرعية في حياةِ المسلم حيثُ قال: " بالإيمانِ بالله تعالى، والإخلاصِ له، فإنَّ القيمَ الأخلاقيةَ تكونُ قدْ امتزَجَتْ امتزاجاً كاملاً مع الأوامر والنواهي الشرعية، وبهما يَصلُ الإنسانُ إلى أعلى درجات الإنسانية، من خلالِ التزامٍ خُلُقيٍّ مُنْبعِثٍ من الإيمان بالله تعالى "[157].

إنَّ الفصْلَ بين الإسلامِ وتصوُّرَاتِه وقِيَمِه، وبين الواقع الإنساني، يُوجد غُربةً وانفصالاً، بين الإنسانِ المسلمِ وبَيْنَ واقعِه، ويُوجِد اضطراباً وخللاً، يَترُك آثاراً سلبيةً كبيرةً، تجعلُ الإنسانَ المسلمَ المُلتزمَ دينياً يسير باتجاهٍ مُضادٍ لِلواقِع البعيدِ عن الالتزام الدِّيني.

في هذا الواقعِ يستنفِذُ المسلمُ الملتزمُ دينياً كثيراً من جُهودِه وطاقاتِه في محاولةٍ للتكيُّفِ مع هذا الواقع، الذي يتناقضُ في طبيعتِه مع التَّصوُّراتِ التي يتبنَّاها الإنسان المسلم .

لذلك حتى تستقيم الحياة لا بد من الانسجام التام بين الواقع بكل تشكيلاته وتنظيماتِه، وبين التصور الذي قرّره الإسلام للكون والإنسان والحياة ، من خلال صلة روحية يتكفَّلُ الإيمان بالله تعالى في إيجادها في حياة المسلم، ضماناً للاستقامة المطلوبة في جوانب الحياة المختلفة في المجتمع المسلم " لأنَّه لا يُمكنُ أنْ تستقيمَ حياةُ المسلمين إلا عندما تكونُ أنظمتُهم في الحُكْمِ والسِّياسةِ والاقتصادِ والاجتماعِ نابعةً من التَّصورِ الذي جاء به الإسلامُ للكون والإنسان والحياة، وبوجودِ صِلةٍ رُوحيةٍ بين المسلم وتلك الأنظمة "[158] .

الإيمان بالقضاء والقدر وعلاقته بالسببية والتوكل :

إنَّ علاقة الإنسان بهذا الوجود ، وطريقة تعامله مع مكونات هذا الوجود، تأثُّراً وتأثيراً، مُرتبِطةٌ في أحَدِ وجوهِها بإدراكِ الإنسان وفَهْمه لِرُكْنِ " القضاء والقَدَر ".

إنَّ عملَ الإنسانِ وتصرُّفَه ناشئٌ عن تَصوُّرِه، فَهُوَ يَنطلقُ من هذا التصورِ لتحقيق أهدافِه، ويتَّخذُه مَنهجاً وطريقاً، في كل ما يتعلَّق بحياتِه، وما يَلْقاه فيها، وما ينتهي إليه نَصيبُه منها، مؤمناً بقُدرةِ الله تعالى، وحِكْمتِه، وعَدْلِه، وبأنَّ مآلَ الأمورِ كُلِّها إليه. ولذلك فإنَّ الإيمان بالقضاء والقدر،

---

[157] د. عويس، عبد الحليم، ثوابت ضرورية في فقه الصحوة الإسلامية، دار الصحوة للنشر،ط١، القاهرة،١٤١٤هـ، ١٩٩٤م. ص٩٩

[158] ضناوي، محمد علي، مقدمات في فهم الحضارة الإنسانية، مؤسسة الرسالة، ط١ ، بيروت، ١٤٠٠هـ، ١٩٨٠م. ص٣٠

كان قوةً دافعةً وإيجابيةً للمسلمين في العهد الإسلامي الأول، أعانهم على مُواجهةِ التَّحدِّياتِ والصِّعابِ والتَّغلُّبِ عليها، فلَمْ يستسلِموا لها، ولَمْ يَعجَزوا أمامَها . وقد جاء في الحديث عن الرسولِ ﷺ أنه قال: " **لا يُؤمِنُ عَبدٌ حتى يُؤمِنَ بالقَدَرِ خَيْرِه وشَرِّه، حتَّى يَعْلَمَ أنَّ ما أصابَه لمْ يَكُنْ ليُخْطِئه، وأنَّ ما أخطَأه لمْ يَكُنْ ليُصيبَه** "[١٥٩] ، وبمقتضى هذا الحديث فإنَّ على الإنسان المسلم أنْ يسير في حياتِه باطمئنان وثقةٍ بما قدّره الله تعالى له، فلا يصيبُه الجَزَع، ولا يستسلم لليأسِ إنْ أصابه شرٌّ أو سُوء، وبالمقابل فإنَّ عليه أنْ يُحسن التعامل مَعَ ما أصابه من الخير والنعيم.

إنَّ الإيمان " بالقضاء والقدر، يُوجِدُ عند المسلم يقيناً ثابتاً بأنَّ هذه الحياة، وهذا الوجودَ، يَسيران بِمُقتضى السُّننِ والقوانين التي أودعها الله تعالى فيهما؛ فَالخالِقُ لهذا الوجودِ هو اللهُ تعالى، وهُوَ مَنْ قدّر كلَّ شيءٍ، وهُوَ مَنْ جعلَ الأسبابَ طريقاً لِوُقُوعِ ما قدّره وقضاه، فَهُوَ الخالقُ وَحْدَه للأسبابِ ونتائجِها، وِفق علمِه السابق بها أزَلاً، وهو الفاعلُ المُختارُ القادرُ على ألاّ يجعلَها أسباباً، كما هو القادرُ على مَنْعِ النتائجِ من الأسبابِ لو أراد، كما هو قادرٌ على أنْ يَخلُقَ الأشياء من غير أسباب. وهذا هو مفهوم القدر والسبب في فهم المسلم وإيمانه "[١٦٠].

والمسلم في هذا التصوُّرِ لمفهوم(القضاء والقَدَر)لا يجد تناقضاً بين الإيمان بالقَدَرِ، وبين الأخذِ بالأسباب؛ فالإيمانُ بالقضاءِ والقَدَرِ لا بُدَّ منه، والأخذُ بالأسبابِ عَمَلٌ لا بُدَّ مِنه، وأخْذُ المسلمِ بالأسبابِ عِبادةٌ يتقرَّب بها إلى الله تعالى .

حيث يُجسِّد الإيمانُ بالقضاء والقدر ـ حسب التصور الصحيح ـ دافعاً للإنسان في السَّيْر في الأرض وعمارتِها، لكي ينطلِقَ باحثاً عن السُّنن الكونية، التي تَجري حياةُ البشرِ وِفْقَها، سعْياً لاكتشافها والعَمَلِ بها . وبِذلك تَسيرُ الحياةُ بالشكل الصحيح، من خلال التَّوكُّل على الله تعالى، أخْذاً بالأسباب، وعمَلاً بها .

هذا التصوُّرُ المتعلِّق بعقيدة القضاء والقدر، أصابه تغييرٌ وانحرافٌ، بعدَ عهدَي النبُوّة والخلافةِ الراشدة حيثُ انقلب مفهومُ الإيمان " بالقضاء والقدر " كرُكْنٍ من أركان الإيمان، دالّ

---

[١٥٩] الترمذي، الجامع الكبير، كتاب القدر، باب ما جاء في الإيمان بالقدر خيره وشره، حديث(٢١٤٤)، وقال: هذا حديثٌ غريب لا نَعرِفه إلاّ من حديث عبد الله بن ميمون، وعبدُ الله بن ميمون مُنكَرُ الحديث . ٢٢/٤ . صحَّحه الألباني . الألباني، صحيح سنن الترمذي ٤٤٦/٢ . ولشطره الأول شاهد عن عبد الله بن عمرو، أخرجه الطبراني في الأوسط ، وقال : لم يرو هذا الحديث عن أبي يونس إلا زافر، تفرّد به : ابن أبي غسان. الطبراني، المعجم الأوسط حديث (٧٠٤٣) . ص٢٤٨٣ . (١٢٢/٦) .

[١٦٠] د . شريف الخطيب وراجح الكردي ، بحث " بين الإيمان بالقدر والأخذ بالأسباب ، دراسة عقدية تطبيقية " المجلة الأردنية في الدراسات الإسلامية ، جامعة آل البيت ،المجلد الثاني ،العدد (١) ،صفر١٤٢٧هـ، ٢٠٠٦م . ص١١.

على عِلْمِ اللهِ الواسعِ،والسابقِ، ليُصبح الإيمانُ" بالقضاء والقدر" عُنواناً للعَجْز والكَسَلِ، وتَرْكِ العمَلِ وإهمالِ الأَخْذِ بالأسباب، وعُنواناً لِتبريرِ الأخطاء المتُعمَّدة، حتى يُعفيَ الإنسانُ نفسَه من المسؤولية، عن إهمالِه الأخذ َبالأسباب في كل شيء .

فقد تأثر عملُ الإنسانِ المسلمِ وسعيُه في هذه الحياة ـ بعد العهد الإسلامي الأول ـ بفهْمِه وتفسيرِه لِكُلٍّ مِنَ (الجَبْرِ) و(الاختيار). " حيث فُسِّرَ كلٌّ من (الجبر) و (الاختيار) على أنَّهما نقيضانِ لا يجتمعان ـ مِنْ كثيرٍ مِنْ فِرَقِ المسلمين ـ وهُوَ ما أوقَعَ جُمْهورَ المسلمين في دائرة الصراع القائمِ بينَ أصحاب الفِكرتَين "[١٦١]، وقدْ بقِيَتْ هذه النظرةُ مُتوارَثةً حتى العَصْرِ الحاضرِ، وتَرَكتْ آثارَها السَّيِّئةِ على واقع المسلمين.

ويمكنُ القولُ، إنَّ نقطةَ البداية في الانحراف الذي أصاب مفهوم " القضاء والقدر" قدْ جاءت من البحث في قضايا غَيْبِيَّةٍ، كانَ الواجبُ على كل مسلم التسليمَ والإيمانَ بها، فصار أكثرُ المسلمين يَبْحثُون في عِلْمِ الله تعالى السابقِ، وما قدَّره من المقادير، ليأخذوا من ذلك أنَّ مصيرَ الإنسانِ مُقرَّرٌ قبل أنْ يُخلَق، وبناءً على ذلك فالإنسانُ ـ عند القائلين بالجَبْرِ ـ مُسَيَّرٌ وهو غيرُ مسئولٍ عن أفعاله .

وقد اتَّخذ بعضُ المسلمين مِنَ القوْلِ (بالجَبْرِ)سِلاحاً ليُبرِّروا التقصيرَ، والعجزَ، وارتكاب المعاصي والذنوبِ، فَرَكَنُوا إلى الكَسل َوالسلبية، بِحُجَّة أنَّ الإنسانَ مُسيَّرٌ وليس مخيَّراً، وأنَّ كلَّ ما يقوم به، قد سَبَقَ في عِلْمِ الله تعالى أنَّه سيقع منه . " كلُّ ذلك أدّى إلى الخَلْط بين القدر كَرُكْنٍ من أركان الإيمان، وبين الحُرِّيَّة والفِعْلِ الإنساني، وإرادةِ الإنسان، ومسؤوليتِه عن فِعْله، وما ترتَّب على ذلك من انحرافات فكرية ، وانقسامات سياسية"[١٦٢]

لقدْ كانت نتيجةُ هذا الأمر اتجاه الإنسانِ المسلم إلى مجالٍ آخرَ غير المجال المُخصَّص له، فأفسدَ وأساءَ، حيثُ صَرَفَ عقْلَه وتفكيرَه للبحث في الجانب الغَيْبيِّ من رُكْن " القضاء والقَدَر" والمُتعلِّق بِعِلْم الله تعالى الواسعِ والسابقِ لِما قضاه وقدَّره، وذلك بَدَلاً من الاجتهاد والبحث، والسَّعْي لاكتشافِ سُنن هذا الكون وقوانينه .

وحين الْتَبَسَ على بعضِهم مفهومُ" القدر" بِمفهومِ مسؤولية الإنسان عن فعله، وحُرِّيَّته في أدائه، اشْتدَّ إنكارُ الرسول ﷺ وتحذيرُه من الأسلوب والمنهج الذي جرى تناولُ القَضِيَّةِ بناءً عليه،

---

[١٦١] د. حافظ ، أشرف، الجبر والاختيار في الفكر الإسلامي، دار النخلة ، ط١ ، ليبيا ،١٩٩٩م ,ص ٨١ .

[١٦٢] العلواني، إصلاح الفكر الإسلامي بين القدرات والعقبات . ص٢٧ .

والذي يؤدي إلى الكَسَلِ، ويُفْقِدُ الإنسانَ المسلمَ الإحساسَ بتكريمِه، وحُرِيَّةِ اختيارِه لفعله، ويُفقِدُه الشعورَ بمسؤوليته التي تُعتَبَرُ ثمرةَ حُرِّيتِه، وتجعلُه عاجزاً مُشَوَّشاً نتيجة لذلك الخلط بين جانِبَي الغيب والشهادة.

بحيث يعجزُ عن تحديد الإطارِ المرجعيِّ السليم ، الذي يسمح بالنقد والمراجعة والضبط والتقويم لأفعاله، ويبدو ذلك - واضحاً - في جملة الأحاديث الصحيحة، التي عالجتْ قضية "القدر" بِمَدىً لا يُفقِدُ الإنسانَ حُرِّيةَ الاختيار، بل يؤكدُ إرادةَ الإنسان، ومسؤوليَّتِه .

وحِينَ حاولَ بعضُهم أنْ يَفهمَ من التوكُّلِ إهمالَ الأسباب، صحَّحَ الرسول ﷺ ذلك، ونبَّه إلى أنَّ الأخذَ بالأسباب جُزْءٌ من مفهوم التَّوكُّلِ، بلْ هو التوكلُ عينُه، فَقَالَ لصاحب الناقة التي تَرَكها دون أنْ يَعقلَها، ظاناً ذلك من التوكل " **اعْقِلْها وتَوَكَّلْ** " [163].

فما أوضحه الرسول ﷺ لذلك الأعرابي، مِنَ الاعتقادِ الصحيحِ، الذي يَجبُ على المسلم أنْ يُؤمنَ به، ويَجعلَه منْهجاً له في حياته . فقد بيَّنَ له معنى " التوكُّل "، بأنَّ الأخذَ بالأسباب جُزْءٌ من التوكل، وذلك لأنَّ تَرْكَ الأخْذِ بالأسبابِ هو فسادٌ في العقيدة، وضَلالٌ وضَياعٌ في السعي.

وقد أرْشَدَ الأعرابيَّ إلى الرُّؤيةِ البيِّنةِ الواضحةِ، ولزيادة توضيحِ ذلك المفهوم، فقد بيَّن الرسول ﷺ أنَّ المسلمَ لو توكَّل على الله حقَّ توكُّلِه، لَرُزِقَ كما يُرْزَقُ الطير، ويَجبُ عليه السعي والعمَلِ طَلَباً للرزْقِ، وأن الرِّزق وإنْ كانَ مُقدَّراً من الله تعالى لكلِّ مخلوقٍ قَبْلَ أنْ يُخلَقَ، إلاَّ أنَّ هذا الرِّزْقَ المُقدَّر حتى يَتِمَّ؛ لا بُدَّ من الأخْذِ بأسبابه، وهذا هو التوكُّلُ الحقيقي، حيثُ قال الرسولُ ﷺ :" **لَوْ أنَّكم كُنْتم تَوَكَّلُون على اللهِ حقَّ توكُّلِه، لرُزِقْتم كما يُرْزَقُ الطيرُ، تَغدو خِماصاً وتَرُوحُ بِطاناً** " [164]. فالطَّيرُ لمْ يَتوقَّفْ عن الغُدُوِّ والرَّواحِ لِطلبِ الرِّزْق، وما رُزِقَ الطيْرُ إلاَّ بعد سعْيِه في طلبِ الرِّزْق، فالإنسانُ أوْلى من الطير في ذلك [165].

وفي ذلك كله ، يطلب الرسول ﷺ من المسلم بأنْ يأخذَ بالأسباب في كل أمر ، مع عِلمِهم بأنَّ كلَّ شيءٍ مُقدَّرٌ من الله تعالى ، ولا يكون التوكُّلُ على الله إلا بذلك، فإذا كان الطيرُ لا يُقارِن

---

[163] الترمذي، الجامع الكبير، ابواب صفة القيامة ،باب (٦٠) ، حديث (٢٥١٧) . قال عمرو بن علي، قال يحيى: وهذا عندي حديث منكر. وقال الترمذي : وهذا حديث غريب من حديث أنس لا نعرفه إلا من هذا الوجه ٤/ ٢٨٥ .وحسّنه الألباني . الألباني، صحيح سنن الترمذي ٢/ ٦١٠ .

[164] الترمذي، الجامع الكبير، كتاب الزهد ، باب في التوكل على الله ، حديث (٢٣٤٤) . وقال : هذا حديث حسن صحيح ، لا نعرفه إلا من هذا الوجه . ٤/ ١٦٦

[165] العلواني، إصلاح الفكر الإسلامي بين القدرات والعقبات . ص ٣٤-٣٥ .

بالإنسان ـ الذي كرَّمه الله ، والذي استخلفه في الأرض ـ قد ألهمه الله تعالى إلى الغُدُوّ والرَّواح لتحصيل رزقه ، فلا شك أنّ الإنسان مطلوبٌ منه ذلك بنص الحديث ، بالتوكل على الله حق توكُّله ، لأنّ التوكل على الله تعالى ، مصدرٌ من مصادر قوة المسلم ، فهو وسيلةُ إدراكه وتعامله مع الكليّات الربّانية في الكون والحياة ، من منطلق الثقة واليقين .

فالتصورُ الذي جاء به الإسلام لِمفهوم القضاء والقدَر يعني في أحَدِ وجوهِه؛ أنَّ هذه السنن والقوانينَ التي أودعها الله تعالى في هذا الوجود، والتي تسير الحياة بناءً عليها، تدلُّ على أنَّ الكونَ بكلِّ ما فيه يَسيرُ وَفْقَ نظامٍ صارمٍ دقيقٍ، فلا مَجَال للفوضى في تسيِيره. وقدْ أمرَ الله تعالى الإنسانَ بالسَّيْر في الأرض، لكي يكتشفَ تلك السنن والقوانين ويُسخِّرَها لِنَفْسِه.

ولَقدْ أجابَ الرسولُ ﷺ السائلَ الذي سأله عن فائدة العمل إذا كان المصيرُ معلوماً، أجابَه بأنَّ عليه العمل، حيث إنَّ المطلوبَ السعيُ لَما هو مُيسَّرٌ له ، و السعيُ لِما خُلِقَ له . ففي الحديث الذي رواه البخاري عن عمران بن الحصين ،قال : **قال رجلٌ : يا رسول الله، أيُعرَفُ أهلُ الجنة من أهل النار ؟ قال : "نعم" . قال : فلِمَ يَعْملُ العاملون ؟ قال : " كلٌّ يَعملُ لِما خُلِق له، أو لِما يُسِّر له "** [166]، فهذا الحديث يُبَيِّنُ عِلمَ اللهِ السابق والواسع، حيث قال: **" كلٌّ يَعملُ لِما خُلِق له، أو لِما يُسِّر له "**، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فيه إخبارٌ بأنَّ أهلَ الجنة يُعرَفون من خلال أعمالهم، وأنَّ أهلَ النارِ يُعرفون من خلالِ أعمالِهم .

إنَّ المتأمِّلَ لهذا الحديث، يَجِدُ أنَّ الرسولَ ﷺ قد صَرَف السائلَ عن أمْرٍ غَيْبيٍّ ـ وهُوَ عِلْمُ اللهِ تعالى المُتعلِّقُ بمقاديرِ الخلائق ومصيرِهم ـ الذي لا ينبغي أنْ يُشغِلَ نَفْسَه فيه، إلى أمْرٍ مطلوبٍ مِنْه ومِنْ غيره ـ وهو العَمَل ـ فلا ينبغي أنْ ينشغل عن المطلوب بغيره .

ولذلك أمَرَ الرسولُ ﷺ السائلَ بِالعَمَلِ مع إخباره بِعِلْم الله تعالى المطلق لما قضاه وقدّره. وبناءً على هذا التصوُّر، يُفسَّرُ بأنَّ ما قضاه الله وقَدَّرُه على العباد مِنَ المعاصي والذنوب؛ قد قضاه وقدَّره على وجه الخَلْق والإخبار والإعلام، وليس على وجْه الحُكْم والأمْرِ والإرادة.

وقد أوضح ذلك ابن أبي العز الحنفي، حيث قال : " والمحقِّقون من أهل السنة يقولون: الإرادة في كتاب الله نوعان: إرادة قدرية كونية خَلْقية، وإرادةٌ دينية أمرية شرعية، فالإرادة الشرعية هي

---

[166] البخاري، صحيح البخاري، كتاب القدر ، باب جف القلم على علم الله ، حديث (٦٥٩٦) . ص ٢٩١٧

المتضمنة للمحبة والرضا، والكونية هي المشيئة الشاملة لجميع الموجودات. وهذا كقوله تعالى: { ...وَلَـكِنَّ اللّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ } [١٦٧].

وأما الإرادة الدينية الشرعية الأمرية، فكقوله تعالى : { وَاللّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلاً عَظِيماً{ } يُرِيدُ اللّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفاً }[١٦٨] ، فهذه الإرادة هي المذكورة في مثل قول الناس لمن يفعل القبائح: هذا يفعل ما لا يريده الله، أي: لا يحبه ولا يرضاه ولا يأمر به. وأما الإرادة الكونية، فهي الإرادة المذكورة في قول المسلمين: ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن " [١٦٩]

إنَّ مَعرفةَ كلٍّ من أهلِ الجنة، وأهلِ النار من خلال أعمالهم في الدنيا؛ قد جاء بيانُه صريحاً عن الرسول ﷺ، من خلال الآيات الواردة في روايةِ مسلم أنَّ الرسول ﷺ قال :" **ما منكم من نفس إلا وقد عُلِمَ منزِلُها من الجنة والنار " . قالوا : يا رسول الله ! فَلِمَ نعملُ؟ أفلا نتَّكِلُ؟ . قال : "لا ، اعملوا فكلٌ مُيسَّرٌ لما خُلِقَ له " ثم قرأ : " فَأَمَّا مَن أَعْطَى وَاتَّقَى {٥} وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى {٦} فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى {٧} إلى قوله : فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى {١٠}**[١٧٠] " [١٧١] .

فهذا الحديث يُبيِّن الرسول ﷺ فيه ، أنَّ أهل الجنة يُعرَفون، كما أنَّ أهل النار يُعْرَفون، وأنَّ الله تعالى يُيَسِّرُ للإنسان سعيه، سواء لليُسرى أم للعُسرى، من خلال أعمالٍ يَعملُها .

والحديث يدلُّ على التصورِّ الصحيح لِمفهوم القضاء والقَدَر، فالسعيُ هنا من الإنسان عن اختيار وإرادة، وذلك قد سبَقَ عِلْمُ الله فيه، كما بيَّنت ذلك الآيات الواردة التي قرأها الرسول ﷺ. وبناءً على ذلك، فَعلى المسلمِ العَمَلُ والأخذُ بالأسباب المُوصِلة لِما قدَّره الله وقضاه. " وفي التصوُّرِ الإسلامي للقضاء والقَدَر، فإنَّ نِسْبةَ الأشياء لله تعالى هي نِسْبةُ الخَلْق والتقدير والمشيئة والكتابة، ونِسْبتُها لِلعبد نِسْبة الفِعْلِ والكَسْبِ والسبب " [١٧٢].

---

[١٦٧] سورة البقرة، الآية ٢٥٣ .

[١٦٨] سورة النساء، الآيتان ٢٧-٢٨.

[١٦٩] ابن أبي العز الحنفي، شرح العقيدة الطحاوية ،ص ٥٦-٥٧. تحقيق: جماعة من العلماء، المكتب الإسلامي، بيروت، ط٨، ١٤٠٤هـ ١٩٨٤م،

[١٧٠] سورة الليل ، الآيات ٥-١٠ .

[١٧١] مسلم، صحيح مسلم ، كتاب القدر ، باب كيفية خلق الآدمي ، حديث (٢٦٤٧) . ص٢٠٤٠ .

[١٧٢] د .الخطيب والكردي ، بحث " بين الإيمان بالقدر والأخذ بالأسباب ، دراسة عقدية تطبيقية " .ص ١٧ .

والخلاصةُ فيما يجب على المسلم، بناء على التصور الصحيح لِمفهوم القضاء والقدر، أنْ يَعلَمَه، ويَعملَ به، جاء بيانُه على لسان الإمام جعفر الصادق ـ رحمه الله ـ " إنّ الله تعالى أراد بنا شيئاً، وأراد مِنّا شيئاً، فما أرَادَه بِنا طَوَاه عنّا، وما أرادَه مِنّا أظْهَرَه لنا . فَمَا بالُنا نشتغلُ بِمَا أرادَه بِنا عمّا أرادَه مِنّا؟! "[173]

وتَظْهرُ أهمّيةُ الإيمانِ بالقضاءِ والقَدَرِ، من خلال الإيجابية التي يتعاملُ بها الإنسانُ المسلم، مع ما يَعترِضُه من أحداثٍ ومَصاعِبَ في حياتِه، وما يترتَّبُ عليها من نتائج وعواقب . فإذا سعى، وبَذَلَ غايةَ وُسْعِه وطاقتِه، دُونَ أيّ تقصيرٍ أو خَلَلٍ، ثمّ جاءت النتيجةُ على خِلافِ المأمولِ والمُتوقَّعِ، لم ييأسْ ولم يقْنطْ ، بل يَستمِرُّ في محاولته ليتجاوزَ عثرتَه، باحثاً عن أسباب الفَشَل، مِنْ خِلالِ المُساءلة والمحَاسبة. وإذا أخَذَ بالأسبابِ وعَمِلَ بها، وتحَوّطَ في ذلك، وجاءه ما يتمنّاه وسَعَى إليه، ورضيَ به؛ كان ذلك كُلُّه مِن القَدَر، وهو في كل ذلك مُطمئِنٌ لما قدّره الله له ، حريصٌ على العمل بما ينفعه، مستعيناً بالله تعالى. وهذا هوَ التصوُّرُ الصحيح لِلقَدَرِ، انْطِلاقاً مِنَ الحديث النّبَوِيّ الذي رواه ابنُ عُمَرَ ـ رضي الله عنهما ـ أنّ رسولَ الله ﷺ قال :" **كلُّ شَيءٍ بِقَدَرٍ. حتى العَجْزِ والكَيْسِ، أوْ الكَيْسُ والعَجْزُ** "[174]

وهذا المسلم لا يستسلمُ للواقع، ولا ييأسُ، ولا يَدَعُ مَجالاً لِليأسِ ليتسرَّبَ إلى قلبه، ولا يَتْرِكُ المجالَ للشيطان ليقذفَ في قلْبِه الأوهامَ والوساوسَ، التي قدْ تَجْعلُه يقْنطُ مِن رحمةِ الله، بل يحاول تغييرَ هذا الواقع، مُتمثّلاً بما ورد عن الرسول ﷺ فيما يجب أنْ يتّصِف به المؤمن من القوّة، حيث قال : " **المؤمنُ القويُّ خيْرٌ وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كُلٍّ خير . احْرِصْ على ما يَنْفعُكَ، واستعن بالله، ولا تَعْجَزْ . وإنْ أصابك شيءٌ فلا تقل : لو أنّي فعلت كان كذا وكذا. ولكنْ قُلْ : قَدَرُ الله، وَمَا شَاءَ فَعَل. فإنّ لو تفتح عمل الشيطان** " [175]

مِنْ أوصاف المؤمنِ أنّه إيجابيٌّ بِقوّتِه وعَمَلِه، وكُلّما كان المسلمُ إيجابياً في تعامله مع الواقع، بالحِرْصِ على التغيير نحوَ الأحسنِ والأفضل، بما يَمتلكُ من الأسباب، مُطمئناً إلى ما قدّره الله تعالى له، كان قوياً، وكان أحبَّ إلى الله تعالى مِنَ المؤمن الضعيف، لأنّه أكثرُ امتثالاً لأمْرِ الله تعالى، بما أخذ من أسباب القُوّة . وبإقْدامِه على مُواجَهةِ العَقَباتِ والتّحدّيات، وبِجِدّيّتِه في العمل، وبِسَعْيِه في الأخذِ بالأسباب وتسخير السُّنَنِ، تَكونُ قوّةُ المسلم، وتَكونُ قُدرتُه، ويَكونُ إبداعُه،

---

[173] د. حافظ الجبر والاختيار في الفكر الإسلامي ، دار النخلة ، ط١ ، ليبيا ،١٩٩٩م ,ص٥١

[174] مسلم، صحيح مسلم، كتاب القدر، باب كلُّ شيءٍ بقدر، حديث(٢٦٥٥) ٢٠٤٥/٤.

[175] مسلم، صحيح مسلم ، كتاب القدر ، باب في الأمر بالقوة وترك العجز ...، حديث (٢٦٦٤) . ص٢٠٥٢.

ويَكونُ عطاؤه ، وعندئذٍ يَكون مُستحِقاً لوعد الله سبحانه وتعالى بتَمْكينِ المؤمنين، وتأييدِهم، ونَصْرِه لَهم.

الإيمان باليوم الآخر :

إنَّ الإيمان باليوم الآخر اقترن في كثير من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، بالإيمان بالله تعالى، باعتبار أنَّ الإيمان بالله تعالى لنْ يَتحققَ أثَرُه في حياةِ المُسْلمِ، وحياةِ الأمة، إلا بالاعتقاد الجازم باليوم الآخر. ويُمكنُ القولُ إنَّ الإيمانَ باليومِ الآخرِ يُمثِّلُ المؤشِّرَ الذي يُحدِّدُ سَيْرَ اتجاه المسلم في هذه الحياة، وصولاً إلى السعادة في الدَّارَيْن ، الدنيا والآخرة .

لقد بيَّنَ الحقُّ - سبحانه وتعالى - أنَّ اختلاف الجزاءِ والحالِ في الدَّارَيْنِ للإنسانِ، مُرْتَبِطٌ بهذا الركن من أركان الإيمان، مَنْ أيْقنَ باليوم الآخر، ومَنْ أنكره وكَفَرَ به . وهذا البيانُ القرآنيُ لهذه القضية، يَدُلُ على أنَّ رُكْنَ الإيمان " باليوم الآخر" هُوَ الذي يُحدِّدُ مَصيرَ الإنسانِ ومآله في الدُّنيا والآخرة، لأنَّ سُلوُكَ الإنسان وعَملَه وجميعَ سَعْيِه في الحياة الدنيا؛ يُحدِّدُه الاعتقادُ بهذا الرُّكْنِ من أركان الإيمان خاصةً . قال تعالى: **{إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ{٤} أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ{٥}**[١٧٦]

إنّ للإيمان باليوم الآخر أهمية كبيرة في حياة الإنسان المسلم، وذلك لِمَا يترُكه من أثرٍ شديد الفاعلية، بحيث تُصبَغُ حياةُ الإنسان المسلم كلُّها بالأثر الذي يتركه الإيمان باليوم فيها. وإنَّ حِرْصَ الإنسانَ المسلمَ على القيام بالأعمال التي تقرِّبُه إلى الله تعالى، واجتنابِ المعاصي، هوَ نتيجةٌ لِما استَقرَّ في قَلْبِه، وعَقْلِه، وتفكيرِه مِنْ حقيقةِ البعثِ والحسابِ، والثوابِ والعِقاب.

وثمرةُ ذلك، سَعْيُ الإنسانِ إلى البناء وعِمَارة الأرض، والخيرِ والإصلاحِ، لأنَّه إنسانٌ أُخرَوِيٌّ في تَوجُّهاتِه وأعمالِه، يبتغي رِضوانَ الله تعالى، في كلِّ شأنٍ مِنْ شُئُونِ حياتِه، وهذا ما يَجعلُه في سَعْيِه بعيداً عنْ مُحاوَلاتِ الهَدْمِ والخَرَابِ، والشَّرِّ والإفسادِ؛ ولذلك تكرَّر في القرآن وفي السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ تذكيرُ الإنسان بالآخرةِ، والبَعْثِ، والحِسابِ، والجَزاءِ .

وقد أوضح ذلك محمد قطب حيث قال : " وهذا التَّذكيرُ باليومِ الآخرِ هَدَفُه وغايَتُه؛ أنْ يَكُونَ مُعِيناً للإنسان على ضَبْطِ شَهْواتِه، والالتزامُ فيها بالحُدُودِ التي بيَّنَها الله، والتي يَعْلَمُ - سُبْحانَه - أنَّ

---

[١٧٦] سورة النمل، الآيات ٤-٥ .

فِيها الأمنَ والأمانَ والفَلاَحَ. وأنَّ الالتزامَ بها هو الذي يَرْفَعُ النَّفسَ الإنسانية ويُعْلِي شأنها ومَكانتَها عِنْد الله وعِنْد الناس، وهذا الالتزامُ يُعينُها على عِمَارةِ الأرضِ بِمُقتضى المَنْهجِ الرَّبّاني "[177].

خلق الله في النفس البشرية دوافعَ فِطْريةً قويَّةً مُتأصِّلةً؛ لِتكونَ هذه الدَّوافعُ حَوافزَ لِلعمَلِ والنَّشاطِ والإنتاجِ، وعِمارةِ الأرضِ، ولِيَستطيعَ الإنسانُ الصمودَ أمامَ هذه العَقَباتِ، والتَّغَلُّبِ عليها. وقدْ وَضعَ الله في الفِطرةِ ضوابطَ تَضبِطُ هذه الشهواتِ حتى لا تَطْغى؛ فَلا يملكُ الإنسانُ نفسَه بطُغيانِها. وهذه الضَّوابطُ تُجعَلُ الشَّهواتِ مُنضبِطةً مُمكنةَ القِيادِ، مِنْ خلال تذكيرِها باليوم الآخر.

إنَّ تلكَ الدوافعَ أو الشَّهواتِ إذا طَغَتْ وتَمرَّدتْ على صاحِبِها؛ أوْرَدَتْه إلى التَّهْلُكةِ والمصيرِ السَّيِّئ، وصار إنساناً شهوانيّاً، ساعياً إلى الفسادِ والإفساد والخَراب. لذلك حتى تنضبطَ تلك الدوافِعُ والشَّهواتِ، وحتى تصيرَ عامِلَ بِناءٍ وإصلاحٍ، لا عامِلَ خرابٍ وإفساد، كان لا بُدَّ مِنْ غرْسِ الإيمانِ باللهِ وباليوم الآخر في النَّفسِ الإنسانية .

مِنْ خلالِ الإيمان بالله وباليوم الآخِرِ ـ وذلك عندما يَستقِرّانِ في القَلْبِ، وفي النَّفسِ الإنسانية ـ عندها تَصيرُ المُوازَنةُ حينئذٍ، بَيْن مَتاعٍ هنا في الدنيا، زائفٍ زائلٍ، وبَيْن مَتاعِ هناك في الآخرةِ، خالدٍ لا يزول. وحِينَ تُوضَعُ المُوازَنةُ بِهذه الصورةِ، فإنَّ الإنسانَ العاقِلَ إذا كان مُؤمِناً لنْ يُضَيِّعَ النَّعيمَ الخالدَ في الآخرةِ، طَلَباً لِلنَّعيمِ الزَّائلِ في الحياة الدُّنيا .

وبِهذه المُوازَنةِ، فإنَّ هذا الإنسانَ سيُحاولُ جُهْدَه الابتعادَ عن العذابِ الأليمِ الذي لا يُطاقُ في الآخرةِ، اتقاءً لألَمٍ مُؤقَّتٍ لا يلْبَثُ أنْ يزول في الدُّنيا ! لذلك كان التركيز الشديد على عقيدة اليوم الآخر.. لأنَّها هي الثقل الذي يُعادِل جاذبيةَ الشهواتِ وطُغيانِها .

" إنَّ المؤمنَ مُكلَّفٌ في الأرضِ بِتكاليف كثيرةٍ، فهُوَ مُكلَّفٌ بإقرارِ مَنْهجِ الله في الأرض، لِتكونَ كلمةُ الله هي العليا، ولا بدَّ مِنْ جِهادٍ لإقرارِ مَنْهجِ الله، جِهادٍ يَحْرِمُ الإنسانَ مِنَ المَتاعِ المُباحِ، ويُعرِّضُه لأنْ يَفقِدَ مالَه، أو راحتَه، أو أمْنَه، أو أهلَه. بلْ قدْ يُعرِّضُه للتَّعذيبِ، والتَّشْريدِ، فماذا يُعَوِّض المؤمنُ عن ذلك كُلِّه؟ لِذلك كان التذكيرُ الدائمُ لِلمؤمنين باليوم الآخرِ حتى تستقيم حياة الإنسانِ في الأرض "[178].

وهذا الذي تَمَّ ذِكْرُه، قدْ يُصوِّرُه ويُبيِّنُه أصْدَقَ تَصْويرٍ وأتمَّ بيانٍ، الحديثُ النَّبَويُّ الوارد في السَّبْعةِ الذين يُظِلُّهم الله في ظِلِّه، يَوْمَ لا ظِلَّ إلاَّ ظِلُّه، قال رسولُ الله ﷺ : " **سَبْعَةٌ يُظِلُّهمُ اللهُ في ظِلِّه، يوْمَ لا ظِلَّ إلاَّ ظِلُّه : الإمامُ العادلُ، وشابٌّ نشأ في عِبادةِ رَبِّه، ورَجُلٌ قَلْبُه مُعَلَّقٌ في المساجد، ورَجُلانِ تَحَابَّا في الله، اجتَمعا عليه وتَفَرَّقا عليه، ورَجُلٌ طَلَبَتْه امرأةٌ ذاتُ مَنْصِبٍ**

---

[177] محمد قطب، واقعنا المعاصر . ص ١١٩ .

[178] محمد قطب، دراسات قرآنية . دار الشروق ، ط٨ ،القاهرة ، ١٤٢٥هـ ٢٠٠٤م .ص ٦٧ ـ ٧١ .

وجمالٍ، فَقَالَ إنّي أخافُ الله، ورَجُلٌ تَصدَّقَ، أخْفى حتى لا تَعْلَمَ شِمالُه ما تُنْفِقُ يَمِينُه، ورَجُلٌ ذَكَرَ الله خالياً، فَفاضَتْ عَيْناه "[١٧٩]

إنَّ هؤلاء السَّبْعَةِ قَدْ حَرَموا أنفُسَهم، مِنْ كثيرٍ من المتاعِ الدُّنيَويِّ الزائلِ، الذي تَطلُبه النَّفسُ الإنسانيةُ، سواءً أمُحَرَّماً كان هذا المتاعُ الدُّنيويُّ أم مُباحا، لم يَتْرُكوا ذلك كُلَّه، إلاَّ لأنَّ حقيقةَ الإيمانِ بالله وباليوم الآخر قَدْ اسْتَقرَّتْ في قُلوبِهم. ولمْ يُقْبِلوا على الخَيْرِ، وعلى طاعةِ الله، وعلى مُخالَفةِ شَهَواتِهم إلاَّ لِذاك . وهم يَعْلَمون أنَّ مَرْجِعَهم ومآلَهم إلى الله تعالى، وأنَّهم مَسْئولون، ويُحاسَبون، ويُجازَوْنَ عن أعمالِهم، فَهُم طَلَباً لِحُسْنِ الخاتِمةِ، فَعَلوا ذلك كُلَّه .

فالإيمانُ باليومِ الآخِرِ يُعْطي الإنسانَ استقراراً سُلُوكياً ونفسياً، بِهِ يستطيع الإنسانُ تَحَدّي المصاعبِ، والتغلُّبَ على شَهَواتِ النَّفسِ، ومتاعِ الدنيا وزُخْرُفِها، وما فيها مِنْ نَعيمٍ زائلٍ. إنَّ حياةَ الإنسانِ الدنيويةَ بِكُلِّ جوانِبِها لها غايةٌ خَيِّرةٌ، ومُعاناتُه لها بُعْدٌ خيِّرٌ بِحَسْبِ قَصْدِها، وتَوجُّهِها، وجُهدُه لن يضيعَ؛ صَبْراً وشُكْراً في الدنيا، وأجْراً ومَثُوبةً في الآخرة .

" ومِنْ ناحيةٍ أخرى يَبْعثُ الإيمان باليومِ الآخِرِ في النُّفوسِ الأمَلَ، ويَمْلأُ قُلوبَ المظلومين بالثِّقةِ في عَدْلِ الله وحِكْمَتِه، وذلك زادُ المسلمِ الحقِّ في مَسيرةِ الحياةِ، ومُواجَهةُ عَنائِها، وبَلائِها، وامتِحانِها، فالنَّفْسُ المسلمةُ، راضيةٌ، شاكرةٌ، قانعةٌ، عاملةٌ في كل الأحوال، ومَا ذلك إلاَّ لأنَّ حياةَ المسلمِ الدنيويةَ لها جوانِبُها المُتكامِلةُ، ذاتُ الغايةِ الخيِّرةِ، كما أنَّ لها بُعْداً أُخْرَوِيّاً مأمولاً.

إنَّه لا يَصْعُبُ فَهْمُ الاختلالِ، والالتواءِ، والتَّدَهورِ، والمُعاناةِ، التي تَنالُ الشَّخْصيةَ، والسلوكَ والصِّحةَ النفسيةَ، والاجتماعيةَ، لِلفَرْدِ المسلمِ، والمجتمعِ المسلمِ، إذا أصابَ فِكْرَه، أو سلوكَه وكيانَه، ما يؤثِّرُ على تصوُّرِه لهذا البُعْدِ الرُّوحِيِّ الأُخْرَوِيِّ. هذا البُعْدُ الأخرويُّ ليس قضيةً ثانويةً، ولكنَّه عميقٌ له آثارُه النفسيةُ، والماديةُ، والحضاريةُ، على الفَرْدِ المسلم، والمجتمعِ المسلمِ" [١٨٠].

ولذلك جاء في الأحاديث النبويةُ تذكيرٌ للمسلمين، بالحياة الآخرة، والاستعداد لها، بلْ وأنْ يَجْعَلَ الإنسانُ المسلمُ الآخِرةَ هَدفَ سعيِه في الدنيا وغايتَه . وهو أمْرٌ يَتَّفِقُ مَعَ الاعتقاد باليوم الآخِرِ، باعتبارِ أنَّ جميعَ أعمالِ المسلم في حياته، لها بُعْدٌ رُوحِيٌّ أُخْرَوِيٌّ .

ومِنْ هذا الباب جاء في الحديث عن زيد بن ثابت سمعت رسول الله ﷺ يقول : " مَنْ كانت الدنيا همَّه فرَّق الله عليه أمره وجَعَلَ الله فَقْرَه بين عيْنَيْه ولم يأتِه من الدنيا إلاَّ ما كُتِبَ له. ومَنْ

---

[١٧٩] البخاري، صحيح البخاري، كتاب الأذان، باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة، حديث(٦٦٠). ٥٧٣/١ .

[١٨٠] أبو سليمان، أزمة العقل المسلم. ص ١٧٨ .

كانَتِ الآخرةُ نيَّتَه جمع اللهُ له أمره، وجعَلَ اللهُ غِناه في قَلْبِه، وأتَتْه الدنيا وهي رَاغِمةٌ . " [١٨١]
فهذا الحديثُ فيه توجيهٌ للمسلم بأنْ يجعلَ سعيَه في الدنيا ، بلْ وتفكيرَه مُمتداً إلى الآخرة، وفي ذلك ما يمنحُه طمأنينةً واستقراراً، ويُخفِّفُ عليه من الحُزنِ، ويُزيلُ الهمومَ عنه .

وقدْ جاء في حديثٍ آخرَ توجيهٌ للمسلم، للالتفات إلى الآخرة والاستعداد لها، بالسعي والعمل، وبيَّن أنَّ ذلك الاستعداد هو مِنَ الكياسةِ والفطنة، وأنَّ الاتكال على الأماني، والانشغال بالدنيا، وعدم الاستعداد للآخرة من صفات العاجز، رُويَ عن رسول الله ﷺ أنّه قال: **" الكيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَه وعَمِلَ لِما بَعْد الموت، والعاجِزُ مَنْ أتبَعَ نَفْسه هَوَاها وتمنَّى على الله الأماني "** [١٨٢]

ولوْ أنَّ كلَّ إنسانٍ آمنَ بحقيقة اليوم الآخر لَصَلُحَ أمْرُ الدنيا، ولَما كان هذا حالُ الإنسانِ المسلمِ اليومَ، لأنَّ كُلاًّ مِنَّا سَيُحاسِبُ نفسَه قبل أنْ يحاسِبَه الله سبحانه وتعالى يوم القيامة .

إنَّ المُتَأمِّل في الحديث النبوي يستطيعُ أنْ يُدرِك ذلك كلَّه، عن رسول الله ﷺ أنّه قال : **"لا تزول قَدَما عَبْدٍ يوم القيامة حتى يُسألَ عن عُمُرِه فيمَ أفناه ، وعن عِلْمِه فيمَ فَعَلَ ، وعن ماله من أين اكتسبه وفيمَ أنفقه ،وعن جِسْمِه فيمَ أبلاه "** [١٨٣] فالمتأمِّلُ لهذا الحديث، يَجِدُ أنَّ الأمورَ الواردة في الحديث، التي سَيُسألُ المرءُ عنها يوم القيامة، هي عُنوانُ حياةِ الإنسانِ، فهي وسائلُه التي يُفْني دنياه فيها، لِتحقيق غاياته وأهدافِه، فإذا صارتْ هذا الوسائلُ غاياتٍ لِذاتِها، انْقَلَبَتْ حياةُ الإنسانِ إلى لَهْوٍ وعَبَثٍ، وخسِرَ الإنسانُ الدنيا والآخرة .وإنَّ الإنسان لا يَصْلُحُ حالُه إلاّ بأنْ تكونَ قضيةُ الإيمانِ باليومِ الآخِرِ، قضيةٌ يَقينيةٌ حاضرةٌ في قَلْبِ الإنسان.

وفي هذا الحديثِ النبويِّ توجيهٌ للإنسان المسلم، بأنْ يَجتهدَ في التَّصرُّفِ في هذه الأمورِ على أحسن الوجوه، لأنَّه مسؤولٌ عنها. ومِنْ مُنطلقِ مسؤوليته عن هذه الأمور الأربعة، في الدنيا وفي الآخِرَةِ؛ فإنَّ الإنسانَ المسلمَ الملتزِمَ يَخْتلِفُ عن غيرِه، فَيجتهدُ أنْ يَكونُ سَعيُه وعَمَلُه كَمّاً ونَوْعاً ومِقداراً، بما يتناسَبُ ومسؤوليتُه، لِيُحقِّقَ أقصى ما يستطيعُ تحقيقَه. ولا يكونُ المسلمُ بهذه الصورةِ إلاّ عندما تَتَرَسَّخُ قضية الإيمان باليوم الآخر في داخِلِه بِأبعادها كافةً .

---

[١٨١] ابن ماجة، السنن وشروحها، كتاب الزهد، باب الهم بالدنيا. قال البوصيري: هذا إسناد صحيح ورجاله ثقات ، حديث (٤١٠٥) ١٥١٢/٢ .

[١٨٢] الترمذي، الجامع الكبير، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، باب ٢٥، حديث(٢٤٥٩) ، وقال : إسناده حسن. وقال المحقق: إسناده ضعيف لضعف أبي بكر بن أبي مريم ٢٤٦/٤، وأخرجه البغوي في شرح السنة، وقال: هذا حديث حسن . البغوي، الحسين بن مسعود، شرح السنة.٣٠٨/١٤ حديث (٤١١٦)، تحقيق: شعيب الأرناؤوط وزهير الشاويش، المكتب الإسلامي، بيروت،ط٢، ١٤٠٣هـ ١٩٨٣م.

[١٨٣] الترمذي، الجامع الكبير، كتاب صفة القيامة ، باب في القيامة حديث (٢٤١٧) ، وقال : هذا حديث حسن صحيح . ٢١٧/٤

الإيمان بالغيب وعلم المستقبل :

إنَّ من الغَيْبِ أموراً اختص الله بعِلْمِها، فلا يَعلَمُها أحدٌ من البشر، وهو الغيبُ المطلق، ومِنَ الأمور ما يُعدُّ من الغَيْبِ النِّسْبي، الذي يمكن للإنسان أنْ يَعْلَمَه، وَمِنْ ذلك ما يَقَعُ في مَجالِ التَّنَبُؤ والاستقراء، بِناءً على مُقدِّماتٍ عِلميَّةٍ، ومِن خِلالِ السَّيْر في الأرض، والنَّظَرِ، والاعْتبارِ.

إنَّ الحياةَ تَسيرُ بِناءً على قوانينَ وسُنَن، يَنْبَغي للإنسان أنْ يُراعِيها حتى يُحقِقَ المُرادَ منه في هذه الحياة، ويَكونَ النجاحُ والتَّوفيقُ حليفاً له في مَسْعَاه، وقدْ أمَرَ الله تعالى في كِتابِه، الإنسانَ المسلمَ بِالسَّيْر في الأرض، والنَّظَرِ، والتَّفكُّرِ، والاعتبار، وهَذا يَمْنَحُه القدرة على رؤية المستقبل، وتَشْكيلِه وبِنائه، بالصُّورة التي تُجَنِّبه أسباب الهلاك والدمار، وتَمْنَحُه أسباب القوة والتقدم .

وهو في ذلك لا يدَّعي عِلْمَ الغَيْب، بل يهدِفُ إلىْ تَقْليلِ الاحتمالاتِ المُتَوَقَّعَةِ في المستقبل، استثماراً لِجُهُودِه وطاقاتِه، وتَسخيرِها بالشَّكْلِ الملائم والمُناسِب، تَحقيقاً لأهدافِه وغاياتِه،مِمَّا يَجْعَلُ المُستَقبَل أقلَّ غُمُوضاً واضطراباً، وأكثرَ وُضُوحاً وإشراقاً. أيْ أنه يَتكَوَّنُ لدى الإنسانِ تَصَوُّرٌ مُسْتَقْبَليٌّ، مَبْنِيٌّ على توقُّعاتٍ مَنْطِقِيَّةٍ وعَقْلِيَّةٍ، بِحيثُ يُوجِّه جُهُودَه وطاقاتِه نحو المُسْتَقبَلِ الذي يَرْسُمُه، ويُخَطِّطُ له .

مِثْلُ هذه الرُّؤيةِ المُستَقبَليَّةِ لا يُمْكنُ إبْصارُها، إلاَّ مِن خِلالِ مَعْرفةِ السُّنَنِ التي تَضبِطُ حَرَكَةَ الحياةِ والأحياءِ، واكتِشافِها. وتِلْك الرُّؤيةُ لا يُمْكنُ عَدُّها من الرَّجْمِ بِالغَيْبِ الذي نُهِينا عنْه، ولا مِنَ التَّفكيرِ الخُرَافِي .

إنَّ الإنسانَ مِنْ خلال هذه الرُّؤيةِ المُستقبَليَّةِ التي يَمْتَلِكُها، باسْتطَاعتِه أنْ يَتجنَّبَ كُلَّ ما قدْ يَقُودُه إلى التَّهْلُكةِ، إذا تَجَنَّبَ المُقَدِّماتِ والأسبابَ التي تُودي إلى النتائج غَيْرِ المَرْغُوبةِ، ووقَى نَفْسَه مِنْها .

ومِثالُ الرُّؤيةُ المُستقبَليَّةُ التي تَهْدِفُ إلى الوِقايةِ مِنْ أسباب الضَّعْفِ والهَلاكِ، واجتِناب نتائِجِها، تَحْذيرُ الرسولِ ﷺ لِأمَّتِه مِنْ تَداعي الأممِ عليها، حيث بيَّنَ أسبابَ ذلكَ ونتائجِه.

فَفي الحديث الذي رواه ثَوبانَ عن رَسُولِ الله ﷺ أنهُ قال : " **يُوشِكُ الْأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ كَمَا تَدَاعَى الْأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا. فَقَالَ قَائِلٌ: وَمِنْ قِلَّةٍ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ: بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ؛ وَلَكِنَّكُمْ**

غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ، وَلَيَنْزَعَنَّ الله مِن صُدُورِ عَدُوِّكُمْ الْمَهَابَةَ مِنْكُمْ، وَلَيَقْذِفَنَّ الله فِي قُلُوبِكُم الْوَهْنَ، فَقَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ الله! وَمَا الْوَهْنُ؟ قَالَ: حُبُّ الدُّنْيَا وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ "[١٨٤].

إنَّ رَسُولِ الله ﷺ لم يَقتَصِر في تَحْذيرِه لِأُمَّتِه على إِخْبارِهم بِما سيقعُ لَهم مُستَقْبَلاً، بَلْ بيَّنَ لهم الأسبابَ، حتَّى يكونوا على بَيِّنةٍ مِنْ أمرِهِم، أنَّ الذي سَيَحْدُثُ لَهم في المستَقْبَلِ، هوَ نَتِيجَةٌ لِما تُقَدِّمُه أيديهِم. أيْ أنّه ليسَ من الأمورِ الغَيْبيَّة الخارِجَة عنْ إرادَةِ الإنسانِ؛ ولا يستطيعُ لها دَفْعاً، بلْ إنَّ المُقدِّماتِ والأسباب جَرَتْ على يَدِ الإنسانِ وبِإرادَتِه، والإنسانُ بِذلك يكون هُوَ مَنْ يُشَكِّل مُستَقْبَلَه ويَبْنِيه. وكانَ رَسُولِ الله ﷺ يقول لِأُمَّتِه: إذا أرَدْتُم أنْ يَهابَكم عَدُوّكم، فَعلَيْكم بِأسْبابِ القوَّةِ.

إنَّ الرسول ﷺ من خلال هذا الحديث بَيَّنَ جانباً مِنَ المستقبل، فَمِن خلال النَّظْرَةِ المُستَقْبَليَّةِ، المُعْتَمِدةِ على السُّنَنِ والقوانينِ التي تجري عليها الحياة، أخْبَر بما سيحدث لهذه الأمة في المستقبل، مِنْ تَداعي الأممِ عليها، بِناءً على مُقَدِّماتٍ تَصْنَعُها هذه الأمة بأعمالِها، وبِانْصرافِها إلى الدنيا، والانْهِماك فيها، وحِرْصِهِم عليها، وكُرْهِهِم للموت، وهذا ما جَعَلَهم يُؤثِرُنَها على أيِّ شيءٍ آخر، وهذا هُوَ الوهنُ الذي قُذِفَ في القلوب، فأصبحوا مطْمَعاً لكل الأمم .

" وَلَيس هناكَ نَظَرٌ اجتماعيٌّ تاريخِيٌّ سُنَنِيٌّ، مِثْلَ نَظَرِ الرسولِ ﷺ إلى المُشْكِلةِ الاجتماعيةِ، حيثُ كان رسولُ الله ﷺ يقرأ التاريخَ قبْلَ أنْ يَقَعَ، ويُحذِّرُ من الوقوعِ فيه، ذلكَ لأنَّ أمْرَ الحياةِ يَسيرُ على نِظامٍ وسُنَنٍ، سَواءٌ في الوقوعِ في الجَهْلِ والقَصْعةِ المُستباحَة، أو الخُروجِ منها .

إنَّ هذا النَّظرَ السُّنَنِيَّ هو ما يَحتاج إليه العَالَمُ الإسلاميُّ، إذْ أنَّ عَدَمَ وُضُوحِه يَجْعَلُ الأمورَ المُختَلِفةَ متساويةً ويَحْشُرُها في ميزانٍ واحد، بينما يُبْعِد الأمُورَ المُتشابِهةَ عن بَعْضِها؛ فَيَقعُ المَرْءُ في حَيْرةٍ، فَيَجْعَلُنا مَرةً مِثْلَ الصحابة، مِنْ حيثُ الإدراكُ والفِقْهُ للسُّننِ الكونية، ومَرةً مِثْلَ الجاهليينَ، من حيثُ الجَهْلُ بهذه السُّنن الكونية، ومِنْ ثَمَّ الاعتقادُ بِأنَّ حَياة الإنسانِ تَسيرَ بِخَوارِق العادات، والمُعجزات" [١٨٥] .

والذي حدَثَ لهذه الأمةِ، هو جَرَيانٌ لسُنَّةِ الله عليها، حين عرَّضت نفسها لمُخالَفة سُنَّةِ الله، فهذه الأمةُ ليَستْ استثناءً من بقية الأمم، في جَرَيان السُّنَنِ عليها، ولذلك كان من المُفيدِ النَظَرُ والاعتبارُ بِحالِ الأممِ السابقة، لِئلا يُصيبُنا ما أصَابَها، وهو ما حذَّر الرسولُ ﷺ مِنه أصحابه والمسلمين مِنْ بَعْدِه، في مرضه الذي توفِّيَ فيه .

---

١٨٤ سبق تخريجه ص٥٥، أخرجه أبو داوود وصححه الألباني.

[١٨٥] سعيد، جودت، " حتى يغيروا ما بأنفسهم "، ط٨ ، ١٩٨٩م . ص ١١٩

فقد وَرَدَ في الحديثِ الذي رواه عقبةُ بنُ عامرٍ أنَّ الرسول ﷺ قال : "... وإنّي لستُ أخشى عليكم أنْ تُشْرِكوا، ولَكِنّي أخشى عليكم الدنيا أنْ تَنَافَسُوها " [١٨٦].

لعلَّ من المُفيد الإشارة هنا ، إلى أنَّ التحذير النبوي كان في مقام المودِّع لهم، تحذيرٌ من التنافس على الدنيا، وزينتِها، ونعيمِها، وزُخْرُفِها، حيثُ إنَّ الإنسان بِطبْعه إذا مَلكَ أسبابَ القوةِ، مالَتْ نفسُه إلى الدَّعَةِ، وتركِ الواجبِ، والانصرافِ إلى التنافسِ على زَخارفِ الحياةِ الدنيا. ولعلَّ ما حدثَ من الفتنة بين المسلمين في أواخِرِ عهْدِ الخلافة الراشدة، يؤكِّدُ حالةَ التنافسِ التي وقعت بين المسلمين، فكان هذا التنافسُ والانصرافُ إلى الحياة الدنيا بدايةَ طريقِهم إلى الدخول في مرحلة " القصعة" .

والنظرة المستقبلية في هذا الجانب من التغيير، تحتاج إلى تخطيطٍ يستغرقُ تنفيذُه وتطبيقُه، وإلى مَدَىً زَمَنِيٍّ أوسعَ وأشملَ ليُحقِّقَ النتائج المأمولة . فنحن اليومَ بِحاجةٍ إلى رُؤيةٍ مُستقبليةٍ بِجوارِ الرُؤيةِ التُراثيةِ، التي جَعَلَتْ فريقاً مِنَّا سُجناءَ الماضي .

والمُستقبَلُ في جانبٍ منه غَيْبٌ لا يَعْلمُه إلاَّ اللهُ تعالى، ولا يَنْبغي لَنَا أنْ نُقْحِمَ أنفسَنا فيه، وندَّعي ما ليسَ لنا به عِلْمٌ، ولا لنا إليه سبيلٌ. وفي جانبٍ آخرَ، شَيءٌ يَدْخلُ في مَجْمُوعة الرَّصْدِ والحسابِ، بِناءً على قواعدَ مدروسةٍ، وظَواهرَ معلومة .

كُلُّ هذه التَّوقُّعاتِ المستقبليَّة، المَبْنِيَّةِ على دِراساتٍ وإحصاءاتٍ، وفقْهٍ للسُّنَنِ الكونيةِ، لا ينبغي للإنسان المسلم أنْ يغُضَّ الطرفَ عنها، بِدعوى أنَّها غيْبٌ لا يعلمُه إلا الله تعالى، فهذا مِن الغَيْبِ النِّسْبيِّ، الذي وَهَبَ اللهُ الإنسانَ القدرةَ على اكتشافه في دائرة السُّنَنِ والأسبابِ،التي أقام الله عليها نظام هذا الكون وهو داخلٌ في إطار قوله تعالى :{عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ{٥ } [١٨٧]. ولعلَّ الغالبِيَّةَ العظمى من المسلمين، وبِخاصةٍ القادةُ وأصحاب القرارِ، لمْ يَحْظَ هذا الجانبُ بأيِّ اهتمامٍ لديهم، ودليلُ ذلك، الأحوالُ التي تعيشها الأمة في مجالاتِها المختلِفةِ، مُقارَنَة بالأمم المُتَقدِّمة، حتَّى صار مصيرُ هذه الأمة أسيراً لِقَراراتٍ ارتجاليةٍ، غيْرِ مَدروسة، جَرَّتِ الوَيْلاتُ والخَرابُ للأمة، وجَعَلَتْها تابعةً ذليلةً لأعدائها .

" إنَّ الإسلامَ يُوجِبُ علينا أنْ نحْسِبَ حِسابَ هذه التغيُّراتِ الخَطيرةِ، وأنْ نَدْرُسَ احتمالاتِها وتأثيراتِها علَيْنا، وأنْ نُحَدِّدَ مَواقِفَنا مِنْها، وما يَنْبغي أنْ نُعِدَّ لها من المالِ والرجالِ، وما ينبغي أنْ

---

[١٨٦] سبق تخريجه ص ٨٣، أخرجه البخاري.

[١٨٧] سورة العلق ، الآية ٥

تُهَيِّأ له مؤسساتُنا، مِن تطويرٍ في الأفكارِ، والنُّظُمِ، والأساليب، حتى تُمَكِّنَ الإنسانَ المؤمنَ، القادرَ، وتُهَيِّئَهُ على أنْ يَعيشَ عصرَه، مِنْ غير أن يفقِدَ نفسَه، وينسى أمسَه، ويُضيعَ أمَّته. "[188] فالحاجةُ ماسَّةٌ جداً، لِكَيْ يَبحثَ الإنسانُ في كلِّ ما يَتعلَّقُ بِمُستقبَلِ هذه الأمةِ، فَلا يكفي الوقوفُ على الأطلالِ، والبُكاءُ على الماضي، والتَّحسُّرِ عليه، لأنَّ ذلك لنْ يُغيِّر من الواقع شيئاً، بلْ يَزيدُ الأمْرُ سُوءاً، ورُبَّما يَكونُ الخوفُ من البحثِ فيما نَعْتَقِدُ أنَّه من أمْرِ الغيب، هوَ الدَّافعُ وراءَ هذا السلوكِ، نَتيجةَ الجَهْلِ بالسنن والقوانين التي تُسيِّرُ الحياة، وهو ما أحْدثَ في أذهاننا التباساً وخلْطاً بين الغيب والمستقبَل. إذ المُستقبَلُ المَطْرُوحُ هنا، هُوَ من عالَمِ الشَّهادةِ، هذا المستقبلُ مُقدَّرٌ من المُقدِّمات، ومُدرَكٌ من السُّننِ الجاريةِ، ورُبَّما يَنكشفُ للإنسان شيئاً فشيئاً، تحقيقاً لِما جاء في قوله تعالى: **{ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ ... (٥٣)**}[189] حتى إنَّنا لنرى في عالَم الشهادةِ الكثيرَ من المُقارَبات المَحسُوسَة لِمَشاهدِ القيامةِ، وما يحتوي عليه العالم الآخر .

ولَعَلَّنا نقولُ أيضاً، إنَّ المسلمَ ـ بما أتاحت له مَعْرِفةُ الوَحْيُ من الرُّؤيةِ ـ قادرٌ على تشكيلِ مُستقبَلِه، وامتدادِ فِعْلِه حتَّى بعد المَوْتِ. فَالوَلَدُ الصَّالحُ هُوَ ما يتمنَّاه كلُّ أبٍ، ويكونُ صَلاحُ الولَدِ بِالتَّربيةِ والرِّعايةِ، تَخْطيطاً وإنجازاً، نَبْتُ المستقبَل. والصَّدقةُ الجاريةُ، عَمَلٌ وتخطيطٌ لاسْتِمرارِ النَّفْعِ والأثَرِ بَعد الموت، وهُوَ عَمَلٌ في هذه الدنيا يقوم به المسلم، حتى يَنالَ ثَمَرَتَه في الآخرةِ.

والعلمُ المُستدَامُ والدَّائمُ، حيثُ العطاءُ الذي لا يَنتهي أو يَنقطِعُ بِمَوْتِ الإنسان. وهذه الثلاثة التي ذُكِرَتْ في الحديث، مِنَ الأمور التي ينبغي للإنسان المسلمِ أن يستثمِرَ فيها مَالَه، وجُهدَه، ووقتَه، وهذه هي النَّظْرَة المُستقبَليَّةُ يُرَادُ لِلمسلم أن يَحرِصَ عليها، لِمَنْفعَتِه ومَنفعةِ أمَّتِه. فالرسول ﷺ يقول : **" إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة أشياء : مِنْ صَدَقَةٍ جارية ، أو عِلْمٍ يُنتَفَعُ به ، أو وَلَدٍ صالح يدعو له "**[190]، أليس هذا نوع مميز من تشكيل المستقبَلِ، والتَّحكمِ به، حتى في عالم ما بعد الموت ؟[191]. فإذا كان الإنسانُ المسلمُ يَستطيعُ أنْ يَلمسَ آثارَ عمَلِه، بلْ ويَحصدَ نتائجَها في آخرتِه، فإنَّه في عالَم الشَّهادةِ ـ وهو العالَم الذي يقَعُ تحت بَصَرِ الإنسانِ وبَصيرتِه، وقُدْرتِه ـ يَستطيعُ أنْ يُشكِّلَ مُستقبَلَه، وذلك مِنْ خلال المُقدِّماتِ التي يقومُ بها . وما هذا

---

[188] القرضاوي، الصحوة الإسلامية وهموم الوطن العربي . ص ٤٩ .

[189] سورة فصلت ، الآية ٥٣ .

[190] أبو داوود، السنن، كتاب الفرائض ، باب ما جاء في الصدقة عن الميت ، حديث (٢٨٨٠) . ص٣٢٦ .وقال الترمذي : حسن صحيح . الترمذي، الجامع الكبير، حديث (١٣٧٦)، ٣/ ٥٣ . وقال الألباني : صحيح . الألباني ، صحيح سنن أبي داوود . ٢/ ٢١١

[191] حسنة، عمر عبيد ، من مقدمة كتاب " استشراف المستقبل في الحديث النبوي " من سلسلة كتاب الأمة ، للدكتور إلياس بلكا ، العدد ١٢٦ ، قطر ، ١٤٢٩هـ . ص٢٠

التطوُّرُ الحضاريُ، والتقدُّمُ العِلْميُ في مجالاتِ الحياةِ المختلِفةِ، إلا نتيجةٌ لإدراكِ الإنسانِ لِلسُّنَنِ والقوانينِ التي تَسيرُ عليها الحياة .

وفي ذلك تأكيدٌ للإنسانِ بِشكْلٍ عَمَليٍّ، على أنَّ الحياةَ تَسيرُ وِفْقَ نِظامٍ دَقيقٍ، لا مجالَ لِلفوضى فيه، وأنَّ من يُخالِفُ تلك السننَ والقوانينَ التي تحْكُمُ الحياة في مجالاتِها المختلفة، ستكون عاقبتُه الخُسْرانُ والفَشَلُ .

وفي هذا السياق يمكنُ الاستدلالُ بالحديث الوارد عن الرسول ﷺ في وصيَّتِه لابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قائلاً : **"وخذ من صحَّتِكَ لِمَرَضِكَ "** [١٩٢]،على وجوبِ التخطيطِ والعمَلِ لِلمُستقبَلِ، بأنْ يَستثمرَ الإنسانُ وقْتَ صِحَّتِه بِعَملٍ يَنفعه عند الله تعالى، من خلال المُسارَعةِ بِالعَملِ الصالحِ والطاعاتِ، في زَمَنِ العافيةِ، والقوَّةِ، والصِّحةِ. فقد يأتي عليه زمانٌ يعاني فيه من المرض، فَيَعجزُ عن الطاعات والأعمال الصالحة .

وهناك مَعنىً آخَرَ، فيه دلالة على التَّخطيطِ للمُستقبَلِ، والاستعدادِ له، وهُوَ أنَّ من المفروض على كلِّ إنسانٍ أنْ يُحافظَ على صِحَّتِه بأسبابها من الحَرَكةِ، والاعتدالِ في الجُهْدِ والغذاءِ المُناسِبِ، حتَّى يَكونَ عنده رصيدٌ من الصحة والقوة، قدْ تَراكَمَ لديه مع الزمن، بحيث يستطيعُ أنْ يقاومَ به حالاتِ المَرَضِ والوهن [١٩٣]، فالإنسانُ في هذه الأحوال أيضاً يتصرَّف بما يَرْغَبُ أنْ يَكونَ عليه مُستَقْبَلاً .

ومِنَ الإعدادِ للمستقبَلِ أمْرُ الرسولِ ﷺ بالإحصاء لِعَددِ المسلمين، حيث تطلَّبَ الأمرُ معرفةَ الطاقاتِ، والإمكاناتِ التي بِحَوْزتِه، حتَّى يُقرِّرَ الظروفَ الملائمةَ لِمواجهةِ المشركين، فَمُواجهةُ الأعداء تحتاج إلى تخطيطٍ سليمٍ، مبنيٍّ على معلومات دقيقة، حول مدى قوَّة المسلمين، ومُقارَنَتِها بِقُوَّة الأعداء، حيث جاء في الحديث عن النبي ﷺ أنَّه قال : **" اكتبوا لي مَنْ تلفَّظَ بالإسلام من الناس "** [١٩٤]

---

[١٩٢] البخاري، صحيح البخاري، كتاب الرقاق ،باب قول النبي :" كن في الدنيا كأنك غريب" ، حديث (٦٤١٦) . ص٢٨١٢ .

[١٩٣] القرضاوي، السنة مصدراً للمعرفة والحضارة ، ص ١٣٢ (نقلاً عن : د. إلياس بلكا ، استشراف المستقبل في الحديث النبوي ، ص١٣٠) .

[١٩٤] البخاري، صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب كتابة الإمام الناس، حديث(٣٠٦٠) . ص١٤٥٨ .

وفي هذا السّياقِ تأتي أحاديثُ " الفِتَن " كلُّها تقريباً، فَهِيَ إخبارٌ من النبي ﷺ، وهِيَ رُؤيةٌ مُستقبَلِيَّةٌ، وقد جاءتْ على سبيلِ التحذيرِ والتخويفِ، وضَرُورةِ الإعداد لهذه الفِتَنِ، في مُحَاوَلةٍ لِلتُّخفيفِ من آثارها السلبية. وحتَّى لا تُدركَنا النتائجُ السَّلبيةُ فَلا بُدَّ مِنْ إصلاحِ المُقدّماتِ.

فَأحَاديثُ الفِتَنِ تَمْنَحُنا مُؤشّراتٍ فيها تنبيهٌ لَنا على أهميةِ امتدادِ التفكيرِ إلى عَالَمِ المُستقبَلِ، والتَّبَصُّرِ بِه؛ مِنْ خِلالِ استقراءِ الماضي والسُّنَنِ التي حَكَمَتْه، وقِراءةِ الحاضِرِ والمُقدّماتِ التي تَحْكُمُه، بِهَدَفِ استشرافِ المُستقبَلِ، وكَيفيَّةِ تَشْكِيلِهِ والإعدادِ له[195] .

لِذلك كان الرسولُ ﷺ حَريصاً على بيانِ عواقِبِ مُخالفةِ السُّنن الاجتماعيةِ في كثيرٍ مِنْ أحاديثِ الفِتَنِ، مِنْ أجْلِ الالتزامِ بتلك السُّننِ، حِفاظاً على هذه الأمةِ، أنْ يُصيبَها مِنَ الفِتَنِ ما أصابَ غيرها مِنَ الأممِ، ولَمْ يأتِ ذِكْرُها لِتَكونَ سبيلاً للاستسلام والخضوع .

ومِنَ الأحاديثِ الواردةِ في النَّظَرِ في عَواقبِ الأمورِ، ومَعْرفةِ مآلاتها، مِنْ خلال ضَرْبِ المَثَلِ، ما جاء عن النبي ﷺ حيثُ قال :" **مَثَلُ المُدْهِنِ في حُدُودِ اللهِ والواقِعِ فيها، مَثَلُ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا سَفينةً، فَصَارَ بعضُهم في أسفلِها، وصَارَ بعضُهم في أعلاها، فَكانَ الذي في أسفلِها يَمُرُّ بِالماءِ على الذين في أعلاها، فَتَأذَّوْا بِه، فَأخَذَ فاساً، فَجَعَلَ يَنْقُرُ أسفلَ السَّفينةِ، فأتَوه فقالوا: مَا لَكَ ؟ قال : تأذَّيْتم بِي، ولا بُدَّ لِي مِنَ الماءِ. فإنْ أخَذُوا على يَدَيْه أنْجَوْهُ ونَجُّوا أنفسَهم، وإنْ تَرَكُوه أهْلَكُوه وأهْلَكُوا أنْفُسَهم** "[196].

فالحديثُ يُبيّنُ وُجُوبَ تَحَرُّكِ المُجتمَعِ لِمَنْعِ أيَّةِ تَصَرُّفٍ يُؤدّي إلى الإضرارِ بِمجْمُوعِ الأمةِ، أوْ هلاكِها، وما جاء في هذا الحديث يَصْدُقُ عليه وصْفُ التنبُؤ، ومَعْرِفةِ النتائج من المُقدّمات، قَبْلَ وقُوعِها، وهُوَ مما يَرْتَبِطُ بالسُّننِ الكَوْنيةِ، وليس له صِلَةٌ بِادّعاءِ علم الغيب، ولا يُعَدُّ مِنَ الرَّجْمِ بِالغيبِ .

[195] حسنة، عمر عبيد، من مقدمة كتاب " استشراف المستقبل في الحديث النبوي " من سلسلة كتاب الأمة، للدكتور إلياس بلكا . ص٢٢

[196] البخاري، صحيح البخاري، كتاب الشهادات ، باب القرعة في المشكلات ، حديث(٢٦٨٦) . ص١٣٣٤ .

حرية العقيدة :

لا يمكن أن يقوم البناء العقدي عند الإنسان، ويستقر في داخله، ويظهر أثره، ولا الإيمان بأركانه الستة، إلا على أساسٍ من الحرية والاختيار للإنسان، ومن هنا جاء تقرير هذا المبدأ الذي يدعو إلى حرية المعتقد.

لقد كرّم الله الإنسان وفضّلَه على كثير من المخلوقات بالعَقْلِ، ومِنْ مقتضى تُكْرِيمِ الإنسانِ، وتُفضيلِه على بقيةِ المَخلوقاتِ أنّه جَعَلَه حُرّاً مُخْتاراً. وكانتْ التقوى أساسَ تكريمِ الإنسانِ عندَ خالقِه، قال تعالى : **{ يا أيُّها الناس إنّا خَلقناكم من ذَكَرٍ وأنثى وجَعلْناكم شُعُوباً وقبائلَ لِتعارَفوا،إنّ أكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أتْقاكُمْ إنّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ { ١٣}**[١٩٧].

ولعلّ أهم جانبٍ في الحُرّيةِ الإنسانية، الحريّةُ الدينيةُ، فَفَضْلاً عنْ أنّ الجزاءَ في الآخرةِ مُرْتبِطٌ بِما يَدِينُ بِه الإنسانُ، ويُؤمِنُ به بِملءِ إرادَتِه، واختيارِه، إلاّ أنّ الحُرّيّةَ الدِينيةِ تَظهر أهَمّيّتُها كذلكَ في توجيهِ النّشاطِ الإنسانيّ في مُخْتلَفِ نواحي الحياةِ. حيث لا يُتَصوّرُ أنْ يَقُومَ الإنسانُ بِأيِّ نَشاطٍ، أو عَمَلٍ يَتَعارضُ مع مُعتَقَدِه، وكذلك لا يُتَصوّرُ أنْ يَقُومَ بِأيِّ نَشاطٍ، أوْ عَمَلٍ بِناءً على أيِّ مُعتَقَدٍ او فِكْرٍ قدْ أُكْرِه عليه .

وبِمعنىً واضحٍ، فإنّه لا بُدّ أنْ يَتَمتّعَ الإنسانُ بِحُرّيّتِهِ الدّينيةِ، إذا كان الهَدَفُ أنْ يكونَ هذا الإنسانُ عُضْواً فاعِلاً في مُجتَمعِه ووَطَنِه، في شَتّى مَيَادِينِ النّشاطِ الإنسانيّ والحَضَاريّ. فَالحُرّيّة الدّينيةُ هي الأساسُ في كلّ تَوَجُّهاتِ الإنسانِ واختياراتِه، ولذلك بيّن الحقّ ـ سُبْحانه وتعالى ـ أنّ الأساسَ في الدّين أنْ يكونَ قائماً على الاختيارِ لا الإكراهِ، قال تعالى : **{ لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ...{٢٥٦}**[١٩٨]. وأنّ الإنسانَ له مُطْلَقُ الحُرّيّةِ في اختيارِ الدّينِ الذي يُرِيدُه، قال تعالى: **{ وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ ...{٢٩}**[١٩٩] في هذه الآيةِ بَيانٌ أنّ الإيمانَ والكُفْرَ قضيةٌ شخصيةٌ تَخُصّ صاحبَها، وهُوَ يَتَحمّلُ المسؤوليةَ، بِمُقْتضى حُرّيةِ الاختيارِ التي مُنِحت له. فَمَنْ آمنَ فإنّه يَنفعُ نَفْسَه، ومَنْ كَفَرَ فإنّه يَجْني عليها، فَمشيئةُ اللهِ قدْ وَضَعَتْ جميعَ البَشرِ بِالتّساوي أمامَ مِحْنةِ الاختيارِ الحُرّ بين الكُفرِ والإيمانِ، دُونَ أنْ تُؤثّرَ على إرادةِ أيٍّ مِنْهم إرادةُ شخصٍ آخَرَ، وكل ما يُمْكنُ في هذا المقامِ، هُوَ النُّصْحُ والإرشادُ، دونَ القَهرِ والإجبار.

[١٩٧] سورة الحجرات ، الآية ١٣ .

[١٩٨] سورة البقرة ، الآية ٢٥٦ .

[١٩٩] سورة الكهف ، الآية ٢٩ .

وقد وردَ في السُّنةِ النبويةِ ما يُؤكِّدُ على حُريةِ الإنسان في مُعتَقَدِه، فقد جاء في الحديث عن الرسولﷺ ما يُؤكِّدُ أنَّ الإنسانَ له حُرِّيةُ الاختيارِ، إذا عُرِضَ عليه الإسلامُ، حيثُ جاء في الحديث أنَّ الرسولﷺ قال : **" ثمَّ ادعُهم إلى الإسلام. فإنْ أجابوك فاقبل منهم وكُفَّ عنهم...فإنْ هم أبَوا فَسَلْهم الجزية. فإنْ هم أجابوك فاقْبَل منهم وكُفَّ عنهم... "**[٢٠٠] .

هذا النَّصُّ جُزْءٌ مِن حديثٍ، يُبيِّنُ فيه ما كان الرسولُ ﷺ يوصي به قادة الجيوشِ كيفيةَ التعامل مع الأعداء، فكان إذا أمَّرَ رجلاً على سَرِيَّةٍ أوصاه في نفسه، وفيمن معه، وهذا الأمرُ وإنْ كان في الحرب والقتال، إلاَّ أنَّ فيه دلالةً واضحةً على الالتزام بِعَدم إكراه الآخرين على الدخول في الإسلام، وتَرْكِ الحُريةِ لهم في هذا المجال، وما على القائد إلاَّ أنْ يَعرضَ عليهم الإسلام، فإنْ أبَوا، رَضِيَ منهم البقاء على دينهم تحت ظل الدولة الإسلامية .

وهو الأمر الذي بيّنه وأكَّد عليه الرسول ﷺبعد هِجرتِه إلى المدينة، من خلال الوثيقة التي صَاغَها؛ لِتنظيمِ العلاقة بين مُكوِّناتِ المجتمع المدني، وبخاصة تنظيمِ العلاقةِ بين المسلمين وبين اليهود، حيث بيَّن لليهود أنَّ لهم الحرية فيما يعتقدون وما يدينون، فقدْ جاء في الوثيقةِ أنَّ **" يهود بني عوف أمة مع المسلمين لليهود دينهم وللمسلمين دينهم "**[٢٠١] . وما ينطبق على اليهود في هذا الجانب خاصة، ينطبق على غيرهم من مواطني الدولة الإسلامية " فالإسلام يضمن كامل حرية الاعتقاد، فصيانة دولة الإسلام لمواطنيها، وحسن رعايتها لهم، لا يُؤثِّرُ عليها، كونُ بعض مواطنيها غير مسلمين، وإنما للجميع البر وحسن الرعاية... المواطن غير المسلم في الدولة الإسلامية له أن يختار العقيدة التي يراها مناسبة،بشرط أن يعطي ولاءه للإسلام، وألاَّ يحمل على المسلمين سيفاً، ولا ينصر عليهم عدُوًّا" [٢٠٢]

وتبقى الحُريةُ الدينيةُ مُصانةً ومَكْفولةً، شَرْطَ أنْ لا تُصبِحَ هذه الحريةُ، وسيلةً لِلتلاعُبِ بِالدِّين، أو وسيلةً لِهَدْمِ أركانِ المجتمع وتَقْويضِها، أوْ إثارةِ الفِتَنِ، أو تَشْكيكِ المسلم في دِينِه.

---

[٢٠٠] مسلم، صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير ، باب تأمير الأمراء على البعوث، ووصيته إياهم بآداب الغزو وغيرها، حديث(١٧٣١). ١٣٥٦/٣

[٢٠١] ابن هشام، السيرة النبوية . ٢/ ١٤٤ . وقال الدكتور مهدي رزق الله أحمد :" والخلاصة : إن جميع فقرات الصحيفة لها شواهد من صحيح السنة والقرآن الكريم " . د. أحمد، مهدي رزق الله، **السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية**، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات ،ط١ ، الرياض ، ١٤١٢هـ ١٩٩٢م . ص٣١٦

[٢٠٢] العيساوي، جاسم محمد، الوثيقة النبوية والأحكام الشرعية المستفادة منها، ص ١٨٣،دار الصحابة، الإمارات العربية المتحدة، ط١، ١٤٢٧هـ ٢٠٠٦م .

وقَدْ حدَثَتْ في صدر الإسلام مُحاولاتٌ من قِبَل اليهود، لإثارة البَلْبَلةِ في صُفُوفِ المجتمع المسلم، من خلال استغلال هذه الحُريةِ للارتداد عن الدين، ولذلك جاء في السنة النبوية :**" من بدّل دينه فاقتلوه "** [٢٠٣]. فعُقُوبةُ المُرْتَدِّ على هذه الشاكلة، لَيست تقييداً، ولا مُصادرةً لِحُرية العقيدة، بل رَدْعٌ لِمَنْ تَلاعبَ بهذه الحرية، وصيانة للمجتمع عن أيِّ إنسانٍ طائش .

إنَّ مِثْل هذه الإنسانِ الذي يُغيِّرُ ويُبدِّل دينه باستمرار، لا يُمكنُ أنْ يَكون التَّنقُّلُ في كلِّ مَرَّةٍ مِنْ دينٍ لآخَرَ نتيجةً تَغيُّرِ قَناعاتِه، بَلْ هُوَ تَلاعُبٌ في الدِّين. لِذلك يُمكن القولُ إنَّ السببَ في هذه العقوبة راجعٌ إلى ما يَعْنيه الارتدادُ في مفهوم الدِّينِ، وفي نَظَرِ المجتمع مِنْ تآمُر، بِحيث انقلب المُرْتدُّ على نفسِه ومجتمعِه، وأعلنَ بِرِدَّتِه خُروجَه عن الدِّينِ، وعن المجتمع. ومِنْ هُنا جاء الحُكْمُ بِحقِّ هذا الصِّنفِ من الناس، بأنَّهم مِمَّنْ تُستَحلُّ دماؤهم، كما جاء ذلك في الحديث عن الرسولﷺ، حيث بيَّنَ أنَّ المُرْتدَّ هُوَ : **" المفارق لدينه التارك للجماعة "** [٢٠٤]. ومما يَدُلُّ على أنَّ مَفهومَ الحُرية الدينية، هُوَ مَنهجٌ عامٌ في الدعوة الإسلامية، أنَّه لَمَّا قَدِمَ التَّنوخي رسولُ هِرَقْلَ إلى رسولِ الله ﷺ قد عَرَضَ عليه الإسلامَ، ولَمْ يُكرِهْه على الإسلام، بلْ ضحِكَ عندما اعتذر بأنَّه رسولُ قَوْم. وكان فيما قاله النبي ﷺ له : **" هل لك في الإسلام ؛ الحنيفية ملة أبيك إبراهيم ؟" فقال التنوخي : إني رسول قوم وعلى دين قوم ، لا أرجع عنه حتى أرجع إليهم . فضحك النبي وقال : { إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ(٥٦)}** [٢٠٥] "[٢٠٦] .

وانطلاقاً من مفهوم حرية العقيدة في الإسلام، نَفْهمُ معاني رسائلِ الرسول ﷺ إلى الملوك والأمراء يَدْعوهم إلى الإسلام، ويَطلُبُ مِنْهم رَفْعَ يد الطغيان، والقهر، والاستبداد عن عامة رعاياهم، حتى تكون لهم حُرية العقيدة. فالبُعْدَ الإسلاميُّ في حرية العقيدة، هو البعد الذي يقرر حرية الإنسان في اختيار العقيدة التي يؤمن بها، ويُبيِّنُ أنَّ للإنسان وحْدَه أنْ يَتَّخذَ ذلك القرار، وهُوَ وحدَه المسئولُ عن قرارِه. وأنَّ على الإسلامِ، دَوْلةً ومُجتمَعاً، واجبُ حِمايةِ ذلك الحق، واحترامُ ذلك القرار، وضَمانُ نفاذه في بِلادِ الإسلام وفي كل الأرض لكل بني الإسلام. " فحُريةُ العقيدة مفهومٌ إسلاميٌّ أساسيٌّ في تكوين العقلية، والمنهجية الإسلامية الحضارية، ولا يَستقيمُ العقلُ

---

[٢٠٣] البخاري، صحيح البخاري، كتاب استتابة المرتدين ، باب حكم المرتد واستتابتهم ، حديث رقم (٦٩٢٢) . ص٣٠٧٦ .

[٢٠٤] البخاري، صحيح البخاري، كتاب الديات ، باب قول الله تعالى :" أن النفس بالنفس..." حديث رقم (٦٨٧٨) .ص٣٠٤٩

[٢٠٥] سورة القصص ، الآية ٥٦ .

[٢٠٦] ابن حنبل، المسند ، ٤٤٢/٣ (١٥٧٤٠) . قال ابن كثير في تاريخه بعد أن عزاه للإمام أحمد: هذا حديث غريب وإسناده لا بأس به تفرد به الإمام أحمد . ابن كثير، إسماعيل بن عمر(٧٧٤)، البداية والنهاية، كتاب سيرة الرسول، سنة٩، قدوم رسول قيصر، ص٦٩٧، تحقيق: حسان عبد المنان، بيت الأفكار الدولية، بيروت، ٢٠٠٤.

المسلم، ولا المنهجُ المسلمُ، ولا أداءُ هذه الحُريةِ، إلاَّ أنْ يستقيم فَهْمُ هذا البُعد في تكوينِ كُلٍّ من العقل المسلم والمنهجِ المسلم " [٢٠٧] .

لقد أبْقى الإسلامُ بابَ الحُرية مُشرعاً ومفتوحاً، وحَرِصَ على ذلك من مُنْطلَقِ عالَمية الدعوة الإسلامية؛ لِيَكونَ الناسُ أحراراً في معتقدهم ودينهم. ولذلك كان أحَدَ أسباب مشروعية الجهاد؛ الجهادُ ضد دولة يَعترضُ حاكمُها طريقَ الرسالةِ الإسلاميةِ، فيُصادرَ حَقَّ الناس في العِلْم بالرسالة الخاتمة، وحقَّهم في الاختيار الحر بين اعتناق الإسلام أو الإعراض عنه، وقد سَلك الإسلامُ سبيلاً عَمَلياً تَطلَّبَ حَشْدَ القوى لإتاحة المجال؛ لِتكونَ الحُرية واقعاً حياً للآخرين، فَيَختاروا الدِّينَ الذي يقتنعون به دون إكراه . مع التأكيد على أنَّ حريَّة الاختيار للدين لا تعني المساواة بين الأديان عند الله تعالى، بعد بَعْثِ النبي ﷺ فإنَّ الدين عند الله الإسلام، قال تعالى: **{ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلاَمُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهِ سَرِيعُ الْحِسَابِ}** [٢٠٨]، فإذا اختار الإنسان ديناً آخر انطلاقاً من حرية الاختيار فَلَه ذلك، ولكنَّه ليس بالدين المرضيُ عند الله تعالى، قال تعالى: **{ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ}** [٢٠٩]، فالدين الذي أراده الله تعالى من الناس بعد بعثة محمد ﷺ هو الإسلام دون سواه، وإنْ تُرِكَ للناس أنْ يختاروا ما يشاءون ليتحقَّق حُكم الله تعالى .

- عالمية الرسالة :

إنَّ من خَصائصِ الإسلام التي امتاز بها عن سائر الأديان، أنَّه الدِّينُ الذي أرسلَ اللهُ به رَسُولَه للناس كافةً، وبهذا تميَّزَتْ شريعةُ الإسلام عن سائر الشرائع السماوية، وإنَّ أيَّةَ مُحاولةٍ لِحَصْرِها في بُقْعةٍ مُعيَّنةٍ، أوْ قومٍ مُعيَّنين، إنَّما هي سلْبٌ لِأهمِّ خصائص الإسلام. وعَالَمِيَّةُ الإسلام تمَّ تأكيدُها بِما أخبرَ به الرسولُ ﷺ عَمَّا ميَّزه الله به عن بقية الأنبياء والرسل، ومِنْ ذلك عُمُومُ رِسالتِه، فقد جاء في الحديث أنَّ رسولَ اللهﷺ قال :" **أُعْطِيتُ خَمْساً لم يُعطَهُنَّ أحدٌ قَبْلي : ...وكان كلُّ نبيٍّ يُبْعَثُ إلى قومِه خاصَّةً، وبُعِثْتُ إلى الناس كافة ...**" [٢١٠]. وفي هذا الحديثِ النَّبويِّ تَوجيهٌ لِكُلِّ مُسلمٍ، بأنْ يَكونَ عالَمياً، وإنسانياً، في توجُّهاتِه وغاياتِه. وبِقَدْرِ ما يَحرِصُ المسلمُ على نفْسِه، وعَشِيرَتِه، وقَوْمِه؛ فكذلك يَنبغي أنْ يَحْرِصَ على النَّفْعِ والخيرِ للآخَرين، وإنْ لمْ يكنْ بيْنَه وبيْنَهم

---

[٢٠٧] أبو سليمان، أزمة العقل المسلم . ص ١٥٨ـ ١٦٠ .

[٢٠٨] سورة آل عمران ، الآية ١٩ .

[٢٠٩] سورة آل عمران ، الآية ٨٥

[٢١٠] البخاري، صحيح البخاري، كتاب الصلاة ، باب قول النبي :" جعلت لي الأرض مسجداً " حديث (٤٣٨) . ١/ ٤٩٠ .

أيَّةُ صِلةٍ من صِلات القُربى، والدَّم، واللغة. وذلك امتثالاً لِما جاء في حديثِ الرسولِ ﷺ وإخبارِه، بأنّه رَحْمةٌ مُهداةٌ لِلناسِ، حيث قال:" **يا أيها الناس إنما أنا رحمة مهداة** "[٢١١]وهو تأكيد لما جاء في القرآن الكريم : **{وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ}** [٢١٢]، فهُو لم يكنْ رَحمةً لِقومِه، أو لأصحابه، أو للمسلمين فقط. وقَدْ وَصَفه اللهُ تعالى بأنَّه رَحْمةٌ لِلعالَمين، دون استثناءٍ في هذه الرحمة لِأيٍّ من البَشرِ، باعتبار أنَّ الرحمةَ هي الإسلامُ الذي جاء به النبي ﷺ للناس كافة .

وهذه الصِّفَةُ تَظْهَرُ واضحةً لِلعَيان في الخطابِ الإنسانيِّ، الذي حَرِصَ الرسولُ ﷺ على الدَّعْوةِ إليه، وإلى نَبْذِ كلِّ العَصَبياتِ الجاهليةِ، التي تُمجِّد الجِنْسَ، أو اللَّونَ، أو اللُّغة، وَمِنْ ذلك، عِندما وقف مُخاطباً الجُمُوعَ الحاشدةَ في حَجَّةِ الوداع، ومُخاطِباً الناس جميعاً، من شتى الأعراق والأجناس، قائلاً لهم : **" يا أيها الناس ألا إنَّ ربَّكم واحد ، وإنَّ أباكم واحد ، ألا لا فضل لعربيٍّ على أعجميٍّ ، ولا لعجميٍّ على عربيٍّ، ولا لأحمر على أسود، ولا أسود على أحمر إلا بالتقوى... "**.[٢١٣]

فهذا الخطابُ النبَويُّ خِطابٌ عالَميٌّ إنسانيٌّ، يُظْهِرُ السِمةُ الحقيقية للخطاب الإسلامي، فَلا مِيزَةَ لِأحَدٍ من البشر في الأصل؛ لأنَّ أباهم واحِدٌ، وَرَبُّهم واحِد. وَمِنْ هنا جاء الإسلامُ لِيُوحِّدَ بين البشر جميعاً ـ رجالاً ونساءً، مِنْ مُخْتَلَفِ الأعراق والأجناس ـ في قضايا مُحَدَّدةٍ :أصْلِ الخَلْقِ، والنَّشأةِ، والكرامةِ الإنسانيةِ، والحُقُوقِ الإنسانيةِ العامة، وَوَحْدانيةِ الإله، وحُرِّيَّةِ الاختيارِ، وعَدَمِ الإكراه، وَوِحْدةِ القِيمِ والمُثُلِ الإنسانية العليا .

وهذا يَعْني أنَّ المسلمَ لا بُدَّ أنْ يَجعلَ خِطابَه عالَمياً، بِحيث يُخَاطِبُ الناسَ بِما يُراعي اختلافَهم وتنوُّعَهم، حتى يُؤتي الخِطابُ ثِمارَه، ويُحقِّقَ أهْدافَه، وبِخِلافِ ذلك، فإنَّه لا يمكنُ أنْ يتحقَّقَ وجودُ الإسلام حقيقةً وواقعاً؛ إذا تم تَجاهُلُ صِفَةُ العالَمِية، وتمَّ ترسيخُ الاعتزازِ بِالعَصَبياتِ والقَوْمِيَّات.

---

[٢١١] الحاكم، محمد بن عبدالله، المستدرك على الصحيحين، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا ، دار الكتب العلمية ، بيروت ،كتاب الإيمان ، حديث (١٠٠)، وقال: هذا حديث صحيح على شرطهما، فقد احتجا جميعاً بمالك بن سعير، والتفرد من الثقات مقبول . ووافقه الذهبي . ٩١/١ . وقد أخرجه البزار في زوائده، وقال: لا نعلم أحداً وصله إلا مالك بن سعير، وغيره يرسله، ولا يقول عن أبي هريرة، إنما يقول: عن أبي صالح عن النبي ﷺ. الهيثمي، كشف الأستار عن زوائد البزار على الكتب الستة، حديث(٢٣٦٩)،١١٤/٣ . تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، مؤسسة الرسالة، بيروت،ط١، ١٤٠٤هـ، ١٩٨٤م. وقال الهيثمي أيضاً: رواه البزار ورجاله رجال الصحيح. الهيثمي، مجمع الزوائد. ٢٥٧/٨

[٢١٢] سورة الأنبياء ، الآية ١٠٧ .

٢١٣ ابن حنبل، المسند، حديث (٢٣٨٨٥) . ص (١٧٤٥) ٤١١/٥ . قال الهيثمي في مجمع الزوائد : رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح . الهيثمي، علي بن أبي بكر، بغية الرائد في تحقيق مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ،تحقيق عبد الله الدرويش ، دار الفكر ، بيروت ، ١٤١٤هـ ١٩٩٤م. ٥٨٦/٣ (٥٦٢٢)

وعِندما تجاهلَ كثيرٌ من المسلمين عالَميةُ الإسلامِ، وغَفِلُوا عن ذلك، صارَ الإسلامَ في تُصَوُّرِهم - بأحكامِه وتشريعاتِه - من خِلال وَاقِعِهم الذي حَشَروا أنفُسَهم فيه، بَعيداً عن صِفَةِ العالَمِيةِ، وصاروا هُم أنفُسُهم بَعيدِين عن واقعِ الإسلام. حين قيَّدَ كثيرٌ منهم نَفسَه بالحِزبية،أو بالمَذهَبيةِ، أو بالطَّائفية، وذلك التقييدُ جَعَلهم يَنظُرونَ إلى إخْوةٍ لَهم في الإسلام، بِعَيْنِ الشَكِ، والرِّيبةِ، والعَداءِ، فَضْلاً عن شُمُولِهم في هذه النَّظْرةِ غَيْرَ المسلمين؛ بما لا يَتَّفِقُ، بلْ ويُناقِضُ عالَميةَ الإسلام. وحتَّى لا يَكونَ هذا التناقُضُ؛ فإنَّ الإسلام دَعَا إلى سدِّ كلِّ مَنَافذ الجاهليةِ، فَلا عَوْدةَ إلى جُذُورِها، ولا إلى عصَبيَّاتِها الضيِّقة، التي تَتَناقضُ كذلك، مع الالتزامِ بمُسمَّى الإيمان، وتُوجِدُ الاختلافَ والفُرْقةَ بين أبناء الأمة الواحدة، قال رسولُ الله ﷺ:**"من قُتِلَ تحت راية عُمِّيَةٍ، يدعو عصبيَّةً، أو ينصرُ عصبيَّةً، فقِتلةٌ جاهلية"**[214].

إنَّ أيَّة دعوةٍ للعصبيةِ، تعني ارتدادَ الإنسانِ الذي يتبنَّى مثل هذه الدعوة، من مَجالِ التَّعاونِ والتَّعارفِ، إلى مَجالِ التَّناحُرِ، والعداوة، وهي دَعْوةٌ مُخالِفةٌ لما جاء به الإسلام وقرَّره، ولذلك وصفها الإسلام بأبشع وَصْفٍ، بحيثُ يَأباها كلُّ مَنْ يَملِكُ أيَّ حِسٍّ إنساني، وأمَرَ بِتَرْكِها، وعدَمِ الالتفات إليها فقال: **" دعوها فإنها منتنة "**[215].

والسُّنةُ النَّبَويَّةُ بهذا تُؤكِّد ما قَرَّره الحقُّ - سبحانه - في خِطابِه للناس جميعاً بِقَوْلِه : **{ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ }**[216]، فَيُقرِّرُ أنَّ الاختلافَ والتَّنَوُّعَ بين الأجناس البشرية لِأجْل التَّعارُفِ، والتَّعاونِ، ولَيْس لِلنِّزاعِ، والصِّراع بين البشر.

والإسلام يَهْدِفُ إلى إيجادِ أمَّةٍ إنسانيةُ الخِطابِ والعطاء، ذاتِ بُعْدٍ عالَميٍّ، لا تَحُدُّها أيَّةُ حُدُودٍ جُغْرافيةٍ، يَكونُ ارتِباطُ الإنسانِ بِها ارتباطاً فِكْرياً، قائماً على عقيدة التَّوحيد. فكانَتْ أولَ مَن دعا إلى المُواطِن العَالَمي في تشكيلِها، حيثُ جَعَلَتْ مِيزانَ الكرامة، ومعيارَ التفاضلِ والارتقاءِ فيها كَسْبَ الإنسانِ، وفِعلَه المُختارَ، المُتَّسِقَ مع الفطرةِ.

إنَّ عَالَميةَ الإسلام تَفرضُ عالَميةَ الخِطابِ، بحيث يَتَجاوزُ هذا الخِطابُ الحُدودَ والقُيُودَ، ويَمْتلِكُ القدرةَ على استيعابِ حالاتِ التَّعدُّد المختلِفة، الحضاريةِ والدينية؛ فأيُّ إطارٍ جُزْئيٍّ حِزبيٍّ، أو

---

[214] مسلم، صحيح مسلم ،كتاب الإمارة، باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين... ، حديث(١٨٥٠) ، ١٤٧٨/٣.

[215] مسلم، صحيح مسلم، كتاب البر والصلة ، باب نصر الأخ ظالما أو مظلوما، رقم ٢٥٨٤، ١٩٩٨/٤.

[216] سورة الحجرات ، الآية ١٣ .

مَذْهبِيٍّ، أوْ طائفِيٍّ، يُؤثِّرُ في عالَمية الخِطابِ الذي يَتَبنَّاه المسلمون ويَطْرَحونَه، ويُقلِّلُ مِنْ قُدرتِه على الاستيعاب العالمي[٢١٧].

يذلك الخِطابِ الإنسانيِّ أسْقَطَتْ هذه الأمَّةُ المَعاييرَ القَسْرِيةِ في التفاضل بين الناسِ، تلك المعاييرُ التي لا يَدَ للإنسانِ فيها، مِن فَوارقِ اللَّوْنِ، والجِنْسِ، والقَوْمِ، والجُغْرافيا، فَبَرِئَتْ بِهذا من نَوازِعِ العَصَبِيةِ وَدَائِها، واعْتَبَرتِ الأقوامَ والأجْناسَ أمُوراً واقعية "[٢١٨].

أمَّا بعضُ المسلمين الذين قيَّدوا أنفسَهم بمذاهبَ محدَّدة، وحصروا الإسلام بشموله وعمومه ضمن الإطار المذهبي الذي ينتسبون إليه، فَإنَّهم بِهذه الإطاراتِ والمعاييرِ التي وَضَعوا الإسلام داخِلَها، صاروا يُنكرون على الآخرين من المسلمين من أصحاب المذاهب الأخرى تبنِّيهم والتزامِهم بِأحكام الإسلام وتشريعاته،حتى لو كانت تلك الأحكام بُنِيَتْ على اجتهادٍ صحيحٍ لا يتُّفقُ مَعَه تفكيرُ هؤلاء المُنكِرين، ولا آراؤهم، جَاهِلِين أو مُتجاهِلِين امتدادَ الإسلام، واتِّساع مجاله الذي يَشْملُ البَشريَّةَ كلَّها، بِعالَمِيَّتِه، وبِصلاحِيَّتِه للتطبيق في كل زمان ومكان.

إنَّ مِثْل هذه النظرةِ القائمةِ على الشَّكِّ والعَداءِ، تُشكِّل حاجزاً كبيراً، يَحُولُ دونَ التَّواصُلِ بين المسلمين وغيرِ المسلمين، وهذا يُشكِّل حظْراً وعائقاً لِتَحقيقِ عَالَمِية الإسلام، حيثُ إنَّ فِكْر الطائفة أو الطوائف لا يَصْلُحُ بديلاً مُقْنعاً لِلبَشَرية، يُسْهِمُ في حل مشكلاتها المُزْمِنة.

إنَّ التَّغافُلَ عن عالَمِيةِ الإسلامِ، أو إساءةَ فَهْمِها، قد أدَّى بِالمسلمِ إلى الوُقُوع في أسْرِ العَصَبيات الجاهليةِ، والتَّغنِّي بأمْجادِ الحَضَاراتِ القَديمة، كالفِرْعونيةِ، والفينيقيةِ، والأشُوريةِ، وغيرِها من الحضاراتِ البائدة قبْلَ الإسلام . " وصِفَةُ العالَمية في الرسالة تَحْمِلُ معنى القُدْرةِ على استيعابِ العالَم كُلِّه، فَيَجِدُ فيها الأسيويُّ حاجَتَه لِيَنْتمي إليها، كَما يَجِدُ الأفْرِيقيُّ فيها حاجَتَه، وكذلك الأوروبي والأمريكي، وغيرُهم في سائر أنحاء العالم . ولا يُمْكنُ لِخِطابٍ واحِدٍ أنْ يَستوعِبَ البَشَريةَ بِأكملِها؛ إذا لمْ يَكُن قادراً على استيعابِ خُصُوصِياتِها، وسَائرِ أنْساقِها الحضاريةِ، وإذا لمْ يَكُن قادراً على إيجادِ حلٍّ للإشكاليات التي تُواجِهُها البشريةُ كافَّةً " [٢١٩]

---

[٢١٧] العلواني، الفكر الإسلامي بين القدرات والعقبات . الدار العالمية للكتاب الإسلامي ،ط٢، الرياض، ١٤١٤هـ ١٩٩٤م . ص٦٢

[٢١٨] ابن عاشور، محمد الفاضل، روح الحضارة الإسلامية، المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، ط٢، فرجينيا ، ١٤١٣هـ ١٩٩٢م. من مقدمة الكتاب ص٦ .

[٢١٩] التويجري، عبد العزيز بن عثمان، العالم الإسلامي في عصر العولمة، دار الشروق، القاهرة، ٢٠٠٤م. ص١٥٧ ـ ١٦٧

المطلب الثاني

الأساس الفكري

- الوحيُ المَصْدر الأساس للمَعرِفةِ المُتكامِلة، والعقلُ تَبَعٌ له :

إنَّ التآلف بين الوحي كَمَصدرٍ أساس، والعقل تَبَعٌ له في المعرفة المتكاملة، ضَرُورةٌ للإنسانِ المسلمِ في كل وقت، لأنَّ ذلك يعطيه توازناً ومِصداقِيَّةً في سَعْيِه، وفي قَرَارِه.

والوَحْيُ والعقلُ الّلذانِ يُعَدَّانِ مَصْدَرِيْ المعْرِفة للإنسان المسلم، وكلاهما مُكمِّلٌ لِلآخر، مع تميُّز الوحي على العقل، فَهُوَ المَصدرُ الصادقُ الذي لا يأتيه الباطل من بين يَدَيْه، ولا من خَلْفِه، أمَّا العَقلُ فَكَثيراً ما يَخضَعُ للهوى ويَتأثَّرُ به . ومن ثَمَّ فالوَحْيُ هو الأساس، وهُوَ أرقى مَصَادرِ المَعْرفةِ الإنسانيةِ وأصَحُّها، أمَّا المَعْرفةُ الإنسانيةُ الناشئةُ عن الاجتهاد العقلي، فَهِي قابلةٌ للخطأ والصواب .

وقَدْ جاء في الحديثِ النبويِّ، التأكِيدُ على اعتبار الإسلامِ بِكُلِّ ما فيه من أحكامٍ وتوجيهاتٍ، الميزانَ والمقياسَ للأعْمالِ التي يَقُومُ بها المسلم في حياته، وأنَّ مِعْيارَ القَبولِ والرَّد، لاجتهادات الإنسانِ، وتَصرُّفاتِه القَوْلِيَّةِ والعَمَلِيةِ، هو ما ثَبتَ مِنَ الأدِلَّةِ والنُّصُوصِ التي نَزَلَ بها الوَحْيُ، والتي عَدَّها الشارِعُ الكريمُ ميزاناً ومِعْياراً لِلقَبُولِ والرُّد، قال النبي ﷺ : **" مَنْ عَمِلَ عملاً ليس عليه أمرُنا فهو رَدٌّ "**[220].

هذا الحَديثُ يُبَيِّنُ أنَّ المَردُودَ الذي لا اعتبارَ له من أعمالِ الإنسانِ واجتهاداتِه، هو ما كانَ مُخالَفاً لِما أمَرَ الإسلامُ به، ومِنْ وَجْهٍ آخَرَ، يُفْهَمُ مِنْ هذا الحديثِ، أنَّ ما صَدَرَ عن الإنسان مِنْ أعمالٍ واجتهاداتٍ، لا يُوجَدُ فيها أيَّةُ مُخَالَفةٍ لِشريعةِ الإسلام، فإنَّها مقْبُولَةٌ، ولا يُوجَدُ مانِعٌ مِنَ الاستفادةِ مِنْها .

إنَّ الناس على تَنوُّعِهم واختلافهم، وتَعَدُّدِ اجتهاداتِهم وغاياتِهم، تَختَلِف موازِينُهم ومعاييرُهم في الحُكْم على الأمور، بل وقَدْ تَضْطَرِبُ، وهذا ما يَجْعَلُ حاجةَ الإنسانِ ضَرُورِيَّةً إلى مِيزانٍ ومِعيارٍ

---

[220] مسلم، صحيح مسلم، كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة، ورد محدثات الأمور، حديث(١٧١٨)، ١٣٤٣/٣.

عَادِلٍ يَتَّصِفُ بِمِصْداقيةٍ لا يَتطرَّقُ الشَّكُّ إليها، ولا تتأثَّرُ بالأهواء، وهذه أوصافٌ لا يَجِدُها الإنسان إلاَّ فيما جاء به الوحيُ .

" ولِلوَحْيِ دَوْرٌ غيْرُ تَقييمِ الأعمالِ، والأحكام، والاجتهادات العقلية، مِنْ خلالِ تَكوينِ العقْلِ بَعيداً عنِ التَّقليدِ، والتَّعصُّبِ، والجُزئيةِ، والجُمُودِ، واستلابِ الغرائزِ، والضَلالِ، وتَحَكُّمِ الهَوَى، والأثَرَة، والعُنْصُريةِ، والتَّحيُّزِ، والجَهْلِ، وغيرِها مِنْ صُوَرِ الضَغط والتوجيه، التي تمنع العقلَ أنْ يَرى الصورةَ كلَّها، وأنْ يَضعَ الأمورَ في نِصابِها، وأنْ يَنْتهي إلى الحِكْمةِ الرَّاشِدة، والرَّأيِ الدَّقيقِ المُحيطِ السَّديدِ"[٢٢١].

وهذا لا يَمْنَعُ أنْ يَكونَ لِلعقلِ مجالُه الواسعُ الذي يَجتهِد فيه، مِمَّا لا يَتعارَضُ فِيه مَعَ الوَحْيِ كَمَصدَرٍ رئيسٍ لِلمعرفة، فَالحِكْمةُ قدْ تكونُ منَ اجتهاد هذا الشَّخص أو ذاك، والإنسانُ كثيراً ما يَستفيدُ مِنْ تَجارِبِ الآخَرين، ويَقتَنِصُ فَوائدَها. وهذه الحِكْمةُ تُؤكِّدُ دَوْرَ العقْلِ في الاجتهادِ، والاقْتِباسِ، والانتفاعِ بِما لدى الآخَرِين، مِمَّا يَصلُحُ به حالُ الإنسان والأمَّة . ولعلَّ هذا هو المأمول من كل مسلم، مصداقاً لقوله تعالى: **{ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ{١٨}**[٢٢٢]

ولعلَّ الحديث النبوي بيَّن هذا الميزان ، ففيما رواه عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ أنه قال: **" لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تَبَعاً لما جئتُ به "** [٢٢٣] لذلك لا بُدَّ من التآلُف بينَ الاجتهاد العَقْليِّ وبينَ ما نَزَل به الوَحْيُ، وهو ما يُعطي للعقْلِ عائداً مُهِمَّاً وضَرُورِيَّاً بِهذا التآلُفِ والتَّكامُل بينَ الوَحْيِ والعقْلِ، ويَتَمثَّلُ هذا العائدُ في امتلاك العقْلِ المُسلمِ لِلحقيقةِ المَوْضُوعيةِ ، التي يُدرِكُ وجودَها ويُدرِكُ أبعادَها، ويَسْعى للتَّفاعُلِ الصحيحِ مَعَها، ومَع نوامِيسِها وسُنَنِها.

لذلك لا غِنى للعقْلِ عن الوَحْيِ، والسببُ في ذلك راجعٌ إلى صُعُوبَةِ الإدراكِ العَقْلِيِّ وحَدِّه لِلواقع، فَعَقْلُ الإنسانِ ـ بدايةً ـ يشكو من ضَعْفٍ جَوْهريٍّ في هذا الشأن، فهو ليس مُصمَّماً أصلاً لكي يُعطينا صورةً صحيحةً ومُكْتملةً عن الواقع . وقد كُتِبَ على الإنسان أنْ يَرى واقعَه دوماً من خلال عَدَسةٍ مُشوَّهةٍ، خاضِعَةٍ لِلأهواء والأماني، حيثُ يَرَى الواقِعَ لا على صُورَتِه الحقيقيةِ، وإنَّما يراه كما يُرِيدُ أو يُحِبُّ أو يَتمنَّى أنْ يَراه .

---

[٢٢١] د. عويس، ثوابت ضرورية في فقه الصحوة الإسلامية . ص١١ـ ١٢

[٢٢٢] سورة الزمر، الأية ١٨.

[٢٢٣] ابن أبي عاصم، السنة، باب : ما يجب أن يكون هوى المرء تبعاً لما جاه به النبي ﷺ ، حديث (١٥). وقال الألباني : إسناده ضعيف ، رجاله ثقات غير نعيم بن حماد ضعيف لكثرة خطئه وقد اتهمه بعضهم . السنة ١/ ١٢

" لأنَّ حواسَّنا التي تَنقلُ لنا صورةَ الواقعِ ليستْ بريئةً أو دقيقةً، والعقْلُ مِنْ جانبِه ليسَ ماسِحاً أميناً، ولا شامِلاً لِمُجْرَيات الواقع، فَالعَقْلُ يَنْتقي مِمَّا تَلْتقِطُه الحَواسُّ؛ وما يَرُوقُ له أنْ يُسجِّلَه في ذاكِرَتِه، وهذه الذَّاكرَةُ ليْسَتْ آمنةً ولا أمينة - لِما يُصيبُها من الآفاتِ، ولِما يُؤثِّرَ عليْها مِنَ المؤثِّرات، ولِكَوْنِها عُرْضةً للنسيانِ والاضمحلال - على ما يُوْدِعُه العقلُ فيها مِنْ نَوَاتِجِ مُدرَكاتِه، وحَصَادِ خِبْراتِه.

لَقد أثْبَتَتِ الدراساتُ أنَّها كِيانٌ فاعلٌ متفاعِلٌ، يُمْكِنُ أنْ يُعيدَ صِياغةَ ما في حوْزتِه، بحيثُ تُضيفُ الذاكرةُ على ما أوْدَعَه العقْلُ فيها، وتنْفعِلُ بما تُثيرُه فيها الكلماتُ والمَواقِفُ، وتَتَأثَّرُ بما يَنجُمُ عن نَزَعاتِ الحَنينِ للماضي، مِنْ تَحريفٍ لِتذكرياتٍ وتَعديلٍ، وهذا ما يُوجِبُ على الإنسانِ الاعتمادَ على مِعْيارٍ دقيقٍ، لا مجالَ لأنْ تُؤثِّرَ فيه كُلُّ هذه المؤثِّراتِ السَّلْبيةِ، لِكيْ يكونَ له دَوْرُ التَّقْييمِ والتَّقويمِ، والمؤهَّلُ لذلك هوَ الوَحْيُ." [224]

فإذا كان العقلُ البشريُّ بهذه الصورة من التأثُّر بالواقع، والبُعْد عن الحيادية، فإنَّه من هذه الناحية بحاجة ماسَّةٍ؛ لِمَا يُمكِنُ أنْ يَقِيه ويُحافظ عليه من كلِّ هذه السلبيات، حتى يُؤدِّي دورَه المُكلَّف به، مِنْ مَصْدرٍ غيرِ بشري، بعيدٍ عن الهوى وتأثيراتِه، ولا يُمْكِنُ أن يقوم بهذا الدَّوْرِ غيْرُ الوحي. وإذا جاز التَّشبيهُ فالوَحْيُ لِلعقْلِ، كالضَّوْءِ لِلبَصَر، فَكمَا أنَّ آلةَ البَصَرِ لا تَعمَلُ بِشَكْلٍ صحيحٍ إلاَّ بِوُجُود الضَّوءِ، فَكذلك العقْلُ لا يُمكِنُ أنْ يعملَ بِصُورةٍ صحيحةٍ، إلاَّ بِهَدْيٍ من الوحي، سواءٌ فيما يتعلَّقُ بعالَم الغيْب أو عالَم الشهادة .

ولذلك فإنَّ الإنسان السوي العاقل، يُدرِك أنَّ عقْلَه قاصِرٌ عن الإدراك والوعي الكامل، إلا بالاستفادة مِمَّا جاء به الوحي. فَالعقْلُ عاجِزٌ بِغَيْرِ الوَحْي، عن معرفة الحقائق الكونية المتعلقة بِعَالَمَيْ الغيب والشهادة، لِذلك لا بُدَّ لِلعقل من الاجتهاد فِيما جاء الوحيُ بِه .

ولا يُمكِنُ تكوينُ المعْرفةِ ولا إحرازُها من النَّصِّ وحْدَه بِغَيْرِ اجتهادٍ عقْلِيٍّ، فالنَّصُّ القُرآنيُّ، أو الأحاديثُ النَّبويَّةُ، مَوضُوعُها الإنسانُ، المُستخلَفُ، المُكلَّفُ، المُطالَبُ بِفِقْه تَعاليم هذا الوَحْيِ وتَنْزِيلِها على واقِعِه. وهذا الواقعُ هو مجالُ حركةٍ واستخلافِ هذا الإنسان، وهُوَ واقعٌ تَحْكُمُه سُنَنٌ، ونواميسُ، ونظامٌ دقيقٌ، ثابتٌ، مُطَّرِدٌ .

" كَمَا أنَّه لا يُمْكنُ لِلعقْلِ وحدَه أنْ يَكونَ مُستقلاً بِالمَعرِفة، وكلُّ التجارب العقلية التي استقلَّت بالمعرفة تحوَّلت إلى نَزَعاتٍ عقليةٍ متحيزةٍ، وَصَلَتْ إلى درَجةِ تَأليهِ العقْل كمَا في التَّجْرُبةِ الغربية

---

[224] د. نبيل علي، "العقل العربي ومجتمع المعرفة..." ٩/٢ .

فَالعقْلُ عاجِزٌ عن مَعرفة الحقائق الكونيةِ، والإنسانيةِ، المُنْتمِيةِ إلى عالَم الشَّهادة، فَكَيفَ بِالأسرار الخفيةِ، وعالَم الغَيبِ كُلِّه؟!" [٢٢٥].

لَقدْ تَخلَّصَ الإنسانُ المسلمُ، من ثُنائيةِ الوَحْيِ والعقْلِ، فَلَمْ يَرَ المُسلمُ تَناقُضاً بين مَعارِفِ الوَحْيِ، ومَدارِكِ العقْلِ، ويَشهدُ لذلك، الواقعُ الذي عاشه المسلمون في عَصْرِ الإسلامِ الأولِ، والثِّمارُ الطَّيِّبةُ، والنَّتائجُ تَرَكَتْ آثارَها على مَسَارِ الحضارة الإنسانيةِ، نَتيجةَ الانْسِجامِ، والتَّوافُقِ، والتَّكامُلِ بين العقْلِ والوحْيِ.

فَمِنْ خلالِ الاجتِهادِ العقْليِّ فِيما كان مَوْضِعاً للاجتِهادِ؛ مِمَّا جاء به الوحي، انطَلَقَ العقلُ من مَجالِه المَحدُودِ، إلى مَجالٍ أكثَرَ اتِّساعاً وامتداداً، بِحيْث تَوفَّرتْ لِلعقْلِ جُمْلَةٌ كبيرةٌ من الحقائقِ المُوثَّقةِ، التي استطاع الإنسانُ الوصولَ من خلالِها، إلى مَعارِفَ إنسانيةٍ، عَظيمةِ النَّفْعِ والفائدة، ما كانتْ لِتُوجَدَ لولا مَجِيءُ الوحي بها .

وهذه الرُّؤيَةُ الإسلاميةُ القَويمةُ، التي يَتكاملُ فيها الوحْيُ، والعقْلُ، والكَوْنُ، هي التي مَكَّنتْ لِلسَّلَفِ الأوَّلِ ناصيةَ الإبداعِ، وفَتحَتْ أمامَ العقلِ المسلمِ أبوابَ التَّنقيبِ في سُنَنِ الحياةِ، " وفَتَحتْ لِلإنسانيةِ آفاقاً جديدةً بَنَتْ عليها الحضارةُ الحَديثةُ مَنهجَها العِلْميَّ التَّجرِيبِيَّ، وبَنَتْ عليها إنجازاتِها التي لمْ يُعرَفْ لها مثيل" [٢٢٦] .

وقد ورد في السنة النبوية ما يُبيِّنُ أهَمِّيةَ الاجتهادِ العقْليِّ، ويُبيِّنُ أجْرَ المُجْتهِدِ في كل أحواله، سواءٌ أصَابَ في اجتهادِه أمْ أخطأ. والعقْلُ هُوَ الذي يُحدِّد الصوابَ مِنَ الخَطأ، اعْتماداً على ضَوابِطَ ومَوَازِينَ وُضِعت له - وبخاصة في الأحكام والتوجيهات الشرعية - لا يَجِدُها إلاَّ في المَصْدرِ الأعلى والأوثَقِ من العقْل، وهو الوحي .

ففي الحديث عن الرسولِ ﷺ أنه قال:" إذا حَكَمَ الحاكمُ، فاجْتهَدَ، ثُمَّ أصَابَ فَلَه أجْرانِ، وإذا حَكَمَ، فاجْتَهَدَ، ثُمَّ أخْطأ فَلَه أجْرٌ " [٢٢٧] ، هذا الحديثُ وإنْ تحدَّث عن اجتهاد الحاكم، أيِّ حاكِمٍ، وهُوَ اجْتِهادٌ مُرتَبِطٌ بِأحوالِ الناسِ، إلاَّ أنَّ فيه دلالة على ما أتاحَه الإسلامُ لِلإنسان، لِيُعْمِل فِكْره واجتِهادَه من خلال البَحْثِ الحُرِّ، لِلوصُولِ إلى مَعرِفةٍ جديدةٍ.

---

[٢٢٥] د. شبار، سعيد، الأسس المرجعية والمنهجية لتجديد الفكر الإسلامي . منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والثقافة والعلوم والثقافة(إيسيسكو)، المغرب، ١٤٣٢هـ ٢٠١١م. ص ١٩ - ٢٠

[٢٢٦] أبو سليمان، قضية المنهجية في الفكر الإسلامي . ص ١٧ .

[٢٢٧] البخاري، صحيح البخاري، كتاب الاعتصام، باب أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ ، حديث (٧٣٥٢) . ص ٣٢٨١ .

حيثُ حثَّ الحديثُ النَّبويُّ على الاجتهاد وشجَّعه، والاجتهادُ قدْ يكونُ في الأدِلَّة الشَّرعيةِ، الوارِدةِ في القُرآنِ والسُّنَّةِ، وهنا يَكون التكاملُ بَين العقل والنص، وُصُولاً إلى المعرفة الصحيحةِ. وقدْ يكونُ اجتهاداً عَقْلياً فِيما لمْ يَرِدْ فيه نَصٌّ، ولَكِنَّه لا بُدَّ أنْ يكونَ مُنضبِطاً بالوحي، حتّى لا يكونَ هناك تَألِيهٌ لِلعقْلِ، وحتى لا يَكونَ الاجتهادُ العقْليُّ في ما لا مجال فيه للاجتهاد.

التوافق والانسجام في السعي بين الدنيا والآخرة :

إنَّ الحياةَ الدنيا في تصوُّرِ المسلم كما بيَّنها القرآن الكريم والسُّنَّةُ النَّبويّة، هي دارُ ابتلاءٍ وعملٍ، وإنَّ الآخِرةَ دارُ الجزاء. بِمعنى أنَّ الإنسانَ المسلم يَنبغي أنْ يسعى في الأرض، ويَعمَل فيها بالعَمَلِ الصالحِ، الذي يَنفعُه في الدنيا وفي الآخِرة، وبِهِ يَنفعُ مُجتمَعَه، وأُمَّتَه، والإنسانيةَ عامةً

وحتى يتحقَّقَ هذا التصوُّرُ فِعلياً على أرض الواقع، فَعَلى الإنسانِ أنْ يَصنَعَ التوافُقَ والانسجامَ بين الدارين: الدنيا والآخرة، في سَعْيِه في الحياة؛ لأنَّ أيَّ تقصيرٍ أو خلَلٍ، سَيُؤثِّر على التوافق والانسجام في سعي الإنسان في حياته، وسَيَتْرُكَ عليه أثراً كبيراً في الدنيا والآخرة.

إنَّ الإنسانَ عِندما يُوْلِي جُلَّ اهتمامِه وسعيِه، لِدُنياه دُونَ آخِرَتِه، سَيَخْسَرُ آخِرَتَه، وهذا لا يَكونُ إلاَّ مِن إنسانٍ لا يُؤمِنُ بِاليومِ الآخِرِ، ظانّاً بِأنَّ هذه الدنيا لا مَعَاد بَعْدَها. لِذلك إنَّ أيَّ إنسانٍ على هذه الشاكلة، يَلْهو ويَلْعبُ، وإنْ كان جاداً في حياتِه، بِسببِ إهمالِه لآخِرَتِه .

وعلى النَّقيضِ من ذلك، فإنَّ الإنسانَ إذا تخلَّى عن السَّعي لِدُنياه، بِدَعْوى الزُّهدِ فيها، وإنَّها جِيفةٌ قَذِرة، وإنَّها لا تُساوي عندَ الله جَناح بَعُوضَةٍ، وإلى غير ذلك من الأوصافِ الشائعة، التي أسَاء فَهْمَها وتفسِيرَها، مُبَرِّراً عَجْزَه وتقصيرَه. ولِلتَّعويضِ عن ذلك التقصيرِ والعَجْزِ، تَرَاه يدَّعي بأنَّه يُؤثِر الآجلةَ على العاجِلة، والباقيةَ على الفانيةِ، غيْرَ مُدرِكٍ ما أصَابَه مِنَ التقصيرِ والعَجْزِ في سَعْيِهِ للدارين كلَيْهما.

لمْ يَكُنْ عِنْدَ الأجيالِ الأولى من المسلمين ذلك الفاصلُ الحادُّ بين الدنيا والآخرة، ولَمْ يَكُنْ في حِسِّهِم أنَّ هناك أعمالاً مُعَيَّنةً هي للدنيا دُونَ الآخرة، أوْ أعمالاً هي للآخرة دُونَ الدنيا.

عندما كانَ المفهومَ الصحيحُ لِلعبادةِ هو الذي يَحكُمُ حياتَهم، ويَحكمُ تصوُّرَهم، الذي جاء بيانُه في قوله تعالى : { قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ } [٢٢٨]؛ " كانَتِ الحياةُ في

---

[٢٢٨] سورة الأنعام ، الآية ١٦٢ .

جِسْمِهِم حَلْقَةٌ مُتَّصِلَةٌ، لا انْفِصامَ فيها بينَ جُزْءٍ وجُزْءٍ، فالصَّلاةُ فيها، والنُّسُكُ، والقِتالُ في سبيلِ اللهِ، والسَّعيُ وراءَ الرِّزْقِ، وطَلَبُ العِلْمِ، وعِمارةُ الأرضِ، كُلُّها عبادة، وكُلُّها لِلدُّنيا وللآخِرَةِ مَعاً.

والحقيقة أنَّ الإنسانَ عندما يُدقِّقُ النَّظَرَ في سَعيِهِ في هذه الحياة؛ فإنه لابدَّ أنْ يَستقِرَّ في ذِهْنِهِ، أنَّ السَّعيَ لِلدّارَينِ كِلَيهِما، هوَ سَعيٌ واحدٌ، بِمُوجِبِ المفهومِ الشّاملِ لِلعبادةِ، والذي لا يَقتَصِرُ على العباداتِ الدينيةِ المفروضةِ، بلْ يَشمَلُ كُلَّ عَمَلٍ يُبْتَغى بِهِ وجْهُ اللهِ تعالى. وإنَّه لا تَناقُضَ بين سَعْيِ الإنسانِ للدنيا، وبَين سَعيِهِ للآخرة. "[229]

هذا الأمْرُ الذي بيَّنه الرسولُ ﷺ لِلنَّفرِ الثلاثةِ مِن أصحابِهِ، الذين حَرِصُوا على أنْ يَقُومُوا بالعبادةِ كاملة،كما يَقُومُ بها الرسولُ ﷺ، رَغْبَةً في الأجْرِ، وتَكْفيراً لِذُنُوبِهِم، وفي ظَنِّهِم أنَّ ذلك لا يتحقَّقُ إلاَّ باعتزالِ الدُّنيا والتَّخلِّي عنها، مُعْتَقِدِينَ أنَّه لا مجالَ لِلتوافق في السَّعيِ، بَينَ الدُّنيا والآخِرَةِ.

وقد جاء في الحديث عن أنَسِ بنِ مالك ـ رضي الله عنه ـ أنَّه قال : **" جاء ثلاثةُ رَهْطٍ إلى بُيُوتِ أزْواجِ النبي ﷺ يَسْألونَ عن عِبادتِهِ، فَلَمَّا أُخْبِرُوا، كأنَّهم تَقَالُّوها، فقالوا : أينَ نحنُ من النبي ؟ فَقَدْ غُفِرَ لَه ما تقدَّم مِن ذَنْبِهِ وما تأخر، فَقالَ أحدُهم : أمَّا أنا فأُصلِّي اللَّيلَ أبداً. وقَالَ الآخَرُ: أنا أصومُ الدَّهْرَ ولا أفْطِر . وقال آخَرُ : أنا أعتزِلُ النِّساءَ، فَلا أتزوَّجُ أبداً. فَجاءَ رسولُ ﷺفقالَ : إنِّي لأخْشاكم لِلهِ، وأتْقاكم لَه، ولَكِنِّي أصومُ وأفْطِرُ، وأصلي وأرْقد ، وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني "** [230]

فقدْ أرادَ هؤلاء الثلاثةُ اعتِزالَ الدُّنيا والإقبالَ على الآخِرةِ، حيثُ أرادوا الانقطاعَ عن مَلَذَّاتِ الدُّنيا مِنَ النِّساءِ، والطِّيبِ، والطَّعامِ، والنَّوم، تَفَرُّغاً للعبادة، لأنَّها في تصوُّرِهم أوْلى وأهمّ. فلمَّا سَمِعَ الرَّسولُ مَقَالَتَهم بيَّن لهم أنَّ المَنْهجَ الصحيح، يَكونُ بِالجَمع بين أمْرِ الدنيا وأمْرِ الآخرة، وأنَّ الإنسانَ كَمَا يَحْرِصُ على أمْرِ الآخِرةِ، فَعَلَيْهِ أنْ يَسْعى في الحياة الدنيا، بَلْ على المسلمِ أنْ يُدْرِكَ أنَّ الطَّريقَ واحدٌ، أوَّلُه في الدنيا، وآخِرُه في الآخرة. والإسلامُ ـ كما بيَّن النبي ﷺ لَيسَ فيه رَهْبانِيةٌ ولا تَبَتُّلٌ، ولَيسَ فيه انْقطاعٌ عن الدنيا.

---

[229] محمد قطب، مفاهيم ينبغي أن تصحح . دار الشروق .ص ٢٨٣ـ ٢٨٥ .

[230] سبق تخريجه ص٧٧، أخرجه البخاري .

وقد جاء في الحديثِ عن حَنْظلةَ الأُسَيْدي أنَّ الرسول ﷺ قالَ له :" **ولكن يا حَنْظَلةَ، ساعةً وسَاعة**"[231]، وكان ذلك عندما أشفقَ حنظلةُ على نفسهِ، لِتغيُّرِ حالِه عند السَّعي لِطلَبِ الرِّزقِ، واختلافِه عن حالِه عندما يكونُ جالساً مستمعاً إلى الرسولِ ﷺ، فقدْ بيَّنَ له الرسولُ ﷺ أنَّ تغيُّرَ حالِه بانشغالِه بِأمرِ الدنيا، ينْبغي أنْ لا يُقْلِقَه، بَلْ أمَرَه بِطَلَبِ الأمْرَيْنِ، لأنَّ ذلك يَتَوافَقُ وفِطْرةَ الإنسانِ. وما جاء الإسلام وأمَرَ إلا بِذلك .

وهُوَ ما كان الرسولُ ﷺ حَريصاً عليه، في أقوالِه وأفعالِه، وفي تَوْجيهِه لأصحابِه، وفي تَرْبيتِهم عليه، وذلك ضِمنَ إطارِ التربيةِ، والإعدادِ الشاملِ والكاملِ، لِلفَردِ ولِلجماعةِ المسلمة، من حيثُ الاهتمامُ والعِنايةُ، بِكُلِّ ما فيه نَفْعٌ للإنسان، في دُنياه وآخِرتِه .

فَمِن خلال تطبيق هذه التوجيهاتِ صارَ الإسلامُ واقعاً حياً في المجتمع، حيث كانت الأمَّةُ " أمَّةً مسلمةً "، فَلَمَّا غابَ هذا الأساسُ واختفى، في الجانبِ التَّرْبويِّ لِلفردِ المسلمِ، وهو الأساس في صياغةِ وتشكيلِ الفرْدِ المسلمُ، في جوانِبِه كلِّها؛ تَرَكَ آثاراً خطيرةً على واقعِ الأمَّة الإسلاميةِ، تَظْهَرُ مِنْ خلالِ عُزُوفِ كثيرٍ من المسلمين، إمَّا عن الدنيا وزِينتِها وطيِّباتِها طَلَباً للآخِرةِ، وأمَّا عن العِباداتِ انْشِغالاً واهتماماً بالدنيا .

---

[231] مسلم ، صحيح مسلم ، كتاب التوبة ، باب فضل دوام الذكر ...والاشتغال بالدنيا ، حديث (٢٧٥٠) . ص٢١٠٦

المطلب الثالث

الأساس المنهجي

- التربية على قيم الحق والعدل والخير .

إنَّ المتأمِّلَ لِسيرةِ الرسولِﷺ، وبِخاصةٍ في بِداية عهْدِ الدَّعوة الإسلامية، يَتبيَّن له الاهتمامَ والحِرْصَ الذي كان يُوليه الرسولُ ﷺ لِلجانبِ الإيمانيِّ في تربيةِ أصحابِه، في مجتمعٍ عجَّ بالشرك، وطَغَتْ عليه الجاهلية.

لقدْ ربَّى أصحابَه على الإيمان، وغرَسَه في قُلُوبِهم مُستعيناً في ذلك بِما كانَ يتنزَّل من الوحي، في سبيل إخراجِ جِيلٍ مؤمنٍ، تَكُونُ عنده القدرةُ على احتمال صُعُوباتِ الطَّريقِ ومَشَقَّاتِه، لا سِيَّما وهُمْ مُقْبِلُون على تقديمِ تَضحياتٍ جمَّة، وهم يواجهون مجتمعاً أقام صرْحَه على الجاهلية بِكُل تصوراتها.

لقد سارَ الرسولُ ﷺ وِفْق خُطُواتٍ مُتَسَلْسِلةٍ مُتدرِّجةٍ، وبِمَنهجٍ شاملٍ متكاملٍ، في شتَّى الجوانب، لكي يُعِيد البشرية إلى الطَّريقِ السَّويِّ، في دَعْوةٍ ما جاءت إلاَّ لِتحقيقِ القِيَمِ الإنسانيةِ الرَّفِيعةِ، التي يَطمَحُ إليها كلُّ صاحب فِطْرَةٍ سَوِيَّة، وهيَ قِيَمُ الحَقِّ، والعَدْلِ، والخَيْرِ.

لَقَدْ جاء الإسلامُ لِتحقيقِ كلِّ ما فيه إنسانيةُ هذا الإنسان وكرامتُه، من خلال الدعوة إلى تربيةِ الإنسان على القِيَمِ والمُثُلِ العُلْيا، التي تَرتقي بالإنسانِ. ومِنْ هذه القِيَمِ، التزامُ الحَقِّ والتَّواصي به، والتضحيةُ في سبيلِ بَقائه وترسيخِه في المجتمع الإنساني، والأمْرُ بالعَدْلِ، لِتحقيقِ الخَيْر والنَّفْعِ للإنسانيةِ.

إنَّ مجتمعًا تَسْري في أوْصَالِه مِثْلُ تلك القِيَمِ، لا يُمْكنُ أنْ يَتسرَّبَ إليه الوَهْنُ والضَّعْفُ، لأن أفرادَه المُتشبِّعون بِهذه القِيَمِ، لا يَكْتَفُونَ بِالوقوف عند حُدُودِهم، وعِنْدَ حُقُوقِهم، فَذلك حَدٌّ أدنى، بل إنهم لَيتجَاوزونَ ذلك، للمُطالَبَةِ بِحُقُوقِ غيْرِهم، وإلى تقديم العَوْنِ إلى بعضِهم بَعْضًا، وتَفريجِ كَرْبِ بَعْضِهم بَعْضًا، التزاماً بما دعا إليه رسول الله ﷺ حيثُ قال : " المُسْلمُ أخو المُسْلمُ، لا يَظْلمُه، ولا

يُسْلِمُه، وَمَنْ كان في حاجةِ أخيه، كان اللهُ في حاجَتِه. ومَنْ فرّجَ عن مُؤمنٍ كُرْبةً مِنْ كُرَبِ الدنيا، **فرَّجَ اللهُ عنْه بها كُرْبةً مِن كُرَبِ يوْمِ القيامة "** [٢٣٢]

وهذه القِيَمُ التي جاء بها الإسلام، لا بُدَّ مِنْ وُجُودِ دافِعٍ قويّ لدى الإنسان، حتى يَتبنّاها ويَقومَ بها، وليس هناك أفضلُ وأقوى من الدّافِعِ الديني، كَعَاملٍ مُحفّزٍ للإنسان، لِكيْ يَعملَ بها، ويُقيّد بِها سُلُوكَه الإنساني.

ولَمْ يَكنْ الإيمانُ دافِعاً للإنسان المؤمنِ لِلقيام بأعمالِ الخيْرِ، بلْ إنّ الإسلامَ جَعَلَ تِلكَ الأعمالَ تجسيداً لِلقِيَمِ التي دعا إليها، وجَعَلَها جُزءاً مِنَ الإيمان، وقد جاء ذلك في الحديث عن الرسول ﷺ، عندما بيّن أنّ لِلإيمانِ شُعَباً كثيرةً، مُبيّناً أفضلَها وأدناها، حيثُ جاءتْ في إطار قائمة سُلُوكية، غايَتُها تحقيقُ هذه القيم عَمَلاً بِها، حيث قال رسول الله ﷺ : **" الإيمانُ بِضْعٌ وسَبْعون، أو بِضْعٌ وسِتُّون شُعْبة. فأفضَلُها قوْلُ لا إله إلا الله، وأدْناها إماطةُ الأذى عن الطَّرِيقِ . والحياءُ شُعْبةٌ مِنَ الإيمانِ "** [٢٣٣].

فهذا الحديثُ يُبَيِّن بإيجازٍ، بَعضَ شُعَبِ الإيمان، وأنّ عددها أكثر مِمّا بيّنه مِنَ الشُّعَب، وهي كُلُّها تَحُثُّ على الخَيْرِ، وفيه النَّفْعُ للمسلمين، ودَفْعُ الأذى عنهم.

وقد جاء بيانُ كثيرٍ مِنْ هذه الشُّعَبِ في أحاديثَ نَبَويّةٍ كثيرة، تُبيِّن أعمالاً يَستَحِق بها الإنسانُ وَصْفَ الإيمان، فيها دَلالَةٌ على أنّ الإيمانَ ليْس قضيةً قلبيةً، تَقْتَصِرُ على عَلاقةِ الإنسان بِخالِقِه فقط، بل هو عَمَلٌ لا بُدّ أنْ يَمتدَّ أثرُه لِيَكُونَ لِلإيمانِ وُجُودٌ عَمَليٌّ في عَلاقةِ الإنسانِ المُؤمِنِ مَعَ أخيه المُؤمِنِ، وهذا لا يَتحقّقُ إلاّ بأنْ يَكُونَ المُؤمنُ إنسانَ الواجِب، الذي يَحْرِصُ على الحقّ، والعَدْلِ، والخَيْرِ .

ومِن جُملَةِ الأحاديثِ النبويةِ التي جاءتْ لِتَرسيخِ القِيَمِ في المُجْتمعِ، لِتُكونَ هذه القِيَمُ الأساسَ الذي يُبنى عليه المجتمع، وتُصانَ به الأوطانُ، لِتَبْقى مُحافِظةً على أسبابِ القُوّةِ فيها؛ الحديثُ الوارِدُ عن الرسولِ ﷺ حيثُ قال: **" لا تزالُ طائفةٌ مِنْ أُمّتي ظاهِرِينَ على الحَقّ، لا يَضُرُّهم مَنْ خَذَلَهم، حتى يأتِيَ أمْرُ اللهِ وهُمْ كذلك "** [٢٣٤].

---

[٢٣٢] البخاري ، صحيح البخاري، كتاب المظالم ، باب لا يظلم المسلمُ المسلمَ ولا يسلمه ، حديث (٢٤٤٢) ،ص١٢٥٣

[٢٣٣] مسلم، صحيح مسلم ، كتاب الإيمان ، باب بيان عدد شعب الإيمان وأفضلها ... ، حديث (٥٧) . ص٦٣

[٢٣٤] مسلم، صحيح مسلم ، كتاب الإمارة ، باب قوله ﷺ " لا تزال طائفة من أمتي..." ، حديث (١٩٢٠) . ص ١٥٢٣ .

فإنَّ في الحديثِ توجيهاً للمسلم لِلحِرْصِ على أنْ يكون من الطائفةِ القائمةِ على الحقِ، المُدَافِعةِ عنه، والثَّابِتة عليه، بِالرُّغمِ مِن الضُّررِ والأذى، الذي قَدْ يَنْزِلُ بِهم من مُخَالِفِيهم، الذين غَيَّبوا قِيَمَ الحَقِّ عن واقعهم بِإرادتهم .

" إنَّ الطائفةَ القائمةَ على الحقِّ، تُمثِّل بِحَقٍ مَيداناً تدريبياً تأصيلياً لِلمعاني الغائبةِ، وتَرْجمةً لِلقيمِ إلى واقعٍ وسلوك، وتَرْجَمَةً لِلأفكار إلى أفعال، بِشَكْلٍ يَمْنَحُ الأمَّةَ القُدْرةَ على اكتشاف أخطائها، ومُمارَسةِ عَملياتِ التَّصويبِ، والنُّهُوضِ، والتَّجَدُدِ الذَّاتي، والقضاءِ على جوانبِ الانحراف، ومَنابِتِ السُّوءِ "[٢٣٥].

وفي الطريق لإبقاء المجتمع مُتجدِّداً، ومتقدماً باستمرار في مجالات الخيرِ كلِّها؛ فإنَّ الإسلامَ لَمْ يَدَعْ سبيلاً إلاَّ بيَّنه، ومِنْ ذلك ما جاء في الحديث عن الرسول ﷺ في مجال حَثَّ الإنسانِ المسلمِ، على أنْ يَكونَ عنواناً لإحياء القيم، وإعادة بَعْثِها مِن جديد، في الطريق إلى النُّهُوض الارْتقاء، حيث قال الرسولُ ﷺ: **" من سَنَّ في الإسلام سُنَّة حسنة ، فعُمِلَ بها بعده ، كُتِبَ له مِثْلُ أجر من عمل بها ، ولا ينقص من أجورهم شيء ... "**[٢٣٦].

فهذا الحديث يُبيِّن أجْرَ من دعا إلى الخير، أوْ مَن فتح باباً للخير، أو مَنْ أحيا أمراً حسناً، غَفِل الناسُ عنه، بِحيْثُ تَبِعَه الآخرونَ على طريقته. وفي ذلك ترغيبٌ لِكلِ مُسلم لِكيْ يَبْحثَ عن أبوابِ الخير التي ينتفع بها المسلمون، فَيَفْتحَها على مِصْرَاعيْها لِيكونَ أسْوةً لِغيْره، ولِيَصيرَ المجتمعُ بعد ذلك، في طريقِ المُسارَعةِ إلى الخَيْراتِ، والمُسابَقَةِ في ميادين الخيرِ والحق.

وكذلكَ مِنَ القِيَمِ التي يُعَدُّ وُجُودُها شَرْطاً لِقِيامِ الأمَّة القوية، قِيمةُ نُصْرَةِ الحَقِّ، لأنَّ وُجُودَها هُوَ السبيلُ لإقامة العَدْلِ؛ الذي هو المُبَرِّرُ الأوَّلُ لِوُجُودِ الأمم، ومنها الأمةُ الإسلامية، وحَيْثُما وُجِدَتْ هذه القِيم في المجتمع، فإنَّها تَتْركُ فيه أثراً إيجابياً، يَتمثَّلُ في قوَّتِه ومنَعَتِه، وصِيانَتِه عن المفاسِدِ التي تُؤدِّي إلى انهيارِه.

فإذا تَربَّى المجتمعُ على هذه القيم، كان هذا شأنُه وحالُه، مِن حيثُ القوةُ والمَنَعة، وأمَّا إذا تغيَّر حالُ المجتمعِ، وانهارتْ هذه القِيمُ، ولمْ يَعدْ لها وجُودٌ، فلا بُدَّ أنْ يَنْتشرَ فيه الفسادُ، في مُختلِف

---

[٢٣٥] د. الإمام ، المستقبل للإسلام . ص ٢٠ .

[٢٣٦] مسلم ، صحيح مسلم ، كتاب العلم ، باب من سنَّ في الإسلام ... ، حديث (١٠١٧) . ص ٢٠٥٩ .

جَوانبِه؛ فَتَنْخرُ في جَسَده عوامل الضَّعفِ لذلك تَضَافرتِ الآيات والقرآنيةُ والأحاديثُ النَّبويَّةُ على إدانة الظلم، وتَنْفيرِ المسلمِ منه، في جميعِ مَظَاهِره وأشكالِه[٢٣٧].

لقدْ بيَّن الرسولُﷺ أنَّ خُنُوعَ الأمَّةِ، وعَدَمَ تَنَاصُرِها على مقاومةِ الظلم والظالِمِينَ، مِن العلاماتِ الدَّالةِ على مَوْتِها، وانْتهاءِ مُبَرِّراتِ وُجُودِها، ففي الحديث الوارد عنه ﷺ أنَّه قال: " **إذا رأيتَ أمَّتي لا يَقولُونَ لِلظَّالمِ مِنْهمْ أنتَ ظَالِمٌ، فَقَدْ تُوُدِّعَ مِنْها** " [٢٣٨]

ـ مراعاةُ عقلِ الإنسانِ المُخَاطَب

إنَّ من مزايا هذا الدين، مُراعاتُه الجانبَ العقْليَّ عند الإنسان، حيث جعل العقل مناطَ التَّكليف أولاً، ثم جاء الخطابُ فيه مُقَيَّداً بما يَستطيعُ العقل إدراكَه في الأمور كلها، بل إنَّه جَعَلَ مَصيرَ الإنسان في الآخرة مرتبطاً باتباع العقل في أحَدِ جانبَيْه، فَالعقْلُ يَدلُّ الإنسانَ على أسبابِ الخَيْرِ والهُدى، قال تعالى : **{ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ{١٠}** [٢٣٩]

وقَدْ جاءتِ الشريعةُ الإسلاميةُ مُرَاعيةً جانبَ العقل في خطابِها للناس جميعاً. إنَّ التوجيهَ والإرشادَ وحُسْنَ الخطابِ، أمورٌ لا بُدَّ مِنْها حتى يتمَّ التواصلُ والتفاعلُ، بين مختلِفِ الأطيافِ والمكوِّناتِ في أيِّ مجتمع، بِحيثُ يُمارِسُ العلماءُ، وقادةُ الفِكرِ والرأيِ دورَهم في توعية الأمة، في سبيل الارتقاء بها، وتجاوز مشكلاتها وأزماتها .

وحتى يتحقَّق هذا التفاعلُ بِالصُّورة المطلوبة؛ لا بُدَّ مِن معْرِفةِ الدَّوْرِ المطلوبِ القيامِ به، منْ كلٍّ مِنَ الفرْد والجماعة، وهو ما لا يمكن معرفَتُه وإدراكُه، إلاَّ بالتوجيه الصحيحِ والدقيق؛ مِن قِبَلِ قادةِ الفكر والرأي والعُلماء.

إنَّ النصوصَ الشرعيةَ، أيْ الآيات القرآنيةَ والأحاديث النبوية، " جَعَلها اللهُ تعالى أوعية لِمَعَانٍ وحقائق، إذا أُشْرِبَها مَخلُوقٌ من مخلُوقات الله عزَّ وجلَّ، ارتفع إلى أسمى مكانة، وكان له خَيْرُ مصير. وعندما خلقَ الله عزَّ وجلَّ الإنسان وصوَّره بروحه وجسده جعل في روحه غريزة العقل لِتمكين الإنسان من اختيار الوضع الذي يرضاه الله عزَّ وجلَّ، ويُسعِده في الدارين" [٢٤٠] .

---

[٢٣٧] الكيلاني، من سلسلة كتاب الأمة ، "إخراج الأمة المسلمة وعوامل صحتها ومرضها " ، العدد ٣٠ . ص ٨٩.

[٢٣٨] ابن حنبل، المسند، حديث(٦٧٨٤) ص٥١٣ (١٩٠/٢)وضعفه الألباني : الألباني ، سلسلة الأحاديث الضعيفة، حديث رقم (٥٧٧) ٤٥/٢ ـ ٤٦ .

[٢٣٩] سورة الملك ، الأية ١٠ .

[٢٤٠] د.ياسين، محمد نعيم، مباحث في العقل، دار النفائس، ط١، عمّان، ١٤٣٢هـ ٢٠١١م. ص ٢٢٧ ـ ٢٢٨ .

ومما يُعينُ على الوصول إلى هذه الصورة من التوجيه، أنّه لا بد أنْ يكون الخطابُ الموجَّه للآخَرين؛ مُراعياً للظروف، والأحوال، وللقدرات العقلية، والفروق الفردية، بُغْيَة الوصول إلى عقول المستمعين وقلوبهم . وهُوَ خِطابٌ يَحْمِل فِكراً نيِّراً، يَنتقلُ بالأمَّة مِن مَرْحلةِ الإحساس والشعور، مُروراً بِمَرحلة الوعي، إلى مرحلة التطبيق والعمل، بعيداً عن كلِّ ما يُثير الخُصوماتِ والصراعات، أو يُوْقِعُ الناسَ في حالةٍ من الشَّك والرِّيبة، أو الاضطرابِ والبَلْبَلة، حتى لا تَكونَ التناقضاتُ والاختلافاتُ، سبباً في ضياع جهودِهم وطاقاتِهم، واستنزافِها فيما لا فائدة مِنه. وحتى لا يُساءَ فَهمُ الخِطاب؛ فَإنَّه من الواجب أنْ يتَّصف الخِطابُ بِالوضوح والدِّقَّة، والبُعْدِ عن الغُموضِ، بحيث يتلقَّاه الفَرْدُ المسلم ويتفاعلُ معَه، بعد أنْ يُدرك المعنى والمقصد من الخطاب، بعيداً عن أية صورة من صُوَرِ الارتباك العقْلي، وصولاً إلى الاقتناع بالفكر الذي يحمله الخطاب وتطبيقه.

عن أنس ـ رضي الله عنه، عن النبي ﷺ : " **أنَّه كان إذا تكلَّم بكلمة أعادها ثلاثاً حتى تُفْهَمَ عنه ...**" [٢٤١]، فَحِرْصُ الرسول ﷺ على أنْ يَفهمَ المُخاطَبُ كلامَه، هو الذي دعاه لإعادة كلامه، وذلك حتى لا يقعَ أيُّ سُوْءٍ أو خطأ في فهم المقصود من كلامه ﷺ، قد يكونُ ناشئاً عن عدم السماع الدقيق، أو عدَمِ الفَهْم والإدراك لِما يُريدُه المتكلِّم، وكذلك اجتناباً لِلتَّحريفِ المتعمَّد لِلخطابِ مِنْ قِبَل البعض، بِهدف إثارة الخلاف والصراع .

إنَّ إعادَتَه للكلام ثلاثاً، فيه مراعاةٌ للفُروق الفردية بين السامعين من حيث الإدراك العقلي؛ لأنَّها ـ أي إعادة الكلام ـ الوسيلةُ الأضمنُ لِأكبَرِ قَدْرٍ صحيح من الإدراك والفهم، الذي يترتَّبُ عليه الالتزام بالعمل بما يُراد من ذلك الخطاب .

وهو أمرٌ يحتاجه كلُّ مسلم في هذا العصر، في مخاطبة الآخرين، بِاللُّغة التي يفهمونها؛ وذلك كَفيلٌ بِإزالة أهمِّ العَقَباتِ، التي تعترضُ التواصلَ مع الآخرين ، وكفيلٌ بإزالة كثيرٍ من الإشكالاتِ الناشئة عن سوء الفهم . إضافة إلى أنَّ في الخِطاب العقْلي قطعاً للطَّريقِ عن كل من يحاول إثارة الرِّيبةِ والشكِّ في صدور الآخرين، من خلال إبرازِ الأمُور التي قد تثير إشكالاً كبيراً بين الناس، نتيجة العجز عن فهمها وعن إدراك مقاصدها وغاياتها.

وقد جاء التحذيرُ مِن هذا الصنفِ من الناس، لِمَا لهم مِن أثرٍ خطيرٍ على المجتمع، فَعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أنَّ رسول الله ﷺ قال : " **إذا رأيتم الذين يتَّبعون ما تشابه منه ، فأولئك الذين**

---

[٢٤١] البخاري ، صحيح البخاري، كتاب العلم ، باب من أعاد ثلاثا ليفهم عنه ، حديث (٩٥) . ص٣٣٦ .

سمّى الله فاحذروهم "[٢٤٢] ، فَسَبَبُ التحذير النبوي من الذين يتبعون المتشابه، أنَّ مَنْ يحرص على اتّباع المتشابه، يُدخِل الناسَ في أمورٍ لا قدرة لهم على استيعابها وإدراكها، وهو ما يُثير بَلبَلة في صفوفهم، ويؤدي إلى التنازع والاختلاف بينهم، وإثارة الخصومات والتحزُّب، فلأجل ذلك نُهي عن اتباع المتشابه ، ووقع التحذير ممن يسلك هذا السبيل ، لأنه لا يريد الخير ، بل الفتنة.

ويُؤخَذُ مِن هذا، أنّه ينبغي على المسلمين أن يُرَاعُوا في خِطابهم وحَديثِهم، عُقُولَ المُخَاطَبين ومداركَهم، سواء كانوا من المسلمين أم من غيرهم، وإلاّ كان ذلك حاجزاً يَحُولُ بينهم، وبين التواصل مع الآخرين، وكان ذلك حاجزاً بينهم، وبين إدراكِ العَمَلِ المطلوب منهم، وهذا قدْ يجعلُهم عَثْرةً في طريق الإصلاح والبناء، وعالة على غيرهم .

وكم من مشاكلَ وأزَمَاتٍ نَشِبَت بينهم وبين غيرهم، بسبب هذه الفَجْوةِ في التواصل بين الطرفين. ولذلك ينبغي مراعاةُ حالِ المُخَاطَبين، لئلا تكون النتائج عكسيةً، على خلاف المقصود. فَيَنْبغي مُراعاة الحال دائماً، ما دامتْ مُراعاةُ حالهم لا تتعارض وتعاليمَ الدِّين وأحكامِه، وهو ما يمكن ملاحظتُه في قول النبي ﷺ لعائشة - رضي الله عنها - : **" يا عائشة، لولا قَوْمُكِ حديثٌ عهدُهُم - قال ابن الزبير- بِكُفْرٍ، لَنَقَضْتُ الكعبةَ، فَجَعَلْتُ لها بابين : بابٌ يَدْخلُ الناسُ، وبابٌ يخرجون "** [٢٤٣] ، والذي يدلُّ على ضَرُورةِ مُراعاةِ الحالِ، أنَّ النبي ﷺ قدْ تَرَك أمراً كان يراه أفضل وأحسن، فيما يتعلَّق بالكعبة، وأبقاها على حالِها، خشيةَ أنْ يكون الأمر الذي عزمَ على فِعْلِه، سبباً في إثارة البلبلة والفتنة، وذلك لأن القوم ألِفُوا الكعبة على هذه الحال، وقدْ بالغوا في تعظيمِ أمرِها، ولمْ يكونوا لِيتَصوَّرا مَن يأتي لِيَهدِمها، ولَوْ كان يُريد من وراء هدْمِها إصلاح بِناءِها.

ففي هذا دلالةٌ مهمةٌ على أنَّ الخطابَ الشرعي، ينْبغي أنْ يُراعي عقولَ الناس، وأحوالِهم، في تحقيق مصالِحهم، وهُوَ عَيْنُ ما فقِهَه أصحابُ الرسول ﷺ في ضَرورةِ اجتناب كلِّ ما يُمكنُ أنْ يكونَ سببا للفتنة، وزرْعِ الشقاق بين الناس، لئلا يكون ذلك سبباً في الابتعاد عن الدين، وفي تكذيب الله ورسولِه .

وبدلاً من ذلك ينبغي الحرص على الاهتمام بما يفيدُ الناس، وبِما يُصلِحُ حالَهم، وهذا لا يكون إلا بأنْ يُقدِّرَ الإنسانُ مواقعَ خطابِه وكلامِه، وكذلك تصرُّفاتِه وأفعالِه، و تقديرِ المآلات والمقاصد،

---

[٢٤٢] مسلم ، صحيح مسلم ، كتاب العلم ، باب النهي عن اتباع متشابه القرآن، والتحذير من متبعيه...، حديث (٢٦٦٥) . ص٢٠٥٣ .

[٢٤٣] البخاري ، صحيح البخاري، كتاب العلم ، باب من ترك بعض الاختيار مخافة أن يقصر فهم بعض الناس عنه ، فيقعوا في أشد منه ، حديث (١٢٦) . ص٣٥٢ .

قبل النطق بالكلام، أو الشروع بالفعل، وهو جانب له أهمية كبيرة، ولذلك كان الحرصُ عليه، والالتزامُ به، شائعاً عند الجيل الذي تربّى على منهج النبوة.

فهذه وصيّةُ الإمام علي ـ رضي الله عنه ـ حيث قال **" حدِّثوا الناسَ بما يَعرِفون، أتُحِبُّونَ أنْ يُكذَّبَ اللهُ ورسولُه "** [٢٤٤] و كذلك وصية ابن مسعود حيث قال **:" ما أنت محدِّثٍ قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم ، إلا كان لبعضهم فتنة "** [٢٤٥]

والمتابع الواعي للإعلام في عصرنا الحالي، يُدركُ مقدارَ التضليل الذي تمارِسُه كثيرٌ من وسائل الإعلام المختلفة، من خلال الاصطياد في الماء العَكِر، تحقيقاً لمصالحِ أربابِ تلك الوسائل، والتي يتم استخدامُها غالباً، من أجْلِ إبقاء الشعوب في غفلة دائمة، حتّى لا تدركَ ما يُخطَّطُ لها، ولا تدري ما يجري حولَها، تنفيذاً لِمُخطَّطاتٍ مَرْسومةٍ، إبقاءً للأمة تحتَ رحمتِها وسيطرتِها .

وكذلك يأتي في هذا السياق أيضاً، الاهتمامُ بتوجُّهات المُخاطَب، وإشعارُه بالتقدير والاحترام، وبأنّه أهلٌ للثقة فيما يُراد منه، ليكونَ هذا الاهتمامُ والإشعارُ حافزاً له، لاستخدام طاقاتِه وقدُراتِه، وتسخيرِها في تحقيق التغيير المطلوب، نحو الارتقاء والتقدم نحو الإسلام، لِيُصبِحَ واقعاً حياً .

والإنسان مهما كان شأنه، ومهما كانت ظروف مهنته، يُحِسُّ بكرامته، ويَتوقُ إلى مَنْ يُشعِرُه بأنّه كريم، وبأنَّ له ذاتاً مُحتَرَمةً، ومِن ثَمَّ فإنَّ صيغة الخطابِ المُوجَّه ينبغي أنْ تُشعِرَه بأنّه مُؤهَّلٌ لِلصلاحِ، ومُستحِقٌ للتقدير، وأنّه أهمُ مِن مَتاعِ الدنيا . ومن إشعارِنا له بالكرامةِ، أنْ يَكونَ لدينا الاستعدادُ لِرؤيةِ كثيرٍ من الأشياء من وُجْهة نَظَره، أو إشعارِه على الأقل، بأنَّ له وُجْهةَ نَظَرٍ يُمكنُ أنْ تكونَ صائبة. ومِن ذلك إبرازُ جوانبِ الخير فيه، لِنَمنَحَه شيئاً من الثقة بنفسِه، ونُفَجِّرَ مَواردَ الطاقة التي سيستخدمها في نشاطه الإنساني. " ويستطيع الإنسانُ العاقلُ أنْ يُدركَ أنَّ كَمّاً مِنَ الأفكارِ الجَيِّدةِ، بَلْ والقِيمِ، والمبادئ الرفيعةِ، لمْ تَجدْ لها طريقا إلى الواقع، بِسببِ سُوءِ عَرْضِها، وبِسببِ التَّحقيرِ والحَطِّ مِنْ شأنِ الآخَرِين؛ الذي يُمارِسُه الدّاعُونَ لِهذه القيم والأفكار، فكانوا هم سَبَباً في انصراف الآخرين عن هذه القيم والأفكار" [٢٤٦].

---

[٢٤٤] البخاري ، صحيح البخاري، كتاب العلم ، باب من خص بالعلم قوما دون قوم ، حديث(١٢٧) ، ١/٣٠٤ . مسلم مع شرح النووي ، المقدمة ، باب النهي عن الحديث بكل ما سمع ١/ ٦٨

[٢٤٥] مسلم ، صحيح مسلم ، المقدمة ، باب النهي عن الحديث بكل ما سمع . ص١١ .

[٢٤٦] د. بكار، عبد الكريم، مقدمات للنهوض بالعمل الدعوي، دار القلم، ط٢، دمشق، ٢٠٠١م. . ص ١٦٧ .

إنَّ الساحةَ الإسلاميةَ اليوم، تزْدَحِمُ بِخطاباتٍ مُتعدِّدةٍ، ومختلِفة في فهمِها وفي تصوُّراتِها، وفي مناهجِ وطرائقِ عَمَلِها، وفي تَمثّلِها واستيعابِها للإسلام عموماً، فمِنْها المُتطرِّفُ والمُتشدِّد، ومِنها المُعتدِل والمتسامِح، ومنها القريب من هذا ومِنْ ذاك، وكلُّها تَنْسِب نفسَها إلى الإسلام، وتتحدَّثُ باسمه. فهناك فَرْقٌ كبيرٌ، وبَوْنٌ شاسعٌ بَينَ رِسالة الإسلامِ لِلناس، وبَين خِطابِ المسلمين الشائعِ عُموماً بين الناس. فَمِثْلُ هذه الخطابات المُتعدِّدةِ، بَلْ والمُتعارِضةِ مَعَ بعضِها إلى درجة التناقض، هي خِطاباتٌ يَغلِبُ عليها عَدمُ الاحترامِ والتقدير لِلجانب العقلي، مِمَّا جَعل كثيراً من المسلمين ينصرفون عنها، لِمَا سبَّبته لهم من تشتُّت ذِهْنيٍّ، واضطرابٍ سُلوكيٍّ، مَع أنَّ الإسلام واحد .

- مراعاة السنن الكونية(الارتباط بين الأسباب والنتائج) .

الفرقُ بين ما كان عليه المسلمون في عهد النبوة وصدر الإسلام، وبين ما عليه المسلمون في العصر الحالي، في تسيير أمور حياتهم ، وفاعليتهم؛ أنَّ المسلمين في صدر الإسلام وعهد النبوة تربُّوا على منهج النبوة، فعَرَفوا من خلال ذلك وأيقنوا، أنَّه لا بُدَّ لِلإنسان من الأخذ بالأسباب حتى يُنجِز، لأنَّ هذه الحياة تسير بأسباب أودعها الله تعالى.

إنَّ هناك ارتباطاً وثيقاً بين الأسباب والنتائج، فَلِلهِدايةِ أسبابُها، ولِلكفرِ أسبابُه، ولِلنجاح أسبابُه، ولِلفَشَل أسبابُه، وهذا لا ينافي التوكل على الله، بل هو أساس التوكُّل على الله، ويَدخُلُ ضِمن ما قدَّره الله تعالى . ومعنى ذلك، أنَّ الإنسان لا بد أن يبحث عن أسباب الفشل، والتقصير، والإخفاق، فَكما أنَّ التفوُّق، والنجاح، يكون باتخاذ الأسباب، فكذلك التقصيرُ، والإخفاقُ والفشلُ. والعقل الإنساني يستطيع أن يدرك العلاقة بين السبب والنتيجة، من خلال مشاهدة النتائج وارتباطها بالأسباب، سلباً وإيجاباً، بحيث تُوجَد النتيجةُ إذا وُجِد السبب، فإذا انتفى السبب انتفت النتيجة. وتحديدُ الأسباب من خلال النتائج، يحتاجُ إلى تَبَصُّر ونَظَر، فالذي يفتقد الرؤية والنظر؛ لا يستطيع إدراك الأسباب.

ولذلك يمكن القول كما ذكر الدكتور أبو سليمان " إنَّ السببية هي مفهوم أساسي في حياة الإنسان المسلم، وتكوين عقليته، وبناء منهج فكره، فَفِطرةُ الإنسانِ، وعقيدةُ المسلم، تُوضِّحُ أنَّ الله سبحانه وتعالى، قد مكَّنَ للإنسانِ القيامَ بمسؤولياته، والتعبيرَ عن إرادتِه بواسطة الفِعل بالأسباب، وما تقتضيه من علاقات السنن والنواميس. وبذلك يكون قد أدى واجبه واستجاب لفطرته ، وليس من شأنه في المُحَصِّلةِ النهائيةِ موقعُ جُهدِه وسعيِه من خارطة الكُلِّيات الربَّانية . وما شاهدناه في

حياة السلف الأول من جذبة التدبير والتفكير، والأخذ بالأسباب، مع عظيم الجرأة والإقدام، إنما هو ثمرةُ هذا الفهم وهذا المنهج، فكانت القدرة وكان النصر "[٢٤٧]

فلا بد للإنسان من معرفة الأسباب التي أدت إلى تلك النتائج، وإلا فقد يكونُ لذلك أثرٌ سلبيٌّ خطيرٌ على تفكير المسلم وسلوكِه، لأنَّ الجهل بقضية الارتباط بين الأسباب والنتائج، في كلِّ ما يَجْري للإنسان في هذه الحياة، قد يَسُوقُه إلى العجز عن التغيير، وإلى الاستسلام لِلواقع الذي يَعيشُه، وذلك تَحتَ ظِلال فَهمِه الخاطئ للقضاء والقدر.

ولا يقتصر الأمر على هذا الاعتقاد الخاطئ، بل يكونُ في ذلك مُنطَلَقٌ للإنسان، لِتَبرير أخطائه وإخفاقاته، وأنَّ ما جرى خارجٌ عن إرادتِه وقدرتِه، وذلك مِن باب إعفاءِ الذات من المسؤوليةِ، وإعفائها من المحاسبة على التقصير. وهذه العقلية الموجودة بيننا، والغالبةِ علينا، ترى كل ما وَقَعتْ فيه هذه الأمة، مِن النَّكَباتِ والنَّكَساتِ والهزائم، سببُه المؤامرةُ التي يُحيكُها الأعداء ضِدَّ هذه الأمة، دون بذل أية محاولة جادة للخروج من هذا الواقع المأزوم والمهزوم . وَلَوْ عَلِمَ المسلمون واستقرَّ في أذهانهم، أنَّ كلَّ شيءٍ يَجري في حياه البشر حسب سُنَّة الله التي لا تتخلَّفُ، ولا تُحابي أحداً من الخلق، لما كان واقعهم وحالهم على هذه الصورة المؤلمة المُحزنة، قال تعالى: **{فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً }**[٢٤٨] .

إنَّ السنن والقوانين الربانية التي تُسيِّرُ الحياة، لا تقتصر في تأثيرها ومجال عملها على الجانب المادي من الحياة، بل يَمتد هذا التأثير لِيَشملَ الحياة والمجتمع . وقد جاء في السنة النبوية، تأكيدُ هذا الأمرِ، من خلال التَّشبيه الوارد في بعض الأحاديث النبوية ، حيث شبَّه حالَ المؤمنين في علاقاتهم الاجتماعية وتكافلهم وتعاضدهم، بالبنيان المرصوص. ففي هذا التشبيه تنبيهٌ مِن الرسول ﷺ للمسلمين، وتأكيدٌ على جَرَيانِ السُّننِ والقوانين الربانية في عالَم المادة، وعالَم الحياة الاجتماعية، سَواءً بِسواء، حيث كان يُبدِئ ويُعيدُ، لِيَقرَّ في الأذهان التشابهُ بين المادة والحياة والمجتمع، من حيث خُضُوعُ كلٍّ منها لِلسُّنن؛ التي تُفسِّرُ تَماسُكَ الجسم الصُّلب، والسُّننِ التي تُبْقي الكائنَ الحيَّ في الوضع السليم، والسننِ التي تَحمي المجتمعَ من الانحلال . حيثُ يَذكُرُ الرسولُ ﷺ المَثَلَ الماديَّ، ويَقْرِنُ به المَثَلَ الاجتماعيَّ. يَقُولُ الرسولُ ﷺ في تشبيهِ العلاقة التي ينبغي أنْ تكونَ بين المؤمنين : " **إنَّ المؤمنَ لِلمؤمنِ كَالبُنْيانِ المَرْصُوصِ يَشُدُّ بَعضُه بَعْضاً ...**" [٢٤٩] حيث

---

[٢٤٧] أبو سليمان ، قضية المنهجية في الفكر الإسلامي . ص٢٣ .

[٢٤٨] سورة فاطر ، الآية ٤٣ .

[٢٤٩] البخاري، صحيح البخاري، كتاب الصلاة، باب تشبيك الأصابع في المسجد وغيره، حديث (٤٨١). ٥٠٤/١

شَبَه تلك العلاقةُ في قُوَّتِها ومَتانتِها بالبُنيان المرصُوص، الذي يُقامُ على قواعدَ مُحْكَمة متينةٍ، بتصميمٍ هندسيٍّ حسب قوانين هندسة البناء، والتي يُمْكِنُ لِمُهَنْدسِ البناءِ، أنْ يعرف خُطُورةَ نَوْعِ التَّداعي الذي أصاب البناء، ويُمْكِنُ لَه أنْ يَعرِفَ أسبابَه، وما ينبغي أنْ يقوم به من إصلاح.

ويذْكُرُ الرسولُ ﷺ المَثَلَ العُضْويَّ؛ فَيُشبِّهُ به العلاقةَ الاجتماعية، فَيَقولَ الرسولُ ﷺ : **" تَرَى المؤمنينَ في توادُهم وتَراحُمِهِم ..كمثل الجسد ..."** [250]، حيث يُبيِّنُ الرسولُ ﷺ أثَرَ العلاقات الاجتماعيةِ الوثيقة بين أفراد المجتمع، التي تَظْهرُ في المودَّة، والرحمة، والعطفِ، التي تَشيع في علاقاتهم بِعضِهِم بعضاً، وتَجْعلُهم كالجَسدِ.

" والجَسَدَ لا يتداعى أعضاؤه بالسَّهَرِ والحُمَّى لِلعُنْصرِ المُصابِ، إلاَّ إذا كانَ لِذِي الجَسدِ قلبٌ نابضٌ بالحياة، ويُدبِّر أمورَه دِماغٌ سليم، وأجهزةٌ مُعَافَاةٌ للهضم والتنفس، وشبكةٌ نشطةٌ من الشرايين والأوردة والأعصاب، ودَمٌ نَقِيٌّ مُتَوازنُ التركيب. ومِثْلُ ذلك الأمة الحيَّةُ، فهي لَيْسَتْ أكوامًا بَشَريةً، وإنَّما هي نسيجٌ اجتماعيٌّ تَحْكُمُه قوانينُ بِناءِ الأمم، وصِحَّتِها، ومَرَضِها، ومَوْتِها، وتَتَلاحمُ فيه مُكوِّناتُ الأمة، وتَعْملُ مُتكامِلةً، لِلقِيام بوظائفها، طبقًا لحاجات الزمان والمكان." [251]

وهناك مَثَلٌ آخر يَضرِبه الرسولُ ﷺ، يُبيِّن فيه سنةً ربَّانية مِنْ عالَم المادة، تنطبق على الحياة الاجتماعية التي يعيشُها المجتمع، وتُعالِج سبباً من أسباب ضعف المجتمع، الذي يُؤدِّي به إلى الغرق، " حيث تمتزجُ في المَثَلِ السُّنَّةُ الماديَّةُ بِالسُّنَّة الاجتماعية، وعلاقةُ سُننِ المَرْكبِ بِسُنَنِ المادَّةِ تارةً ، وبِسُنَنِ البَشر تارةً أخرى .هذا المثل يذكره الرسولُ ﷺ لِيُبيِّنَ لِلمجتمع قانوناً يَترابَطُ به لِيَحمِيَه مِنَ الغَرَق .

من السهل إمكان إدراك نتائج الخرق الذي يحدث للسفينة ، ولكن ليس بمثل هذه السهولة إمكان إدراك نوع الخرق الذي يحدث للمجتمع " [252] . فهذا التمثيل والتشبيه لِلمجتمع بالسفينة، لِبيانِ أنَّ المصيرَ مُشْتَرَكٌ، بحيث لا يَنْجو من ذلك أحَدٌ. بما يؤكد على ضرورة معالجة الأخطاء والثغرات، حتى وإنْ كانت أخطاءً فردية، مقصودةً أم غيرَ مقصودةٍ، ولا يُنتَظَر لكي تَعُمَّ الأخطاءُ وتَنْتَشِرَ، بل على المجتمع بِأفراده جميعاً، التَّحلي بأعلى درَجَاتِ اليقظة والانتباه، حتَّى لا يَحدُثَ ما لا يُحمد عقباه، من أخطارٍ وكوارثَ، قد لا يتيسَّر علاجها .

---

[250] سبق تخريجه ص ٥٤، اخرجه مسلم.

[251] الكيلاني، "إخراج الأمة المسلمة وعوامل صحتها ومرضها" . ص١٣ - ١٤ .

[252] جودت سعيد، حتى يغيروا ما بأنفسهم . ص٢٥ .

لذلك فإنَّ " إدراكَ وجُودِ غَيْرِ الواعين في الأمة، يُولِّدُ لدى المجتمع شُعوراً بِالخَطرِ، أنْ يكونَ المركبُ الذي يَسيرُ بالمجتمع، يَحتوي على نَماذجَ لا تَعرِفُ سُننَ طَفْوِ الأجسام على الماء، فَيَسْعَوْنَ بِحُسنِ نِيَّةٍ ، أو بِسُوءِ نِيَّةٍ، لِخَرْقِ السفينة "[253]

فعلى المسلم أنْ يعلم أنَّ السنن التاريخية، التي تجري على البشر عموماً؛ تجري كذلك على المسلمين، واعتقادُه أنَّ المسلمين أرفعُ شأناً من غيرهم، فلا يَجري عليهم ما يَجري على غيرِهم من السنن الربَّانية، وبالتالي استثناؤهم من الخضوع لهذه السنن، التي يخضع لها سائر البشر، هو اعتقادٌ في غير مَحَلِّه، وبعيدٌ عن الواقع، وربما كان هذا الاعتقاد الخاطئ، هو السببُ فيما أصاب هذه الأمة من مصائب وكوارث .

وقد جاء في الحديث النبوي ما يؤكد جريان السنن على البشر جميعهم بلا استثناء، في قوله **:" لتتبعن سنن من قبلكم حذو القذة بالقذة .."** [254] ، ولو أحْسنَ المسلمون الاستفادةَ من الوقائع التاريخية البشرية، والاعتبارَ بها، لأمْكَنَ تصحيحُ المسيرة، وإنقاذُ الأمة مما أصابها ونَزَلَ بها، نتيجةَ إهمالِها النظر، والاعتبارَ بما جرى للأمم السابقة .

"إن التغيير ليس هديةً تُعطى، ولا غنيمةً تُغْتَصب، وإنَّما هو نتيجةٌ حتميةٌ لِلقيام بِتغييرِ ما بالأنْفُس، فهما متلازمان، ولا يَتغيَّرُ واقعُ الأمةِ، إلا بتغييرِ ما بأنفس أفرادها تغييراً يمتد إلى كافه المساحات، وسائر المُكوِّناتِ النفسيةِ الأساسية : العقليةِ والرُّوحيةِ والجَسَدية، وكلِّ العلاقات والبنى الداخليةِ، مَعَ الذات ومَعَ الآخرين، والتي تُمَكِّنُ الجماعةَ المسلمةَ من مُواجهةِ حركة التاريخ " [255].

- الإسلام ميزان القبول والرد .

تَتنوَّع شؤونُ الحياة، وتَختلفُ باختلاف أحوال الناس وظروفهم، تَبَعاً لاختلاف الزمان والمكان، مِمَّا يستدعي اختلافَ الاجتهادات وتنوُّعها وتَعدُّدها؛ وحتى لا تكونَ مُتناقضةً، يَضرِبُ بعضُها بعضاً، وَجَبَ أنْ يكونَ هناك مِيزانٌ ومِعيارٌ مُوحَّد يُجنِّب الأمة الفرقة والاختلاف، ويحفظ لهذه الأمة وُجهَتها وغايتَها، يكون بمثابة البوصلة التي تُحدِّد للأمة الاتجاه الذي تسير فيه، وإلاَّ تعددت مسالكُها وطرقُها المتشعبة، ودخلت في حالة التيه والضياع .

---

[253] جودت سعيد، حتى يغيروا ما بأنفسهم . ص٤١ .

[254] سبق تخريجه ص ٣٣، أخرجه البخاري .

[255] د. خليل، عماد الدين، العقل المسلم والرؤية الحضارية، . ص ٤٣ .

وقد تميَّزت هذه الأمةُ عن غيرها بأفكارها وتصوراتها التي استمدتها من هذا الدين ، بحيث كانت هذه التصورات والأفكار أساسها الاعتقاد بوحدانية الله تعالى، حتى أصبحت في كل فاعليتها وفعالياتها في سائر شؤون الحياة، مُنطلِقةً من هذا الأساس، وسائرةً إليه؛ مِمَّا أعطاها وِحدةَ المُنْطلَق، ووِحْدةَ الهدَفِ والغاية، مع التزامها الكامل بإظهار عبوديتها لله رب العالمين .

فالتصوُّر الذي جاء به الإسلام، كما بيَّنه القرآن والسنة النبوية، هو أساس نهضة هذه الأمة، حيث كان القرآن الكريم هو أساس وجود هذه الأمة، بما يمتلكه القرآن الكريم في مجال التقويم والتقييم للمعتقدات والأفكار والسلوكيات، التي تصلح لأن تكون منطلقاً لأيَّة حضارة إنسانية في جوهرها، وفي صفاتها، وفي عطائها .

وهذا قد تجسَّد في الأمة الإسلامية، يوم كانت ملتزمة بالمنهج الربَّاني، فأوجدت مجتمعات تأخذ بأسباب القوة والصحة والمنَعة، بما كانت تمتلكه من الأفكار الحية، بحيث أوجدت مجتمعاً يفيض بالحياة .

ولذلك فإنَّه مِنَ الضَّرُوريِّ أنْ يَكونَ الزادُ الذي نَحْمِلُه لإحياء الأمة وبعث حضارتها، هو العقيدة والفكرة الدينية، لأن الحضارة لا تنبعث إلا بالفكرة الدينية، ولا تظهر في أمة من الأمم إلاَّ في صورة وحي من السماء يكون للناس شرعاً ومنهاجاً، يكون ميزاناً للتقييم والتقويم. وبِناءً عليه، يُمكنُ قُبولُ أو ردُّ أيَّةِ أفكار أو سلوكيات، بحسب موافقتها أو مخالفتها لذلك الميزان، وهو ما جاء بيانُه في الحديث عن الرسول ﷺ حيث قال :" **مَنْ عَمِل عملاً ليس عليه أمْرُنا فَهُو رَدٌّ** " [٢٥٦]

ففي هذا الحديث ، بيان أن معيار قبول الأعمال أو ردِّها ، هو ما جاء به الوحي في القرآن والسُّنَّة النبوية ، وعلى أساسهما يتم تقييم الأفكار المُمَهِّدة لعملية التغيير " فالفكرة الدينية عامل أساسي في التغيير الاجتماعي نحو الحضارة، ولكن بشرط أن تكون نابعة من دين سماوي خالص لم ينله تشويه ولا تحريف" [٢٥٧]

والقَبُولُ والرَّدُ لِلأعمالِ في مِيزان الإسلام يَقُومُ على الحَلالِ والحرامِ، وهما الأساس في كلِّ المَقُولاتِ والممارساتِ في شَرِيعةِ الإسلام العالَمية، المُبيِّنةِ لِحُقوقِ الإنسانِ، وعلاقاتِه، وتَفاعُلاتِه مع البيئة، بِما فيها من نَبَاتٍ أوْ حَيَوَانٍ. حتى غَدَتْ أحْكامُ الحلالِ والحرامِ ميزاناً حسَّاساً، يَمْلِكُه كلُّ فَرْدٍ مُسلِمٍ، وَمُوجِّهاً له في أقوالِه وأعمالِه، وسائرِ تَصَرُّفاتِه .

---

[٢٥٦] سبق تخريجه ص١٢٢ ، أخرجه مسلم .

[٢٥٧] د. كنعان، أزمتنا الحضارية في إطار سنة الله في الخلق ، ص ١٥٣.

" إنَّ مِيزانَ الحلالِ والحرامِ هوَ من أبرز معالم الحضارة الإسلامية، بل هوَ سِرٌّ من أسرارها، فهُوَ فضلاً عن أنَّه ميزانٌ يزِنُ به المرءُ أعمالَه، ويُقوِّمُها على أساسِه، فهُوَ أداةٌ واقيةٌ هامةٌ يُقِيمها الإسلام في ذاكرة كلِّ فرد، في سبيل منحِه قُدُرَاتِ التدقيق والمراقبة على أعمال، وممارسات، وتفاعلات المجتمع برمته . وبواسطة هذا التصورِ العمليِّ ، تمتلك الأنظمة والقوانين والشرائع والحقوق خاصياتِ المراقبة الذاتية ، ويغدو الفرد حارساً لتلك الشرائع ، مطبِّقاً لها بِعفْويةٍ وقصْدٍ على السواء ، فهو يشعر أنَّ القانون هذا إنَّما هو قانونُه الذاتي ، ومطلوبٌ منه تطبيقُه في السِّر والعَلَن ، وسيُحاسَبُ عليه في الآخرة ، لأنَّ الله سبحانه وتعالى مُطَّلِعٌ عليه ... وهكذا تغدو القوانين والأنظمة القائمة على مُعطَيات الحلال والحرام ، أصدق في التطبيق ولو كان الإنسان وحيداً بعيداً عن أيةُ أنظار"[٢٥٨]

إنَّ وجود هذا الميزان الذي توزن به الأعمال والسلوكيات التي يقوم بها الإنسان، ضرورة لا بدَّ منها؛ وذلك لأجل المحافظة على استقامة النهج والطريق، ولئلاً تتعدَّد الطرق وتتفرَّق، ولئلاً يضيع الحق بين تزاحم الباطل .

وهو ميزانٌ يُحافظ على إبقاء البشر ضمن دائرة الالتزام بالفكر الصحيح النابع من الإسلام، بعيداً عن الانتماءات الشخصية، أو الحِزْبية، أو أيَّةِ انتماءاتٍ أخرى، وبعيداً عن الخضوع لأشكال الفساد والانحراف، والإغراءات والشهوات، التي تنحرف بالإنسان بعيداً عن الحق دون أنْ يَشعُرَ بالانزلاق، مِمَّا يُولِّد الخصومات والنزاعات بين الأفراد والجماعات .

إنَّ المقياس الإلهي المجرد الذي تجسَّد في حياة الرسول وسيرته، هو المقياس الذي يُوزَنُ به الأشخاص، ويَأخذ كلُّ إنسان حقَّه، ومكانَه من هذا المقياس الذي يستحقه . ومن هنا فالالتزام إنَّما يكون دائماً وأبداً بالمنهج الإسلامي، بالفكرة، بما شرعه الله لنا ، وليس الالتزام بالأشخاص، أو التنظيمات، أو الجماعات، أو الحكومات، التي هي دائماً محل للخطأ والصواب، والكارثة، والخلل، والأمراض، والعِلل التي تَتَسلَّلُ إلى الحياة الإسلامية، من خلال العُدُول عن هذا المقياس، أو محاولة استلابِه من يد الإنسان المسلم، ومِنْ ثَمَّ تكون العِصْمَةُ الكاذبةُ التي تُخلَعُ على بعض الأشخاص، والمُبرِّراتُ المُضْحِكة التي تُوضَع لِتَصرُّفاتِهم وأخطائهم.

إنَّ بِدْءَ مرحلةِ السقوط، يكونُ حيثُ تبدأ عملية تخديم الأهداف والقيم، لا خِدمتها، وقد يكون هذا من طبيعة البشر عندما تُسيطر عليهم فَتَرات الضعف ، أو تَستبدُّ بهم حالات اليأس ، أو عندما

---

[٢٥٨] ضناوي ، مقدمات في فهم الحضارة الإنسانية . ص ٥٠- ٥١ .

تُمارِس عملياتِ الإرهاب الفكري ، أو الفساد السياسي ، فَتُفصَّلُ الأحكامُ على الأشخاص ، وتُوصَّلُ الحِيَلُ الشرعيةُ حتى يُصبِحَ لها مؤلفات ، وتنمو طبقة فقهاء السلطان ، سواء أكان سلطان المال ، أم الحكم ، أم الجاه ، وتُؤَوَّلُ الأحاديثُ والأياتُ على مقتضى الأهواء .

إنَّ الدعوةَ إلى التزام المنهج مقياساً وميزاناً، للحق والباطل، هوَ في حقيقته تصويبٌ لِمسيرةِ حياة المسلمين الجماعية، والتزامٌ بالإسلام الذي بيَّنه رسول الله بقوله : " **... ورَجُلانِ تَحابًا في الله، اجتمَعا عليه وافترقا عليه** " [٢٥٩] فالاجتماع على المنهج وليس على الأشخاص، والافتراق أيضاً على المنهج وليس على الأشخاص، وما ذكره الحديث في الاجتماع والافتراق بين الأفراد على المنهج والفكرة، وليس على المصالح والأهواء، هو في الحقيقة ينسجم، مع البناء العقدي الذي أُسِّست عليه الأمة في أول أيامها، حيث كانت المؤاخاة على أساس الدين، بعيداً عن كل أشكال العصبيات، بمعنى أن الإسلام بما يحمله من عقائد وفِكْر، هو الذي ينبغي على كل مسلم، أنْ يتَّخذه قائداً ومنهجاً في حياته، وميزاناً ومعياراً لسلوكياته وأفعاله، تحقيقاً للغاية التي خلق الإنسان لأجلها.

---

[٢٥٩] البخاري ، صحيح البخاري، كتاب الأذان ، باب من جلس في المسجد في انتظار الصلاة ، حديث (٦٦٠) ، ص ٥٧٣ .

المبحث الثاني

أهداف العقل المسلم

تختلف الأهداف باختلاف الغايات التي تسعى إليها كل أمة، وقد بيَّن الحق سبحانه وتعالى في كتابه الكريم، أنَّ الغاية من خلق الإنس والجن هي العبادة، باعتبار أنَّ سعادة الإنسانية ، وكرامة الإنسان لا تتحقَّق إلا من خلال هذه الغاية.

إنَّ وصول الإنسان إلى مرتبة العبودية لله رب العالمين، وتحقيق معناها في نفسه، يجعل هذا الإنسان منضبطاً وملتزماً بالحق والعدل، داعياً إلى الخير، في كل شأن من شؤون حياته. وما فقدت المجتمعات الإنسانية كرامتها وسعادتها، إلاّ عندما استنكفت وتمرَّدت على مقام العبودية لله رب العالمين، بحيث جعلت نفسها نِداً لله تعالى، فألَّهت نفسها، وطغى بعضها على بعض، فعمَّ الفساد والدمار، وفُقِدَ الأمن والاستقرار .

وقد تميَّز الإنسان المسلم بالأهداف التي يسعى إلى تحقيقها، وصولاً إلى الغاية التي خُلِقَ لأجلها الجن والإنس، وهذه الأهداف في جُملَتها، تنفي كلَّ معنىً من معاني العبثية في الحياة . وفي الوقت نفسه، فإنَّها تمنح المسلمَ تميُّزاً عن الآخرين، وتمنحه انسجاماً مع هذا الوجود وتوافقاً، وتُبعدُه عن تصادم مع السنن والقوانين الكونية .

المطلب الأول

تحقيق إنسانية الإنسان وكرامته وسعادته

إنَّ أصل البشر جميعاً واحدٌ كما قرَّره الإسلام وأكَّد عليه، والإسلام يهدف بذلك إلى تحقيق إنسانية الإنسان، مِنْ خلال الدعوة إلى المساواة بين الناس جميعاً، فلا تفاوت بينهم، ولا تفاضل بينهم، من حيث الجنس واللغة واللون .

وهذا الأمرُ الذي بيَّنه الإسلام لا يستطيع أيُّ مسلمٍ مُلتزمٍ إغفاله أو تجاهله، ولو نظرنا إلى واقعنا، سنجد كثيراً من المسلمين من يسير في سلوكه خِلاف ذلك، حيث يظنُّ أنَّ أصله أفضل، أو أنَّ جنسه أرقى .

وكذلك فإنَّ الإسلام ، قد بيّن أنَّه لا مُبرِّرَ لأيٍّ كان، لاستباحة حُرُمات البشر، أو سَفْك دمائهم، أو نَهْب أموالهم، أو انتهاك أعراضهم، وإنْ اختلفتْ ألوانُهم أو ألسنتُهم أو أجناسُهم . ولكنَّ ما نراه شائعاً في التاريخ البشري،تجاهل ما أكَّدَ عليه الإسلام وبيَّنه في مجال حرمة النفس البشرية، بحيث عمَّ سفك الدماء، وامتهان كرامة الإنسان، حتى أنَّ المجتمعات التي تنتمي إلى الإسلام تفشَّت فيها مثل هذه الأمور .

وقد جاء ذلك كلُّه عن الرسول ﷺ ـ أيْ التأكيد على الأصل الإنساني، والتحذير من انتهاك حُرْمة الإنسان ـ في أهم اجتماع التقى فيه بالمسلمين، في موسم الحج، لأجل أنْ يَعْلَمَه أكبرُ عدد من المسلمين؛ ممن حضر الحج، ولأجل أنْ يقوموا بإبلاغه للآخرين. وليكون في ذلك توجيهٌ نبويٌّ للمسلمين كافة، في كل زمان ومكان، للعمل بما جاء به الإسلام لتحقيق إنسانية الإنسان، وكرامته، وسعادته .

إنَّ كرامةَ الإنسان وسعادتُه لنْ تتحقَّق، ولنْ يكون لها وجود في الواقع، إذا فقد الإنسانُ إنسانيتَه؛ فإذا كان الحقُّ ـ سبحانه وتعالى ـ قد خلق الإنسان، وكرّمه، وفضَّله على كثير من المخلوقات؛ فكيف يَليقُ بهذا الإنسانِ أنْ يَحْرِمَ أخاه من إنسانيَّتِه؟ وينتهك كرامتَه ؟

إنَّ حِرْص الإسلام على تحقيق إنسانية الإنسان، والتأكيد عليها، يأتي ضمن السياق الطبيعي لرسالة الإسلام وعالميته؛ حيث جاء الإسلامُ دعوةً للناس كافةً،بأحكامه وتشريعاته . ثمَّ إنَّ تحقيقَ أهدافِ الإسلام وغاياتِه؛ لا يَقدِر عليها إلاَّ إنسانٌ يشعر بإنسانيته، وكرامتِه، بحيث يتساوى الناس جميعاً، ولا يرَى أيٌّ منهم؛ أيَّ توجُّهٍ يمكن أنْ يَنتقصَ من إنسانيته أو كرامته. فالإنسان إذا فَقَدَ

ذاتَه وكيانَه، فلم يَعُدْ وجودٌ لمعنى إنسانيةُ الإنسان وكرامتَه، أصبحتْ مطالبةُ هذا الإنسان بالإنجاز الحضاري من باب العبث، لأنَّ الإنسان لا يستطيع أن يتقدم على طريق الإنجاز الحضاري، إلاَّ إذا أصبحت إنسانيته وكرامته واقعاً محسوساً .

هذا بالإضافة إلى أنَّ تحقيق إنسانية الإنسان، تُمثِّل القوةَ الذاتية للأمة الإسلامية، التي تقود إلى تماسك النسيج الداخلي للأمة الإسلامية، حيث أقام الإسلامُ بُنيانَ هذه الأمة على أساس الأخُوّة في الدين، بعيداً عن العصبيات الجاهلية، التي تُمجِّدُ الأنساب، والاعتبارات القومية والإقليمية، وتُثير الصراعات بين بني البشر . فمِنْ خلال هذه القوة الذاتية تصبحُ الأمة الإسلامية مؤهَّلةً، وقادرةً على ممارسة دَوْرِها في توجيه المسيرة الإنسانية، تحقيقاً للغاية التي خُلِق لأجلها الإنسان

ولعلَّ المسلمَ المعاصرَ يجد منفعةً عظيمةً في شعور الإنسان وإحساسه بإنسانيته، حينما يعلم أنَّ سعي الإسلام لتحقيق هذا الهدف؛ من شأنه إتاحةُ أكبر قَدْرٍ من التبادل الحضاري للتجارب والعلوم الإنسانية، في إطار من التعاون بين المجتمعات البشرية المتنوّعة، بعيداً عن أيِّ إحساسٍ خاطئ بالغُرْبة عن تلك المعارف والتجارب، يمكن أن ينشأ في ظِلِّ سيطرة التوجهات والنزعات العنصرية أو الإقليمية .

وهذا التبادل الحضاري والانفتاح على تجارب الأمم الأخرى؛ استطاع الإسلامُ تحقيقَه بين أتباعه بِمِثْلِ هذه القِيَم ، فكانوا أكثر انفتاحاً على الآخرين؛ مما ساهم في إشاعة الاستقرار، والشعور بالأمن، والتعاون بين المسلمين وبين المجتمعات البشرية الأخرى . وقد تجلَّى ذلك عندما كانت القيادة لهم، وهو ما حفَّزَ كثيراً من الشعوب غير المسلمة، التي كانت تعاني من الظلم؛ لكي تسعى للعيش تحت ظل الدولة الإسلامية، حتى تشعر بإنسانيتها وكرامتها .

كما أنَّ من شأن إحساس الإنسان المسلم بإنسانيته بشكل خاص؛ التيسيرُ للمسلم المعاصر اقتحام ساحةَ السباق التي ينفرد الآخرون بها، في المجالات الحضارية والعلمية المختلفة . وقد مضى زمن طويل منذ أنْ وضعَ المسلمون أنفسَهم خارجَها ، بدعوى أنَّ هذه الساحة مَيْدانٌ يقتصر على معارف وتجارب مجتمعات لا تؤمن بالإسلام ، ولا تعترف به .

وقد غفلَ القائلون بهذه الدعوى أنَّ الحقَّ ـ سبحانه وتعالى ـ قد أمر في كتابه بالسير في الأرض، والبحث لكي يحصل التعلم، والاعتبار، والانتفاع من التاريخ البشري كله ، بجميع أممه . فالسنن والقوانين البشرية يخضع لها البشر جميعاً دون استثناء، ولذلك فإن المسلمين حين يضعون أنفسَهم

وحضارتهم خارج تاريخ الآخرين، يكونوا قد حكموا على أنفسهم بالعُزلة والتأخُر، حيث حرموا أنفسهم من خير كثير. [260]

وهذا الأمر - أيْ سعْيُ الإسلام لتحقيقِ إنسانيَةِ الإنسان - لا يمكن أنْ يتحقَّق، إلاّ بأنْ يضع الإنسان المسلم نفسه تحت ظل التوجيه الربَّانيِّ، الذي يجعل التقوى والعملَ الصالحَ أساساً وحيداً للتفاضل بين البشر؛ مما يعطيه حافزاً كبيراً للتنافس والتسابق على عمل الخير، الذي يعود نفعه على البشرية جمعاء، ولا يقتصر هذا الخير والنفع على المجتمع المسلم، بل يمتد ليعمَّ البشرية جميعاً؛ تحقيقاً لمعنى الإنسانية التي ينادي بها الإسلام .

والمتأمل في الخطاب النبوي الذي توجَّه به رسول الله ﷺ إلى البشرية جمعاء، يستطيع أن يدرك ذلك، حيث وقف في الناس خطيباً في حجة الوداع قائلاً لهم :

" يا أيها الناس ألا إنَّ ربَّكم واحد، وإنَّ أباكم واحد، ألا لا فضل لعربيٍّ على أعجمي، ولا لعجميٍّ على عربي، ولا لأحمرَ على أسود، ولا أسودَ على أحمر إلا بالتقوى . أبَلَّغْتُ؟ قالوا: بَلَّغَ رسول الله ﷺ ، ثم قال: أيُ يومٍ هذا؟ قالوا: يومٌ حرامٌ، ثم قال: أيُ شهرٍ هذا؟ قالوا: شهرٌ حرامٌ. قال: ثم قال أيُ بلدٍ هذا؟ قالوا: بلَدٌ حرامٌ . قال: فإنَّ الله قد حرَّم بينكم دماءكم، وأموالكم ،(قال: ولا أدري قال: أو أعراضكم أم لا) كَحُرْمةِ يومِكُم هذا، في شهرِكم هذا، في بلدكم هذا، أبَلَّغْتُ ؟ قالوا : بَلَّغَ رسولُ الله ﷺ قال: لِيُبَلِّغِ الشاهدُ الغائبَ " [261]

فالنداءُ والخطابُ في الحديث النبوي عالميٌّ إنساني، ومحتواه يحمل الصفةَ ذاتَها، بحيث يُبيِّن أنَّ الإنسانَ لا يستطيع أنْ يقيمَ حضارةً، أو يبنيَ أمَّة أو مجتمعاً، إلاَّ إذا كان آمِناً على نفسه وعِرْضه وماله، وأحسَّ بالأمن والاستقرار . ومن هنا كان الارتباط الوثيق بين التأكيد على إنسانية الإنسان، وكرامته، وبين رسالة الإسلام، التي تهدف إلى بناء الأمة الصالحة، والتي من خلالها تتحقَّق سعادة الإنسان . وفي سبيل تحقيق ذلك جعل الأساس في التفاضل بين البشر راجعاً؛ إلى كسب الإنسان وعمله، فأناطه بالتقوى لأنَّ الحياة ميدان سباق وتنافس بين الناس، وحتى يكون من متطلبات التفاضل بين الناس، السعي إلى تحقيق أكبر نَفْعٍ وخَيْرٍ للإنسانية .

---

[260] د. أبو المجد، أحمد كمال ، بحث " الحاجة إلى الإسلام في هذا الزمان " ،من سلسلة كتاب العربي "المسلمون والعصر "، إصدار مجلة العربي ، الكويت ، ١٩٨٧م ص٢٩ .

[261] سبق تخريجه ص١٢٠، أخرجه أحمد.

وبالمقابل أبطل التفاضل على أساس الجنس واللون واللغة، دراً للعداوات والخصومات بين البشر، وحماية للإنسان نفسه، من الاتكال على هذه الأسس، المانعة من تعميم الخير والنفع بين الناس، بل وتمنعه من السعي والعمل، والتنافس ومسابقة الآخرين في هذا الميدان، اتكالاً على أمور لا إرادة للإنسان في اختيارها .

إنَّ افتقاد كثير من المسلمين، في أقطار الكرة الأرضية المتعددة، لكثيرٍ من المعاني الإنسانية، التي جاء الإسلام بها ، شكَّل سداً منيعاً، بين الإسلام والشعوب الأخرى . فكانوا نموذجاً مُشوَّهاً لدعوة الإسلام وقيمه، وذلك عندما اجتاحتهم النزعات العنصرية، والتي ارتدت بهم إلى الجاهلية، على اختلاف صورها وألوانها، فانتشر فيهم القتل، وسفك الدماء، وانتهاك الحرمات، والاستهانة بالحقوق الإنسانية .

وقد جاءت أحاديثُ متعددةٌ، فيها تفصيلٌ لما دعا الإسلام إلى تحقيقه، من إنسانية الإنسان وكرامته وسعادته . إنَّ تحقيق هذه الأهداف، إنَّما يتم من خلال التراحم بين المؤمنين وتوادهم وتعاطفهم، في مجتمعٍ حيٍّ يتفاعل فيه أفراده، بحيث يُصبحُ فيه هَمُّ الفرد هَمًّا للمجتمع بأسْرِه .

فالإنسان غالباً ما يفقد كثيراً مِنْ إنسانيَّتِه إذا صار وحيداً، غريباً في مجتمعه، وكأنَّه عضو قد تمَّ بتْرُه من جسد المجتمع، وبخاصة عندما يَفقدُ فيه المجتمعُ الحِسَّ الإنساني؛ فتتقطَّع العلاقات الاجتماعية بين أعضائه،فلا تراحُمَ، ولا تعاطُفَ، ولا تكافُل . عندئذٍ يكون المجتمع قد دخل حالة الاحتضار المؤذنة بموته، فيكون هذا المجتمع مجرَّد كيان يضمُّ أعضاء متناثرة، بعيداً عمَّا يتحقَّق به وصْفُ الجسد الحي، الذي يتداعى عند الألم الذي يشعر به أيُّ عُضْوٍ فيه .

لذلك يمكن لِمَنْ يتأمَّلُ التشبيه النبوي للمجتمع المسلم الحي بالجسد، أنْ يدرك أنَّ عوامل اليقظة والانتباه والشعور الحي، هي أهم صفات الأمة المسلمة الحيَّة، وكأنها في حالة استنفار ودفاع، بل وتستطيع أنْ تجعل عواملَ ضعفِها، عواملَ قوَّةٍ ومنَعَةٍ، كالجسد الحي الذي يتمتَّع بكلِّ صفات القوة والصحة، فلا يكون عُرضة للأمراض السارية، لِما يتمتَّع به من المناعة القوية . حيث شبَّه النبيُّ ﷺ المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم مع بعضهم بالجسد، وهي صورةٌ في التشبيه مفتوحةٌ، لكلِّ ما يستطيعُ أنْ يتخيَّله أو يتصوَّرَه أيُّ إنسان لطبيعة علاقة المجتمع بأعضائه .

فأعضاءُ المجتمعِ الحيِّ لا يستغني أحدُهم عن الآخر، ولا يَفقِدُ أحدُهم إحساسَه، ولا شعورَه، تجاه ما يعانيه الآخرون من الألم والشكوى، في صُوُرةٍ تتجسَّد فيها حالةُ استنفارٍ قصوى، بالسُهر والحُمَّى، حتى يتعافى العضو من إصابته، فلا يكون مجتمعاً حيَّاً؛ إلاَّ بسريان الحياة أيضاً في أفراده، تظهر آثار الحياة فيه، بالتراحم، والتوادّ، والتعاطف بينهم، كما قال الرسول ﷺ :" مَثَلُ

المؤمنين في تراحُمِهم وتوادُّهم وتعاطفِهِم كَمَثَل الجَسَدِ، إذا اشتكى عُضْوٌ منه تَداعَى له سائرُ الجسد بالحُمَّى والسَهَر" [٢٦٢]

ومعنى ذلك أنَّه جَسَدٌ يتمتَّع بمناعته ومقاومته للأمراض، وجَسَدٌ يتمتَّع بمُقَوِّمات الحياة، التي تجعَلُ أعضاءَه ومكوِّناتِه مُتفاعِلةً مع بعضها، وفي ذلك دلالةٌ على مقدار ما يتوفَّر للمجتمع والأمة الحيَّة، من الإحساس بالمشاعر الإنسانية التي يَتَّصِفُ بها أفرادُ المجتمع، تجاه بعضهم بعضاً، من الشعور بالألم والحُزن والأسى، وما ينشأ عن ذلك من المواساة والمؤازرة والتأييد .

وبذلك استحقت الأمةُ الحيَّةُ وصْفَ الجَسد، وهو وصْفٌ لا ينطبقُ إلاّ على أجزاء متماسِكةٍ ومترابطةٍ مع بعضها، يسري فيها الإحساس بالحياة والألم، إذا أصاب أيَّ عُضْوٍ فيها أيُّ مصاب، وذلك لأنَّ " الجسد لا يتداعى أعضاؤه بالسهر والحمى للعنصر المصاب، إلاّ إذا كان لدى الجسد قلب نابض بالحياة، ويدبِّرُ أمورَه دماغ سليم، وأجهزة معافاة للهضم والتنفس، وشبكة نشطة من الشرايين والأوردة والأعصاب، ودمٌ نقيٌّ متوازن التركيب، فكذلك الأمة ليست أكواماً بشرية (صالحة أو غير صالحة)، وإنَّما هي نسيجٌ اجتماعي تحكمه قوانين بناء الأمم، وصحتها، ومرضها، وموتها " [٢٦٣]

إنَّ هذا التشبيه قد كان واقعاً حياً في صدر الإسلام، لمَّا أدرك المسلمون المغزى والهدف من هذا التشبيه؛ فصار الصغيرُ منهم يحترمُ الكبيرَ ويُقدِّره، ويُطيعُ المأمورُ منهم الأميرَ، ويواسي الغنيُّ منهم الضعيفَ، ويرأف عالِمُهم بِجاهلِهم، ويُؤثِرون بالطيِّبات على أنفسهم، وينتصر القويُّ منهم للضعيف، فكانوا على قلبِ رَجُلٍ واحد، كالجسد الواحد، بذلك عزَّ حالُهم، وقَوِيَتْ شوكتُهم، وحُفِظَت أعراضُهم وأموالُهم، وَهابَهُم أعداؤهم .

ولعلَّ أكثر ما تُمتَهنُ فيه إنسانية الإنسان وكرامته ، وتضيع به سعادته ، أنْ يُعاقب الإنسانُ على ذنب لم يقترفه ، وكم من إنسان قد قُتِلَ وهو بريء ؟ لا لشيء إلاّ لأنَّ له صِلة قرابة بالجاني . بل وكم مِن أقوام وشُعُوبٍ أبيدت عن بكرة أبيها ظُلماً وعُدواناً ؟ فَنُكِّلَ بها وشُرِّدَتْ من ديارها، نتيجة أطماع يُراد تحقيقها على حساب هذه الشعوب . والأمر ليس ببعيد عن مجتمع المسلمين ،

---

[٢٦٢] سبق تخريجه ص ٥٤، أخرجه مسلم .

[٢٦٣] الكيلاني، إخراج الأمة المسلمة . ص ١٣ ـ ١٤ .

بما يشيع في كثير منها ، من ثارات الجاهلية التي حرَّمها الإسلام مُتجاهلين حديث النبي ﷺ الذي قال فيه : " ...لا يؤخذ الرجل بجريرة أبيه ولا بجريرة أخيه " [٢٦٤]

ودعوة الإسلام للمحافظة على كرامة الإنسان وإنسانيته، لا تقْتصرُ على المسلمين بل تمتدُّ في مجالها لِتشملَ كُلَّ إنسانٍ يعيش في ظل الدول الإسلامية، ويتَّسع نطاق هذه الدعوة لتشمل كلَّ من انتسب إلى الجنس البشري . وهي دعوة تحمل تعبيراً صريحاً عن حق الإنسان في العيش بكرامة وإنسانية، وهو ما يترك أثراً طيِّباً في تعامل الناس مع بعضهم، في مجتمع حيٍّ يفيض بكل معاني الخير والحُبِّ والعطاء .

وقد جاء في الحديث عن الرسول ﷺ أنَّه قال :**"من ظلم معاهداً، أو انْتَقَصَه حقاً، أو كلَّفه فوق طاقته، أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس منه ، فأنا حجيجه يوم القيامة "** [٢٦٥]

لقد لخَّص هذا الحديث النبوي ما يحدث للبشرية اليوم، من أشكال الظلم والقهر، التي يعانيها الإنسان، والتي سُلِبَتْ بِسبَبِها كرامةُ الإنسانِ، وفقَدَ بِسبَبِها إنسانيَّته، مِنْ ظُلْمٍ يَنزِلُ به، بسبب دينه، أو جِنْسِه، أو لوْنِه، فَيُنتَقَصُ لأجل ذلك حقُّه، أو تُصادَرَ أموالُه، أو تُزهَقَ بها روحُه .

ومِنْ جُمْلَة الإهانات التي لَحِقتْ بالإنسان، والتي تتناقض ودعوة الإسلام للحفاظ على إنسانية الإنسان، تلك التصورات السخيفة بحق المرأة، حيث تَجْعَلُها مَنْبَع الرِّجْس والنَّجاسَة، وأصْلَ الشَّرِّ والبلاء، وهي صورةٌ شائعةٌ في كثير من المجتمعات الإنسانية، ولا يُستثنى من ذلك كثيرٌ من المجتمعات الإسلامية .

وهناك صُوُرةٌ أخرى تتجسَّد فيها إهانةُ المرأة، والانتقاص من إنسانيتها، وهي شائعة في المجتمعات ذات الطابع الغربي، حيث جعلت منها سلعة إعلانية، للترويج والترفيه، تُباع وتُشترى في أسواق النِّخاسة، وما كانت هذه المرأةُ لِتَفقِد مكانتها وإنسانيتها، إلاَّ بعد أن فَقَدتْ تلك المجتمعاتُ ما فَقَدَتْه المرأةُ فيها، من معاني الإنسانية والكرامة .

وفي الحديث النبوي أيضاً بيانٌ لوجوب المحافظة على إحساس الإنسان بإنسانيته ، والمحافظة عليها، حتى لو كان هذا الإنسان فاقداً لحريَّتِه، فحتى لو كان مملوكاً لسيِّده، فيجب على

---

[٢٦٤] النسائي، السنن، كتاب تحريم الدم ، باب تحريم القتل ، حديث (٤١٢٧) . ١٢٧/٧ . وصححه الألباني. الألباني، صحيح سنن النسائي ١٠٨/٣ .

[٢٦٥] أبو داود، السنن، كتاب الخراج والإمارة والفيء ، باب في تعشير أهل الذمة ، حديث ٣٠٥٢ ، ٣/ ٤٣٧ .صححه الألباني . الألباني،صحيح سنن أبي داود حديث ٢٦٢٦ ، ٥٩٠/٢ .

سيّده أنْ يعامِلَه كإنسانٍ له كرامتُه، بحيث لا تُمْتَهنُ كرامتُه أو إنسانيّتُه . وفي ذلك تأكيد على سَعْيِ الإسلام لتحقيقِ هذا الهدف، من خلال الحَثُّ على تحرير الرقيق من أَسْرِ العبودية؛ حيثُ جعل كفّارةَ ضَرْبِ السيّد لِممْلُوكِه عِتْقَ رقبَتِه، كما جاء في الحديث النبوي : **" مَنْ لَطَمَ مملوكَه، أو ضَرَبَه، فكفّارته أنْ يُعتِقَه "** [٢٦٦] . وحتى لو كان هؤلاء الرقيق على هذه الحال، فإنّهم بمنزلة الأخ، بحيث يشعروا بإنسانيتهم وكرامتهم، في أهم الأمور الضرورية التي يحتاجها الإنسان في حياته، من الطعام واللباس، وقد جاء الحديث النبوي للتأكيد على هذه الجوانب، التي يتجلّى بها حرص الإسلام على إنسانية الإنسان : **" هُم إخوانكم. جعلهم الله تحت أيديكم . فأطعموهم ممّا تأكلون . وألبسُوهُم ممّا تَلْبَسُون. ولا تُكلِّفوهم ما يَغلِبُهُم . فإنْ كلّفتُموهم فأعِينُوهم "** [٢٦٧] .

ولعلّ كثيراً من البشر في عصرنا الحاضر، افتَقَدُوا هذه المعاني الإنسانية، نتيجة معاناتهم اليومية في تأمين لقمة العيش، أو تأمين كساء لهم يستر أجسادهم وعوراتهم، وهو ما يقود إلى جملة من التساؤلات : كيف يمكن للإنسان في العصر الحالي أنْ يشعرَ بكرامته وإنسانيته ، وهو لا يجد قُوتَ يومه؟ وكم من البشر سُلِبَ معنى الحياة الكريمة، مِمَّنْ يعيش تحت خط الفقر باختلاف مسمّياته :الفقر المُدْقِع، أو الفقر المُطلَق؟ وكم من البشر من يموت في المجاعات ؟ وفي المقابل: كم مِنْ أموالٍ طائلةٍ تُهدَرُ في الحروب والصراعات، فأين الادعاء بالحرص على كرامة الإنسان وإنسانيته ؟

إنّ هذه الأحاديث النبوية، تُمثّل انتقالاً كبيراً للرقيق ومَنْ شابَهَهم في حاله، من عالم الأشياء بعدما كان يُباع ويشترى، إلى عالم الإنسان لأول مَرَّةٍ في التاريخ البشري، حيث بدؤوا يشعرون بإنسانيتهم وكرامتهم، التي فقدوها ردحاً من الزمن، وذلك ضمن التقويم الأساسي للإنسان الذي أوجده الإسلام [٢٦٨]

---

[٢٦٦] مسلم، صحيح مسلم، كتاب الأيمان، باب صحبة المماليك، وكفارة من لطم عبده ، حديث(١٦٥٧) . ٣/ ١٢٧٨.

[٢٦٧] مسلم، صحيح مسلم، كتاب الأيمان ، باب إطعام المملوك مما يأكل،وإلباسه مما يلبس... حديث (١٦٦١) . ٣/ ١٢٨٣.

[٢٦٨] مالك بن نبي، تأملات ، دار الفكر المعاصر ، ط١ ، بيروت ، ١٤٢٣هـ ، ٢٠٠٢م . ص ٨٢ .

المطلب الثاني

السعي إلى البناء والإعمار

إنَّ إحساسَ المسلمِ وعِلْمَه بأنّه مسؤولٌ عن مالِه وعِلمِه ووقتِه وصحَّتِه، يجعله ينطلق نحو الإنجاز والبناء، بحيث يكونُ حريصاً على إشغالِ وقتِه واستثمارِه في العمل الصالح، الذي ينتفع به في الدارَيْن، وينْفعُ به أمَّتَه . إنَّ إدراكَ الإنسان المسلم لِقيمة ما وهبه الله إيّاه من المال، والعلم، والوقت، والصحة، هو ثمرَةٌ لإحساسه بالمسؤولية، التي تُوجِبُ عليه ألاّ يضيع أيَّ شيءٍ من هذه الأمور هباء، مما يجعله يسير وينطلق بوتيرة متصاعدة نحو البناء والإعمار .

والأمّة لا تكونُ حيَّةً إلاّ بِوجودِ جيلٍ يمتلكُ أفرادُه هذا الإحساسَ الدقيق، يتميّز بالفاعلية من خلال أفرادٍ فاعلين، لهم قُدرةٌ كبيرةٌ على التعامل الإيجابي مع المقوّمات التي يمتلكونها وأُمّتُهم، أفرادٍ على مستوىً عالٍ من الكرامة والإنسانية، يتمتّعون بالمبادرة والمسابقة في الخيرات، لديهم القدرة والثقة بالنفس التي تؤهِّلهم لأن يكونوا على قدر التحدِّيات الحضارية التي تواجه الأمة، بحيث " تتعاظم المسؤولية على قد ما يتوفر للمرء من فرص في تحصيل ذلك وتنفيذه ...وإدراك الموضوع بهذا المستوى ، يجعل المرء يشعر بقشعريرة حين يتذكر أنه سيُسأل عن عُمُرِهِ فِيمَ أفناه ، هذا العمر الذي يبعثره ، وسيُسألُ عن الإمكانات الأخرى التي أهملها وضيَّعها ، حين لم يَسْعَ إلى تحويل ما أودع الله في نفسه من إمكانيات بالقوة إلى إمكانيات بالفعل "[٢٦٩]

جاء في حديث أبي برزة الأسلمي، عن رسول الله ﷺ أنّه قال : **" لا تزول قدما عَبْدٍ يوم القيامة حتى يُسألَ عن عُمُرِه فيما أفناه، وعن عِلْمِه فيمَ فعل فيه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيمَ أنفقه، وعن جسمه فيمَ أبلاه"** [٢٧٠]. فالذي ذَكَرَه الحديثُ النَّبويُّ عن مسؤولية المسلم عن هذه الطاقات والإمكانات التي يمتلكها، فيه بيان لِمَا يجب على الإنسان أنْ يفعلَه فيما منحه الله ـ تعالى ـ إيّاه من أسباب القوة. وحتى لا يَضيع ذلك كلُّه هَبَاءً، فعلى المسلم أنْ يتَّصف بِحُسن التقدير والتدبير. وحتى يكونَ الإنجازُ بالمستوى المطلوب، فعليه أن يُحسن استثمار الوقت فيما يعود بالنفع عليه وعلى الأُمَّة، بعيداً عن إهدار الوقت فيما لا طائلَ من ورائه، من المُهاتَرات والجِدال

---

[٢٦٩] جودت سعيد، حتى يغيروا ما بأنفسهم . ص ٤١ـ ٤٢ .

[٢٧٠] سبق تخريجه ص ١٠٩، أخرجه الترمذي .

والمِراء .

ولذلك كان مما نهى عنه الرسول ﷺ تَرْكُ المراء والجدال حتى لو كان المرْءُ مُحقاً، لأنَّ فيهما إشغالاً للمرء عن كلّ عملٍ صالحٍ مُفيدٍ، ولأنّه لا فائدة تُرجَى منهما حتى وإنْ كان أحدهما مُحقاً، لأن المآل فيهما إمّا أنْ يُكذِّبَ أحدُهما الآخر، أو يُغضِبَه، وهذا لا يليق بالإنسان المسلم في تعامله مع أخيه المؤمن، لأنّه مانعٌ لِكَمالِ حقيقةِ الإيمان .

فَقَدْ بيَّن الرسول ﷺ ذلك، حيث قال : " **لا يؤمن العبدُ الإيمانَ كلَّه حتى يترُكَ الكذب (في) المُزاحة، ويترك المراءَ وإنْ كان صادقاً**"[٢٧١] . فلآثارِه السلبية السيئة على الفرد والمجتمع؛ كان المراءُ طريقاً للضلال والبُعد عن الحق . فإذا كان الإنسان قدْ هُدِيَ إلى الحق، فالواجب في حقِّه هو العملُ بما علِمَ، فإذا تَرَكَ ذلك لكي يُماريَ ويُجادلَ غيرَه، فقد ضلَّ الطريق، وأخطأ الجادة .

وهو ما جاء بيانه في الحديث النبوي الوارد عن الرسول ﷺ ، حيث قال : " **ما ضل قوم ـ بعد هدى كانوا عليه ـ إلا أُتُوا الجَدَل** "، ثمَّ قرأ { **وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ** }[٢٧٢] "[٢٧٣]. فعلى المسلم أنْ يُحْسِنَ التدبير للإمكانات المالية بحيث لا ينفق المالَ إلا في موضعه، ولا يستثمِرُ المالَ إلاَّ فيما أباحه الله تعالى، حتى يكون مالاً حلالاً، لا شُبهة لحرام فيه، وبذلك يتحقَّق إنفاق المال فيما يعود بالنفع والفائدة على المجتمع، من أبواب العمل المشروعة. وعليه أنْ يُحسِن استخدام قدراته العقلية والعلمية، والكفاءات العلمية، بحيث يُحقِّق الفائدة للأمة، وفي ذلك كلِّه إغلاق لأبواب من الفساد عظيمة .

ولو نَظَرْنا إلى حال الأمة الإسلامية اليوم، لوجدنا أنَّ كثيراً من أبواب الفساد المالي والإداري بِوَجْهٍ خاصٍ، ناشئٌ عن غياب جانب المُسَاءَلة والمُحَاسَبة، فبالرغم من الإمكانات المالية والبشرية، والثروات والكفاءات، التي تمتلكها الأمة اليوم، إلاَّ أنَّها تُعاني مِنْ مشاكلَ جمَّةٍ، سياسياً واقتصادياً واجتماعياً وتعليمياً، بسبب الفساد المستشري فيها، وهو الذي كان حائلاً بين هذه الأمة وبين الإنجاز والإعمار في العصر الحالي .

ولعلَّ من حُسن استثمار الوقت فيما يعود بالنفع على الأمة الانصراف إلى العمل، وتَرْكَ

---

[٢٧١] ابن حنبل ، المسند، حديث (٨٦١٥)، ص٦٣٥ (٣٥٢/٢، ٣٦٤) .ابن أبي الدنيا، عبد الله بن محمد بن عبيد،الصمت وآداب اللسان، تحقيق نجم عبد الرحمن، دار الغرب، ط١، بيروت، ١٤٠٦هـ ١٩٨٦م . وقال المحقق : رجال إسناده رجال الصحيح حديث (١٣٩) ، ص٢٨١ .

[٢٧٢] سورة الزخرف، الآية ٥٨ .

[٢٧٣] الترمذي، الجامع الكبير، كتاب التفسير،سورة الزخرف، حديث (٣٢٥٣)، وقال: هذا حديث حسن صحيح . ٢٩٦/٥ ـ ٢٩٧ .

ما لا فائدة منه، مِنَ الانشغال بالقيل والقال، والجدال والسِجال، وبخاصة عندما تلْتَبِسُ الأمورُ على الناس، فلا يتميَّز الحقُّ من الباطل . إنَّ الفِتَن عندما تعمُّ، فَمِنَ الأفضل للإنسان أنْ يصرِفَ وقتَه في أعمالٍ تُفيدُ الأمَّة، يتحقَّقُ بها إنجازات تساهم في البناء والإعمار، ويبتعدَ عنْ كلِّ ما يُؤَجِّجُ الفِتَنَ ويزيدُها، وهو ما بيَّنه الحديثُ النبويُّ الوارد عن الرسول ﷺ ، حيث قال : " **بادروا بالأعمال فِتَناً كقِطَعِ الليلِ المظلم...**" [٢٧٤] .

إنَّ تخصيص أوقات الفِتَنِ، لِتكونَ فيها المبادرةُ بالأعمالِ، هي السلاحُ الذي يستخدمه المسلم في مواجهة الفِتَن بِوَجْهٍ خاص، وفي ذلك تنبيهٌ للمسلم للانصراف إلى ما فيه نَفْعٌ للمجتمع وفائدة له ، فإذا كان على المسلم أنْ يجعلَ جُلَّ هَمِّه الإقبالَ على العمل في أوقات الفِتَنِ، وهي أوقاتٌ ـ غالباً ـ ما ينصرف الناس فيها عن العمل، فمِنْ باب أولى أنْ يكون سعيه إلى العمل في أوقاتِه كلِّها.

بل إنَّ حُسْنَ استثمار الوقت في العمل النافع المفيد، لَيَبْلُغُ أقصى مدى؛ بِما جاء الحديث النبوي يدعو إليه كلَّ مسلم، حتى لو كان في الرَّمَق الأخير من حياته، ما دام في استطاعته أنْ يفعل ذلك، فكما جاء في الحديث النبوي: " **إنْ قامَتْ على أحدِكم القيامةُ، وفي يده فَسِيلَةٌ فَلْيَغْرِسْها** " [٢٧٥] ومعنى ذلك : أنَّه لا ينبغي للمسلم أن يُشْغِلَه شيءٌ عن الأعمال الصالحة، التي بها عمارة الدنيا. وهذا الحديث النبوي يُظْهِر نَظْرَةَ الإسلام الإيجابية تجاه الحياة الدنيا، بِما يُعين على صلاحها وعمارتها وبنائها، حتى ولو لمْ يَبْقَ للمسلم فيها حاجة، وهو الأمر الذي يغفل عنه كثير من المسلمين، بحيث يُظْهِرون الزُّهْد في الدنيا جهلاً وغَفْلَةً، عمَّا دعاهم الإسلام إليه من السعي في الأرض .

ولذلك تُعدُّ قيمة (العمل) من القيم التي يجب إحياؤها في الأمة، فهو ـ أي العمل ـ الطريق إلى تحقيق الإنجاز والبناء والإعمار، فَمِنْ خلال إحياء هذه القِيمة، يكون الإنسان قد أحسن استثمار وقتِهِ، وصحَّتِه، ومالِه، وعِلْمه، على الوجه الأمثل . وتظهر أهمية هذه القيمة في أنَّها تَخُطُّ مصيرَ الأمم في الإطار الحضاري، ومن هنا وجب على الأمة أن تجتهد في تنمية حب العمل، وجَعْلِه من محاور القيم التي تحرص على الاجتهاد فيها، وأنْ تُنَفِّر من العجز والكسل . ثُمَّ إنَّ على هذه الأمة أنْ تُزكِّي هذه القِيَمْ من المفاهيم الخاطئة للزهد، التي عززت الرِّضا بالفقر، وجعلَتْه من سِمات

---

[٢٧٤] سبق تخريجه ص ٧٢، أخرجه مسلم .

[٢٧٥] ابن حنبل، المسند، قال أحمد شاكر: إسناده صحيح . حديث (١٢٩١٦) ١١/٥٥ .وقال الألباني: هذا سند صحيح على شرط مسلم . الألباني، سلسلة الأحاديث الصحيحة ، حديث ٩ ، ١١/١وكذلك أخرجه الطيالسي في مسنده : حديث(٢٠٦٨) . ص٢٧٥.

الصلاح والصالحين . فالمؤمنون مدعوون ـ في القرآن ـ للسعي في مناكب الأرض لجمع المال، بالأساليب المشروعة الكريمة [٢٧٦].

وللعمل مفهوم دقيق وعميق، بحيث لا يقتصر على بذْل الجهد لتحقيق منافع مادية، أو قِيَم معنوية، تظهر بها فاعلية الإنسان في مجتمعه، بل يتّسِعُ مفهومُه ليشمل السعي إلى الأصلح من مقاصد الدنيا والآخرة، بوسائل صالحة، بعيداً عن الوسائل غير المشروعة، التي لا يُمكن بأيّة حال أنْ تُبرِّرها الغايات المشروعة، بحيث لا يُوجَدُ مجالٌ للتحايل ولا للخداع. وهذا العمل يتطلّبُ منه الحِرْصَ على استثمار الجهد والوقت، امتثالاً لقوله تعالى في وصف المؤمنين:{ **وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ** } [٢٧٧]، فالذي يُعْرِضُ عن العَبَثِ القَوْلي، يكون أقرب إلى الإعراض عن العَبَث العَمَلي. ولكنّ حال الأمة اليوم، يغلب عليها صفة الإنفعالية، والبُعْد عن منهج التخطيط في العمل . عملٌ يخضع لِرَدّات الفِعل، يتم توجيهه والتحكم به، من قِبَل الآخرين، بحيث تُصرَفُ كثير من الجهود والطاقات، في العبث والمحاولات الهازلة؛ في استنزاف جائر للقوى والطاقات، بغير نتيجة إيجابية تعود بالنفع على الأمة .[٢٧٨]

ولذلك كانت قيمةُ العمل واضحةً تماماً للجيل الذي ربّاه رسول الله ﷺ على عينه، الذين كانوا يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم، ويعدّون ـ في الوقت ذاته ـ " الكدح ـ وهو العمل في واقع الحياة ـ هو العبادة الدائمة التي يقوم بها المسلم، والتي يتزوّد من أجل القيام بها ـ بذلك الزاد الروحي العميق الذي تمنحه إيّاه الشعائر التعبدية، حين يقوم بها على صورتها الحقّة من الإخلاص لله، والتجرد إليه . " ويَبْلُغُ من تأكيد القرآن على العمل والجُهد البشري لإعمار العالم، على عين الله وتوجيهه، أنْ تَرِدَ اللفظة بتصريفاتها المختلفة فيما يزيد على الثلاثمائة والخمسين موضعاً، وهي كلُّها ـ تُشير سَلْباً وإيجاباً ـ إلى أنّ المحور الأساسي لوجود الإنسان ـ فرْداً ـ على الأرض، هو العمل الذي يُتّخذُ مقياساً عادلاً لتحديد المصير في الدنيا والآخرة، وهو موقف ينسجم تماماً مع فِكْرَتَيْ " الاستخلاف" و" الاستعمار" الأرضي ."[٢٧٩]. ولا يقتصر الأمر

---

[٢٧٦] الكيلاني، إخراج الأمة المسلمة . ص ٧٠ .

[٢٧٧] سورة المؤمنون ، الأية ٣ .

[٢٧٨] بن نبي، شروط النهضة، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر(تصوير)، دمشق، ١٤٠٦هـ١٩٨٦م. ص١٤٧ .

[٢٧٩] د. خليل، عماد الدين، من سلسلة قضايا الفكر الإسلامي " حول تشكيل العقل المسلم" ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي،ط٤، فرجينيا ، ١٤١٢هـ ١٩٩١م . ص ١٣٦

في دعوة الإسلام إلى البناء وعمارة الأرض على حجم الإنجاز وكميّته، بل يمتد إلى الاهتمام بنوعية الإنجاز، من خلال الحثّ على الإتقان في العمل، وبيان أنّ الله تعالى يُحبُّ العمَلَ المُتْقن، وعلى المسلم أن يسعى لكي يكون إنجازه مُتْقَناً، لينال ما يُحبُّه الله تعالى، كما بيّن ذلك الحديث الوارد عن رسول الله ﷺ ، حيث قال : **" إن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ يُحِبُّ إذا عَمِلَ أحَدُكم عَمَلاً أنْ يُتْقِنه"** [280] حتى إذا صار العبد المسلم مُحترفاً في عمله وصَنْعَتِه؛ أحَبُّه الله تعالى كما جاء في الحديث عن الرسول ﷺ : **" ...ولكنَّ الله يُحبُّ من العامل إذا عمل أنْ يُحسن "** [281]

---

[280] الطبراني، المعجم الأوسط، حديث (٨٩٧) . ٤٠٤/١ . قال الألباني: وللحديث شاهدٌ يُقوّيه بعض القوة . وذكر له أيضاً شواهد أخرى، الألباني، سلسلة الأحاديث الصحيحة ، حديث(١١١٣). ١٠٦/٣ ـ ١٠٧ .قلت: من الشواهد التي ذكرها الألباني، الحديث الآتي الذي أخرجه البيهقي في " شعب الإيمان" .

[281] البيهقي، أحمد بن الحسين(٤٥٨هـ)، الجامع لشعب الإيمان، قال المحقق : وهو مرسل حديث(٥٣١٥)، ٣٣٥/٤ .تحقيق: محمد السعيد زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢١هـ ٢٠٠٠م.قلت: الحديث يروى عن كليب بن شهاب الجرمي مرفوعاً، ولم تثبت له صحبة ، كما قال ابن حجر في التقريب: وهم من ذكره في الصحابة، بل هو من الثانية . ابن حجر ، التقريب ٥١٧(٥٦٦٠)، تدقيق حسان عبد المنان، بيت الأفكار الدولية، بيروت ٢٠٠٥ م .

المطلب الثالث

ترسيخ قيم الحق والعدل

إنَّ الله ـ سبحانه وتعالى قد أمر الناس باتخاذ العدل أساساً في أمورهم كلها، وباتِّباع الحق والتزامه دائماً،فلا يمنعهم عن ذلك أيُّ شيء ، حتى لو كان ذلك الشيء يتعارض مع مصالحهم، أو يؤثِّر على علاقاتهم بالآخرين .

فالعدلُ والحقُ من القِيم التي لا يَصلُحُ حالُ المجتمعات والأمم إلاَّ بها، فهما عنوان الحياة والاستقرار والأمن في المجتمع، لأنهما يُمثِّلان الدِرْع الواقي لأيِّ مجتمعٍ أو أُمَّةٍ، من السَّيْر في طريق الانهيار والزوال، حيث إنَّ من أسباب الهلاك للأمم السابقة انتشار الظلم والفساد. لذلك جاءت دعوة الإسلام لترسيخ هذه القيم، صيانةً للمجتمع، ووقايةً له من عوامل التفكُّك والانهيار، فهما ضرورةٌ لا بد منها للأمة، إذا أرادتْ السَّيْرَ في طريق النهوض والارتقاء، فَمِنْ خلالهما يشعر الإنسان بكرامته وعِزَّته، وبذلك يتهيَّأ للإنسان المجال لكي يسير بأمَّته في طريق الرقي والتقدم .

فالالتزام بهاتين القِيمتَّين التزامٌ بالسنن والقوانين الكونية، التي تجري الحياة بناءً عليها، فلا مجال للمحاباة فيهما، أو الإعراض عنهما ، وزيادة على ذلك فإنَّ الالتزام بهما؛ يجعل من علاقة المسلم مع عالم الوجود علاقة انسجام وتوافق، من خلال تسخير الإنسان المسلم لطاقاته وقدراته جميعها، للإنجاز والنهوض الحضاري، مع الحرص على مسايرة السنن الإلهية وعدم مصادمتها، وبذلك فإنَّ كل جهد يبذله، يُصرَف في تدعيم قوة المجتمع والأمة، ولا يُهدر ذلك في مواجهة ومقاومة السنن الكونية، أي أنَّ تلك الجهود والطاقات عامل بناء للمجتمع لا عامل هدم وتدمير .

والعدل والحق مطلوبان في كُلِّ حال، في تَعَامُلِ المسلم سواءً مع المسلم أو مع غير المسلم ، وسواء تميَّزت العلاقة بين الطرفين بالحُبِّ والوئام، أم يشوبها البُغض والكراهية . فإنَّ المطلوبَ شرعاً في تعامل الإنسان مع مَن يبغضه بخاصة، الحِرْصُ على العدل، وتخصيص هذه الحالة بالأمر بالعدل فيها، لِأنَّ الغالب في مثل هذه الحالة البُعْدُ عن العدل والحق والإنصاف. امتثالاً

لقوله تعالى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ لِلّهِ شُهَدَاء بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ } [٢٨٢] .

فالبُغض أو الكُره لأي إنسانٍ،لأيّ سبب كان، لا يمنع تحرّي العدل والحق والإنصاف في أيّ تعامل . وفي السنة النبوية تطبيق عَمَليٌّ لوجوب الإنصاف والعدل، حتى لو كان في تقييم الأفراد، وفي بيان محاسنهم ومساوئهم، ففي الحديث : أنّ رجلاً كثيراً ما يشرب الخمر، ثم يؤتى به إلى النبي فيقيم عليه الحد، فجيء به مرة فجُلِدَ، فقال رجل من القوم : اللهم الْعَنْهُ، ما أكثر ما يؤتى به؟! فقال النبي ﷺ : **" لا تلعنوه، فَوَاللهِ ما عَلِمْتُ إلاّ إنّه يحب الله ورسوله"** [٢٨٣] ، فانظر إلى الرسول ﷺ كيف أنّه بعدما أقام الحد على الرجل بسبب معاقرته للخمر، نَهَى عن لعْنِه. فإنّ ما قام به الرجلُ، لم يكن لِيمنعَ الرسولَ ﷺ من إنصاف الرجل؛ بِذِكْرِ شيء من محاسنه . وهذا الإنصاف يغيب عن كثير من الناس،في تعاملهم مع غيرهم . فَكُلُّ إنسان مُعرَّضٌ للهفوات والأخطاء، فمن العدل والإنصاف إذا ذُكِرَت مساوئ الإنسان أنْ لا تُنسى محاسنه .

وأمّا تخصيص القرآن لهذه الحالة للحرص على تحري العدل؛ سببه " أنّ ما ينشأ بين الأفراد والجماعات من نزاعات وعداوات وبغضاء، يحمل النفس على طمس محاسن الخصم وتضخيم مساوئه، مما يوقع في شطط كبير فيما يصدر عليه من أحكام، تجنح عن الاعتدال والصواب والتجرد عن الضغائن "[٢٨٤] ، فالحرص على العدل، فيه صيانة للفرد والأمة عن هذه الآفات، وهو التزام بالمبدأ دون الخضوع لمنطق الاعتبارات والمكاسب الدنيوية، حتى في تقويم الأمم الأخرى. فإذا لم يكن للعدل ـ بمعناه الواسع الشامل لكل شيء ـ وجودٌ في المجتمع والأمة، فإنّ الأمة تكون فاقدة لأبرز ما يؤهّلها لقيادة البشرية، في الطريق لإيجاد مجتمع يشعر فيه كل إنسان بكرامته وإنسانيته .

ولعلّ في حديث الرسول ﷺ التجسيد الحقيقي ـ عملاً وسلوكاً ـ لهاتين القيمتين في حياة كل إنسان مسلم، من خلال معاملةِ الإنسانِ المسلمِ للآخرين كما يُحبُّ أنْ يُعَامَل. فهو مِقْياسٌ ومِيزانٌ دقيق للعدل والإنصاف وتحري الحق، للمسلم في شؤون حياته كُلِّها، فَقَدْ بيَّن الرسول ﷺ أنّ حقيقة

---

[٢٨٢] سورة المائدة ، الآية ٨ .

[٢٨٣] البخاري، صحيح البخاري، كتاب الحدود، باب ما يكره من لعن شارب الخمر، وإنه ليس بخارج من الملة، حديث(٦٧٨٠). ص٢٩٩٧.

[٢٨٤] الأحمر، عبد السلام، ثقافة الأمة الوسط ، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (إيسيسكو) ، المغرب ، ١٤٣٠هـ ٢٠٠٩م . ص ٧٨ .

الإيمان عند الإنسان المسلم، لا يمكن بلوغُها إلاّ بذلك، حيث قال : " **لَا يَبْلُغُ عَبْدٌ حَقِيقَةَ الْإِيمَانِ حَتَّى يُحِبَّ لِلنَّاسِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ مِنَ الْخَيْرِ** " [٢٨٥] ، فكما أنَّ الإنسان حريصٌ على جَلْب الخير لنفسه، وحريصٌ على منفعة نفسه، فكذلك ينبغي أنْ يكون في تعامله مع الناس عامةً، من حُبِّ الخير لهم، فالمؤمن بهذه الصفة إنسانٌ يتعامل بإيجابية مع الآخرين، فلا يُبيح لنفسه ما يُحرّمُه على غيره، فالميزانُ واحدٌ في التعامل، وفي المحاسبة، بل وفي الشعور المُتبادَل بالمحبّة تجاه الآخرين؛ بأنْ يُحبَّ لغيره ما يُحبُّ لنفسه. وهذا تجسيد حيٌّ للعدل والإنصاف، ولو أنَّ كل فَرْدٍ في المجتمع ألزَمَ نفْسَه بهذه القِيم، في كُلِّ ما يصْدُر عنه من أقوال وأفعال، لرأيتَ مجتمعاً غيرَ الذي تراه، ولَوَجَدْتَ مجتمعاً متراحماً متعاطفاً متحاباً، كالبُنيان المرصوص يشُدُّ بعضُه بعضاً .

ومِنْ صور الالتزام بالعدل والحق، والابتعاد عن الظُّلْمِ، ما جاء بيانه وتوضيحه، لأمر كان شائعاً عند أهل الجاهلية، مِنْ نُصْرة الرجل أخاه ظالماً أو مظلوماً . فقد جاء الإسلام ليُغيِّر موازين الجاهلية القائمة التي تُوجِبُ الدفاع عن القبيلة وعمَّن انتسب إليها، في الأحوال كلِّها . فقد ورد في الحديث عن جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنهما أنّه قال : **اقتتل غلامان : غلام من المهاجرين ، وغلام من الأنصار ، فنادى المهاجر : يا للمهاجرين ، ونادى الأنصاري : يا للأنصار ، فخرج رسول الله ﷺ فقال : " ما هذا ؟ دعوى أهل الجاهلية ، قالوا : لا يا رسول الله ، إلاّ أنّ غُلامين اقتتلا ، فكَسَعَ**[٢٨٦] **أحدهما الآخرَ ، قال : " فلا بأس ، ولينصر الرجل أخاه ظالما أو مظلوما ، إنْ كان ظالماً فَلْيَنْهَه، فإنّه له نَصْر ، وإنْ كان مظلوماً فَلْيَنْصُرْه** " [٢٨٧] . فهذا التصحيح النبوي للمفهوم الذي كان سائداً في الجاهلية، في نُصْرَة الأخ ظالماً أو مظلوماً، يأتي منسجماً مع دعوة الإسلام، إلى تحري العدل، والحِرْص على التزام جانب الحق في المجتمع الإنساني، والابتعاد عن العصبيات الجاهلية، التي تغيب في وجودها وظهورها، كلُ هذه القيم الإنسانية .

إنَّ حقيقة نُصْرَةَ الإنسان لأخيه الإنسان كما قرَّرها الإسلام؛ لا تكون إلاّ بأنْ يُدافعُ الإنسانُ عن أخيه أو قريبه، فيُؤيِّدُه ُوينصُرُه إنْ كان مظلوماً، ويرْدَعُه عن ظُلْمِه إنْ كان ظالماً معتدياً، وفي ذلك صيانةٌ للفرد والمجتمع، عن أسباب الهلاك والفساد، من خلال محاربة الظلم وإزالته، وإشاعة العدل بين الناس .

---

[٢٨٥] ابن حبان، الإحسان بتقريب صحيح ابن حبان لابن بلبان، كتاب: الإيمان، باب: صفات المؤمنين، برقم :(٢٣٥). وصححه الألباني في التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان. ٣٠٤/١

[٢٨٦] الكسع : أنْ تضرب بيدك أو برجلك بصدر قدمك على دُبُر إنسان. ابن منظور، لسان العرب ٣٠٩/٨.

[٢٨٧] مسلم ، صحيح مسلم ، كتاب البر والصلة ، باب نصر الأخ ظالما أو مظلوما ، حديث ٢٥٨٤، ١٩٩٨/٣

إنَّ في ردْع الظالم عن ظُلْمِه نصْرٌ له، كما بيَّن ذلك الحديث النبوي، وذلك بمنْعِه من التمادي في الظُّلْم والاعتداء على غيره، وفي ذلك وقايةٌ له من سُوْءِ العاقبة في الدنيا والآخرة . وفيه نَصْرٌ له على هوى نفْسِه، الذي يُزيِّنُ له ظُلْمَ الآخرين، فهو انتصار للإنسان بدِينِه وقِيَمِه، على شهوات النفس وهواها. ومن ثَمَّ فإنَّ المسلمَ يُجسِّدُ المعانيَ الإنسانيةَ التي جاء بها الإسلام، بتطبيقه للمفهوم الصحيح للحديث النبوي الذي سبق ذِكْرُه " **ولينصر الرجل أخاه ظالما أو مظلوما** " ، وذلك عندما يرفض الظلم والتعدي على الأخرين، ويكون رائدَه الحِرْصُ على الحق والدعوة إليه. وهو- في الوقت نفسه - يرفُضُ كُلَّ ما يُخالِف منهج الاستقامة على الأخلاق الإسلامية، التي تدفع الأمة إلى الأمام، وتجعلها جديرة بحمل رسالة الخير لكل البشرية، وذلك في تجسيد عَمَليٍّ لِعالمية الإسلام، من خلال هذه النظرية الإنسانية الشاملة والعامة .

والأمر بالعدل لا يتعلَّق بالفرد في تعامله مع الأخرين فقط، بل لا بد من وجود نظام يقود المجتمع والأمة قوامه العدل، في مجالات الحياة المختلفة، باختلاف مستوياتها وأبعادها، بحيث تكون سمة العدل صبغة للمجتمع ككل، وهو أمر لا يتحقق إلا بوجود قائد يتبنَّى هذا الاتجاه، ويقود الأمة ويسوسها بالعدل، ويَصِلُ ليلَه بنهاره لتحقيق هذا الهدف.

فالحرص على العدل والتزام الحق، يجعل المجتمع المسلم مجتمعاً متعاونا متكافلاً، ولذلك استحق الإمام العادل المرتبة الأعلى في محبة الله تعالى بين الناس، كما استحق الإمام الجائر المرتبة الأشد في بغض الله تعالى؛ نتيجة لما يُحدثه الجور من إضعاف للمجتمع، وإفساد للقيم الأخلاقية، والعلاقات الاجتماعية .

وفيما ذكره الحديث النبوي بشأن الإمام العادل، والإمام الجائر، وما يستحقه كل منهما؛ ترغيبٌ في العدل، وتنفيرٌ من الجَور والظلم . فالحديث النبوي قد خصَّ بالذكر من يتولَّى الإمامة والرئاسة، لِعِظَم شأن الولاية العامة، وتوجيهه للحرص عمَّا يُقرِّبه من محبة الله تعالى له، ويرتقي به في درجاتها حتى ينال المرتبة الأعلى منها، ولا يتحقق ذلك إلا بأن يكون عادلاً . ويدعوه أيضاً لكي يبتعد عمَّا يجعله يتبوَّأ المرتبة الأشد في البُغْض، والتي يستحقها من كان جائراً . وقد بيَّن ذلك الحديث الذي رواه أبو سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ ، أنَّه قال : " **إنَّ أحب الناس إلى**

الله يوم القيامة، وأقربهم منه مجلساً إمام عادل، وإنَّ أبغض الناس إلى الله يوم القيامة، وأشدَّهم عذاباً إمام جائر" [٢٨٨]

وكما أنَّ الحرص على العدل وتطبيقه في المجتمع يحفظ على المجتمع استقراره وأمنه، فكذلك بالعدل يُحافَظُ على بناء الأُسرة قوياً، مما يجعلها متماسكة مُتَحَابَّةً، ولذلك أمر رسول الله ﷺ الآباء بالعدل بين الأبناء، فقال آمراً بالعدل بين الأبناء، وذلك عندما أعطى أحدُهم أحدَ أبنائه عَطِيَّةً دون بقية الأبناء، ثمَّ جاء ليُشهِد الرسول ﷺ على ذلك، حتى ترضى الزوجة بذلك، فرفض ذلك الرسول ﷺ بقوله : " **فاتقوا الله واعدلوا بين أولادكم** " [٢٨٩] ، فَيُلاحَظ هنا أنَّ الأمر بالعدل والحرص عليه، كما هو في الشأن العام على مستوى المجتمع والأمة، فكذلك هو في الشأن الخاص على مستوى الأسرة، فالبناء لن يبقى متماسكاً قوياً إلا بالعدل في كل شأن .

وهكذا في الأحوال الاجتماعية جميعها، وعلى اختلاف مستوياتها، فالمجتمع الذي يفقد العدل يفقد الاستقرار، وهذا مؤذن بالهلاك والزوال . والهلاك إنَّما يكون بسبب التَّغَيُّر والتبدُّل الحاصل في المجتمع نحو الأسوأ، بحيث ينتقل المجتمع بانتشار الظلم والجَوْر فيه، من مجتمعٍ قويٍّ متماسكٍ، إلى مجتمع ضعيف، تجتاحه الأمراضُ الاجتماعية، وتتقطَّع فيه العلاقاتُ الاجتماعية بين أفراده وطبقاته، بِفعل التمييز الطَّبَقِيِّ بينهم، مما يولِّد العداوةَ، والبغضاءَ، والنِّقْمةَ على المجتمع، وهي عواملُ إذا تضافرت مع بعضها، أصابت المجتمعَ بالتفكُّك والتحلُّل، كما بيَّن ذلك الرسول ﷺ بقوله : " **إنما هلكَ مَنْ كان قبلكم، أنَّهم كانوا يقيمون الحدَّ على الوضيع، ويتركون الشريف، والذي نفسي بيده، لو أنَّ فاطمة فعَلَتْ ذلك لقطعْتُ يدَها"** [٢٩٠]

وللوقاية من هذا المصير، فإنَّ الرسول ﷺ أمَرَ بالجهر بالحق حيث قال : " **أفضل الجهاد كلمة عدْلٍ عند سلطان جائر أو أمير جائر"** [٢٩١] ، فهذا الأمر من أجل تقويم الاعوجاج الحاصل في الأمة، حيث جَعَلَ الجهرَ بالحق عند الحكام المستبدين والجائرين أفضلَ الجهاد .

---

[٢٨٨] الترمذي، الجامع الكبير، كتاب الأحكام، باب ما جاء في الإمام العادل، وقال: حديث أبي سعيد، حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه. حديث(١٣٢٩) . ١١/٣ .وقال المناوي :وقال القطان: الحديث حسن لا صحيح. المناوي، عبد الرزوف، فيض القدير شرح الجامع الصغير، دار المعرفة، ط٢، بيروت، ١٣٩١هـ ١٩٧٢م. حديث(٢١٧٤) . ٤١١/٢-٤١٢.

[٢٨٩] البخاري، صحيح البخاري ، كتاب الهبة ، باب الإشهاد في الهبة ، حديث (٢٥٨٧) . ص ١٣٠٠ .

[٢٩٠] البخاري، صحيح البخاري، كتاب الحدود، باب إقامة الحدود على الشريف والوضيع، حديث (٦٧٨٧) . ٣٠٠١/٣

[٢٩١] سبق تخريجه ص٣١، أخرجه أبو داود وصححه الألباني.

فهو افضلُ الجهاد، لأنَّ ظُلْمَ هذا الصنف من الحكام وجورهم، لا يُقاربه أيُّ ظُلْم، من حيث عمومُه واتّساعُه وتأثيرُه، ولأن الحكام المستبدين يُسَخِّرُونَ القوى كلَّها، لتكون أداةً للقمع والبطش والتنكيل بالمخالفين لهم، المنكرين لباطلهم واستبدادهم، عندما تعم الاستكانة للظلم والظالمين من عامة الناس. وهو أفضل الجهاد، لأنَّ من يُجْهَرُ بالحق عنده؛ إمامٌ جائرٌ، له القيادةُ والتوجيه، والأمرُ والنهي في المجتمع، وليس فرداً من عامة الناس، فانحرافُه انحراف للمجتمع، واستقامته استقامةٌ للمجتمع ، فعندما يكونُ جائراً، فالخَطَرُ على المجتمع أشدُّ، والهلاك أسرع .

فالإسلامُ بِسَعْيِهِ لترسيخ قِيَم الحق والخير، يتّفق بذلك في سعيه لقيادة الفطرة وفق نظام تكوينها القائم على الاستقامة، وذلك في السعي نحو تكامل الذات ، و كل ذلك نحو تحقيق إنسانية الإنسان. وإنسانية الإنسان لا تتحقّق بالجانب المادي، وإن كان توفيره حق للإنسان . إنّما تتكامل إنسانية الإنسان بالالتزام الطّوعي بالقيم، كالحق، والعدل، والإحسان، والرّحمة، والصّدق، والإصلاح، وحبّ الخير للآخرين ، والإحساس بآلامهم، ومشاركتهم مشاركة وجدانيّة. وحينما يتصرّف الإنسان كَعَقْلٍ، وشُعُورٍ وجدانيٍّ، وإرادةٍ ومشاعر، ويتحرّك، ويعمل مِنْ حَوْل قِيَم الحق والخير، يكون قد تحرّك من خلال إنسانيّته، فهو يستطيع أنْ يَفْهَمَ أنّه إنسانٌ عندما يُحقّ الحقّ ويُبطِل الباطل، ويستطيع أنْ يَفْهَمَ أنّه إنسانٌ، عندما يرفض الظّلم والعدوان على الآخرين، ويميّز بين العدل والظّلم ، فينصر المظلوم ويردع الظّالم.

فعندما تتوارى المشاعرُ والأحاسيسُ الإنسانية من نفسه، ويغيب العقلُ والإرادةُ، عندها لا يُفرّق بين الحقّ والباطل، ولا يميّز بين الحَسن والقبيح في فعله وقوله، ولا يقف إلى جانب المظلوم والمضطهد، ولا تتحرّك في وجدانه مشاعرُ الرّحمة تجاه المُعذّب والمحروم، ولا تعيش في نفسه مشاعر الحبّ والخير للآخرين، ولا يقابل الإحسان بالإحسان .

عندما تتكاثف تلك الحالات الظّلاميّة في نفس هذا الكائن، يفقد إنسانيّته، فيتحوّل في مفهوم القرآن إلى حيوان، لا يستحقّ اسم الإنسان .

المطلب الرابع

تحرير العقل من الخرافة والجمود وسيطرة الطغيان

إنّ مُنطَلَقَ التحرير عند الإنسان هو العقل، وعندما يتحرّر العقلُ من الجمود والتحجّر والخرافة، ويتنوّر بالعلم والمعرفة والتربية القويمة، يكون الإنسان قد امتلك الأداة الفعّالة لتحرير الذات واحترامها . واحترامُ الذات، وحِفظُ حقّها وحرّيّتها، لا يتحقّق إلاّ باحترام حقوق الأخرين وحفظ حرّيّتهم .

لقد دعا الإسلام إلى تحرير العقل من الخرافة والجمود، كما دعاهُ إلى طلب العلم والمعرفة . وبهذه الدعوة انطلق العقل الإنساني ، وتشكّل العقل المسلم . فَنَقْرأ في السنّة النبويّة الدعوةَ لاحترام العقل، وتوظيفه لهداية الإنسان وتنوير حياته بالعلم والمعرفة والوعي. وعندما يُرفَع الحجر عن العقل، ينطلق مفكّراً في أفاق الوجود، كما ينطلق مفكّراً في عالَم المجتمع والإنسان، يكتشف القوانين، ويحلّل القضايا، ويستخلص الحقائق العلميّة. كما ينطلق في فهمه للعقيدة، والرّسالة الإلهيّة، وفق الضوابط والقوانين السّليمة لفهم الرّسالة الإلهيّة التي شخّصتها الرّسالةُ ذاتُها، ومنحتْ العقلَ دوراً هامّاً في فهمها والاستنباط منها. فمِنْ نِعَمِ الله تعالى على الإنسان، أن منحه عقلاً ميّزه به عن كثير من المخلوقات، ورتّب عليه التكاليف والمسؤوليات . ولا يقتصر الأمر في التكليف والمسؤولية على الجانب الديني من حياة المسلم، بل يمتد ليشمل مجالات الحياة كلها، بحيث يُعْمِل الإنسان عقلَه وتفكيره، بالبحث عن الأسباب، وارتباط النتائج بها، ليصلَ بعد ذلك كله، إلى المنهج الصحيح الذي ينبغي أن يسير عليه، لِيُحقّق مُرادَه في الحياة.

و تحقيق هذه الغاية، مُرْتَبِطٌ بالمقدار الذي يستطيع الإنسانُ من خلاله، أنْ يُحسِنَ استخدام العقل، بإتاحة المجال للعقل لكي يبحث ويجتهد ويُبْدِع، بعيداً عن الجمود والتقليد، أو الوقوع في أسْرِ الخرافات والأساطير، أو الخضوع لسلطان القوة، المتمثّلة بالطغيان والاستبداد، والإرهاب الفكري، والتشويه الإعلامي . فأراد الإسلام من أتباعه أنْ يكونوا ذوي عقلية علمية، مُستَنَدُها في الأحكام عامةً، الدليلُ والبرهان، بحيث إنَّ أيَّ أمرٍ بعيدٍ عن المنطق العقلي، والمنهج العلمي القائم على الدلائل والبيّنات، لا قيمة له ولا أثَر.

والإسلام يُقَرِّرُ ذلك، حتى لا تخضع الأمور والأحكام للأهواء والعاطفة، أو تكون مبنيةً على الظنون بغير دليل، كما بيَّن ذلك الحق سبحانه وتعالى، في قوله الكريم :{ وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ

عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولـئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً ﴾[٢٩٢] فهذه الحواس التي يمتلكها الإنسان، هي طريقُهُ للعلم والمعرفة، وإقامةِ الدليل والبرهان، بحيث يكون للعقل الدور الأكبر في بيان الحقائق وتمحيصها ونقدها. وبهِ يتبين الإنسانُ معالمَ الهدى والضلال، والازدهار والانحطاط المتكررة في الأطوار التي مرّت بها الأمم في التاريخ البشري، وصولاً إلى حالة الاستنارة العلمية الراشدة، بناء على منهج تاريخي ناقد بنّاء .

والغاية من دعوة المسلم إلى العلم، تحريرُ العقل من كل ما يُثبّطه ويُعيقُه عن أداء دوره، وأكبر هذه العوائق :الأوهام، والأهواء، والأعراف الفاسدة . والسعيُ لاكتشاف الحقائق، سواء كانت دينية أو فكرية أو طبيعية، بعيداً عن التلقين، والتكرار دون تفكُّر أو تبصُّر . إنَّ الإنسان بالاستجابة لهذه الدعوة، يصونُ نفسَه ومجتمعَه ومستقبلَه، من العواقب السيئة، الناشئة عن الغفلة عن أسباب النصر والتمكين، ويُعيد للعقل دورَه في مجال المعرفة والاجتهاد وتحرير الإنسان من العبودية لغير الله تعالى .

وفي الحديث أنَّ رسولَ الله ﷺ لما أراد أنْ يبعث مُعَاذاً إلى اليمن قال **:" كيف تقضي إذا عرض لك قضاء؟ قال: أقضي بكتاب الله. قال: فإنْ لم تجد في كتاب الله؟ قال: فَبِسُنَّةِ رسول الله ﷺ . قال : فإنْ لم تجد في سُنَّة رسول الله ﷺ ولا في كتاب الله ؟ قال:أجتهد رأيي ولا آلو . فضرب رسول الله ﷺ صدرَه، وقال: الحمد لله الذي وفَّق رسولَ رسولِ الله لما يُرضي رسولَ الله "** [٢٩٣] ، فقد استحسن رسولُ الله ﷺ جواب معاذ عندما قال:" أجتهد رأيي ولا آلو"، بحيث لا يدّخر جُهداً في البحث عن الحق، وهو تأكيد لحث الإسلام على الاجتهاد، كطريق لإيجاد الحلول للمشاكل والقضايا، وتسيير أمور الناس.

والاجتهادُ من المهام الأساسية لأيِّ مسئولٍ أو أمير، وكلَّما تراكمَتْ المشاكل والأزَمات، كانت الحاجة ماسة أكثر للحلول الإبداعية، التي تُجنب المجتمع الويلات والمآسي ، بعيداً عن استيراد الحلول الجاهزة التي لا تصلح لمجتمعاتنا، لتعارضها مع المبادئ والقيم الإسلامية، مما يؤدي إلى مزيد من الفشل والإخفاق . لذلك وجب على كل مسلم أنْ يبذل جُهْدَه وطاقته، في سبيل البحث عمَّا يُصلح حال هذه الأمة، دون الخشية من الوقوع في الخطأ، في أيِّ اجتهاد ديني أو دنيوي، متعلِّق

---

[٢٩٢] سورة الإسراء ، الآية ٣٦ .

[٢٩٣] أبو داود،السنن، كتاب الأقضية، باب اجتهاد الرأي في القضاء، حديث (٣٥٩٢) ص٣٩٨ . وقال الترمذي :هذا الحديث لا نعرفه إلا من هذا الوجه ، وليس إسناده عندي بمتصل. الترمذي، الجامع الكبير، كتاب الأحكام، باب ما جاء في القاضي كيف يقضي، حديث(١٣٢٨)، ٣/ ١٠ وقال الألباني: ضعيف. الألباني، ضعيف سنن أبي داود، مكتبة المعارف، ط١، الرياض، ١٤١٧هـ ١٩٩٨م. حديث(٣٥٩٢) . ص٢٨٧.

بمصالح الناس. وفي الوقت نفسه، فإن الأخذ بالاجتهاد والبحث، يصون الإنسان والمجتمع عن الركون إلى حلول بعيدة عن الواقع وعن التطبيق، وقريبة إلى التخيلات، ناشئة عن تفكيرٍ أسيرٍ لعقول غلب عليها الاستسلام للخرافات والأساطير . وكل ذلك مردُّه الخوف والخشية من الوقوع في الخطأ، دون عِلمٍ وإدراك للتوجيه النبوي، الذي جاء في قوله ﷺ : " **إنَّ الله تجاوز عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه** "[٢٩٤]، فالتصريح في الحديث برفع الخطأ عن الأمة، فيه حافز للإنسان لكي يجتهد، ويُعملَ عقله وتفكيره، في كل ما يستجد له من مسائل ومشاكل، بُغيةَ إيجاد الحلول لها، بحيث لا يخشى على نفسه من الإثم فيما لو بذل جهده، ولم يُحالفه التوفيق في اجتهاده .

إنَّ ما ورد عن رسول الله ﷺ، فيه تأكيد على أنَّ الحاكم يؤجَرُ إذا اجتهد وأخطأ في اجتهاده، بحيث يكون له أجر واحد، وفي ذلك دلالة على ترغيب الإسلام في الاجتهاد، وبخاصة من قِبَل الحاكم، سواء أحاكماً كانت له الولاية العامة على الأمة، أم حاكماً في أيَّة قضية أو مسألة طُرِحَتْ له . وهذا الترغيب في الاجتهاد، وبيان أنَّ المجتهد يؤجر على اجتهاده، مع تفاوت الأجر، بين من يُصيب في اجتهاده، ومن يُخطِئ فيه. بل إنَّ التفاوت في الأجر بين من أصاب في الاجتهاد، ومن أخطأ فيه، يُوجِدَ دافعاً أكبر، لكي يسعى المجتهد إلى مزيد من الاجتهاد، والتعمُّق فيه، باحثاً عن أسباب التوفيق والنجاح، وهو أمر عام لكل مجتهد يسعى إلى الإصلاح بين الناس، وتحقيق ما فيه مصلحة للأمة والمجتمع، كما بيَّن ذلك قوله ﷺ :" **إذا حَكَمَ الحاكمُ فاجتهدَ، ثُمَّ أصابَ فَلَهُ أجْران، وإذا حكمَ فاجتهدَ ثُمَّ أخطأ فَلَهُ أجْرٌ** " [٢٩٥]

وها هو رسول الله ﷺ ، يسلك السبيل العملي في تعليم أصحابه، ما يجعلهم مؤهلين لكي يُفسِحوا المجال للاجتهاد العقلي، في القضاء بين الناس في الخصومات، مع وجوده بينهم، وهم يَرَوْنَ أنَّ وجودَ رسول الله ﷺ بينهم، مانعٌ لهم من الإقدام على ذلك، إلاَّ أنَّه بيَّنَ لهم؛ أنَّه وإنْ كان موجوداً بينهم، إلاَّ أنَّ ذلك لا يَحُوْلُ بينهم وبين القضاء بين الناس في الخصومات، أو بينهم وبين السعي لإيجاد الحلول لما يعترضهم، من مسائل ومشاكل الحياة المختلفة .

---

[٢٩٤] ابن ماجة، السنن، كتاب الطلاق،طلاق المكره والناسي، حديث(٢٠٤٣) . ١/ ٨٠٠ . وقال البوصيري: رواه أصحاب الكتب الستة من حديث أبي هريرة، وإسناد حديث أبي ذر ضعيف لاتفاقهم على ضعف أبي بكر الهذلي. البوصيري،أحمد بن أبي بكر(٨٤٠هـ)، زوائد ابن ماجة على الكتب الخمسة، حديث(٦٨١) ص ٢٨٨ .تحقيق: محمد مختار، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١٤١٤،١هـ١٩٩٣م.

[٢٩٥] سبق تخريجه ص١٢٧، أخرجه البخاري.

فالابتعاد عن الاجتهاد، وتعطيل العقل عن دَوْرِه وعمله، والركون إلى التقليد، وانتظار الحلول الجاهزة، أو انتظار الفرج لكي تُحَلَّ المشاكل من تلقاء نفسها، لن يكون المنهج الصحيح والسليم، في السعي إلى النهوض والتقدم . وقد ورد في الحديث عن عمرو بن العاص، أنَّه قال: جاء رسولَ الله ﷺ خصمان يختصمان، فقال لعمرو: **" اقضِ بينهما يا عمرو ، فقال : أنت أولى بذلك مني يا رسول الله، قال: وإنْ كان، قال: فإذا قضيت بينهما فما لي ؟ قال: إنْ أنتَ قضيتَ بينهما فأصَبْتَ القضاء فلك عشْرُ حسَنات، وإنْ أنتَ اجتهدتَ فأخطأتَ فلك حسَنَةٌ "** [٢٩٦]

ومن أنماط عقلية التقليد التي انتشرت بين أفراد الأمة في عصورها المختلفة، أنَّ كثيراً منهم أصبح إمَّعةً، بإلغاء كيانه، ووجوده، وهويته، وذوبانه وتلاشيه في ذوات الآخرين، ما أوقعهم وأوقع الأمة معهم، في أسْرِ التقليد والمحاكاة، والخضوع للاستبداد، والبقاء في دوَّامة الأزمات والمشاكل، بانتظار أنْ يسعى الآخرون لإخراجهم من تلك الدوَّامة، وهو ما نهى الرسولُ ﷺ عنه، وحذَّرَ المسلمين منه، حيث قال : **" لا تكونوا إمَّعةً [٢٩٧]، تقولون إنْ أَحْسَنَ الناسُ أحْسَنَّا، وإنْ ظَلَمُوا ظَلَمْنا . ولكنْ وطِّنوا أنفُسَكم إنْ أحسنَ الناسُ أن تُحْسِنوا، وإنْ أساءوا فلا تَظْلِموا"** [٢٩٨] فالتحذير النبوي هنا، يُراد به أن يبتعد المسلمون، عن الانقياد للآخرين والتبعية لهم في كل أحوالهم، وعن تغييب عقولهم ووعيهم، عن الإدراك لما حولهم . وأمرهم بالمقابل أنْ يرتفعوا بإدراكهم، ووعيهم، وتعاملهم مع غيرهم، بما يمليه عليهم المنهج العقلي في مثل هذه الأحوال، وذلك حتى تكون عواقب الأمور لصالحهم . والمُشاهَد أنَّ انحدار الإنسان إلى تلك الدرجة من التبعية للآخرين، يزداد انتشاره بين الناس، عندما تعُمُّ أجواء الاستبداد والطغيان، ممَّا يُوَلِّد شعوراً بالقلق، والخوف، والرهبة، عند هؤلاء الناس، فيلجأ ون إلى التبعية للآخرين، اعتقاداً منهم أنَّ ذلك يُوَفِّرُ لهم الإحساس بالأمن والاطمئنان، في ظل التبعية لهم .

إنَّ محاولةُ بَعضَ المسلمين الْتماسَ الحُلولِ لأزَمَات يُعانيها، من خلال اللجوء إلى العرَّافين والكَهَنة، يُعدُّ تَغْييباً للعقل. ولذلك جاء التحذير النبوي لكل من أراد أن يلتمس مثل هذا الحل، لأنَّه مِنْ ناحيةٍ يتعارض مع أركان الإسلام والإيمان، ولأنَّ فيه تغييباً للعقل، وتغليباً للأوهام والخرافات والادعاءات المبنية على الرجم بالغيب، من خلال الخضوع للأدعياء والكهنة والعرافين من ناحية

---

[٢٩٦] ابن حنبل، المسند ، ص١٢٩١ (٢٠٥/٤) قال ابن حجر في الفتح : وفي سنده ضعف،ولم أقف على اسم من أُبهِم في الحديث . ابن حجر، فتح الباري ٣/ ٣٢٨١ .

[٢٩٧] الإمَّعة والإمَّع، بكسر الهمزة وتشديد الميم: الذي لا رأي له ولا عزم، فهو يتابع كل أحَدٍ على رأيه، ولا يثبت على شيء، والهاء فيه للمبالغة. ابن منظور، لسان العرب ٨/ ٣

[٢٩٨] الترمذي، الجامع الكبير، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في الإحسان والعفو، حديث(٢٠٠٧)وقال: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه. ٥٣٨/٣ . وضعفه الألباني. الألباني، ضعيف الترمذي، حديث (٢٠٠٧) ص ١٨٩ .

أخرى . فقال الرسولﷺ :" من أتى عرّافاً فسألَهُ عن شيء لم تُقبَلْ له صلاة أربعين ليلة " [٢٩٩].

والخلاصةُ إنّ دعوةَ الإسلام لتحرير العقل من كل هذه المعوقات، والمُثبِّطات الذاتية للتفكير السوي، من الأوهام، والأهواء، والشكوك، والأعراف الفاسدة، هدفُه إزالة القيود التي تُكبّلُ الإنسانَ، وتمنعه من اتباع المنهج الصحيح في التفكير والاستدلال، وإيجاد الحلول لكل ما يواجهه في الحياة .

إنّ تحقيق هذه الدعوة إنّما يكون من خلال عزل العوامل الملوّثة للتفكير عن العقل، بترْك التفكير الجماعي الغوغائي، وممارسة التفكير في مناخ لا يسوده اللغط الجمعي، وذلك حتى يتمكّن الإنسان من ممارسة التفكير الناقد للآراء، والنظر فيها للتحقُّق من صحتها أو خطئها، ولو كانت ذات صبغة دينية، بِهَدَف الوصول إلى الحق والحقيقة، اعتماداً على المسلّمات النصية والعقلية [٣٠٠].

---

[٢٩٩] مسلم، صحيح مسلم، كتاب السلام، باب تحريم الكهانة وإتيان الكهان، حديث (٢٢٣٠) . ١٧٥١/٤ .

[٣٠٠] د. قاندي، سعيد سالم ، منطلقات قرآنية للحوار، إصدار الإيسيسكو(المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة)، المغرب، ١٤٣٢هـ ، ٢٠١١م

المطلب الخامس

السعي إلى هداية البشرية من خلال عالمية الرسالة

هداية البشرية إلى طريق الحق، هو من الأهداف والغايات التي سعى الإسلام إلى تحقيقها، انسجاماً مع عالمية الإسلام، وذلك لا يعني أنْ يقتصر اهتمام المسلم في الدعوة إلى الحق، على أبناء عشيرته وقومه، بل ينبغي أن يكون الفرد المسلم عالمياً في تفكيره، وعالمياً في غاياته . وبذلك فإنَّ الإنسان المسلم يتميَّز ـ بإسلامه ـ عن الآخرين، من أتباع الديانات الأخرى، بالمحبة لهم من خلال سعيه إلى هدايتهم للذي اهتدى إليه، فمَا وَصَلَ إليه من الخير والسعادة والطمأنينة، يُرِيدُ للآخرين أنْ يصلوا إليه، ويشعروا به، تعبيراً عن حقيقة الإيمان، بأنْ يُحبَّ للناس ما يُحِبُّه لنفسه .

ومن نتائج ذلك ـ لو تحقَّق على أرض الواقع ـ أنْ يَعُمَّ الخير والسلام بين الناس، وأنْ تزول كل أسباب الحروب والفِتَن والصراعات والعداوات بين البشر، وذلك لِسَرَيَانِ تلك الروح التي سَرَت بين المسلمين، فجعلت منهم صنفاً فريداً بين البشر، بالقيم والمبادئ والأخلاق التي أودعها الإسلام في أنفسهم، بحيث تغيَّروا كُلِّيَة عمَّا كانوا عليه، فجَعَلَهم الله سبباً لِيُحْدِثوا في الآخرين التغيير الذي أحدثه الله فيهم. والمسلم إنَّما يفعل ذلك اعتقاداً بعالمية رسالة الإسلام، الذي آمن به، وسَيْراً على خُطى نبيِّهِ ﷺ، في دعوة الناس كافة لهذا الدين، الذي ارتضاه الله تعالى للعالمين، وهي ـ أي عالمية رسالة الإسلام ـ ممَّا اختص الله ـ سبحانه تعالى ـ بها رسولَه الكريم ﷺ دون بقية الرُسُل، حيث قال:" **أعطيت خمساً لم يُعطَهنَّ أحدٌ قَبْلي :... وكان النبي يُبعَث إلى قومه خاصة، وبُعِثْتُ إلى الناس عامة** " [٣٠١] فهذا الحديث يعني أنَّ رسالة الإسلام لم تكن خاصة بالعرب، فَالحَقُّ ـ سبحانه ـ بعث رسولَه الكريم لهداية البشرية جمعاء، ودعوتُه للناس كافة. وحتى يُمكن تحقيقُ هذا المعنى، لا بدَّ أنْ يكون المسلمُ إنسانياً في تعامله مع الآخرين، بحيث يتَّصف بِخُلُق الرحمة، حريصاً على هداية الآخرين، ودعوتهم لهذا الدين، قدوةً للآخرين فيما يدعوهم إليه . وهو ما يدلُّ عليه الحديث، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: " **قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ ادْعُ عَلَى الْمُشْرِكِينَ. قَالَ: إِنِّي لَمْ أُبْعَثْ لَعَّانًا وَإِنَّمَا بُعِثْتُ رَحْمَةً** " [٣٠٢].

---

[٣٠١] سبق تخريجه ص ١١٩، أخرجه البخاري.

[٣٠٢] مسلم، صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب: النهي عن لعن الدواب وغيرها، حديث (٢٥٩٩) . ٤/٢٠٠٦ .

وليس مِنْ خُلُقِ المسلم ولا مِنْ دِينِه - بمُقتضى عالمية الإسلام - أنْ يبني علاقَتَه مع الآخرين على أساس العداوة والبغضاء، وإثارة الأحقاد والصراع بين الناس، بل أنْ يُظهر السلام والمحبة للآخرين، والرحمة بهم، والإشفاق عليهم، ما داموا مسالمين غيرَ محاربين. هذه هي دلالة قوله ﷺ : " **وَإِنَّمَا بُعِثْتُ رَحْمَةً** " جواباً لِمَن سأله أنْ يدعو على المشركين، والرحمة منه ﷺ كانت من خلال حرصه على هداية الآخرين، حتى لِمن أذووه وأظهروا العداوة له . ويظهر خُلُق الرحمة ، والحِرْص على هداية الآخرين، كما حصل له مع أهل الطائف، من قبائل ثقيف، وجوابه لِمَلَك الجبال : " **بل أرجو أن يُخرِجَ اللهُ من أصلابهم من يعبد الله وحده، لا يُشرك به شيئا**" [٣٠٣]، وكذلك يظهر هذا الخُلُق، في قوله ﷺ لعلي - رضي الله عنه - يوم خيبر: " **انْفُذْ عَلَى رِسْلِكَ حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ، فَوَاللهِ لَأَنْ يَهْدِيَ اللهُ بِكَ رَجُلًا، خَيْرٌ لَكَ مِن أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ** " [٣٠٤]. فقد جعل الرسول ﷺ تحقُّقَ هداية الآخرين على يد المسلم، أفضل لذلك المسلم من حُمْر النِعَم، لأنّه بذلك ينقذ نفساً إنسانية من سوء العاقبة، وهو أفضل بكثير للمسلم مِنْ المغانم المادية التي يجنيها، في كل الأحوال .

إنَّ من يُدقِّق النظر والتفكير في الأحاديث الواردة هنا، يجد أنَّها تجعل من الإنسان المسلم، والمجتمع المسلم، مجتمعاً يتَّصف بالفاعلية والإيجابية في التعامل مع الآخرين، سواء على المستوى الفردي أم الجماعي، وهي إحدى الصفات التي تُؤهِّلُ الأمَّةَ لأنْ تكونَ لها مكانة الريادة والقيادة بين المجتمعات الأخرى، بهذه الفاعلية التي تمتد بامتداد عالمية الإسلام زمانا ومكاناً، تختلف هذه الأمة عن الأمم الأخرى، التي تقتصر اهتماماتها وغاياتها على أبناء جنسها. وهذه الفاعليةُ يسري شأنُها على الأحوال المادية والمعنوية في كل مجتمع، وهي تخضع لقانون هو : " أنَّ الفاعلية تنمو تدريجياً مع تعقُّد المصلحة" [٣٠٥] . فعالمية الإسلام تُعطي المسلم لأقوى الدوافع، وأقوم التوجيهات، وأنشط الحركات، في سعيه لهداية البشرية، وبذلك تكون فاعلية الفرد المسلم، والمجتمع المسلم أقوى وأكبر؛ ممَّا لدى الآخرين .

ومِنْ ناحية أخرى، فإنَّ مَنْ كانت لديه هذه الفاعلية المستمرة، لن يفقد مسوِّغات وجوده . وما أخذت الحضارة الإسلامية في الأفول الانحطاط ، إلاَّ لأنَّها فقدت مسوِّغاتها، فلم تستطع أن تدفعَ

---

[٣٠٣] البخاري، صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق، باب " إذا قال أحدكم :آمين" ، حديث (٣٢٣١) . ١٥١٣/٢

[٣٠٤] البخاري، صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب: فضل من أسلم على يديه رجل، ح: (٣٠٠٩). ١٤٤٣/٢ .

[٣٠٥] مالك بن نبي، تأملات . ص٣٦ .

من جديد طاقاتها الاجتماعية، وانطفأت تدريجياً جذوتها الدافعة، وأصبحت دوافع الحياة فاترة، وفقدت المصلحة سموها تدريجياً [٣٠٦]

ومن هذه الفاعلية، وهي أيضاً سبيل للهداية إلى الخير، توجيهُ الرسولِ ﷺ للإنسانِ المسلمِ للدلالة على أبواب الخير، ويكون له بذلك مثل أجر فاعله : **" من دل على خير فله مثل أجر فاعله "[٣٠٧]**

وصفة العالمية في الرسالة تحمل معنى مهماً وهو القدرة على استيعاب العالم كله، فيجد فيها كل إنسان ـ مهما كان انتماؤه وموطنه ـ حاجته، فالخطاب الذي جاء به الإسلام، خطاب واحد يستوعب البشرية كلها، على تنوعها واختلافها، مما يؤكد على قدرة هذا الخطاب، وهذا الدين على استيعاب خصوصيات هؤلاء البشر، واستيعاب سائر المكونات الحضارية، والأنماط الثقافية، والمناهج المعرفية [٣٠٨].

---

[٣٠٦] مالك بن نبي، تأملات . ص ٣٨ـ ٤٤.

[٣٠٧] مسلم، صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب: فضل إعانة الغازي في سبيل الله بمركوب وغيره، برقم: (١٨٩٣). ٣/١٥٠٦

[٣٠٨] العلواني، الأزمة الفكرية ومناهج التغيير . ص٣٣ .

المبحث الثالث

منهج العقل المسلم في تحقيق أهدافه

إنَّ تحقيق مفهوم الأمة الصالحة، لِتكونَ خير أمَّة أُخْرِجَتْ للناس، هو الذي يؤهلها لتكون لها القيادة والريادة بين الأمم، وليكون لها مقام الشهادة على الأمم الأخرى. وقد بيَّن الإسلام أحكاماً وتوجيهاتٍ لتحقيق هذه الغاية، ومن خلال ما تم بيانه من الأهداف في المبحث السابق، فقد جاء هذا المبحث لبيان المنهج الذي قرّره الإسلام لتحقيق هذه الأهداف . وسأتناول ذلك من خلال المطالب الآتية :

المطلب الأول

منهج الإصلاح والهداية والدعوة إلى الاستقامة

إنَّ من طبيعة الإنسان الوقوع في الخطأ، واتباع الأهواء والشهوات، لذلك ليس من المستبعد وجود الانحرافات في أي مجتمع من المجتمعات البشرية، ومنها الانحرافات الخُلُقية، مع تفاوتٍ واختلافٍ بين المجتمعات البشرية، في مقدار تلك الانحرافات وحجمها ونوعيتها، وذلك راجعٌ إلى الخلفية الدينية والفكرية لدى أي مجتمع.

فبعض المجتمعات يُبيح للإنسان كثيراً من المنكرات الخُلُقية، تحت عنوان الحرية الشخصية، وهي حرية غير منضبطة، تجعل المجتمع البشري أقرب إلى حياة الحيوان،بحيث تُصبِحُ غايةُ الإنسان في هذه المجتمعات إشباعَ غرائزه وشهواتِه . إنَّ هذه المجتمعات ـ مهما امتلكت من أسباب القوة المادية ـ مُعرَّضة للزوال والهلاك ؛ بِفِعْلِ المنكرات الشائعة فيها، والتي ستفعل فِعْلَها في هدم بناء المجتمع القائم على الإباحية والشهوات .

وعوامل الضعف والانحلال في تلك المجتمعات، لا تقتصر على الناحية الخُلُقية فقط، لأنَّ تلك المجتمعات، تُؤسِّسُ الأنظمة الأخرى التي تُسَيِّر الحياة فيها، على هذا الأساس، استجابة للمنظومة الفكرية التي تُؤمنُ بها، وتسعى إلى تطبيقها، بحيث إنَّ سائر النظم والمؤسسات الحياتية : النظام السياسي، الاقتصادي، الاجتماعي، التعليمي، الإعلامي؛ كلها تقوم بِدَوْرِ حَضَانَةِ بُذُورِ الانحلال الخُلُقي، وحمايتِها، وتشريعِها . وكم من أُمَّة من الأمم، كان هذا حالها فاستحقت الفناء والزوال، لأنَّ البناء كان قائماً فيها على أساس الفساد والإفساد ، والله لا يُصلِحُ عَمَلَ المُفسِدِين .

ولنْ يُكتَبُ لأمةَ النجاةَ إلاَّ إذا كان لديها الاستعداد الكامل، والقدرة الكامنة على تصحيح مسارها، بحيث تتلافى كل خلل، وتستكمل كل نقص، وتُجدِّدُ ما يبلى، وتُصلح ما يفسد، وتعيد إلى الحياة ما يموت من عناصرها، مما يساعدها على أن تتجاوز أزماتها كلها، ويقيها من الانحطاط.[٣٠٩]

ولقد تميّزت الأمة المسلمة عن غيرها من الأمم؛ بأنها أُقامت بناءها على أساس الأخوة في الدين، مِنْ خلالِ منظومةٍ من العقائد والقِيَم والأخلاق، تهدف إلى إقامة الأمة الصالحة، لتكون خير أمة أُخرجت للناس . فَكَانَ من مُقتضيات الأخوة بين أفرادها، أنْ يمتلك كل فردٍ فيها، الاستعداد للإصلاح، من خلال فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كلٌّ حسب طاقته وقدرته .

وقد وردت أحاديث كثيرة فيها تفصيل للجوانب المتعددة، التي يمكن بوساطتها إبقاء الأمة حيَّةً، تقاوم عوامل الضعف الانحطاط التي قد تحدث فيها، بحيث تجعلها أمةً عصيَّةً على الانحطاط والهلاك. فقد جاء في الحديث عن رسول الله ﷺ ، أنه قال : **" من رأى منكم منكراً فليغيّره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك اضعف الإيمان "** [٣١٠] ، ففي هذا الحديث بيانٌ لوجوب تغيير المنكر، على كل من رأى مُنكراً، فلا عُذرَ للإنسان في ترْكِ إنكارِ المُنكر، لأنَّ أدنى الدرجات في إنكاره، يملكها كل إنسان مهما كان حاله، وهي درجة الإنكار بالقلب، فهذا التكليف ضمن القدرة والاستطاعة، حيث راعى الحديث النبوي أحوال الناس وقدراتهم في إنكار المنكر .

فالإنكار القَلْبي غايته أنْ يبقى لدى الفرد والمجتمع، الإحساس والشعور بأنَّ هذا مُنْكَرٌ يجب إزالته، لئلاَّ تتبدل المفاهيم وتنقلب عند الناس، فينشأ عن هذا التبدُّل والانقلاب في المفاهيم، أن يصبح المنكرُ معروفاً وشائعاً .

فالدعوة للإصلاح وإزالة الفساد لا تقتصر على الدولة ومؤسساتها، بل تشمل كل فردٍ فيها، فهي مُتميِّزةٌ بشمولها واتساعها، لتشمل كل إنسان لديه القدرة على ذلك، في إطار التغيير الشامل ـ الذي يسعى إليه الإسلام ـ لكل ما بالأنفس من معتقدات، وتصحيحٍ لها، ولما انبثق عنها من أفكارٍ، وتصوُّراتٍ، وسُلوكيات.

---

[٣٠٩] العلواني، الأزمة الفكرية ومناهج التغيير . ص١٨ .

[٣١٠] مسلم، صحيح مسلم، كتاب الإيمان ، باب كون النهي عن المنكر من الإيمان ، حديث (٤٩) ، ٦٩/١ .

ولا يقتصر الإصلاح في المجتمع على إزالة المنكر، بل يتسع ليشمل إصلاح العلاقات الاجتماعية بين أفراد المجتمع، وفي ذلك صلاح للمجتمع وقوة له، بحيث تُسخَّر القوى لدى الأفراد، فيما يعود بالنفع عليهم وعلى المجتمع بالفائدة .

وعندما يخاطب الرسولﷺ أُمَّته بقوله : **" لا تباغضوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخوانا ، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيام "** [٣١١] فهو ينهاهم عن كل ما يُفسد العلاقة بين المسلم وأخيه المسلم، فينهاهم عن أنْ يُبادلَ المسلمُ أخاه المسلم مشاعرَ التباغض والتحاسد والتدابر، وهي أمور لا تَحْدُثُ إلاَّ بالتشارك بين طرفين، فهو نهيٌ عن أنْ تكون العلاقة بين المسلمين على هذه الأصول الفاسدة . والتباغض والتحاسد والتدابر كلها تتناقض ومعاني الأخوة بين المسلمين، فلم يَكْتَفِ بِنَهْيِهم عن هذه السلوكيات المذمومة، بل أَمَرَهُم بِنَقِيضِها من الحِرْص على الأخوَّة بين المسلمين . إنَّ الإدراك الصحيح لمعنى الأخوة بين المؤمنين، وما يترتَّب على ذلك من الحقوق والواجبات، بين الأخوة، هو منتهى الغاية في الأمر بالإصلاح والاستقامة .

ولا يقتصر الأمر في السعي إلى الإصلاح في المجتمع، على النهي عن الآفات الخُلُقية، فهذا لا يكفي في إصلاح الفرد والمجتمع، ولذلك أَمَرَهم بما يكون طريقاً إلى الاصلاح، من الحرص على أنْ يكونوا عباد الله إخواناً، وتحريم هجر المسلم لأخيه المسلم فوق ثلاث .

ولعلَّ مما يُعيق الإصلاح، ويُشجِّع على انتشار الفساد، أنْ تجدَ عِلْيَةَ القوم ووجهاءهم وكُبَرَاءهم، يَرْتَعُونَ في الفساد، ولا يجرؤ أحدٌ على مساءلتهم أو محاسبتهم، وتجدُ أتباعاً لهم يسيرون خلفهم، اقتداءً بهم، بحيث يصحُّ أنْ يُوصَفَ كلُّ واحدٍ منهم بالإمَّعة. وحتى لا يكون هناك مجال للفساد والإفساد في المجتمع، فقد نهى الرسول ﷺ الإنسان المسلم، أنْ يكون عَوْناً للفاسدين والظالمين، من خلال هذا المسلك الغريب عن الإنسان المسلم الملتزم، حيث قال ﷺ: **" لا يكن أحدكم إمَّعة ، تقولون إنْ أحسنَ الناسُ أحْسَنَّا ، وإنْ ظَلَموا ظَلَمْنا ، ولكنْ وطِّنوا أنفسَكم إنْ أحسنَ الناسُ أنْ تُحْسِنُوا ، وإنْ أساءوا فلا تظلموا "** [٣١٢] . فالأصل في الفرد المسلم أنْ يتميَّز بشخصيته المستقلة، وتفكيره السوي، القائم على تحري الحق والحرص عليه، بالاعتماد على الدليل والبرهان في الحكم على الأمور، مما يجعل منه إنساناً ميَّالاً إلى الإصلاح لا الإفساد. أمَّا إذا اختلَّ ذلك كلُّه، وصار

---

[٣١١] البخاري، صحيح البخاري، كتاب الأدب ، باب ما ينهى عن التحاسد والتدابر ، ٨٨/٧ ، كتاب الأدب ، باب الهجرة ... ٩١/٧. سبق تخريجه من رواية مسلم ص٥٩.

[٣١٢] سبق تخريجه ص ١٦٣، أخرجه الترمذي وقال :هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه .

مطيَّةً لغيره، وصار إمَّعةً، فهذا مُؤذِنٌ بظهور الفساد وانتشاره. فكم من المفاسد والمظالم قد انتشرت في الأمة نتيجة السلوك الاجتماعي لهذه الفئة من الناس، التي أساءت لنفسها وأساءت للمجتمع وأفسدته ؟ بلْ إنَّ الرسول ﷺ يُحذِّر أمَّته من أنْ يُصيبها الخنوع والذُّلُ ، في مواجهة الظالمين، حيث قال ﷺ : **" إذا رأيتم أمَّتي تهاب الظالم، أنْ تقولَ له إنَّك أنت ظالم، فقد تُوُدِّع منهم"**[٣١٣]

والدعوة إلى لإصلاح والاستقامة، لا تقتصر على إصلاح الفرد لسلوكه خاصة، أو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بل يجب على المسلم، أنْ يستثمر صِلاتِه الخاصة، وعلاقاته الوثيقة بالآخرين، لكي ينصحهم ويُشير عليهم، بما فيه الخير لهم وللمجتمع، إنْ رأى منهم أيَّ توجُّهٍ إيجابي أم سلبي، بما يُحفِّزهم لعمل الخير، وترك الشر، امتثالاً لقول الرسول ﷺ **:" الدين النصيحة ، الدين النصيحة ، الدين النصيحة " قالها ثلاثا، قلنا لمن يا رسول الله ؟ قال :" لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم "**[٣١٤]، فمن النصيحة إرشاد الآخرين لما فيه منفعتهم في الدنيا والأخرة، وهذا أعم من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

ومن ذلك الحث على الاستقامة، بمعناها الواسع من خلال الالتزام بما آمن به الإنسان المسلم، فالاستقامة على الإيمان ومقتضياته، نتيجتُه الإصلاحُ للفرد وللمجتمع، واستقامةٌ في السلوك والأخلاق، وتحقيقٌ لكل معاني الخير. وقد جاء جواب الرسول ﷺ لِمَنْ سأله عن الإسلام، فأراد السائلُ جواباً شافياً بحيث لا يسأل أحداً بعده عن الإسلام، فقال له : **"قل آمنت بالله فاستقم "** [٣١٥] ، فالحث على الاستقامة فيه تصويب لمنهج الإنسان المسلم، وتحديد للغاية التي يسعى إليها، وبها يتحقق الإصلاح والهداية " فالاستقامة درجة بها كمال الأمور وتمامها، وبوجودها حصول الخيرات ونظامها، ومن لم يكن مستقيماً ضاع سعيه، وخاب جهده"[٣١٦]

فالغاية من ذلك كله إيجاد المجتمع الفاضل، الذي تنضبط فيه المكاسب والمنجزات المادية بالقيم الروحية، حتى تُحقق هذه المنجزات المادية الفائدة المرجوة منها . وذلك في إطار سعي الإسلام

---

[٣١٣] ابن حنبل، المسند ، قال المحقق أحمد شاكر: إسناده صحيح، والحديث رواه الحاكم في المستدرك، وقال: حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي حديث (٦٥٢١) ٨٦/٦

[٣١٤] مسلم، صحيح مسلم، كتاب الإيمان ، باب بيان أن الدين النصيحة ، حديث (٥٩) ، ١/ ٧٤ .

[٣١٥] سبق تخريجه ص ٩٧، أخرجه مسلم.

[٣١٦] القنوجي، صديق بن حسن خان ،السراج الوهاج من كشف مطالب صحيح مسلم بن الحجاج،تحقيق عبد الله الأنصاري، قطر . ١٢٥/١

لتطهير التركيبة الحضارية المادية من شوائبها التي تنبث من طبيعتها غير الروحية، فيصهرها في القيم الروحية ويمد الأمة في حضارتها عند نهوضها واستمرارها بطاقات وقوى مضاعفة، مع تحقيق الحماية للمكاسب المادية من الضياع والطغيان [٢١٧].

والخلاصة إنَّ الدعوة إلى الإصلاح تأتي استجابة وتتميماً لما جاءت به الرُسُلُ جميعاً، فقد جاؤوا مُصلحين يُصلحون ما أفسد الناس، من العقائد والأفكار والقيم والمفاهيم والتصورات، بإعادتهم إلى الطريق المستقيم. وهذه الدعوة إلى الإصلاح هي جزء من المسؤولية التي تقع على الإنسان المسلم والمجتمع المسلم، فهي مسؤولية فردية وجماعية، " **كُلُكُم راعٍ وكُلُكُم مسئول عن رَعِيَّتِه**" [٢١٨]. وهي جزء من الإيجابية التي يجب أن يتحلّى بها كل فرد مهما كان موقعه، ومهما كان دوره، وأيّاً كان مكانه ، فالأمة كلها مسئولة عن إصلاح ذاتها، ومسئولة عن إدراك انتماء كل جزء منها إليها، فالمصير مشترك، فلا يعتقد أيُّ فرْدٍ أنّه يمكن أن ينجو من هذا المصير، إذا استمرت أعمال الفساد فيها[٢١٩]، وهو ما يؤكد عليه الحديث النبوي : " **مثل القائم على حدود الله كمثل قوم استهموا على سفينة...**" [٢٢٠] فالمسؤولية جماعية ليكون المجتمع نظيفاً عفيفاً لا تشيع فيه الفاحشة، ولا تروج فيه الفتنة، ولا ينتشر فيه التبرج والسفور، ولا تُسْعَرُ فيه الشهوات على الحُرُمات كالمجتمعات الجاهلية. مجتمع يأمنُ فيه الإنسان على نفسه وأهله، ويأمنُ فيه الجميع على حرماتهم وأعراضهم، مجتمعٌ آمن تُظلِّله أجنحة السلم والطهر والأمان . لا يخضع البشر فيه للبشر، إنّما يخضعون حاكمين ومحكومين لله ولشريعته.

---

[٢١٧] د. فاندي، منطلقات قرآنية للحوار . ص١١٣.

[٢١٨] البخاري، صحيح البخاري، كتاب الجمعة، باب الجمعة في القرى والمدن، حديث(٨٩٣)، ٦٦٩/١.

[٢١٩] طه العلواني، في مقدمته على كتاب : الكيلاني، ماجد عرسان، هكذا ظهر جيل صلاح الدين، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الولايات المتحدة، ١٤١٤هـ ١٩٩٤م . ص ٦-٧.

[٢٢٠] سبق تخريجه ص ١١٥، أخرجه البخاري .

المطلب الثاني

منهج الحوار الهادف والشورى

لإيجاد المجتمع المسلم الذي تَسُودُه روحُ التعاون والمحبة بين أفراده، فإنَّ الإسلام قد رغَّب في الحوار والتشاور بين أفراد المجتمع، ليكون وسيلة الإصلاح بينهم، ووسيلة الحفاظ على وحدته ووجوده، ووقايته من آفة الطغيان والاستبداد، التي تقطع العلاقات، وتوجد الشحناء، والذي هو باب انحلال المجتمعات وهلاكها.

وكذلك فإنَّ الشورى، فيها ضمانٌ بعدم اجتماع الأمة على الضلالة، وذلك عندما تكون الشورى على المستوى الجماعي للأمة، بحيث لا تُتَّخذُ القرارات المصيرية للأمة إلاَّ بعد التشاور وتقليب الآراء، لاختيار أصوبها وأصلحها. فَثَمَرَةُ الشورى هي حصيلةُ الرأي الجماعي، الذي تُصَبُّ فيه حِكمةُ الأمة وخبراتُها . وقد جاء في الحديث عن الرسول ﷺ أنَّه قال: **" إنَّ أمتي لا تجتمع على ضلالة "** [321] فالشورى هي السبيل إلى أمن الأمة الاجتماعي واستقرارها[322]، لأنَّ كلَّ فردٍ يُساهمُ بنصيبه في هذا القرار الجماعي، بإعلانه عن قناعاته وآرائه،تأييداً أو معارضةً، من خلال الاستفتاءات، أو الانتخابات، أو المؤتمرات، أو الملتقيات .

لذلك نرى في كثير من الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، دعوة للحوار والتشاور، بل إنَّ كثيراً من الموضوعات في القرآن والسُّنَّة النبوية جاء عَرْضُها وتفصيلُها بطريقة الحوار، تعليماً للإنسان لكي يبتعد عن الاستئثار بالرأي، وعن الاستبداد وفرض آرائه على الآخرين، لما يترتب على ذلك من العواقب السيئة على المجتمع والأمة، مِنْ نشوب الصراع والاقتتال، فكان الحوار بديلاً عن ذلك .

وقد جاء في القرآن الكريم وصف هذه الأمة بهذه الصفة، لِيكونَ أمرُهم - ويبقى - شورى بينهم، فلا استبداد بالرأي، ولا تسلُّط بحجة أنَّ الشعب قاصر لا يُدرك مصالحَه، قال تعالى في سورة الشورى المكية: **{ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا**

---

[321] ابن ماجة، السنن ، كتاب الفتن، باب السواد الأعظم ، حديث(٣٩٥٠)،وفي الزوائد: وقد جاء الحديث بطرق في كلها نظر كما قال العراقي. ٢/ ١٤٣٦ـ١٤٣٧ . قد ضعّف الألباني الحديث، صحّح الشطر الأول منه، فقال: ضعيف جداً، دون الجملة الأولى فهي صحيحة . الألباني، ضعيف سنن ابن ماجة. ص٣٢١ .

[322] د. عمارة، محمد، الإسلام والأمن الاجتماعي، دار الشروق، ط١، القاهرة، ١٤١٨هـ ١٩٩٨م . ص٩٩ـ١٠٠ .

رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ } [٣٢٣]، فلما كانت المرحلة المدنية، مرحلة إقامة الدولة الإسلامية جاء الأمر تكليفاً بذلك، في سورة آل عمران المدنية، في قوله تعالى : { **فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ** } [٣٢٤] وهذا الأمر- أي الالتزام بالشورى وتطبيقها - يختلف باختلاف أحوال الأمة الاجتماعية زماناً ومكاناً، بالطريقة الملائمة التي تتغيّر بتغيُّر الزمان والمكان[٣٢٥]. فالأمة بهذه الصفة الملازمة لها، أمة تستحق الحياة، الحياة التي تتحقَّقُ بها إنسانية الإنسان وكرامته، وبخلافها فهي أبعد ما تكون عن الحياة الكريمة التي تليق بها، وربُما هذا هو ما ذُكِرَ في الحديث الوارد عن الرسول ﷺ حيث قال : " **إذا كان أمراؤكم خياركم، وأغنياؤكم سمحاءكم، وأمركم شورى بينكم، فظهر الأرض خير لكم من بطنها...** " [٣٢٦].

وقد كان الرسول ﷺ - ولا يزال - هو الأسوةُ الحَسَنةُ لكل مؤمن، حيث كان حريصاً على تطبيق منهج التشاور مع أصحابه، وأكثر ما يظهر ذلك في غزواته وسيرته، وقد وردت عنه ﷺ أحاديثُ متعددة في الحث عليها، ومن ذلك لمّا نزل قوله تعالى : { **وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ** } [٣٢٧] ، قال رسول الله ﷺ : " **أمَا إنَّ الله ورسوله غنيَّان عنها، ولكنْ جعلها الله رحمةً لأمتي، فمن شاور منهم لم يعدم رشداً، ومن ترك المشورة منهم لم يعدم غياً** " [٣٢٨]، فهذا الحديث قد بيَّن أنَّ الشورى جعلها الله رحمة للأمة، لتحقيق مصالحها الحياتية حتى يستقيم أمرها، ويقوى حالها، فهي توصل للرُّشد والصواب في تحقيق

---

[٣٢٣] سورة الشورى، الآية ٣٨ .

[٣٢٤] سورة آل عمران، الآية ١٥٩.

[٣٢٥] د. خلف الله، محمد أحمد، من سلسلة عالم المعرفة" مفاهيم قرآنية" ،المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ١٩٨٤م. ص ٧٤.

[٣٢٦] الترمذي، الجامع الكبير، كتاب الفتن، باب ٧٨، حديث (٢٢٦٦) . وقال هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث صالح المُرّي، وصالح المري في حديثه غرائب، ينفرد بها لا يتابع عليها، وهو رجل صالح ١١٤/٤، وقد ضعَّف الألباني الحديث .الألباني، ضعيف سنن الترمذي ص٢١٨.

[٣٢٧] سورة الشورى، الآية ٣٨ .

[٣٢٨] البيهقي، الجامع لشعب الإيمان ، باب في الحكم بين الناس، حديث (٧٥٤٢) .وقال البيهقي: بعض هذا المتن يروى عن الحسن البصري من قوله، وهو مرفوعاً غريب .٦/ ٧٦-٧٧. تحقيق:محمد السعيد زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت،١٤٢ ط١،١هـ٢٠٠٠م. قلت: الحديث بهذا الإسناد ضعيف، فيه عباد بن كثير الرملي الفلسطيني، وهو ضعيف . ابن حجر العسقلاني، التقريب، ٢٩٠(٣١٤٠). وله شاهد إسناده حسن عن ابن عمر عن النبي أنه قال: " من أراد أمراً فشاور فيه وقضى لله، هُدِيَ لأرشد الأمور. قال البيهقي: لا أحفظه إلا بهذا الإسناد . البيهقي، الجامع لشعب الإيمان، حديث(٧٥٣٨)، ٧٥/٦.

مصالح الأمة، ولا غنى للأمة عنها لأنَّ نتيجة تَرْكِها ستكون أخطاء وكوارث وعواقب وخيمة، فالشورى هي السبيل لأصْلَحِ الأمور والبعد عن الأسوأ منها .

وهي طريقة ومنهج للفرد والمجتمع، بدونها يخسر الإنسان وتتضرَّرُ مصالحه، لأنَّه ليس بمقدور أيِّ إنسان مهما كان علمه وإدراكه، أنْ يُحيط بكل الجوانب، الإيجابية أو السلبية، أو الظروف والأحوال، التي من خلالها يمكن تبيُّن أصوب الآراء والحلول، فإنَّ استشار لن يندم بأيِّ حال من الأحوال، كما جاء في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: **" ما خاب من استخار، ولا ندم من استشار، ولا عال من اقتصد"** [٣٢٩] لن يندم من استشار، وذلك لأنَّ " التشاور والحوار كثيراً ما يبين وجهات النظر المختلفة ، بتعدد أساليب التفكير ومناهجه بحيث تغني العقل المسلم بخصوبة رأي ، وعمق تمحيص ، واطلاع أوسع على وجهات نظر متعددة ، وزوايا رؤية مختلفة، وإمعان نظر وتدقيق... ويفيده في النظرة الكلية السوية للأمور، والرؤية الشاملة للأبعاد المتعددة للمسائل، وهذا كفيل بتجنيبه مواطن الزلل والخطأ، واضطراب الموازين، والخلل في الرؤية، واختفاء الأولويات. " [٣٣٠]

بل إنَّ رسول الله ﷺ يعلِّمُ المسلم بأن يستخير الله تعالى في كل أمر يعرض له، لعلَّ الله تعالى يهديه إلى أصوب الأمور ، فالمسلم يلجأ إلى الله تعالى، سائلاً إيَّاه التوفيق لأهدى الأمور وأصلحها، وقد جاء في حديث جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنه ـ أنَّه قال: كان النبي ﷺ يُعلِّمنا الاستخارة في الأمور كلِّها، كالسورة من القرآن: " إذا همَّ بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة، ثم يقول: اللَّهم إني أستخيرك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم، فإنَّك تقدرُ ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم، وأنت علاَّم الغيوب، اللهم إنْ كنت تعلم أنَّ هذا الأمر خيرٌ لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري ـ أو قال: عاجل أمري وآجله ـ فاقدره لي، وإنْ كنت تعلم أنَّ هذا الأمر شرٌّ لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري ـ أو قال: في عاجل أمري وآجله ـ فاصرفه عني واصرفني عنه، واقدر لي الخير حيث كان، ثم رضِّني به، ويُسمي حاجته" [٣٣١]

---

[٣٢٩] الطبراني، المعجم الأوسط ، حديث (٦٦٢٧) . ٣٦٥/٦ . وقال الهيثمي في "المجمع" : رواه الطبراني في الأوسط ، ضعيف جداً. الهيثمي، بغية الرائد في تحقيق مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ، حديث (١٣١٥٧) .١٨١/٨. والحديث وإن كان ضعيفاً لكنه مما يصلح للاستشهاد في مثل هذا المقام .

[٣٣٠] العلواني، أدب الاختلاف . ص ١١ـ ١٣.

[٣٣١] البخاري، صحيح البخاري، كتاب الدعوات، باب الدعاء في الاستخارة،حديث(٦٣٨٢) . ص ٢٧٩١.

" ومن الطُرُق المألوفة كذلك للتواصل بين الناس أسلوب الحوار، إمَّا بِهَدَفِ الإقناع للطرف الأخر، أو الخروجِ من حالة اضطراب الذهن، وحَيْرةِ العقل في أيَّة قضية أو مسألة" [٣٣٢] وفي ذلك تحقيقٌ للمصالح والمنافع المشتركة بين الناس، حيث لا غِنى للإنسان عن الإنسان، والإنسان لا يستطيع أن يعيش منعزلاً عن الأخرين، فقد وُجِد ليتعايش معهم، وإن اختلفت الأهداف والتوجهات.

لذلك جاءت الدعوة إلى الحوار مع الأخرين، لتكون طريقاً لإزالة الخلافات والخصومات، عند تباين الأراء واختلافها . ولا يمكن أنْ تُعطي هذه الألية ثمرتَها إلا إذا كان الحوار هادفاً، غايته الوصول إلى الحق وإقراره والالتزام به، بحيث تُعرَفُ وُجُهات النظر الأُخْرى، والاتفاق على ما كان صواباً منها، بهدف الوصول إلى تعايش مشترك، يُحافَظُ فيه على حقوق الطرف الآخر، ينعُم فيه الإنسان بالأمن والسلام .

فإذا فقد الحوارُ غايتَه وصار جدالاً، الهدف منه إثبات وتأكيد كلُّ طَرَفٍ فيه صوابَ رأيه، بالمغالبة والإصرار على ذلك، حتى لو كان باطلاً، بعيداً عن الحق والصواب، وهذا النوع من الحوار ينتهي غالباً، إلى ازدياد الهُوّة بين الفريقين، وربما إلى تبادل الشتائم، والاتهامات، تعبيراً عن مدى الإفلاس الذي وصل إليه كلا الفريقين، وهو ما يتركه أثره السلبي على النفوس، مِنْ زَرْعِ النفوس بالبغضاء والعداوة . وقد جاءت الأحاديث النبوية تُرشدُ المسلمَ إلى ترْكِ الجدال والمِراء، وعنْ الرسول ﷺ أنه قال :" **أنا زعيمٌ بِبَيتٍ في رَبَضِ الجنة لِمَنْ تَرَكَ المِرَاءَ وإنْ كان مُحِقاً**" [٣٣٣]، فالأمْرُ بِترْكِ الجدال والمراء، سَبَبُه أنَّ الحوار بين الفريقين قد فقد ثمرته وغايته، فصار وسيلة لإثارة الفُرقة والاختلاف، والضلال. وبمعنى آخر يُستفاد من الحديث: فلا مانع من الحوار بين الإنسان وأخيه الإنسان، طالما كان هذا الحوار بعيداً عن أوصاف الجدال والمراء .

وقد ورد حديث آخر، يُبيِّن العِلَّة في الأمر بترك الجِدال، وهي أنَّ الجدل طريق للضلال، لأنَّ فيه مُكابَرَةً وإعراضاً عن الحق بعد تبيُّنه، ولأنَّ فيه تقديماً وإعلاءً لهوى النفس، على الحق

---

[٣٣٢] د. خلف الله، مفاهيم قرآنية. ص ١١٧ـ ١١٩ .

[٣٣٣] ابو داود، السنن ، كتاب الأدب، باب في حسن الخلق،حديث(٤٨٠٠) . ص٥٢٣. وقال الألباني: للحديث شواهد يرتقي بها إلى درجة الحسن على أقل الأحوال . الألباني، سلسلة الأحاديث الصحيحة . ٥٥٢/١ ـ ٥٥٦. قلت : لهذا الحديث شاهدان عند الطبراني في المعجم الأوسط ، الأول :عن ابن عمر، وقال الطبراني فيه: لم يرو هذا الحديث عن عبد الله بن عمر إلا عقبة، تفرّد به عتيق، حديث(٨٧٨) ٣٩٨/١ـ٣٩٩. والثاني : عن معاذ بن جبل وقال الطبراني فيه: لم يرو هذا الحديث عن روح بن القاسم إلا عيسى بن شعيب، تفرّد به: محمد بن الحصين الطبراني، المعجم الأوسط، حديث(٥٣٢٨) ٢٨٥/٥. الشاهد الأول: إسناده ضعيف فيه عبد الله بن عمربن حفص، قال أحمد بن حنبل: كان يزيد في الأسانيد و يخالف ، وكان رجلاً صالحاً،وقد وثقه أحمد وابن معين ويعقوب بن شيبة، وضعفه: ابن المديني ويحيى بن سعيد والنسائي ابن حجرالعسقلاني، التقريب٣١٤(٣٤٨٩) . تهذيب التهذيب ٣٨٩/٢ـ ٣٩٠. .والشاهد الثاني: إسناده ضعيف فيه محمد بن الحصين وقد تفرّد به، قال ابن حجر: مجهول .ابن حجر العسقلاني، التقريب، ٤٧٤(٥٨٢٣). فالحديث يرتقي بالشاهد الأول إلى درجة الحسن .

والهدى، وعنْ رسول الله ﷺ أنه قال : " ما ضَلَّ قَوْمٌ بَعْد هُدىً كانوا عليه، إلاّ أوتُوا الجَدَل ، ثُم تلا هذه الآية (ما ضربوه لك إلا جدلا بل هم قوم خصمون) " [334]

وحتى لا يحدث مثل هذا الأمر، ولأجْلِ أنْ يبقى الحوار مثمراً وله فائدة، فإنَّه يقعُ على التربية الإسلامية مسؤولية كبيرة في هذا المجال، فلا بُدَّ " للتربية الإسلامية أنْ تُدرّبَ أفرادَ الأمة على ممارسة كُلٍ من حرّية الرأي، والنقد الذاتي، بحيث تنطبق عليها المواصفات التي توجه إليها أمثال قوله تعالى : { وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْناً} [335] وقوله عزَّ وجلَّ : {وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ} [336] وقوله سبحانه : {وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغاً } [337] وبذلك لا يتحول النقد أو التعبير عن الرأي إلى سباب ومهاترات، تزرع الأحقاد، وتبذر الفتن، وإنما يقوم على تشخيص الظواهر الاجتماعية، وتحليل مقدماتها ونتائجها بغية التعرف علي الممارسات الخاطئة للتوبة منها، واكتشاف الصحيحة للرجوع إليها " [338]

كذلك فإنَّ تبيُّن أصوبَ الآراء وأولاها بالعمل، مِنْ جُمْلَةِ أهداف الشورى، ، بحيث يلجأ الإنسان إلى مشاورة أقرب الناس إليه، طلباً للنُصْح والإرشاد، لِمَزيدٍ من التوثُّق من صواب الرأي الذي يريد العمل به، ومنعاً للاستبداد بالرأي . وهو ما يُتيحُ التوسُّع في الاختيار لاتخاذ القرار المناسب، تجاه القضايا المختلفة، التي تؤثر في تقرير المصير المشترك . " ومن ثمرات الحوار والمشاورة تنميةُ الوعي بقيمة التعبير عن الرأي، لأن الأمة التي يُوجِّهُهَا الوعيُ بقيمة (النقد الذاتي) أمةٌ تتمتَّعُ بالصحة والعافية، ولا تتراكم عليها آثار الممارسات الخاطئة، التي قد تنفجر في صورة فِتَنٍ مُدَمِّرةٍ تأتي علي كيان الأمة دُفْعةً واحدة" [339]

فالحوار تعبير عن الاعتراف بالآخر، وضرورة محاورته، ومنحه الفرصة المُكافئة ليَعْرِضَ وُجْهَةَ نَظَرِه، ويُبيِّنها ويُدافع عنها . وهو أمْرٌ في غاية الأهمية، يحتاج المسلمون في هذا العصر إلى العمل به وتطبيقه، في تعاملهم مع بعضهم، ومع الأخرين . فإنَّ صاحب الحق قويٌ بحقِّه ،لا

---

[334] سبق تخريجه ص ١٥١، أخرجه الترمذي.

[335] سورة البقرة ، الأية ٨٣ .

[336] سورة النحل ، الأية ١٢٥ .

[337] سورة النساء ، الأية ٦٣ .

[338] الكيلاني، إخراج الأمة المسلمة . ص٩٠ - ٩١

[339] الكيلاني ،إخراج الأمة المسلمة . ص٩٠ - ٩١

يخشى من الباطل، وفي الحوار تأكيد لِلحقِّ، وبيانٌ له، وبيان لِتهافُتِ مَنْطِقِ دعاة الباطل وحُجَّتِهم الذي لا يُمكِنُ للناس معرفتُه إلاّ من خلال تلك الوسيلة .

ومن ناحية أخرى، فإنّ الحوار كان مطلباً دينياً واضحاً في الشرائع السماوية، بالدعوة إلى الكلمة الطيبة، بالحكمة والموعظة الحسنة والحجة المقنعة، لما لذلك من أثرِ حسن في النفوس، لأن من طبائع البشر أصحاب الفِطرة السليمة، الإقبال على من يتّصف بالخصال الطيبة، بحيث تكون هذه الأساليب وسيلة لإحداث مَيْلٍ قَلْبِيٍّ، من المستمع تجاه المتكلِّم . وبالمقابل فإنّ أصحاب الفِطَرِ السليمة، يُعْرِضُون عمّنْ اتّصف بالغِلْظة والشِّدَّة، في التعامل والتخاطب مع الآخرين، حتى لو كان يهدِف من وراء ذلك، إلى تحقيق مصالحهم .

والأمر في الدعوة إلى الحوار لا يقتصر على الأفراد، بل يمتد ليشمل الجماعات والدول والأمم، كوسيلة لحل النزاعات، وتحقيق تعايش مشترك بين البشر جميعهم، لما في ذلك من تحقيق منافع ومصالح كثيرة لا تُعدُّ ولا تُحصى . ومن ذلك فإنّ تشجيع الاجتهاد الفقهي والفكري، وفتح أبواب الحوار، والمناقشة، والاجتهاد على مصراعيها، في القضايا المختلفة، والمسائل المهمة التي لها تأثير مصيري على المجتمع والأمة، سوف يسمح بنمو اجتهادات أخرى، فكرية، وفقهية، تتعدَّد بِتعدُّد مجالات الحوار وقضاياه، تستطيع أنْ تُثْبِتَ وجودَها، وجدواها في الساحة الفكرية، وتتمكن من تنزيل الإسلام على قضايا العصر، وتقويم حياة الناس وسلوكهم به، في عملية انتقال بأحكام الإسلام من المجال النظري إلى الواقع العملي [٢٤٠]

والحوار ينبغي أنْ لا يقتصر على حوار داخلي بين المسلمين أنفسهم فقط، بلْ إنّنا في حاجة إلى الحوار مع الآخر أكثر من حاجته إلى الحوار معنا ، وما لم تُفْتَح عقولُنا وقلوبُنا للأخذ عنه والنقل منه، لكلِ عِلْمٍ نافعٍ ومُفيد، فسوف تتّسعُ الهوةُ بيننا وبينهم، ولا يجوز التَّعلُّلُ في ذلك بأيِّ منطق، يحمل معنى التمنطق بأننا مسلمون وهم غير مسلمين، فليس في ظاهر الشرع ما يمنع من الأخذ لكل نافع ومفيد عن الغير .[٢٤١]

---

[٢٤٠] العلواني ، إصلاح الفكر الإسلامي بين القدرات والعقبات . ص٦٣.

[٢٤١] الجليند، محمد السيد ، بحث " المسلمون وفقه السنن الإلهية ..." من كتاب " الإسلام والعولمة " ، الجليند وآخرون ،الدار القومية العربية ، مصر . ص ٥٣ .

المطلب الثالث

منهج السببية (الربط بين الأسباب والنتائج والخضوع للسنن الإلهية)

لقد قصَّ القرآن الكريم كثيراً من قصص الأقوام السابقين، وغايةُ ذلك أنْ تكونَ موطناً للاعتبار، وكذلك فقد ورد في السنة النبوية كثيرٌ من الأحاديث التي بيَّن الرسولﷺ فيها بعض السُنَن، منْ خلال التحذير من المُهلكات . وفي ذلك تنبيهٌ للإنسان المسلم وللأمة الإسلامية وفيه تحذيرٌ حتى لا تقع الأمة في هذه المُهلكات، وإلاَّ أصابها ما أصاب السابقين، فالسنة الإلهية لا تتخلّف عن فرد أو جماعة أو أمة، والأمة الإسلامية ليست استثناء من ذلك، فهناك ارتباط وثيق بين أعمال الإنسان ومصيره، كارتباط النتيجة بالسبب.

ولكي يُبصِرَ الإنسانُ النتائجَ، ويرى شواهدَها على أرض الواقع، فقد أمَرَ القرآنُ بالسَّيْرِ في الأرض، لِيَنظُرَ في عواقب ما فعلته الأمم السابقة، ويأتي ذلك من باب التأكيد للإنسان على الارتباط الوثيق، بين الأعمال والنتائج، وأنَّ كلَّ ما يحدث للإنسان، فرداً أو جماعةً أو أمةً، له أسباب، وهذا هو منطق القانون والسنة الإلهية، التي تسير الحياة بموجبها . " وعلى الإنسان أيّاً كان موقعُه أنْ يستفيدَ من دروس التاريخ البليغة، فالنُظُم التي تسير بموجبها الأمم، صعوداً وهبوطاً، قوّةً وضعفاً، تقدُّماً وتأخُّراً، ليست عَبَثاً أو صُدْفةً، وليست لَعِباً أو لهواً! لأنَّ هناك نظاماً وقانوناً وسُنَناً يُمكنُ التعرُّف عليها، والاستفادة منها، وتسخيرها، من خلال النظر والاعتبار، كما أمر القرآن الكريم، وكما بيَّنَت السنة النبوية، والأمر منوطٌ بالأمة، أيَّةِ أمة، فَبِقَدْرِ ما تُحْرِزُ تلك الأمة مِنْ فَهْمٍ أكبر لتسخير " السُنَن الكونية"، والاستفادة منها، وتطبيق دقيق لها تتبوَّأ مكانتها . فإذا وَقَعَ خَلَلٌ ونقْصٌ في الفهم والتطبيق، كانت العواقب سيئة، وتزداد سوءاً كلَّما اشتدَّ الخَلَلُ والنقص في الفهم والتطبيق" [٣٤٢] .

وهذه هي حقيقة الإيمان (القَدَر) الذي يؤمنُ به كلُّ إنسانٍ مؤمن، ولا يَخرجُ شيءٌ من ذلك عن المشيئة الإلهية، ومِنْ هنا فإنَّ الإنسانَ المؤمنَ، يوقِنُ أنَّ الحياةَ الدنيا والحياةَ الآخرة، لا يتحقَّق للإنسان فيها مُرادُه بالأماني، بل لا بد من العمل والسعي، حتى يتحقق للإنسان مُرَادُه. لذلك لا يُتوقَّع من أيِّ إنسانٍ عاقل، لديه إدراكٌ سليمٌ لِسُنَن الحياة ـ إذا أراد النجاحَ والتفوُّقَ والسعادة والنجاة

---

[٣٤٢] ابن الوزير، دراسة في السنن الإلهية والمسلم المعاصر. ص٨ .

- أنْ يسلك طريقاً لا يعملُ فيها، ولا يأخذُ بالأسباب، لأنَّ تحقُّقَ النتائج لا يكون بالأمنيات، وتَرْكُ العمل، والاعتمادُ على الأماني ضَرْبٌ من الخيال. وتخيُّل الأشياء وتمنِّيها لا يجعلها حقيقة .

وكذلك لا يُتوقَّع من الإنسان المسلم خاصةً، أنْ يتجاهلَ هذه السننَ التي تحكم الحياة، فالأعمالُ الصالحةُ لها جزاؤها الحسنُ في الدنيا والآخرة، والجزاءُ عليها في الأخرة شرْطُهُ الإيمانُ بالله تعالى، وإخلاصُ النية . وكذلك الأعمال السيئة يُجازى عليها الإنسان سواء في الدنيا أم الآخرة، مصداقاً لقوله تعالى: { **لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ وَلاَ يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللّهِ وَلِيّاً وَلاَ نَصِيراً** } [٢٤٣] ، فهذا الربطُ بين العملِ السيئ والجزاءِ عليه بما يناسبه، تأكيدٌ لِجَرَيانِ الحياة في الأمور كلِّها وِفْقَ السنن والقوانين الإلهية . وبالتالي فإنَّ الناس بما أنهم مختلفون ومتفاوتون في الاجتهاد والسعي، فلا بد من الاختلاف والتفاوت في الأجر والجزاء، فلا يُعقل أن يستوي المحسن والمسيء، والعامل وغير العامل .

فعندما يُبيِّنُ الحديثُ النبويُّ أنَّ الإنسانَ تقعُ عليه المسؤولية، وأنَّه سيُحاسَبُ يوم القيامة، عمَّا استرعاه الله إياه، باختلاف المسؤوليات من إنسان إلى آخر، ولا يخلو إنسان من مسؤولية أبداً، فالأمر شامل للجميع، باعتبار أن الجميع مأمورون بالقيام بحق الله وحق عباده،حيث قال رسول الله ﷺ :" **كُلُكُم رَاعٍ، وكُلُكُم مسئولٌ عن رَعيَّتِه، الإمامُ راعٍ ومسئولٌ عن رعيَّتِه، والرَّجُلُ راعٍ في أهلِه وهو مسئولٌ عن رعيَّته، والمرأة راعيةٌ في بيت زوجِها ومسئولةٌ عن رعيَّتها، والخادم راعٍ في مال سيِّده ومسئولٌ عن رعيَّته** "[٢٤٤]

وبما أنَّ الحديث النبوي قد بيَّن أنَّ كلَّ إنسانٍ مسئولٌ، وهو مسئولٌ عن نتائج أعماله وأفعاله. ولو لم يكُنْ الارتباطُ وثيقاً بين الأسباب والنتائج في أعمال الإنسان وأفعاله، لَمَا كان الإنسانُ مسئولاً عن أعماله وأفعاله، وهي مسئوليةٌ اختياريةٌ حُرَّةٌ، يتحمَّلُ فيها ما أصاب فيه أو أخطأ، سواء كانت المسئولية في الدنيا أم في الآخرة .

وفي الحديث النبوي ما يمكن ملاحظته، من حيث الارتباط الوثيق، ما بين التزام الإنسان بما يجب عليه من الناحية الشرعية - والذي يتحقَّقُ به قيام الإنسان بالمسئولية الواجبة عليه بالصورة الصحيحة - وما بين السنن الكونية، فالأحكام الشرعية وجميع السنن التشريعية، التي جاء بها الرسل، مُكمِّلة " لِسُنن الفطرة" و" لِناموس الكون" ومنسجمة معهما، فمن خلال الالتزام بهذه

---

[٢٤٣] سورة النساء، الآية ١٢٣.

[٢٤٤] سبق تخريجه ص ١٧٠، أخرجه البخاري .

الأحكام، يكون الإنسان المسلم قد عصم نفسه من التيه والضلال، لأنّه بهذا الالتزام يكون مراعياً للسنن الكونية [345] .

وفي حديثٍ نَبَويٍّ آخرَ، يُبيّنُ رسول الله ﷺ هذا الأمر: أي الارتباط بين السبب والنتيجة. وقد يكون من قام بهذا العمل فرْدٌ واحد، ولكنّ الجزاء واقعٌ، وقد يقع عليه وعلى غيره، وذلك عند حصول الإهمال أو التقصير، سواء في الأمور المادية أم المعنوية . وهو يدلُ على الارتباط الوثيق في المصير، بين الفرد والجماعة والمجتمع. فالحديث يُبيّن سبب النجاة، وسبب الهلاك، فإنْ لم يتم تدارك الأمر، بِكَفّ من يُريد أحداث الفساد في السفينة، هلكوا جميعاً، فهنا بيّن السبب ونتيجته المتوقعة، وهذا البيان مبني على توضيحٍ لِسُنّة كونية في هذا المجال، فإنْ تمّ توقّي سبب الهلاك، كُتِبت النجاة لهم جميعاً، كما ورد بيانه في الحديث الآتي : **" مثل القائم على حدود الله كمثل قوم استهموا على سفينة... "** [346] .

حيث يُبيّن الحديثُ النبويُّ الارتباطَ بين السبب والنتيجة، كَسُنّةٍ كونية في الأمور المادية، وفيه دلالة على جَرَيان مثل هذه السنن الكونية في الأمور المعنوية كذلك، حيث شبّه الرسولﷺ حال المجتمع البشري بالسفينة، من حيث إنّ ما يجري من السنن في عالم المادة، ينطبق أيضاً على النظام الاجتماعي في المجتمعات والأمم . وأنّ ما تُحْدِثُه عواملُ الفساد من أضرارٍ في المجتمعات، والعواقب السيئة لوجود الفساد وانتشاره في المجتمع، كلُّ ذلك يُبَيّنُ ارتباط النتائج والعواقب بالأسباب، ومعنى ذلك أنّ ما يَحدث للمسلمين أو لأي مجتمع بشري، لم يكن صُدفة أو عَبَثاً، فعلى الإنسان أن يتذكّرَ قوله تعالى: **{ أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَـٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ }** [347] .

ومن هذا الحديث النبوي، يُدرِكُ الإنسانُ أنّه تُوجدُ سُننٌ وقوانينُ كونيةٌ، إنْ التزمَ الإنسانُ بها ولم يخالفها، نجا من الهلاك وأنقذ نفسه ومن معه، وإنْ خالفها وتجاهلها وقع في مشاكل وأزمات. إنّ أيَّ افتراض بعدم وجود قوانين لأيّة مشكلة أو أزمة، أو محاولة الالتفاف على الأسباب الحقيقية للمشكلة أو الأزمة، لن يوصل إلى أيّة نتيجة .

---

[345] ابن الوزير، دراسة في السنن الإلهية والمسلم المعاصر. ص١٠ـ١٢.

[346] سبق تخريجه ص ١١٥، أخرجه البخاري.

[347] سورة آل عمران، الآية ١٦٥

فهذا الإنسان الذي يريد أن يُحدث ثُقباً في السفينة، إنْ تُرِكَ ليفعلَ ذلك، ولم يُؤخذْ على يديه، هَلَكَ وأهْلَكَ من معه . ومحاولته تجاهل القانون(السنة الكونية)، لن يمنع وقوع المشكلة، ومَنْعُها لا يكون إلا بمراعاة هذه السنة الكونية . وفي الوقت نفسه، "فإنَّ من يعلم أنَّ المشاكل خاضعة للسنن، ويمكن كشفها، يتَّسم سلوكه بالإيجابية، والإقبال على العمل بجد، بينما يظل الآخر، الذي أنكر أو جهل السنن في حيرة، وإذا بدأ يعمل، يمكن أن يتركه في منتصف الطريق، ويمكن أن يصرفه عنه أيُّ صارفٍ تافه،... وكلما تعوَّد الإنسان التعامل مع السنن، ازداد ثقة وطمأنينة . والإنسان الذي يواجه مشكلة، ويعتقد بإمكان حلها، هو إنسان يؤمن بالتغيير"[٣٤٨]

وهذا المَثَل النبوي هو تشبيه دقيق لسفينة المجتمع الإنساني الذي يعيش فيه البشر، فكما أنَّ هناك قوانين وسنن تحكم عالم المادة، فكذلك الأمر في عالم الاجتماع البشري،وهو يؤكد التشابه بين المادة والحياة والمجتمع، من حيث خضوع كل منهما للسنن [٣٤٩] .

وهذا الحديث أيضاً، فيه دلالة على أنَّ المشكلات التي تعانيها المجتمعات البشرية لها أسباب، فعدم الاعتراف بوجود ارتباط بين المشكلة وأسبابها الحقيقية، يُعدُّ مانعاً كبيراً للسيطرة على المشكلة، والتحكم بها وإزالتها، مما يمهد الطريق للآخرين الذين يريدون شراً بأُمَّتِنا لافتعال الأزمات والمشاكل، من خلال إلمامهم الدقيق بالقوانين الصحيحة التي تسير عليها الأمم في حياتها، وهو ما جعل هذه الأمة ألعوبة بيد أعدائها .

ومنْ الأحاديث النبوية التي جاء فيها بيان للسُنَن الكونية، وجريانها على الأحوال الاجتماعية للبشر عموماً،قولهﷺ:" **إنَّ المؤمنَ لِلمؤمنِ كالبُنْيانِ يَشُدُّ بَعْضُه بعضاً، ثُمَّ شَبَّكَ بين أصابِعه** " [٣٥٠]، بحيث يعلم المسلم أنَّ ما يحكم البناء القوي المتماسك في قوته وإحكامه وشدته، بموجب القواعد والقوانين، من ضرورة الشد والتراص، هو عينه الذي ينبغي أن يكون في العلاقة الاجتماعية بين أفراد المجتمع حتى يكون مجتمعاً قوياً، بحيث لا يكون أي مجال للوقيعة والدس بين أفراده، ولا مجال لزرع بذور الفتن والاختلاف بينهم .

ففي هذا الحديث، ذَكَرَ الرسولُ ﷺ المَثَلَ الماديَّ، وقَرَنَ به المَثَلَ الاجتماعيَّ، حيث إنَّ معرفةَ السُنن التي تَشُدُّ البُنْيانَ بعضَه إلى بعْض، هي التي تُمَكِّنُ مِنْ بِناءٍ يبقى على مَرِّ الزمان . إنَّ

---

[٣٤٨] جودت سعيد، حتى يغيروا ما بأنفسهم . ص٢٦ ـ ٢٧ .

[٣٤٩] جودت سعيد، حتى يغيروا ما بأنفسهم . ص٢٣ .

[٣٥٠] سبق تخريجه ص ١٣٨، أخرجه البخاري.

مهندس البناء هو الذي يعرف قوانين البناء المتماسك، ويعرف أسباب تداعي البناء وخطورته وعلاجه، كذلك فإنَّ مهندس بناء المجتمع، إذا نظر في أحوال المجتمع يعرف مواطن القوة والضعف في المجتمع وأسبابها. [٣٥١]

فالغاية من معرفة هذه السنن التي تحكم الحياة، هو العمل بها، لأنها تأخذ بالمجتمعات إلى تحقيق النهضة والرقي، ومن خلال ذلك تسود هذه الأمم، وتسود معها أخلاقياتها وعقائدها ومبادؤها . فارتباط الأمة في مسيرتها بالمنهج الإلهي في عمارة الكون، يضمن لها دوام السيادة والريادة، فإن تخلّت عن ذلك، نزل بها ما ينزل بالأمم الأخرى، فهذه الأمة ليست بدعا في ذلك، فإن منطق السنة الكونية لا علاقة له إلا بحلول الأسباب، فتحلُّ معه السنة الكونية، وترتبط به ارتباط النتائج بأسبابها [٣٥٢].

---

[٣٥١] جودت سعيد، حتى يغيروا ما بأنفسهم . ص٢٤ .

[٣٥٢] الجليند ، بحث " المسلمون وفقه السنن الإلهية ..." . ص٤٨

المطلب الرابع

ارتباط الجزاء بالعمل

فيما سبق، تمّ بيان الارتباط الوثيق بين الأسباب والنتائج، من خلال الحديث عن جَرَيانِ السنن الكونية في عالم المادة، وكذلك جَرَيانها بالطريقةِ عينِها في المجتمعات والسنن، حيث وردت أحاديثُ نبويةٌ، فيها تشبيه للمجتمعات والأمم - من ناحية القوانين والسنن التي تحكمها - بأشياء مادية محسوسة: كالسفينة والبناء، للتأكيد على الارتباط بين الأسباب والنتائج.

وبما أنّ الحياةَ الدنيا تسير وِفْقَ قوانينَ وسننٍ إلهيةٍ تَحكمُ هذا الوجود، لذلك ينبغي على الإنسان المسلم، أن ينطلق في حياته وفق هذا الإدراك، بحيث يعلم أن من مقتضى العدل الإلهي المُطْلَق، أنّ كلَّ إنسانٍ يُجازَى على عمله . وما يحصل للإنسان مِنْ نتائجَ وعواقبَ، إنّما جاء بناء على أسباب ومقدمات مِنْ صُنْع الإنسان نفسِه .

لذلك إذا أرد الإنسانُ إصلاحَ حالِه ومآلِه، في الدنيا والآخرة، فعليه من الأعمال بصالحها، فإذا انتكس في عمله ومسعاه، فلا يُتوقَّع له صلاحُ حالِه، فالجزاء مرتبطٌ بالعمل، سواء في السعي في الدنيا، أم في الآخرة ، قال تعالى : **{ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ{٧} وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ{٨}**[٣٥٣].

" وبما أنّ الله - تعالى - كرَّم الإنسانَ فلم يجعله " شيئا " مُسيَّراً، بل جَعَلَه كائناً فعَّالاً، مُريداً، قادراً على اختيار أحد الطريقين: إما طريق الهدى وإما طريق الضلال. وفى مقابل ذلك صار يتحمّلُ تَبِعَةَ أعماله وأفعاله، وصار ما يَحْدُثُ له في الدنيا، إنّما هو نتيجةٌ لأعماله، حسب سنن مقررة بيَّنها الله له. وقد مُنِحَ الإنسانُ القدرةَ لكي يُدركها ويفهمها، وضُرِبَتْ له الأمثالُ لأجْلِ بيانها، وبيانِ عواقبِ إهمالِها، لكي يهتدي على ضوئها، ويضبط مساره بمقتضاها " ٣٥٤

ومن هنا فإنّه يعلم أنّ وقوع الأمر بِقَدَرٍ من الله تعالى، لا يُخْلِيه من مسئوليته عن أعماله حين يخطئ أو يُسيءُ التقدير.

---

٣٥٣ سورة الزلزلة، الآيتان ٧ - ٨ .

٣٥٤ محمد قطب، واقعنا المعاصر . ص ١١٥-١١٦ .

وفي الحديث عن الرسول ﷺ أنه قال : " الكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَه وعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الموتِ، والعاجزُ من أَتبَعَ نفسَه هواها، وتمنَّى على الله الأماني" [٣٥٥] ، فهذا الحديث فيه بيان أنَّ محاسبة الإنسان لنفسه في الدنيا، قبل أنْ يُحاسَب في الآخرة، هو ما يتحقَّقُ به وصف الإنسان بالكياسة والفطنةُ، وإنَّما أخذ الإنسان هذا الوصف، لأنَّه أدرك أنَّ الجزاء مرتبطٌ بالعمل، فَحَاسَبَ نفسه قبل أنْ يحاسَب . وأمَّا من أغفل هذا الأمر، بحيث لم يعتبر بارتباط الجزاء بالعمل، فقد وُصِفَ بالعجز، لعدم إدراكه لهذا الأمر، حيث أقام واقعَه ومستقبلَه على الأماني التي لا تفيد شيئاً، وترَكَ العمل .

وفي حديثٍ نَبَويٍّ آخرَ، يُبيِّنُ رسول الله ﷺ هذا الارتباط بين العمل والجزاء، وهو مِنْ ناحية أخرى، مرتبط بالسنن الكونية، فإذا قام بالعمل بما يتوافق والسنن الكونية، كانت عاقبته حسنة، وجزاؤه حسنا . أمَّا إذا قام بعمل يخالف السنن الكونية، كانت عاقبته سيئة، وجزاؤه سيئاً . وتعليل ذلك: أنَّ الإنسان بالتزامه بالأحكام الشرعية في أعماله وتصرفاته، يكون في الحقيقة منسجماً مع السنن الكونية، وذلك لأنَّ الحق سبحانه ما أمر بشيء إلاَّ وكان فيه مصلحة الإنسان ومنفعته في الدنيا والآخرة، وما نهى عن شيء إلا وكان فيه مفسدة للإنسان. وقد ورد بيان ذلك وتوضيحه في الحديث الآتي:"مثل القائم على حدود الله كمثل قوم استهموا على سفينة." [٣٥٦]، فعندما شبَّه الحديث النبوي حال المجتمع بالسفينة، فقد بيَّن أن الالتزام بحدود الله تعالى، وعدم التعدي عليها، فيه حفظ للمجتمع وصيانته من الهلاك . والهلاك سُنَّةٌ كونية، وهي عاقبة أي مجتمع طغى فيه الفساد، ولم يكن هناك مجال للإصلاح فيه. أي أنَّ مخالفة أمر الله وشرعه، نتيجتها الفساد، الذي إنْ حلَّ بالمجتمعات أهلكها .

وقد ورد توضيح ذلك والتصريح به ،عن النبي ﷺ حيث قال : " **دعوني ما تركتكم ، فإنَّما أهلكَ مَنْ كان قبلَكم سؤالُهم واختلافُهم على أنبيائهم ، فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه ، وإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم** " [٣٥٧] ، حيث أمرهم باجتناب ما نهاهم عنه، وبِفِعْلِ ما أمرهم به، فإذا خالفوا ذلك، كانت مخالفتهم له، سبباً لهلاكهم، حيث أخبرهم ، أنَّ سبب هلاك من قبلهم، سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، وعدم التزام أمرهم .

---

٣٥٥ سبق تخريجه ص١٠٩، أخرجه الترمذي

٣٥٦ سبق تخريجه ص ١١٥، أخرجه البخاري.

٣٥٧ البخاري، صحيح البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة ، باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ ١٤٢/٨ .

المطلب الخامس

الدعوة إلى البحث والتفكر وطلب العلم

بما أنَّ الحياة تسير وفق قوانينَ وسننٍ أودعها الله تعالى فيها، فذلك معناه أنَّ هناك نظاماً دقيقاً يحكمها، عن قصد وإرادة، فالأمر بعيد عن الفوضى والعشوائية. والعلمُ بهذه السنن مفتاحُ التقدُّم ، ومِنْ سُنَّةِ الله في خلقه ارتباطُ الأسباب بنتائجها؛ فاكتشاف القوانين، وإدراك العلاقات، وتوظيف العلم لصالح الإنسان، هو الطريق لتحقيق النهضة . والعلم أداة ضرورية من أدوات عمارة الأرض، والسعي وراء الرزق، والاستخلاف في الأرض .

وهذا أمْرٌ يحتاج من الإنسان السعي والبحث، لاكتشاف تلك السنن والقوانين التي تحكم الحياة، ولذلك أمَرَ الحق ـ سبحانه وتعالى ـ بالسعي في الأرض، والسير فيها، للنظر والاعتبار، من خلال ما قصَّه من أخبار الأمم السابقة . وهو ما يجعل الإنسان في حاجة لإعمال عقله في التفكر وطلب العلم . والأمر لا يقتصر على الاعتبار بأحوال الأمم السابقة، لئلاً يُصيبنا ما أصابها من الهلاك والفساد والظلم .

فالنظر إلى المستقبل يتطلَّب من الإنسان، أنْ يتفكَّر ويتدبَّر فيما ذكره القرآن الكريم من الحقائق العلمية، في مجالات الحياة المختلفة، مما فيه معايشُ الإنسان وتقدمُه وتطورُه، من خلال تسخير تلك السنن والقوانين لتشكيل مستقبل الإنسانية من الناحية الحضارية والحياتية .

والعمل الصالح هو عَمَلٌ قائمٌ على العلم، وليس على الظن أو الوهم أو الخيال . ومتى كان العمل صادراً عن العلم الصحيح، كان عملاً صالحاً مؤدِّياً إلى السعادة . والذي يحرك إرادة الإنسان إلى الخير هو العلم الصحيح، وهو الأساس الأول عند ممارسة الحياة، فإذا افتقد الإنسان هذا التوجه إلى الخير والعمل النافع، فَسَبَبُ ذلك أنَّ ما عنده هو ظنٌ أو وهْمٌ، وليس عِلْماً صحيحاً، والظن والوهم لا يصلح أن يكون أساساً لممارسة الحياة.

فكما أنَّ العلمَ الصحيح هو حافزٌ للإنسان على العمل، حيث لا يتَّعظُ بالعلم، ولا يتأثَّرُ به تأثُّراً يبعث على العمل، إلا أصحابُ العقول الخالصة من الشوائب، وكذلك فإنَّ العلمَ هو الدليل والبرهان، الذي لا يحكم العقل السليم إلاَّ به، ومتى حكم العقل بذلك جزم، فأمضى، وأبرم.

فكُلُّ حكيمٍ، عليمٍ، عاملٍ، مَصْدرٌ للخيرِ الكثيرِ . وهذه هي الحكمةُ التي لا تُؤتى إلاّ لأولي الألباب. [358] ولذلك قال الحق ـ سبحانه ـ : **{ يُؤتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ }** [359]

وبقدر ارتقاء العقل في العلم والعرفان يَكْمُلُ التوحيدُ في الإيمان . فإنّما يشرك بالله أقل الناس عقلاً وأكثرهم جهلاً . وقد حثَّ القرآنُ والسنةُ الإنسانَ المسلمَ على النظر في الكون، لِتَصِلَ إلى الوقوف على الحقائق العلمية والسنن الكونية، لأنَّ هذا النظر هو الذي يوصلنا إلى الحقائق العلمية التي تثري فهمنا للآيات القرآنية . والآيات القرآنية والآيات الكونية، كلتاهما مكمّلتان لبعضهما في الدلالة على وحدانية الخالق سبحانه . " ومِنَ التَبيِّنِ أنَّ الحقائقَ العلميةَ بلغَتْ مِن الثراء في العلم الحديث ، ما تكونُ به مصدراً لا ينفدُ ، للاستدلال على حقائق العقيدة ، وهو مصدرٌ مُتجدِّدٌ بنمو الاكتشافات لقوانين العلوم ، ففي كل قانونٍ جديدٍ دليلٌ جديد ، على تلك الحقائق ، ... وهذا القول يَصْدُقُ في حق المسائل العَقَديةِ النَّظريةِ ، كما يَصْدُقُ في حق المسائل التشريعية العملية ، من جهة إثبات حقّانيتِها " [360]

ووصولاً إلى هذه الحالة، فإن الأحاديث النبوية قد جاءت تحث على العلم وترغّب فيه، لأنّه من خلال طريق العلم، يستطيع الإنسانُ المسلمُ أنْ يقوم بالعمل الصالح، ويُحقّق معاني الخير التي جاء بها هذا الدين . وبه يتعرّفُ على السنن الكونية، والتي على أساسها ترتفع المجتمعات وتنخفض، وعلى أساسها يكافئ الله ويعاقب، وعلى البشر أنْ يتفهّموا هذه السنن، حتى ينالوا رحمة الله، ويبتعدوا عن نقمته. فإذا حقّق الإنسانُ المسلمُ المطلوبَ منه، سهّلَ الله له بالعلم الصحيح، طريق الجنة، كما قال رسول الله ﷺ : **" ما مِنْ رجلٍ يسلُكُ طريقًا يطلبُ فيه علمًا إلاّ سهّل الله له به طريقَ الجنة "** [361].

ولا يقتصر الأمر فقط في التوجيه النبوي للإنسان المسلم، على الحثّ على طلب العلم والترغيب فيه، بل تعدّاه ليجعلَ ذلك فريضة واجبة على كل مسلم، قال رسول الله ﷺ **:" طلب**

---

[358] رشيد رضا، محمد، تفسير المنار، دار المنار، ط٢، القاهرة، ١٣٦٦هـ ١٩٤٧م. ٧٥/٤

[359] سورة البقرة، الآية ٢٦٩ .

[360] النجار، عبد المجيد ، " في فقه التدين ، فهما وتنزيلا " . ٥٥/٢

[361] أبو داود، السنن، كتاب العلم، باب الحث على طلب العلم (٣٦٤٣) . قال المنذري: أخرجه الترمذي وقال: حسن صحيح. ص٤٠٣

العلم فريضة على كل مسلم " [٣٦٢] ، وما جعلَ رسولُ الله ﷺ طلبَ العلم فريضةً على كل مسلم، إلاَّ لأنَّ حياةَ المسلم، ومصيرَه في الدنيا والآخرة، يتوقَّفان على العلم الصحيح، المحرِّك لإرادة الإنسان في العمل الصالح، الذي به صلاح الإنسان في الدنيا والآخرة . والعلم بهذه الصورة يُعدُّ نشاطاً إنسانياً، وهو جزءٌ من منهج العبادة المتكامل – منهج العبادة بمعناها الواسع – يأخذ مكانه في ذلك المنهج .

والمقصود طلب العلم بمعناه الواسع، ليشمل كلَّ علم، ومنها العلوم النافعة المفيدة للإنسان في حياته، والتي بها تتقدم الأمم، وبها تشقُّ طريق نهضتها وهذا مما لا شكَّ فيه، حيث إنَّ هناك علوماً نافعة ومفيدة ـ غير علوم الدين ـ يجب على الإنسان تعلُّمها، والاستفادة منها في حياته، لينفع بها نفسَه وأمته، وهي تدخل في الفروض الكفائية، وإنْ كان صلاحُ الإنسان وسعادتُه في الدارين، لا يتحقَّقُ ذلك كلُّه إلا بما وجب عليه تعلُّمُه من علوم الدين .

وحتى لا ينحرف هذا العلم عن غايته ومقصده، فقد حذَّر الرسول ﷺ من اتخاذ العلم طريقاً للمماراة أو المباهاة أو طلب الشهرة والمكانة عند الناس، حيث قال : **"من طلب العلم ليماري به السفهاء، أو ليباهي به العلماء، أو ليصرف وجوه الناس إليه، فهو في النار "**[٣٦٣] وقد بيَّن أنَّ النارَ مصيرُ مَنْ فعلَ ذلك، فما استحقَّ الفاعلُ هذا الجزاء، إلاَّ لأنَّه أفسد العلمَ بهذه الغايات الشخصية، ولعلَّ هذا المصير لِمَنْ فعل ذلك، مِمَّنْ طلب العلم، لا يقتصر على عِلمٍ بعينه، أو علوم محدَّدة، بل هو شاملٌ وعامٌ لكل من طلب العلم، وكانت هذه غاياته . ولكنْ وَرَدَ تخصيص هذا الجزاء بِمن تعلَّم العلوم الدينية الشرعية، وهي التي يُبتغى بها وجه الله تعالى، ولا بُدَّ فيها من إخلاص النية لله تعالى، وهذا ما ورد في قوله ﷺ: **" من تعلَّم علمًا مما يُبتغى به وجه الله، لا يتعلَّمُه إلاَّ لِيُصيبَ به عَرَضًا من الدنيا، لم يجدْ عَرْفَ الجنةَ يوم القيامة "** [٣٦٤]

ولعلَّ فَصْلَ العلم عن بقية حياة الإنسان، وجَعْلَه شيئاً قائماً بذاته، هو انحرافٌ بالعلم عن غاياته ومقاصده، وذلك عندما رُفِعَ شعارُ " العلم للعلم " كما تصنع الجاهلية المعاصرة بصفة خاصة.

---

٣٦٢ ابن ماجة، محمد بن يزيد القزويني،السنن مع شروحها، تحقيق رائد صبري، بيت الأفكار الدولية، ط١، الأردن، ٢٠٠٧م. المقدمة ، باب فضل العلماء والحث على طلب العلم ، حديث ٢٢٤، ٨١/١ . وقد صححه الألباني في " صحيح سنن ابن ماجة " ٤٤/١ .

٣٦٣ الترمذي، الجامع الكبير، كتاب العلم، باب فيمن يطلب بعلمه الدنيا، حديث(٢٦٥٤)، وقال: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وإسحاق بن يحيى بن طلحة ليس بذاك القوي عندهم تُكلم فيه من قبل حفظه . ٤/ ٣٩٢ .وقال البوصيري: ورواه ـ أي الترمذي ـ أيضاً من طريق ابن ماجة بلفظ: " من تعلم علماً لغير وجه الله، أو أراد به غير الله فليتبوأ مقعده من النار". وقال حسن غريب .إ.هـ ثم قال البوصيري: وإسناد ابن ماجة يضعف . البوصيري، زوائد ابن ماجة على الكتب الخمسة، حديث(٧٨) ص ٦٦ .

٣٦٤ ابن ماجه، السنن، المقدمة، حديث (٢٥٢) . ص ١٦٩ . وصححه الألباني. الألباني، صحيح سنن ابن ماجة ٩٩/١-١٠٠

ومِن الانحراف بالعلم أيضاً، جَعْلُ نشاطِه مُضاداً لبقية اتجاهات الفطرة ومُعاكِساً لها، ولبقيةِ الحاجات النفسية والحيوية، كما صنعت الجاهلية المعاصرة، حين فصلت العلمَ عن الدين، ووضعتْهما موضع التقابل والتضاد، فكان شعار هذه الجاهلية: أنْ مَنْ أراد العلم فلْيَتْرُكْ الدين، وأنَّ مَنْ أراد الدينَ فلْيَتْرِكْ العلم! [٣٦٥] . إنَّ العلم بهذه الصورة، حيث تَمَّ الفصلُ القسري، بين الدين والعلم، لا يمكن أنْ يُحقِّق للإنسان سعادته، ولا للأمة نهضتها، وذلك لأنَّه تَمَّ افتعال التصادم والتعارض، بين السعي للعلم، والالتزام بالدين، مما أوجد واقعاً إنسانياً يتصف بالارتباك والتشويش .

٣٦٥ محمد قطب ، واقعنا المعاصر . ص ٩١.

الخاتمة والتوصيات

أهم النتائج التي توصلْتُ إليها من خلال الدراسة، وهي على النحو الآتي:

- إنَّ نشأة بعض أسباب الأزمة التي يعاني منها العقل المسلم حالياً، قديمة ترجع إلى العصور الأولى لهذه الأمة، وذلك بعد التحوُّل عن مرحلة النبوة والخلافة الراشدة، التي تميَّزت بالمرجعية المستندة إلى القرآن والسُّنَّة النبوية،والانتقال إلى مرحلة الملك بشتى صوره، والتي كانت انقلاباً كاملاً عن المنهج النبوي .

- إنَّ السبب الرئيس لهذه الأزمة هو الافتراق بين السلطان والقرآن، واتباع الناس مناهج غير المنهج الرباني والقرآني في الحياة، حيث كان لتعدُّد المناهج المتَّبعة في قيادة الأمة وتناقضها، دورٌ هامٌ في تطوُّر الأزمة التي تعانيها الأمة الإسلامية، نتيجة لما أفرزته تلك المناهج من عوامل الفرقة والاختلاف والتناحر بين أفراد الأمة وكياناتها المختلفة .

- من الضرورة بمكان إعادة التربية الإيمانية للأمة الإسلامية، حيث إنَّ رُكْنَيْ (الإيمان بالله وباليوم الآخر) يُعدَّان أهم أركان الإيمان، من حيث تأثيرهما في حياة الإنسان المسلم والتزامه، وهذا الجانب مهم لاستقرار وسعادة الإنسان، وبهما يمتلك المسلم وحدة الهدف والغاية .

- إنَّ ضعف الوازع الديني هو السبب الرئيس لظهور الفساد وانتشاره، حيث غُيِّبَ (الإيمان باليوم الآخر) عن العقول والتفكير، وهو ما دفع الإنسان إلى تسيير حياته كما يشتهي، دون مراعاة للشريعة أو الأخلاق أو القيم، وهو ما أوجد حالة التناقض الشديد بين واقع المسلمين وبين شريعة الإسلام .

- من الضرورة بِمَكان إعادة تصحيح المفاهيم، وبيان الأسس التي يقوم عليها التصوُّر الإسلامي الصحيح لهذا الوجود، ودور الإنسان المسلم فيه؛ لكي يقوم العقل المسلم المعاصر بالدَّوْر المطلوب منه في هذه الحياة، تحقيقاً لرسالة الإسلام وأهدافه، حيث إنَّ الأعمال والسلوكيات تنطلق بداية من التصوُّر الذي يتبنَّاه الإنسان، ومن هنا فإن الواجب على علماء التربية إعادة صياغة المناهج المدرسية بصورة تقرِّب وتوضِّح المفاهيم الدينية المتعلقة بالجانب الاعتقادي .

- إنَّ الإصلاح الاجتماعي يُعدُّ الجانب الأهم في إصلاح الأمة والمجتمع، وبه يمكن إعادة الأمة إلى قوتها ومكانتها، وهو الأساس لكل جوانب الإصلاح الأخرى في المجتمع، ويشهد لذلك أنَّ الأحاديث النبوية تحدثت في مجموعها وغالبيتها عن هذا الجانب، وفي هذا السياق لا بد من تضافر الجهود وتعاونها وتكاملها، وبخاصة في الجوانب التربوية والتعليمية والإعلامية في إيجاد منظومة للإصلاح الاجتماعي .

- إنَّ غياب الجانب السُّنَني (ربط النتائج بالأسباب والمقدمات) في حياة كثير من المسلمين، له نصيب كبير في استمرار أزمة العقل المسلم المعاصر، حيث صار كثير من المسلمين يلتمس

وجود القائد الملهم الذي يستطيع أن يُعيد للأمة مجدها وعِزَّها، ويتصوَّرُ أنَّ ما يجري في هذه الحياة هو من خوارق العادات، لا مجال للتأثير فيه أو تغييره أو تسييره .

- إنَّ بداية الخروج من الأزمة يكون بالتغيير الداخلي (التغيير بالأنفس) حتى يحدث (التغيير الخارجي)، ولا بد أن يكون التغيير جماعياً على مستوى المجتمع والأمة وليس على مستوى الأفراد فقط .

- إنَّ من أبرز أسباب فَشَل محاولات الإصلاح وإنقاذ الأمة من أزمتها، اللجوء إلى حُلُولٍ مستوردة قائمة على فِكْرٍ مُتناقضٍ مع الإسلام وتصوُّره للحياة، مما تسبَّبَ في هدر الطاقات، وضياعها هباء،بلْ واستفحال الأزمة . لذلك فإنَّ الواجب يقتضي أنْ تكون الحلول المطروحة لحل الأزمة والخروج منها مُنطلَقُها هو الإسلام، انسجاماً مع عقيدة هذه الأمة، أما الحلول المستوردة فلا بد من تقييمها ودراستها لبيان مدى انسجامها واتفاقها مع الشريعة الإسلامية، قبل الشروع في تطبيقها في المجتمعات الإسلامية .

- إنَّ التقليد ومحاكاة الآخرين وبخاصة التقليد والتشبه باليهود والنصارى، قد ترك أثراً خطيراً على هذه الأمة في شتى الميادين، وكان عاملاً أساسياً في زيادة حالة التخبُّط والضياع، واستمرار حالة التأزُّم، نتيجة الشعور بالدُّونية مقابل الغرب المتطوِّر .

- إنَّ في مجموع الأحاديث النبوية الواردة عن الرسول ﷺ منهجاً مُتكاملاً وشاملاً مُفصَّلاً ينبغي على المسلمين - وبخاصة أصحاب الرأي والفكر والحُكم - الأخذ به، وتبنّيه في الحياة العملية للفرد والمجتمع، لتحقيق النهوض والارتقاء لهذه الأمة، تستطيع أنْ تستغني به عن كثير من المناهج الفاسدة، والتجارب الفاشلة؛ بِشرْط وجود الإرادة الجادة، والإخلاص لله تعالى.

- إنَّ من الواجب على علماء الشريعة، وبخاصة المختصين في الحديث النبويِّ وعلومه، إبراز الكنوز والمعارف التي تحتويها الأحاديث النبوية في طيَّاتها، وإظهارها بلُغة أهل العلم والعصر، من غير أن تكون بعيدة عن الواقع الذي تعيشه هذه الأمة .

- حِرْصُ الإسلام في دعوته وفي تشريعاته وأحكامه على إنسانية الإنسان حيثما كان، انسجاماً وتأكيداً لعالمية الإسلام، وهذا بُعدٌ ينبغي لكل مسلم أنْ يأخذه بعين الاعتبار في كل شأن من شؤون حياته، حتى يكون إنساناً عالمياً في أهدافه وتوجُّهاته وتطلعاته، غير مُقيَّدٍ بالإقليميات أو القوميات .

- إنَّ من أهم أسباب استمرار الأزمة التي تعيشها الأمة الإسلامية اليوم، بالرغم من تعدُّد محاولات الإصلاح وتكرُّرها، هو أنَّ التوجُّه في هذه المحاولات كان يستهدف إزالة الآثار من غير اعتناء بالأسباب المؤدية للأزمة، وهو ما جعل كثيراً من الجهود والطاقات التي صُرِفت في تلك المحاولات تضيع هباءً دون جدوى .

الفهارس

فهرس الآيات القرآنية حسب الترتيب الهجائي كما وردت في الرسالة

فهرس الأحاديث النبوية حسب الترتيب الهجائي كما وردت في الرسالة

فهرس المصادر والمراجع

الآجري ، محمد بن الحسين ، أبو بكر(٣٦٠هـ) ،**الشريعة** ، تحقيق د. عبدالله بن عمر الدميجي، دار الوطن،ط١، الرياض ، ١٤١٨هـ ، ١٩٩٧م .

د. أحمد، مهدي رزق الله، السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات ،ط١ ، الرياض ، ١٤١٢هـ ١٩٩٢م .

الأحمر، عبد السلام، **ثقافة الأمة الوسط** ، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (إيسيسكو) ، المغرب ، ١٤٣٠هـ، ٢٠٠٩م .

الأصفهاني، أبو نعيم،أحمد بن عبد الله(٤٣٠هـ)،**حلية الأولياء وطبقات الأصفياء**، دار الكتب العلمية، بيروت.

الألباني ، محمد ناصر الدين ، **التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان**، دار باوزير ، ط١ ، السعودية ، ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٣م .

سلسلة الأحاديث الصحيحة، مكتبة المعارف ، الرياض .

سلسلة الأحاديث الضعيفة، مكتبة المعارف، الرياض.

صحيح الترغيب والترهيب ، مكتبة المعارف ، ط١،الرياض ، ١٤٢١هـ ، ٢٠٠٠م .
صحيح سنن الترمذي، مكتبة المعارف، ط١، الرياض، ١٤٢٠هـ، ٢٠٠٠م.
صحيح سنن أبي داود، مكتبة المعارف، ط١، الرياض، ١٤١٩هـ ١٩٩٨م .
صحيح سنن ابن ماجة، مكتبة المعارف، ط١، الرياض، ١٤١٧هـ ١٩٩٧م. .
صحيح سنن النسائي، مكتبة المعارف،ط١، الرياض، ١٤١٩هـ، ١٩٩٨م .
ضعيف سنن الترمذي، مكتبة المعارف، ط١، الرياض، ١٤٢٠هـ، ٢٠٠٠م
ضعيف سنن أبي داود، مكتبة المعارف، ط١، الرياض، ١٤١٧هـ، ١٩٩٨م.

د. الإمام ، أحمد علي ، من سلسلة كتاب الأمة " **المستقبل للإسلام**" ، ط١ ، وزارة الأوقاف القطرية ،العدد٤٦ ، السنة الخامسة عشرة، ١٤١٦هـ ، ١٩٩٥م .

البخاري،محمد بن إسماعيل ، أبو عبد الله (٢٥٨هـ)، **صحيح البخاري وبشرحه فتح الباري** لابن حجر، بيت الأفكار الدولية ،الأردن ، ٢٠٠٠م .

. **البغوي**،الحسين بن مسعود(٥١٦هـ)،**شرح السنة**، تحقيق: زهير الشاويش و شعيب الأرناؤوط، المكتب الإسلامي،بيروت،ط٢، ١٤٠٣هـ، ١٩٨٣م

د. بكار، عبد الكريم، مقدمات للنهوض بالعمل الدعوي، دار القلم، ط٢، دمشق، ٢٠٠١م .

د. بلكا، إلياس، من سلسلة كتاب الأمة "استشراف المستقبل في الحديث النبوي " العدد ١٢٦ ، قطر ، ١٤٢٩هـ .

البوصيري،أحمد بن أبي بكر(٨٤٠هـ)، زوائد ابن ماجة على الكتب الخمسة، تحقيق: محمد مختار، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١٤١٤،١هـ١٩٩٣م.

بوعود، أحمد، من سلسلة كتاب الأمة "فقه الواقع ، أصول وضوابط"، وزارة الأوقاف القطرية، ط١، ١٤٢١هـ ٢٠٠٠م .

البيهقي، شعب الإيمان ،تحقيق:محمد السعيد زغلول، دار الكتب العلمية،ط١، بيروت،١٤٢١هـ، ٢٠٠٠م.

الترمذي، محمد بن عيسى، الجامع الكبير ، تحقيق: د. بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي،ط١، بيروت، ١٩٩٦م.

التويجري، عبد العزيز بن عثمان، العالم الإسلامي في عصر العولمة، دار الشروق، القاهرة، ٢٠٠٤م.

ابن الجوزي ،عبد الرحمن، " تلبيس إبليس" ، دار القلم ، بيروت .

د. حافظ ، أشرف، الجبر والاختيار في الفكر الإسلامي، دار النخلة ، ط١ ، ليبيا ،١٩٩٩م .

الحاكم، محمد بن عبدالله، المستدرك على الصحيحين، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية ، بيروت .

ابن حبان البستي، الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان لابن بلبان الفارسي،وبهامشه التعليقات الحسان للألباني، دار باوزير ، ط١ ، السعودية ، ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٣م.

المجروحين من المحدثين، تحقيق حمدي السلفي، دار الصميعي، الرياض، ط١، ١٤٢٠هـ، ٢٠٠٠م.

ابن حجر العسقلاني،أحمد بن علي (٨٥٢هـ)، فتح الباري بشرح صحيح البخاري ،بيت الأفكار الدولية ، الأردن ، ٢٠٠٠م .

حسنة ، عمر عبيد ، في منهجية الاقتداء ، المكتب الإسلامي ، ط١ ، عمان ، ١٤١٧هـ، ١٩٩٧م .

ابن حنبل، أحمد بن حنبل، المسند، بيت الأفكار الدولية، الرياض،١٤١٩هـ ١٩٩٨م .

د. خلف الله، محمد أحمد، من سلسلة عالم المعرفة" مفاهيم قرآنية" ،المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ١٩٨٤م.

د. **خليل**، عماد الدين، من سلسلة قضايا الفكر الإسلامي " **حول تشكيل العقل المسلم**" ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي،ط٤، فرجينيا ، ١٤١٢هـ، ١٩٩١م .

أبو داود السجستاني ، سليمان بن الأشعث (٢٧٥هـ) ، **السنن**.طبعة بيت الأفكار الدولية ، الأردن .

ابن أبي الدنيا، عبد الله بن محمد بن عبيد،**الصمت وآداب اللسان**، تحقيق نجم عبد الرحمن، دار الغرب، ط١، بيروت، ١٤٠٦هـ ١٩٨٦م .

الذهبي،محمد بن أحمد(٧٤٨هـ)، **ميزان الاعتدال في نقد الرجال مع ذيله للعراقي**،تحقيق: علي معوض وعادل عبد الموجود، دار الكتب العلمية، بيروت،ط١، ١٤١٦هـ ١٩٩٥.

رشيد رضا، محمد، **تفسير المنار**، دار المنار، ط٢، القاهرة، ١٣٦٦هـ ١٩٤٧م.

سابق، السيد، **العقائد الإسلامية**، دار الكتاب العربي، بيروت .

الساعاتي، **الفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد ومعه بلوغ الأماني من أسرار الفتح الرباني** ، تحقيق حسان عبد المنان، مصر،١٤٢٥هـ ٢٠٠٤م .

سعيد، جودت، " **حتى يغيروا ما بأنفسهم** "، ط٨ ، ١٩٨٩م .

د .**أبو سليمان** ، عبد الحميد أحمد ، **أزمة العقل المسلم** ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، ط١، الولايات المتحدة الأمريكية ، ١٤١٢هـ ، ١٩٩١م .
قضية المنهجية في الفكر الإسلامي، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ١٤٠٩هـ، ١٩٨٩م.

د. **شبار**، سعيد، **الأسس المرجعية والمنهجية لتجديد الفكر الإسلامي**. منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والثقافة والعلوم والثقافة(إيسيسكو)، المغرب، ١٤٣٢هـ ٢٠١١م.

د. **صبري**، أحمد نصرالله، **مختصر صحيح الجامع الصغير**، ألفا للنشر، ط١، مصر، ١٤٢٩هـ ٢٠٠٨م .

ضناوي، محمد علي، **مقدمات في فهم الحضارة الإنسانية**، مؤسسة الرسالة ، ط١ ، بيروت ، ١٤٠٠هـ ، ١٩٨٠م .

الطبراني، سليمان بن أحمد ،أبو القاسم (٣٦٠هـ) ، **المعجم الكبير** ، تحقيق حمدي السلفي ،مكتبة ابن تيمية ، القاهرة .
المعجم الأوسط ،تحقيق: طارق عوض الله و عبد المحسن الحسيني، دار الحرمين، مصر ، ١٤١٥هـ، ١٩٩٥م .

ابن عاشور، محمد الفاضل، **روح الحضارة الإسلامية**، المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، ط٢، فرجينيا ، ١٤١٣هـ، ١٩٩٢م.

ابن أبي عاصم،الضحاك بن مخلد، **السنة**، ،تحقيق الألباني ، المكتب الإسلامي ، ط١ ، بيروت ، ١٤٠٠هـ، ١٩٨٠م.

ابن عبد البر، يوسف بن عبد الله (٤٦٣هـ) ، **التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد** ، تحقيق سعيد أحمد ، ١٤١١هـ ، ١٩٩١م .

عبد الستار، سعيد ، **الغزو الفكري والتيارات المعادية للإسلام** ، دار الوفاء ، ط٥ ، المنصورة ، ١٤١٠هـ، ١٩٨٩م .

ابن عدي الجرجاني، أحمد بن عبدالله (٣٦٥هـ)، **الكامل في ضعفاء الرجال** ،تحقيق عادل عبد الموجود وآخرون ،دار الكتب العلمية ، بيروت .

العظيم آبادي،أبو عبد الرحمن شرف الحق ، **عون المعبود على شرح سنن أبي داود** ، تحقيق النعماني الأثري ، دار ابن حزم ، ط١ ، بيروت ، ١٤٢٦هـ، ٢٠٠٥م .

العقيلي، محمد بن عمرو، **كتاب الضعفاء**، دار الصميعي، ط١، الرياض، ١٤٢٠هـ ٢٠٠٠م

العلواني، طه جابر، **أدب الاختلاف في الإسلام**، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط٥، الولايات المتحدة، ١٤١٣هـ١٩٩٢م.

إصلاح الفكر الإسلامي بين القدرات والعقبات ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، ط٢، الرياض ، ١٤١٤هـ ، ١٩٩٤ م .

" الأزمة الفكرية ومناهج التغيير ، الآفاق والمنطلقات " ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، ط٢،القاهرة، ١٤١٧هـ ١٩٩٦م .

الفكر الإسلامي بين القدرات والعقبات . الدار العالمية للكتاب الإسلامي ،ط٢، الرياض، ١٤١٤هـ، ١٩٩٤م .

د. علي، نبيل، من سلسلة عالم المعرفة ، **" العقل العربي، مظاهر الأزمة واقتراحات بالحلول"** ، الكويت ، ١٤٣٠هـ، ٢٠٠٩م

د. عمارة، محمد، **الإسلام والأمن الاجتماعي**، دار الشروق، ط١، القاهرة، ١٤١٨هـ ١٩٩٨م.

د. عويس، عبد الحليم، **ثوابت ضرورية في فقه الصحوة الإسلامية**، دار الصحوة للنشر،ط١، القاهرة،١٤١٤هـ ، ١٩٩٤م .

العلائي، صلاح الدين أبي سعيد بن خليل(٧٦١)، **جامع التحصيل في أحكام المراسيل**،تحقيق حمدي السلفي، عالم الكتب، بيروت، ط٢،١٤٠٧هـ ١٩٨٦م.

د. فاندي، سعيد سالم ، **منطلقات قرآنية للحوار**، إصدار الإيسيسكو(المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة)، المغرب، ١٤٣٢هـ ، ٢٠١١م .

الفيومي، أحمد بن محمد بن علي(٧٧٠هـ)، **المصباح المنير**، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٨٧.

د. القاضي، نصر الدين مصباح ، **منهج الإسلام في مواجهة التحديات الحضارية المعاصرة** ، دار الفكر العربي ، ط١ ، مصر ، ١٤٢٣هـ ، ٢٠٠٢م

القرضاوي، يوسف، **السنة مصدراً للمعرفة والحضارة** .

الصحوة الإسلامية وهموم الوطن العربي، مكتبة وهبة، ط٢، مصر، ١٤١٧هـ ١٩٩٧م .

القرطبي ، أحمد بن عمر ، أبو العباس (٦٥٦هـ)، **المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم** ، تحقيق: محي الدين مستو وآخرون، دار ابن كثير ،ط١، دمشق ، ١٤١٧هـ ١٩٩٧م .

قطب، سيِّد، **خصائص التصور الإسلامي ومقوماته**، دار الشروق ، ط١٥، القاهرة ، ١٤٢٣هـ ٢٠٠٢م.

معالم في الطريق، دار الشروق، القاهرة، ١٩٧٩م. ص٧٦-٧٧ .

مقومات التصور الإسلامي ،دار الشروق ، القاهرة ،ط٣ ،١٤١٨هـ، ١٩٩٧م .

قطب، محمد، **جاهلية القرن العشرين** ، دار الشروق ، ط٩ ، مصر ، ٢٠٠٠م .

دراسات قرآنية . دار الشروق ، ط٨ ،القاهرة ، ١٤٢٥هـ ٢٠٠٤م .

واقعنا المعاصر، مؤسسة المدينة للصحافة، ط٢،جدة ، ١٤٠٨هـ ١٩٨٧م .

" **مفاهيم ينبغي أن تصحح**" ، دار الشروق ، القاهرة .

القنوجي، صديق بن حسن خان ،**السراج الوهاج من كشف مطالب صحيح مسلم بن الحجاج**،تحقيق عبد الله الأنصاري، قطر .

ابن كثير، إسماعيل بن عمر(٧٧٤)، **البداية والنهاية**، تحقيق: حسان عبد المنان، بيت الأفكار الدولية، بيروت، ٢٠٠٤.

د. كنعان، أحمد، من سلسلة كتاب الأمة "**أزمتنا الحضارية في إطار سنه الله في الخلق**" ،العدد (٢٦) ، قطر ، ١٤١١هـ.

الكيلاني، ماجد عرسان، من سلسلة كتاب الأمة ، "**إخراج الأمة المسلمة وعوامل صحتها ومرضها** " ، وزراة الشؤون الدينية، العدد ٣٠، قطر.

هكذا ظهر جيل صلاح الدين، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الولايات المتحدة، ١٤١٤هـ، ١٩٩٤م .

ابن ماجة، محمد بن يزيد القزويني، **السنن مع شروحها**، تحقيق رائد صبري، بيت الأفكار الدولية، ط١، الأردن، ٢٠٠٧م .

مالك ، مالك بن أنس (١٧٩هـ) **الموطأ برواياته** ، تحقيق سليم الهلالي ، مجموعة الفرقان التجارية ، دبي ،١٤٢٤هـ، ٢٠٠٣ م

بن مسعود، عبد المجيد ، من سلسلة كتاب الأمة " **القيم التربوية الإسلامية والمجتمع المعاصر** "،وزارة الأوقاف القطرية ،السنة الثامنة عشرة ، العدد ٦٧ ، ط١، ١٤١٩ هـ ،١٩٩٩م

مسلم ، مسلم بن الحجاج ، أبو الحسين (٢٦١هـ) **صحيح مسلم** ، تحقيق محمد عبد الباقي، دار الحديث ،ط١، القاهرة ، ١٤١٢هـ ١٩٩١م .

المصري، محمد أمين،**المجتمع الإسلامي**، دار الأرقم،ط٤، الكويت، ١٩٨٦ .

المناوي، عبد الرؤوف، **فيض القدير شرح الجامع الصغير**، دار المعرفة، ط٢، بيروت، ١٣٩١هـ، ١٩٧٢م.

ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم، **لسان العرب**، دار صادر، بيروت.

د. مؤنس، حسين ،**أطلس تاريخ العالم الإسلامي** ،الزهراء للإعلام العربي ، ط١ ،القاهرة ، ١٤٠٧هـ،١٩٨٧م .

بن نبي، مالك، **تأملات** ، دار الفكر المعاصر ، ط١ ، بيروت ، ١٤٢٣هـ ، ٢٠٠٢م .

شروط النهضة، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر(تصوير)، دمشق، ١٤٠٦هـ، ١٩٨٦م.

د.النجار ، عبد الحميد ، من سلسلة كتاب الأمة " **في فقه التدين فهما وتنزيلا** "، إصدار رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية ، دولة قطر ، ١٤١٠هـ .

النسائي، أحمد بن شعيب، **سنن النسائي بشرح الحافظ السيوطي وحاشية السِّندي**، تحقيق عبد الفتاح أبو غُدة، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب .

ابن هشام، عبد الملك بن هشام، **السيرة النبوية**، باب وفاة أبي طالب ، تحقيق: د. عمر تدمري، دار الكتاب العربي، ط٣، بيروت،،١٤١٠هـ، ١٩٩٠م.

الهيثمي، علي بن أبي بكر، **بغية الرائد في تحقيق مجمع الزوائد ومنبع الفوائد** ،تحقيق عبد الله الدرويش ، دار الفكر ، بيروت ، ١٤١٤هـ، ١٩٩٤م.

مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، تحقيق: محمد عبد القادر عطا ، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، ١٤٢٢هـ ٢٠٠١م.

كشف الأستار عن زوائد البزار على الكتب الستة، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، مؤسسة الرسالة، بيروت،ط١، ١٤٠٤هـ، ١٩٨٤م.

ابن الوزير، إبراهيم بن علي الوزير، " **على مشارف القرن الخامس عشر الهجري. دراسة للسنن الإلهية والمسلم المعاصر**"، دار الشروق، ط٤، القاهرة، ١٤٠٩هـ، ١٩٨٩م.

د.ياسين، محمد نعيم، **مباحث في العقل**، دار النفائس، ط١، عمّان، ١٤٣٢هـ ٢٠١١م .

الأبحاث

الجليند، محمد السيد ، بحث " **المسلمون وفقه السنن الإلهية ...**" من كتاب " الإسلام والعولمة " الجليند وآخرون ،الدار القومية العربية ، مصر .

د. شريف الخطيب وراجح الكردي ، بحث " **بين الإيمان بالقدر والأخذ بالأسباب** ، **دراسة عقدية تطبيقية** " المجلة الأردنية في الدراسات الإسلامية ، جامعة آل البيت ،المجلد الثاني ،العدد (١) ،صفر١٤٢٧هـ ٢٠٠٦م .

د. أبو المجد، أحمد كمال ، **بحث** " **الحاجة إلى الإسلام في هذا الزمان** " ،من سلسلة كتاب العربي "المسلمون والعصر "، إصدار مجلة العربي ، الكويت ، ١٩٨٧م .

Abstract

All praise is to Allah, peace and blessings are upon his Messenger.

This study, entitled "An Original Study of the Crisis and Formation of the Contemporary Muslim Intellect in the Sayings of the Prophet", aims at investigating the origins of this subject in terms of the prophetic hadith by relying on the hadiths narrated in this field.

This subject, widely discussed by many writers and thinkers, considers the status of the Islamic nation, its method of dealing with the developments of life, its method of dealing with others, and the method by which Muslims deal with each others. However, this study is a new addition in this respect; its concepts are all derived from the prophetic hadiths in which the contents of such hadiths are fully shown in relation to the crisis and formation of the contemporary Muslim intellect.

The study identified many aspects in relation to this crisis, its causes, and manifestations. The study also suggested the procedures to the way out of such a crisis by the formation of the Muslim intellect in three combined aspects: the foundations, the objectives, and the methodology. The study comprises two chapters. The first chapter includes three sections that discuss the causes of the crisis, its manifestations, and effects. The second chapter also includes three sections that deal with the formation of the Muslim intellect: its foundations, objectives, and approaches. The findings of the study are shown in the conclusion section.